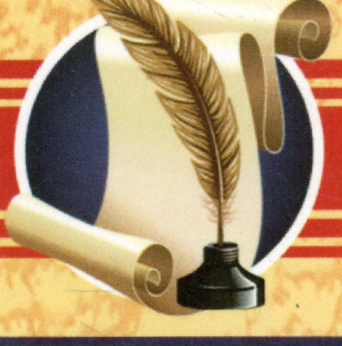
الأساليب الإنشائية
في
البلاغة العربية

الأستاذ الدكتور

عبد العزيز أبو سريع يس

رئيس قسم البلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية

فرع جامعة الأزهر بالمنصورة



Editions Al-Adab 1923

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

مكتبة الآداب

42 Opera Square - Cairo Tel: (202) 23900868

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة . ت : ٢٣٩٠٠٨٦٨

الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية

بقلم الدكتور
عبد العزيز أبو سريع ياسين

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر - شارع الجداوي رقم ١٩

الإهــــداء

إلى الله ، لا أشرك مع الله أحــــــدا

إلهى ، أنت مقصودى ، ورضاك مطلوبى

عبد العزيز أبو سريع ياسين

تصـــدير

بســـم الله الرحمن الرحيـــم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، أهدنا الصراط المستقيم،صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين .

والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين ، سيدنا محمد النبي العربي العظيم ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين ، عـدد كل معلوم لك يا الله يا حى ياقيوم ياعلى يا عظيم .

وبعد :

فهذا هو البحث الرابع فى سلسلة بحوثى العلمية الواسعة التى أتناول فيها الموضوعات البلاغية بصورة شاملة :

وكان بحثى الأول بعنوان : المجاز العقلى فى البلاغة العربية .

ثم كان البحث الثانى بعنوان : المجاز اللغوى فى البلاغة العربية .

أما البحث الثالث فكان بعنوان : بلاغة القصر .

واليوم أقدم بحثى الرابع بعنوان : الأساليب الإنشائية فى البلاغة العربية .

ويقوم هذا البحث على مقدمة وثلاثة فصول هذه ترجمتها :

المقدمة : مدخل إلى دراسة الأساليب الإنشائية .

الفصل الأول : الأساليب الانشائية فى ظل التاريخ العلمى حتى عهد الإمام عبد القاهر الجرجانى .

الفصل الثانى : الأساليب الانشائية والتقعيد البلاغى .

الفصل الثالث : الأساليب الانشائية بين اتجاهين فى العصر الحديث .

وقد التزمت فكرة هذه الخطة العلمية تقريبا فى البحوث السابقة حتى أسجل وأصفى كل ما كتب عن موضوعاتها ، وبذلك أقدم زاداً طيباً لكل من يريد المساهمة فى تجديد ثقافتنا العربية على أسس قويمة .

والله أسأل أن ينفع بهذا البحث كاتبه ، وقارئه ، وناقده الذى يبتغى بنقده وجه الله ثم خدمة تراث هذه الأمة .

إنه من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هو حسبنا ونعم الوكيل .

د/ عبد العزيز أبو سريع ياسين

سلطنة عمان - الخوض ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مدخل إلى دراسة الأساليب الإنشائية

ليس يخالجنى أدنى شك فى أن أول من احتضن دراسة وبحث الأساليب الانشائية هم علماء الدراسات الدينية عامة، وعلماء الأصول خاصة، ذلك أنه فى أول العهد بالاعتناء بالدراسات الدينية لم يكن يشغل العلماء غير البحث فى أوامر الله ونواهيه من أجل تنفيذها وتطبيقها فى المجتمع الإسلامى، سواء أكانت هذه الأوامر والنواهى فى مجال العبادات أم فى مجال المعاملات، أم غير ذلك. يقول الإمام السرخسى(١) : « أحق ما يبتدأ به فى البيان : الأمر والنهى، لأن معظم الابتلاء بهما، وبمعرفتهما يتم معرفة الأحكام، ويتميز الحلال والحرام ».

وليس يخالجنى أدنى شك أيضا فى أن جهد هؤلاء العلماء كان الركيزة الأولى التى قام عليها بحث علماء الدراسات العربية للأساليب الانشائية، وليس أدل على ذلك من أن - ابن يعيش - وهو عالم الدراسات العربية المتوفى فى القرن السابع الهجرى (٦٤٣ هـ) يعتمد كلام علماء الدين فيقول صدد الحديث عن الاستفهام فى الآية الكريمة(٢) (أهم خير أم قوم تبع) (٣) : « هو من الناس استفهام، ومن القديم سبحانه توقيف وتوبيخ للمشركين، خرج مخرج

(١) أصول السرخسى ١١/١، وانظر أيضا شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح فى أصول الفقه ١٤٩/١.

(٢) سورة الدخان ٣٧. (٣) شرح المفصل لابن يعيش ٩٨/٨.

الاستفهام ، ولاخير فى واحد منهم ، وإنما هو على ادعائهم أن هناك خيراً ، فقرعوا بهذا على هذه الطريقة » .

كما أن شهاب الدين القرافى ـ وهو عالم من علماء القرن السابع الهجرى أيضا (ت ٦٨٢ هـ) ـ يقتضى آثار كلام علماء الدين ، فيقول صدر الحديث عن الموضوع نفسه ـ الاستفهام من الله ـ(١) : « قوله تعالى(٢) (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه):فيه من الأسئلة : مامعنى هذا الاستفهام ؟ فإن الاستفهام على الله تعالى محال . . والجواب:أما الاستفهام فهو على الله تعالى محال ، فحيث ورد عن الله تعالى ، فهو إما ثبوت صرف ، أو نفى صرف ،فإن أصله فى اللغة : السؤال المتردد بين النفى والثبوت لجهل السائل بأيهما الواقع .

« فإذا قال القائل : هل زيد فى الدار أم لا ؟ فهو يسأل عن وجود زيد ، هل هو فى الدار أم عدمه ، والله تعالى بكل شىء عليم ، فيستحيل عليه طلب فهم ذلك .

والاستفهام : استفعال لطلب ذلك الفعل ، نحو : استسقى : لطلب السقى ، واستخرج الكتاب : أى طلب خروج المعنى منه . وقد يرد للفعل نفسه لا لطلبه ، نحو : عجب واستعجب ، وهو قليل ، والأكثر : إنما هو لطلب الفعل .

فالذى ورد فى حق الله تعالى إنما يحمل على النفى عينا ، أو الثبوت عينا(٣) ويكون إخباراً صرفاً لاطلب فيه ، كقوله تعالى(٤) (فهل ترى لهم من باقية) أى لاترى لهم من باقية ، و(٥) (هل أتى على الإنسان حين من الدهر) ، أى

(١) الاستغناء فى أحكام الاستثناء ص ٣٨٦ ، تحقيق د . طه محسن ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٩٨٢ .

(٢) سورة البقرة آية ١٣٠ .

(٣) عينا : يقينا ، وهذا المعنى هو أيضا معنى كلمة «صرفاً» بعدها فى كلام القرافى .

(٤) سورة الحاقة آية ٨ .

(٥) سورة الإنسان آية ١ .

قد أتى على الإنسان حين من الدهر ، و (ألم نشرح لك صدرك)(١) أى قد شرحنا لك صدرك .

وإن كان قد يصحبه الامتنان تارة ، والتهديد أخرى ، وغير ذلك من المعانى ، إلا أنه لايكون فيه طلب فهم ، بل الاخبار الصرف .

« وهذه الآية : معناها النفى الصرف ، أى لا أحد يرغب عن ملة إبراهيم إلا هذا الفريق » .

وفى لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١ هـ) مانصه(٢) : « روى الأزهرى عن أبى العباس أحمد بن يحيى ، ومحمد بن يزيد أنهما قالا : ومعنى ألف الاستفهام ثلاثة : تكون بين الآدميين ، يقول بعضهم لبعض استفهاماً ، وتكون من الجبار لوليه تقريراً ، ولعدوه توبيخاً .

فالتقرير كقوله عز وجل للمسيح (أأنت قلت للناس اتخـــذونى وأمى إلهين من دون الله ؟)(٣) قال أحمد بن يحيى : وإنما وقع التقرير لعيسى عليه السلام لأن خصومه كانوا حضوراً فأراد الله عز وجل من عيسى أن يكذبهم بما ادعوا عليه .

وأما التوبيخ لعدوه فكقوله عز وجل (أصطفى البنات على البنين ؟)(٤) وقوله (أأنتم أعلم أم الله ؟)(٥) ، (أأنتم أنشأتم شجرتها)(٦) .

غير أننا ـ والحق يقال ـ إذا كنا قد رأينا علماء الدين ، وخصوصاً علماء الأصول منهم ، لايعتبرون إلا الأمر والنهى فى بحوثهم من أجل إفادة الحكم

---

(١) سورة الشرح آية ١ .

(٢) لسان العرب المحيط ـ إعداد يوسف الخياط ، حرف الألف ـ دار لسان العرب « بيروت » .

(٣) سورة المائدة آية ١١٦ . (٤) سورة الصافات آية ١٥٣ .

(٥) سورة البقرة آية ١٤٠ . (٦) سورة الواقعة آية ٧٢ .

الشرعى ، ومن أجل أن عليهما مدار الإسلام فى إثبات أكثر الأحكام ـ كما يقولون ـ ، أقول : إذا كنا قد رأينا لعلماء الدين ذلك فإن لنا أن نثبت لعلماء الدراسات العربية أنهم قد توسعوا فى دراسة كل مايتصل بأساليب الأمر والنهى بسبيل ، حتى إنهم درسوا كثيراً من الأساليب التى انتقل معناها إلى هذا المجال .

والظن ـ عندى ـ قوى فى أن هؤلاء العلماء حين توسعوا فى دراسة هذه الأساليب كانوا يؤكدون على شخصيتهم المستقلة فى البحث والدرس ، كما كانوا يثبتون عمق استقرائهم هذه الأساليب فى اللغة العربية عامة من أجل استكمال بحثها ودراستها .

والأساليب الانشائية نوعان رئيسان :

١ ـ أساليب إنشائية طلبية .

٢ ـ أساليب إنشائية غير طلبية .

الأساليب الانشائية الطلبية :

هى حديث الأمر والنهى ، وإن شئت قل : حديث الطلب بعد مزيد من التوسع الدراسى له حتى يصل تنويعه إلى تسعة ألوان من الحديث الانشائى .

وهاته الألوان التسعة هى : الأمر ، والنهى ، والاستفهام ، والدعاء ، والعرض ، والتحضيض ، والتمنى ، والترجى ، والنداء[1] .

فالأمر : طلب الفعل ـ على وجه الاستعلاء ـ من الأعلى إلى الأدنى ، مثل قول الله سبحانه (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)[2] .

(١) يدخل فى النداء : الاستغاثة ، والندبة ، والتعجب على طريق النداء ، مثل أن ترى أمراً عظيما فتنادى جنسه ، نحو : ياللماء ! ، وياللعشب ! ، أو تنادى من له نسبة إليه ، أو تمكن فيه مثل قولك : ياللعلماء ! ، إذا استعظمت شأن العلم .

(٢) سورة الأعراف آية ١٩٩ .

والنهى : طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء ، مثل قول الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب)(١) .

والاستفهام : طلب الفهم ، أى طلب العلم بشىء لم يكن معلوماً ، مثل قوله تعالى (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها)(٢).

والدعاء : طلب الفعل من الأدنى إلى الأعلى على سبيل التضرع ، مثل قوله عز وجل على لسان نبى الله إبراهيم(رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى)(٣)

والعرض : الطلب بلين ورفق ، مثل قوله عز وجل (ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟)(٤) .

والتحضيض : الطلب فى حث وإزعاج ، مثل قوله جلا وعلا(٥)(هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين)(٦) .

---

(١) سورة الحجرات آية ١١ . (٢) سورة النساء آية ٩٧ .

(٣) سورة إبراهيم آية ٤٠ . (٤) سورة النور آية ٢٢ .

(٥) سورة الكهف آية ١٥ .

(٦) قال الرضى فى شرحه لكافية ابن الحاجب ٣٨٧/٢ ، عن الحروف الأربعة « هلا ، ألا ، لوما ، لولا » : « اعلم أن معناها إذا دخلت فى الماضى : التوبيخ واللوم على ترك الفعل ، ومعناها فى المضارع : الحض على الفعل والطلب له ، فهى فى المضارع بمعنى الأمر ، ولا يكون التحضيض فى الماضى الذى قد فات ، إلا أنها تستعمل كثيراً فى لوم المخاطب على أنه ترك فى الماضى شيئاً يمكن تداركه فى المستقبل ، فكأنها من حيث المعنى للتحضيض على فعل مثل مافات . وقلما تستعمل فى المضارع أيضا إلا فى =

التمنى : طلب حصول أمر محبوب مستحيل الوقوع أو بعيده، مثال الأول - (طلب حصول الأمر المحبوب المستحيل الوقوع - قول الله عز وجل (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين)(١) .

ومثال الأمر الثانى - طلب حصول الأمر المحبوب البعيد الوقوع - قول الله جل وعلا(٢) (فخرج على قومه فى زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا، ياليت(٣) لنا مثل ما أوتى قارون، إنه لذو حظ عظيم) .

هذا ، وقد زاد الباحث المحقق عبد السلام هارون(٤) أن التمنى يأتى لطلب امتناع أمر مكروه ، فقد مثل له بقول الله سبحانه (يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه، وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه)(٥) .

والترجى : طلب أمر محبوب قريب الوقوع (متوقع) ، أو الحذر

= موضع التوبيخ واللوم على ما كان يجب أن يعمله المخاطب قبل أن يطلب منه ، فإن خلا الكلام من التوبيخ فهو العرض ، فتكون هذه الحروف للعرض » .

(١) سورة الأنعام آية ٢٧ .

(٢) سورة القصص آية ٧٩ .

(٣) قال الرضى فى شرح كافية ابن الحاجب ٣٤٦/٢ : « فى (ليت) معنى تمنيت ، وفى (لعل) معنى ترجيت ، وماهية التمنى غير ماهية الترجى ، فالتمنى : استعمال فى الممكن والمحال ، واختصاص الترجى بالممكن ، وذلك لأن ماهية التمنى : محبة حصول الشيء ، سواء كنت تنتظره وترتقب حصوله أولا . والترجى : ارتقاب شيء لا وثوق بحصوله ، فمن ثم لا يقال : لعل الشمس تغرب ، فيدخل فى الارتقاب الطمع والاشفاق ، فالطمع : ارتقاب شيء محبوب ، نحو : لعلك تعطينا ، والأشفاق : ارتقاب المكروه ، نحو : لعلى أموت الساعة » .

(٤) انظر كتابه الأساليب الإنشائية فى النحو العربى ص ١٧ .

(٥) سورة المعارج آية ١١ - ١٤ .

والاشفاق من أمر مخوف قريب الوقوع (متوقع) ، فالأول مثل قوله عز من قائل(١)(يا أيها الذين آمنوا واركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)(٢) .

والثاني مثل قوله سبحانه (وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين)(٣).

والنداء : طلب الاقبال، مثل قوله سبحانه (وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا)(٤) ، ومثل قوله عز وجل (فلما أتاها نودي من شاطيء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إني أنا الله رب العالمين)(٥) .

والمشهور عند البلاغيين أنها خمسة (الأمر ، والنهي ، والاستفهام ،

---

(١) سورة الحج آية ٧٧ .

(٢) قال العلماء عن « لعل » إنها للترجي، وقال علاء الدين الإربلي صاحب كتاب جواهر الأدب في معرفة كلام العرب ص ٤٨٩ ، ٤٩٠ « قولهم : للترجي ، حملا على الغالب الكثير ، ويؤيده قول ابن الحاجب ـ في شرحه للمفصل ـ معناها : التوقع لمرجو أو مخوف ، مع قوله « أي ابن الحاجب » في الكافية : لعل ، للترجي ، ولو قال الزمخشري : لتوقع مرجو أو ترقب مخوف ـ لكان أحسن » . ثم قال علاء الدين : « ولهذا استصعب العلماء « لعل » الواقعة في كلام الله تعالى لاستحالة التوقع منه ـ سبحانه ـ لأنه إنما يكون فيما جهلت عاقبته ، وهو تعالى بكل شيء محيط ، فقال قطرب وأبو علي : معناه التعليل ، فقوله تعالى (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) بمعنى لتفلحوا ، وهذا لايستقيم في مثل (ومايدريك لعل الساعة قريب) ، إذ لا معنى فيه للتعليل ، وقيل : هي لتحقيق مضمون الجملة الواقعة بعدها ، ولا يطرد ذلك في قوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) إذ لم يحصل من فرعون التذكر والخشيان ، وقوله تعالى (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) إيمان يأس ، ولهذا لم يقبل منه ، وقال سيبويه : إن الرجاء أو التوقع يتعلق بالمخاطبين ـ وهذا هو الحق ـ كـ « أو » فإنها للشك وضعاً ، وفي كلامه تعالى للتشكيك والإبهام » .

(٣) سورة الأنبياء آية ١١١ . (٤) سورة غافر آية ٣٦ .

(٥) سورة القصص آية ٣٠ .

والتمنى . والنداء) ، ذلك أنهم جعلوا الدعاء من أنواع الأمر ، والعرض من أنواع الاستفهام ، والتحضيض والترجى ضربان من التمنى .

والمراد من هذه الأنواع الخمسة معانيها المصدرية ، أى كون الكلام - مثلا - دالا على معنى التمنى ، أو على معنى الاستفهام .... إلخ ، يقول السيد الشريف الجرجانى فى حاشيته على المطول(١) : « إذا قلنا : ليت زيداً قائم ، فقد دللنا على نسبة القيام إلى زيد فى النفس ، وعلى هيئة نفسانية متعلقة بتلك النسبة على وجه يخرجها عن احتمال الصدق والكذب ، فالمجموع المركب من هذه الألفاظ كلام لفظى إنشائى ، والمجموع المركب من معانيها مدلول الكلام اللفظى الانشائى » .

هذا ، وقد أفصح سعد الدين التفتازانى - فى المطول - عن طريقة حصر الأساليب الانشائية الطلبية فى خمسة أساليب حيث قال(٢) : « وهى - أى الأساليب الانشائية الطلبية - خمسة : التمنى ، والاستفهام ، والأمر ، والنهى ، والنداء ، لأنه - أى الأسلوب - إما أن يقتضى كون مطلوبه ممكناً أولا » .

والثانى : التمنى .

والأول : إن كان المطلوب به حصول أمر فى ذهن الطالب فهو الاستفهام ، وإن كان المطلوب به حصول أمر فى الخارج : فإن كان ذلك الأمر انتفاء فعل فهو النهى ، وإن كان ثبوته ، فإن كان بإحدى حروف النداء ، فهو النداء وإلا فهو الأمر .

ما المقصود بدراسة الأساليب الانشائية عند البلاغيين ؟

إن هاته الأنواع الخمسة - أو التسعة - إذا أريد بها معناها الحقيقى استدعت

---

(١) المطول ص ٢٢٤ . (٢) المطول ص ٢٢٤ .

واستلزمت مطلوباً غير حاصل فى اعتقاد المتكلم وقت الطلب ، أما عند إرادة معناها المجازى فتستعمل فى طلب الحاصل ، كما فى قـــوله سبحانه فى خطاب الرسول الأعظم ، محمد صلى الله عليه وسلم (يا أيها النبى اتق الله)(١) حيث إن المراد طلب دوام التقوى .

يقول سعد الدين التفتازانى(٢) : « الانشاء : إن كان طلباً استـــدعى مطلوباً غير حاصل وقت الطلب ، لامتناع طلب الحاصل ، والغرض أن جميع أنواع الطلب يستدعى ذلك ، حتى إذا كان المطلوب حاصلا يمتنع إجراؤها على معناها الحقيقى ، ويتولد منها بحسب القرائن ما يناسب المقام » .

والرأى عند علماء البلاغة أن هذا الاستعمال المجازى هو المقصود بالبحث والدرس الأساليب الانشائية الطلبية ، ولذلك يقول الدسوقى معلقاً على كلام الخطيب القزوينى وسعد الدين التفتازانى الخاص بحديث الأساليب الانشائية الطلبية : « ثم إن الغرض من ذكر هذه المقدمة : التمهيد لبيان المعانى المتولدة من صيغ الطلب المستعملة فى مطلوب حاصل »(٣) .

الأساليب الانشائية غير الطلبية :

هى ـ فى الأغلب الأعم ـ حديث التوسع الدراسى للأساليب التى انتقل معناها ـ أو قل قرب معناها ـ إلى معنى الانشاء والابتداء والطلب ، وذلك يشمل ـ فيما يشمل :

١ ـــ أفعال الرجاء(٤) : مثل قول الشاعر :

---

(١) مطلع سورة الأحزاب . (٢) المطول ص ٢٢٤ .

(٣) حاشية الدسوقى « ضمن شروح التلخيص » ٢/٢٣٧ .

(٤) أفعال الرجاء : عسى، اخلولق، وزاد ابن مالك حرى « بفتح الأول والثانى » وسبقه فى ذلك ابن طريف والسرقطى ، وهذه الأفعال الثلاثة جامدة ، و «حرى» هذه غير « حرى » ـ بفتح الأول وكسر الثانى ـ بمعنى أصبح جـــديراً بالشىء =

عسى الكرب الذى أمسيت فيه   يكون وراءه فرج قريب[1]

٣ — أفعال التعجب[2] : مثل قول دعبل الخزاعى :

ما أكثر الناس ! لا بل ما أقلهم !   الله يعلم أنى لم أقــــل فندا[3]

= حقيقاً به ، ومن الشواهد على كون «حرى» من أفعال الرجاء قول الشاعر :

إن يقل هن من عبد شمس   حرى أن يكون ذاك وكانا

انظر كتاب الأساليب الإنشائية فى النحو العربى للأستاذ عبد السلام هارون : باب أفعال المقاربة ص ٤٦ ومابعدها .

(١) بعض المحققين يرى أن « عسى » ليست من صيغ الإنشاء مستدلا بدخول الاستفهام عليها ، كما قوله عز وجل « فهل عسيتم » وبوقوعها خبراً لإن فى قول رؤبة :

أكثرت فى العذل ملحاً دائماً   لا تكثرن إنى عسيت صائما

(٢) المراد فى أفعال التعجب : إعلان التعجب وإنشاؤه ، وهـذه دلالة إيقاعية لفظية لاينظر فيها إلى عنصر الزمن ، ولذلك إذا أريد مراعاة الزمن فى جملة التعجب أشير إليه بالقرائن كما فى قـوله سبحانه (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) سورة مريم آية ٣٨ .

والتعجب : شعور داخلى تنفعل به النفس حين تستعظم أمراً نادراً ، أو لامثيل له، مجهول الحقيقة — أو خفى السبب ، ولا يتحقق التعجب إلا باجتماع الأشياء كلها . وإذا ظهر السبب بطل العجب — كما يقولون . ولايطلق على الله أنه متعجب إذ لايخفى عليه شىء ، وماوقع مما ظاهره ذلك فى القرآن أو السنة ، فالمراد منه : إما توجيه السامعين إلى إظهار العجب والدهشة ، وإما المراد منه لازمه ، وهو الرضـا والتعظيم ، فنحو قوله سبحانه (فما أصبرهم على النـار) يشير التعجب هنا إلى أن حالتهم فى ذلك اليوم ينبغى لك أن أيها المخاطب أن تتعجب منها . وقد يتضمن أسلوب التعجب غرضا آخر مع التعجب هو المدح أو الذم مثل قوله سبحانه (كبرت كلمة تخرج من أفواههم) ، وقاعدة هذا الأسلوب الأخير هى : كل فعل ثلاثى مستوف لشروط التعجب تحول إلى صيغة فعل « بضم العين » وأصبح لازماً ، راجع النحو الوافى ٣/٣٣٩ ومابعدها ، شرح التصريح على التوضيح ٢/٨٦ .

(٣) الفند « بفتحتين » : الكذب .

إنى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ، ولكن لا أرى أحدا

٣ ـ أفعال المدح والذم[١] : مثل قول زهير بن أبى سلمى فى مدح هرم ابن سنان :

نعم امرأ هرم لم تعر نائبة إلا وكان لمرتاع بها وزرا

وقول أبى الطيب المتنبى فى ذم الليالى :

بئس الليالى سهدت من طرب شوقا من يبيت يرقدها[٢]

٤ ـ القسم : مثل قول أبى الطيب المتنبى أيضا :

تالله ما علم امرؤ لولاكم كيف السخاء وكيف ضرب الهام

وأعنى بالقسم جملة القسم نفسه لا جملة جوابه ، فإن هذه الأخيرة جملة خبرية بخلاف جملة القسم فإنها لمجرد التأكيد الذى هو معنى نفسى وليس له وجود فى الخارج .

٥ ـ أسماء فعل الأمر : مثل قول الله سبحانه (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)[٣] .

٦ ـ أسماء الأصوات : مثل قول الشاعر :

عدس[٤] ، مالعباد عليك إمارة أمنت وهذا تحملين طليق

---

(١) المراد : إنشاء المدح والذم على سبيل المبالغة، نقلت هذه الأفعال عما وضعت له من الدلالة على المضى، وصارت للانشاء ، أى متجردة من عنصر الزمن ـ كما أسلفنا . فنعم منقولة من قولك : نعم الرجل ، نعم « بضم العين » : إذا أصاب نعمة ، وبئس، منقولة من قولك : بؤس الرجل : إذا أصاب بؤساً ـ راجع شرح التصريح على التوضيح ٢/٩٤ .

(٢) سهدت : سهرت ، والطرب : خفة تعترى الإنسان من شدة حزن أو سرور.

(٣) سورة المائدة آية ١٠٥ . (٤) عدس : صوت زجر البغل .

٧ - لفظ (رب) : موجوداً فى اللفظ أو مقدراً ، لأنه يؤدى معنى التكثير أو التقليل ، وكل منهما معنى إنشائى ، لأنه فى نفس المتكلم ، وليس له وجود فى الخارج يحتمل الصدق والكذب ، يقول ابن يعقوب متحدثا عن رب[1] : « إنها للإنشاء باعتبار أنك إذا قلت - مثلا - رب جاهل فى الدنيا ، والمراد أنك تستكثر الجاهلين » ،

« ولا يعترضنك تكذيب ولا تصديق فى ذلك الاستكثار[2] ، ولو كان يعترض باعتبار وجودهم فى الدنيا ، نظراً لمدلول قولك : فى الدنيا » .

ومثال (رب) قول أبى تمام يمدح بن طوق التغلبى :

وصنيعة لك قد كتمت جزيلها ... فأبى تضوعها الذى لا يكتم

بجدد تلوح فضوله وفضيلة ... لك سافر والحق لا يتلثم

٨ - (كم) الخبرية : التى تؤدى معنى التكثير أيضا ، مثل قول أبى تمام يمدح إسحاق بن إبراهيم

كم نفحة لك لم يحفظ تذمها ... اصامت المال لا إلا ولا ذمما

٩ - لفظ الردع (كلا) : مثل قوله سبحانه (كلا ، لئن لم ينته لنسفعن بالناصيـــة)[3] .

١٠ - صيغ العقود : مثل عقد البيع : بعت ، وعقد النكاح : نكحت ، وعقد الطلاق : طلقت ، وعقد الاجارة : أجرت أو استأجرت ، مرادا بهذه

---

(١) مواهب الفتاح ٢/٢٣٧ .

(٢) يدور خلاف بين البلاغيين حول بعض الأساليب الإنشائية غير الطلبية ، ومنها « رب » ، ويقول الدسوقى وابن يعقوب أيضا : إن المتبادر أن « رب » للاخبار ، وأن الغرض من هذا المثال : الإخبار بالكثرة لا مجرد إظهار الاستكثار ، وحينئذ يعتور المثال التصديق والتكذيب ، انظر شروح التلخيص ٢/٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٣) سورة العلق آية ١٥ .

الصيغ : إيقاع وإقرار وإنشاء البيع والنكاح والطلاق والاجارة ، دون النظر فى دلالة الفعل على الزمن ، وهذه الدلالة الإيقاعية التى يقصد بها مجرد إيقاع مضمون الدنيا دون النظر إلى عنصر الزمن تسمى الدلالة اللفظية ، وهى معتبرة فى علم النحو ، كما أنها معتبرة فى علم البلاغة .

وهى تختلف عن الدلالة العقلية التى ينظر فيها إلى زمن وقوع مضمون هذه الصيغ الفعلية ، ولكنها لا تعارضها ، إذ أنه من المعلوم أن زمن التلفظ بإيقاع هذه الصيغ هو زمن وقوع مضمونها .

وقد تشمل هذه الدلالة اللفظية — أو الإيقاعية — معظم أنواع الأساليب الإنشائية غير الطلبية ، ولذلك نوافق الدكتور عباس حسن فى قوله(١) : « وأكثر أنواع الإنشاء غير الطلبى يتحقق معناه بمجرد النطق بلفظه » .

هذا ، وقد جعل بعض النحاة من الأساليب الإنشائية غير الطلبية : أساليب الاختصاص ، والتحذير ، والإغراء .

ومثال الأول : قول الزاجر : نحن بنى ضبة أرباب الجمل(٢) .

ومثال الثانى : قول الشاعر

فإياك إياك المـــراء فإنه ... إلى الشر دعاء وللشر جالب

ومثال الثالث : قول الشاعر

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بغير سلاح

موقف البلاغيين من دراسة الأساليب الإنشائية غير الطلبية :

يكاد مقعدو البلاغة يجمعون على عدم دراسة الأساليب الانشائية غير

---

(١) النحو الوافى جـ ١ هامش ص ٣٧٤ .

(٢) يجعل بعض العلماء كل أسلوب اختصاص أسلوب نداء ، ويقدر فى مثل هذا القول : يابنى ضبـة ، راجع حديث الأستاذ عبد السلام هارون عن الاختصاص فى كتابه : الأساليب الإنشائية فى النحو العربى ص ١٤٩ ومابعدها .

الطلبية بحجة أنها فى الأصل أخبار نقلت إلى معنى الانشاء ، ومن ثم يستغنى بأبحاثها الخبرية عن الانشائية ، بيد أننا نراهم يلتمسون معاذير شتى لهذه الحجة ، فصاحب المطول يقول(١) : « الانشاء ضربان : طلب ، كالاستفهام والأمر والنهى ، ونحو ذلك ، وغير طلب ، كأفعال المقاربة ، وأفعال المدح والذم ، وصيغ العقود ، والقسم ، ولعل ، ورب ، وكم الخبرية ، ونحو ذلك . والمقصود بالنظر ههنا هو الطلب لاختصاصه بمزيد أبحاث لم تذكر فى بحث الخبر ، ولأن كثيراً من الانشاءات الغير الطلبية فى الأصل أخبار نقلت إلى معنى الانشاء » .

ويقترب منه ابن يعقوب فيقول(٢) : « أكثر هذه الأشياء — الإشارة هنا إلى الانشاء غير الطلبى — نقلت عن الخبرية إلى الانشائية ، فيستغنى بأبحاثها الخبرية عن الانشائية » .

ولكن السبكى يأبى إلا أن يدخل بنا دائرة الجدل واللجاج فيقول معترضا على عد أفعال المدح والذم ، ورب ، وكم الخبرية ، وعسى — من أنواع الانشاء أصلا(٣) ، « وقد عدوا من غير الطلب : نعم الرجل زيد ، وربما نصحك عمرو وكم غلاما شربت ، وعسى أن يجيء زيد ، وفيه نظر : « لأن الأول — يقصد أفعال المدح والذم — قد يقال : إنه خبر » وقول كثير من النحاة : إن نعم وبئس لإنشاء المدح والذم لا ينافى ذلك ، لجواز أن يريدوا دلالتها على ذلك الناشئة بالأخبار . ومما يدل على أنهما خبران : وقوع نعم خبر « إن فى قوله تعالى (إن الله نعما يعظكم به)(٤) ، ووقوعها جواب القسم فى قوله تعالى: (ولنعم دار المتقين)(٥) ، وكذلك بئس ، قال تعالى (ولبئس ما شروا به أنفسهم)(٦) .

---

(١) المطول ص ٢٢٤ .
(٢) مواهب الفتاح ٢/٢٣٧ .
(٣) عروس الأفراح ٢/٢٣٤ ، ٢٣٥ .
(٤) سورة النساء آية ٥٨ .
(٥) سورة النحل آية ٣٠ .
(٦) سورة البقرة آية ١٠٢ .

« وأما ربما نصحك عمرو ، فلا إشكال فى كونه خبرا » .

« وكذلك ـ كم ـ الخبرية ، قال ابن الحاجب فى أماليه : كم رجال عندى ، يحتمل الانشاء والاخبار . أما الانشاء فمن جهة التكثير ، لأن المتكلم عبر عما باطنه من التكثير بقوله : رجال ، التكثير معنى محقق فى النفس لا وجود له من خارج حتى يقال باعتباره إن طابق فصدق ، وإن لم يطابق فكذب ، ويحتمل الاخبار باعتبار العنديه ، فإن كونهم عنده له وجود من خارج ، فالكلام باعتباره يحتمل الصدق والكذب . فهو كلام محتمل للأمرين باعتبار الاحتمالين المذكورين المختلفين .

« قلت ـ أى السبكى ـ : هذا الكلام ضعيف ، والذى يظهر القطع به أن هذا خبر ، لأن التكثير ليس المعنى به جعل القليل كثيراً حتى يكون السائل معنية اعتقاد الكثرة الواقع فى النفس ، والتعبير عن ذلك بكم إخبار عن أمر خارجى . وإنما نعنى قولنا : (الخبر له خارج) : ما كان خارجا عن كلام النفس ، فنحو ، طلبت القيام : حكم ، نسبته لها خارج ، بخلاف قم ، كما صرح به ابن الحاجب وغيره ، فقولنا : كم رجال عندى ، على الأول من الاحتمالين اللذين ذكرهما : إخبار عن اعتقاد الكثرة كقولك : اعتقدت هذا كثيراً ، فليس من الانشاء فى شىء » وعلى الاحتمال الثانى : إخبار عن الكثرة فى الخارج .

« وقوله ـ أى ابن الحاجب ـ لأن المتكلم عبر عما فى باطنه ، يستلزم أن يكون نحو ، أبغضت زيداً ، وعزمت على كذا ، إنشاء ، ولا قائل به .

« وقوله : (إن التكثير معنى ثابت فى النفس لا وجود له فى الخارج) : صحيح ، لكن المراد بالخارج ما سبق .

« وأما عسى أن يجىء زيد ، فهو ترج كالتمنى » .

والحق عندى أن هذا الحديث من السبكى نوع من الجدل الكلامى

أن كل أسلوب خبرى فيه جزء يحتمل الصدق والكذب، وهو الجزء الذى يعتبر فيه نفس الخبر ، وفيه جزء آخر لا يحتمل الصدق والكذب ، وهو جزء الاخبار - كما يقول بذلك المحققون من علماء النحو والبلاغة[١] .

تمييز الأساليب الانشائية عن الأساليب الخبرية :

بادىء ذى بدء ننقل قول السيوطى فى الحديث عن انحصار الكلام فى تسمية الخبر الانشاء : « اعلم أن الحذاق من النحاة وغيرهم ، وأهل البيان قاطبة ، على انحصار الكلام فيهما ، وأنه ليس له قسم ثالث[٢] .

وأول تعقيب لنا على هذا القول أن قوله (حذاق النحاة وغيرهم) ، وقوله (وأهل البيان قاطبة) فيه نظر .

وليس أدق على ذلك من أننا فى جانب النحاة نجد ابن مالك - وهو من حذاق النحاة دون ريب - وفى جانب أهل البيان نجد عضد الدين الايجى[٣] - وهو من أهل البلاغة دون شك - كليهما يرى[٤] أن الكلام ينقسم إلى خبر وطلب ، ومن هنا فإننا نرفض تعميم هذا الحكم .

يعزز ذلك ويؤيده أن السيوطى نفسه قد نقل فى هذا الموضوع عدة أقوال تعارض هذا التعميم ، منها[٥] :

---

(١) راجع في ذلك كلام الشيخ الرضى من النحاة ، والسيد الشريف الجرجانى من البلاغيين فى حواشى شرح الرضى على الكافية ٢/٢٩٠ .

(٢) الإتقان ٢/٧٥ ، ٧٦ .

(٣) له كتاب قيم فى البلاغة ترجمته « الفوائد الغياثية » عليه شروح كثيرة من علماء البلاغة ، وقد درسه وحققه الأستاذ / عاشق حسين نثار - فى رسالة التخصص « الماجستير » فى "بلاغة بعنوان عضد الدين الإيجى وبلاغته - راجع مخطوطات كلية اللغة العربية بالقاهرة - جامعة الأزهر .

(٤) انظر رأى ابن مالك فى عروس الأفراح للسبكى ١/١٧٣ ، وانظر رأى الإيجى في الرسالة المذكورة ص ١٣١ .

(٥) الإتقان ٢/٧٦ .

قوله : « وادعى قوم أن أقسام الكلام عشرة : نداء ، ومسألة ، وأمر ، وتشفع ، وتعجب ، وقسم ، وشرط ، ووضع ، وشك ، واستفهام » .

وقوله : « وقيل : تسعة بإسقاط الاستفهام لدخوله فى المسألة » .

وقوله : « وقال الأخفش : هى ستة : خبر . استخبار ، وأمر ، ونهى ، ونداء ، وتمن » .

وقوله : « وقال كثيرون : ثلاثة : خبر ، وطلب ، وإنشاء » .

وثانى تعقيب لنا على هذا القول : أن هذا التقسيم نفسه إلى خبر وإنشاء هو تقسيم منطقى قبل أن يكون تقسيماً نحوياً أو بيانياً ، ولعلنا حين نرجع إلى إلى كتب المنطق نجد أن للمناطقة فى تقسيم اللفظ المركب التام طريقتان :

إحداهما : ذلك التقسيم الثنائى الذى ذكره السيوطى .

وثانيتهما : تقسيم الكلام التام إلى خبر ، وطلب ، وإنشاء .

ومعنى هذا أن النحاة والبيانيين قد أعملوا تفكيرهم فى ذلك التقسيم المنطقى ، وارتضى معظمهم ذلك التقسيم الثنائى الذى أشار إليه السيوطى ونرتضيه نحن أيضا .

على أن الفرق بين الأساليب الانشائية والأساليب الخبرية يمكن أن يتضح من خلال اتجاهات ثلاثة :

الاتجاه الأول : التحديد العلمى لهذا الفرق .

الاتجاه الثانى : التحديد الفنى لهذا الفرق .

الاتجاه الثالث : الواقع الأدبى لهذا الفرق .

وفى حديث الاتجاه الأول يجب أن نرجع إلى المناطقة ، لأنهم أصحاب هذا التقسيم .

وفى هذا المجال : نجد أن التحديد العلمى للفرق بين الأساليب الانشائية والأساليب الخبرية ـ وفق التقسيم الثنائى للكلام إلى خبر وإنشاء يرى أن الخبر هو : ما قصد به حكاية مافى الخارج، والانشاء هو : مالا يقصد به ذلك.

بمعنى أننا إذا رأينا زيداً قائما ، فقلنا ـ مثلا ـ زيد قائم ، فإن هذا يعتبر خـبرا ، لأننا قصدنا به حكاية ثبوت القيام الحاصل فى الواقع لزيد ، أما الانشاء ، فهو مالا يقصد به الحكاية ، وإنما يقصد به إحداث مدلوله ، بمعنى أننا إذا وجدنا زيداً قائما ، فقلنا له : اجلس ، وكان القصد من هـذا الأمر هو إحداث الجلوس وإيجاده، لاحكايته كأمر واقع فى نفس المتكلم قبل أن يوجد من زيد ، فإن هذا يعتبر إنشاء .

أما التقسيم الثلاثى للكلام ـ كما هى الطريقة الأخرى المناطقة ، والذى والذى يرى أن اللفظ المركب التام ينقسم إلى خبر ، وطلب ، وإنشاء ـ فهو يحدد الخبر : بأنه ما احتمل الصدق والكذب لذاته ـ كالمثال الذى قدمنا ، أعنى زيد قائم . والطلب : بأنه ما أفاد طلبا بذاته ، وهو قسمان : طلب فعل، وطلب ترك ، أو قسم واحد هو طلب شىء ، حتى يدخل الأمر والنهى تحت قسم الطلب . والانشاء : بأنه ماليس خبراً ولا طلبا، بمعنى أن يكون استفهاما أو نداء أو تمنيا ... إلخ .

وإنما كان التقييد فى الخبر والطلب بكلمة (ذاته) حتى يكون كلاهما مجرداً من أى شىء يصاحبه ويؤثر عليه . فالخبر ـ مثلا ـ فى المثال الذى قدمنا ـ أعنى زيد قائم ـ خبر مجرد ، يحتمل أن يكون فى مكان الصدق بأن يكون زيد قائم فعلا ، كما يحتمل أيضا أن يكون فى مكان الكذب ، وذلك إذا كان واقع أمر زيد يخالف القيام الذى أشار إليه المثال . ونحو ذلك أيضا مثال الطلب الذى قدمناه ـ أعنى قولنا لزيد : أجلس ، فإنه يدل على الطلب بذاته وهيئته دون شىء آخر .

وهذا الشيء ذو التأثير على الخبر عند المناطقة سماه البلاغيون «قرينة» .
وهذه القرينة المصاحبة للكلام والمؤثرة فيه - (المحترز عنها) - تكون في الخبر باعتبار قائله ، كما إذا كان الخبر من عند الله أو رسوله أو أحد المشهود لهم بالصدق ، حيث يكون الخبر في مثل هذا المقام غير محتمل للكذب ، والأمر على النقيض ، في الخبر الذي يكون قائله مشهوراً بالكذب ، أو مشهوداً له به ، فإنه لا مجال في مثل هذا المقام أن يحتمل الخبر الصدق . كما تكون أيضا باعتبار واقع مشاهد كما في مثل قول القائل الصادق : السماء فوقنا ، والأرض تحتنا ، وكما في مثل قول القائل الكاذب : السماء تحتنا ، والأرض فوقنا .

وكما تكون هذه القرينة المصاحبة للكلام والمؤثرة فيه - (المحترز عنها) - في الخبر تكون أيضا في الطلب ، ففي مثل قولك لمن معه ماء : أنا عطشان ، نجد هذا اللفظ المركب التام يدل على طلب السقي ، لكن لا بذاته ، بل بقرينة وجود الماء مع المخاطب(١) .

والبلاغيون قد رأوا أن يستفيدوا بكلا طريقي المناطقة في التفرقة بين الخبر والانشاء ، فقسموا الأسلوب الأدبي إلى أسلوب خبري وأسلوب إنشائي ، كما قسموا الأسلوب الانشائي إلى أسلوب إنشائي طلبي ، وأسلوب إنشائي غير طلبي .

كما رأوا أيضاً أن يستفيدوا بما ذكره المناطقة في طرق إدراك وفهم الأساليب من نحو تصور المفردات وتصديق الأحكام في الجمل ، فقالوا في نحو مثالنا الخبري : زيد قائم ، ومثالنا الانشائي : اجلس : إن كلا هذين المثالين لم يرد من فراغ ذهني .

---

(١) راجع كتاب المنطق الوافي للأستاذ حسن حسن حنبل ١/٤٧ ، ٤٩ «الطبعة الثالثة» .

فالمتكلم بالنسبة للمثال الأول : تصور الشخص المسمى زيداً فى الذهن، وتصور القيام فى الذهن أيضا ، ثم تصور تعلق أحد هذين الطرفين بالآخر فى الذهن مرة ثالثة ، ثم نسب أحدهما للآخر . وبالنسبة للمثال الثانى تصور المتكلم الشخص زيداً ـ الذى سيوجه إليه الخطاب ـ فى الذهن ، ثم تصور الجلوس ـ الذى سيكون من هذا الشخص ـ فى الذهن أيضا ، ثم نسب أحدهما للآخر فى طلب الجلوس من زيد .

وهذه النسبة الأخيرة فى كلا المثالين ـ أعنى العلاقة الذهنية الرابطة بين الطرفين سماها البلاغيون النسبة النفسية[1] ، أى النسبة القائمة فى النفس ، ثم إنها بعد خروجها إلى حيز النطق تسمى لديهم نسبة كلامية .

وواضح أن هذه النسبة كما تكون فى الأسلوب الخبرى تكون فى الأسلوب الانشائى .

ثم إن المتكلم إن قصد مطابقة النسبة الكلامية[2] للنسبة الخارجية

---

(١) هذه التسمية أطلقها سعد الدين التفتازانى فيما نقلها عنه صاحب الرسالة البيانية ص ١٧ ، هذا ، وأود أن أذكر أن السامع أيضا يجرى فى داخله هذه النسبة النفسية لتفهم مايسمعه من المتكلم .

(٢) مذهب المتقدمين من المناطقة أن النسبة الكلامية فى القضية الموجبة : ثبوت شىء لشىء ، وفى القضية السالبة : انتفاء شىء عن شىء ، أما المحققون من متأخرى المناطقة فيذهبون إلى أن النسبة الكلامية فيهما يعنى تعلق أحد الطرفين بالآخر ـ كما أوضحنا ـ .

ولئن كان هذا المعنى واضحا فى الإيجاب فإن من المفيد أن نوضح فى القضية السالبة أنهم يقولون أيضا نفس العبارة ، يعنى تعلق أحد الطرفين بالآخر لكن مع تسلط النفى على هذا التعلق .

وعلى هذا فالكلام المنفى إذا كان فيه قيد أو قيود يتوجه النفى إلى هذا القيد أو تلك القيود فى الغالب ، ويتوجه إلى القيد والمقيد معاً فى غير الغالب .

الواقعية المشاهدة كان الكلام حكاية للواقع ، أو بعبارة أخرى كان الكلام من قبيل الخبر .

والخبر فى عرف البلاغيين - بل والمناطقة أيضا - موضوع لهذه المطابقة أعنى أن الخبر فى حقيقة الأمر موضوع للصدق ، والكذب فى الخبر احتمال عقلى وارد(١) .

أما إذا لم يقصد المتكلم مطابقة النسبة الكلامية للنسبة الخارجية الواقعة بين الطرفين ، بمعنى أنه يقصد بكلامه إحداث المدلول الخارجى وإيجاده، فإن الكلام يكون من قبيل الانشاء .

ومثالنا الانشائى الذى نحن بصدده (اجلس) يوضح أن قولنا لزيد : اجلس ، يفيد طلب الجلوس منه ، أو بعبارة أخرى - إحداث هذا المدلول وإيجاده(٢) .

---

(١) انظر حاشية الدسوقى ١٦٦/١ ، والمنطق الوافى ٢ ٨/ .

(٢) حاول الراغب الأصفهانى فى كتابه « المفردات فى غريب القرآن » ص ٢٧٧، أن يعطى الأسلوب الإنشائى لوناً من الصدق والكذب أيضا فقال : « وقد يكونان - أى الصدق والكذب - بالعرض « بفتح الأول والثانى » - أى بالمفهوم المتضمن من الكلام - فى غيره « أى فى غير الخبر » من أنواع الكلام، كالاستفهام ، والأمر، والدعاء ، وذلك نحو قول القائل : أزيد فى الدار ؟ فإن فى ضمنه إخباراً بكونه جاهلا بحال زيد ، وكذا إذا قال : واسنى ، فى ضمنه أنه محتاج إلى المواساة ، وإذا قال : لا تؤذنى ، ففى ضمنه أنه يؤذيه » .

وفى اعتقادى أن هذه المحاولة أقرب إلى الفلسفة منها إلى إبطال الفرق السابق .

على أنه تجدر الإشارة أيضا بان بعض العلماء قد اعتمد فى ميزان صدق الخبر وكذبه : مطابقة مدلول هذا الخبر اعتقاد المتكلم وضميره ، أعنى مطابقة النسبة الكلامية للنسبة النفسية للمتكلم ، لا مطابقة النسبة الكلامية للنسبة الخارجية - كما هو راى الجمهور المشهور الذى أشرنا إليه فى حديثنا أعلاه .

وصاحب هذا الرأى هو الإمام النظام - إمام المعتزلة - وهو يتخذ من تكذيب

ويعجبني تفريق بعض المحدثين بين الجملة الخبرية والانشائية - في مقامنا الذي نحن فيه - بقوله(١) : « حين تتحدث عن بيعك للكتاب بالأمس وتقول: بعت الكتاب بدينار ، ترى أن الجملة تختلف بصورة أساسية عنها حين تريد أن تعقد الصفقة مع المشتري فعـــلا فتقول له بعتك لكتاب بدينار .... فالمتكلم حين يقول في الحالة الأولى : بعت الكتاب بدينار ، يتصور النسبة لا بما هي حقيقة واقعة يخبر عنها إذا أرادوا ما حين يقول في الحـــالة الثانية بعتك الكتاب بدينار فهو يتصور النسبة لا بما هي حقيقة واقعة مفروغ عنها، بل يتصورها بوصفها نسبة يراد تحقيقها » .

= الله للمنافقين في الآية الكريمة « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » دليلا على رأيه ، حيث قد نبهت الآية الكريمة على أن الله يشهد أن المنافقين كاذبون في شهادتهم أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رسول الله .

وهناك رأي ثالث في حديث صدق الخبر وكذبه يعتمد مطابقة النسبة الكلامية لكلا النسبتين النفسية والخارجية ، أو بعبارة أخرى يعتمد مطابقة مدلول الكلام الخبري للواقع والاعتقاد معاً . وهذا الرأي قال به الجاحظ، وعلى أساس هذا الرأي - فيما أظن - اعتمد الجاحظ أدب الحمق والنوكى الذي يجوز أن يتصف لا بالصدق ولا بالكذب - راجع هذه الآراء في المطول ٣٨ - ٤٣ .

على أن للراغب الأصفهاني رأياً رابعـــا - وإن كان يقترب من قول الجاحظ - يقول فيه : « والصدق مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معاً ، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقا تاما ، بل إما أن لا يوصف بالصدق، وإما أن يوصف تارة بالصدق وتارة بالكذب على نظرين مختلفين ، كقول الكافر إذا قال من غير اعتقاد : محمد رسول الله فإن هذا يصح أن يقال : صدق، لكون المخبر عنه -بفتح الباء- كذلك، ويصح أن يقال : كذب ، لمخالفة قول المخبر (بكسر الباء) ضميره ، وبالوجه الثاني . إكذاب الله تعالى المنافقين حيث قالوا نشهد إنك لرسول الله) الآية - راجع المفردات في غريب القرآن ٢٧٧ .

(١) المعالم الجديدة للأصول للسيد محمد باقر الصدر ١٢٦ دار التعارف المطبوعات - ط ٣ بيروت ١٩٨١ .

ونرى - الآن - أن نختم حديث الفرق بين الجملتين بقول الدسوقي(١): «الحاصل أن النسبة التي لها خارج هي التي تكون حاكية عن نسبة ، أي حالة بين الطرفين في نفس الأمر ، ونسب الانشاء ليست حاكية ، بل محضرة ليترتب عليها وجود أو عدم أو معرفة أو تحسر أو نحو ذلك» .

أما عن الاتجاه الثاني - أعني حديث التحديد الفني للفرق بين الخبر والانشاء فإني أعتقد أن المجال التطبيقي هو المجال الأرحب لتوضيح هذا الأمر وبيانه، ولنبدأ بالأساليب الخبرية .

يقول موسى بن عبد الله بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - متحدثاً عن نفسه .

إذا أنا لم أقبل من الدهر كل ما	تكرهت منه طال عتبي على الدهر
إلى الله كل الأمر في الخلق كلهم	وليس إلى المخلوق شيء من الأمر
تعودت مس الضر حتى ألفته	وأسلمني طول البلاء إلى الصبر
ووسع صدري للأذى الأنس بالأذى	وإن كنت أحيانا يضيق به صدري
وصيرني يأسي من الناس راجيا	لسرعة لطف الله من حيث لا أدري

ويقول أيضا معلنا عن رأيه في الحياة والمجتمع :

تولت بهجة الدنيا	فكل جديدها خلق
وخان الناس كلهم	فما أدري بمن أثق
رأيت معالم الخيرا	ت سدت دونها الطرق
فلا حسب ولا نسب	ولا دين ولا خلق
فلست مصدق الأقوا	م في شيء وإن صدقوا

ويروى في حكمة آل داود : «لا ينبغي للعاقل أن يخلي نفسه من أربع :

(١) حاشية الدسوقي ١/١٦٦ .

عدة لمعاده ، وصلاح لمعاشه ، وفكر يقف به على مايصلحه من فساده ، ولذة في غير محرم يستعين بها على الحالات الثلاث » .

ويقول الحسن بن سهل : الآداب عشرة ، فثلاثة شهرجانية ، وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن .

فأما الشهرجانية : فضرب العود ، ولعب الشطرنج ، ولعب الصوالج[1] ، وأما الأنوشروانية : فالطب، والهندسة، والفروسية . وأما العربية : فالشعر، والنسب ، وأيام الناس . وأما الواحدة التي أربت عليهن : مقطات الحديث ، والسمر ، وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس .

تحليل هذه الأمثلة :

الناظر في أبيات موسى بن عبدالله الطالبي الأولى يجد روح الحكاية سارية فيها ، فهو يحدثنا عن مالاقى في هذه الحياة من آلام. وعن أنه من كثرة مالاقى من آلام دهره أصبح قابلا ومتذوقاً لها ، لقد أسلم أمره إلى الله من شرور خلقه وما يصنعونه فيه ، فأراح ذلك نفسه ، وأطاب خاطره ، ووسع صدره لمزيد من الأذى المتوقع .

ثم يبين لنا أن الأذى المتوقع قد يزيد عن حده فيضيق صدره به ، ولكنه سرعان مايدرك أنه كان لاينبغي أن يكون منه ذلك التبرم والضيق، بل ينبغي أن يكون منه إزاء هذا الأذى الزائد صبراً زائداً أيضاً فيعود إلى الله طالباً منه اللطف والرحمة .

والحديث عن أبياته الثانية إمتداد للحديث عن أبياته الأولى ، لكنه في هذه الأبيات لايحكي عن آلامه ، إنما يعلن عن رأيه في الحياة والمجتمع إن الحياة قد زالت بهجتها ، وأصبح كل جديد فيها خلق بال ، وإن الناس قد ضاعت منهم الأمانة فصاروا لا يؤتمنون على شيء ، إنهم أصبحوا ـ كما يقول

(١) لعب الصوالج هو لعب الكرة عن طريق ضربها بالعصا .

رسول الله صلى الله عليه وسلم - كإبل مائة لاتجد فيها راحلة ، إن الشاعر يبحث عن رجل واحد موضع ثقة فلا يجد ، حتى معالم الخيرات وأماراتها فيهم أو في دنياهم قد ضاعت ، فلا تجد ذا حسب وجاه ، يحترمهما في أقواله وأعماله ، ولاتجد ذا نسب يخشى أن يحسب عليه تصرفه وسلوكه ، ولا تجد ذا دين يخاف عقاب الله وسوء حسابه ، ولا تجد ذا خلق يخجل من توافه أفعاله ، أو سفاسف تصرفاته .

من أجل هذا كله يعلن الشاعر أنه لن يصدق أحداً في شيء وإن صدق ، ولن يحمد فعل أحد وإن كان حميداً .

والحديث عن حكمة آل داود كالحديث عن كلام الحسن بن سهل ، فكلاهما يدخل تحت تقرير الحقائق ، غير أن حقائق حكمة آل داود تأخذ طابع المنهج الديني وحقائق الحسن بن سهل تأخذ طابع المنهج الواقعي ، وكل منهما يقرر حقائق أخذها من طريق معارف عصره فالذين جربوا الحياة وخبروها وعرفوا أنها زائلة كانت وصيتهم للعاقل ألا يخلي نفسه من هذه الأربع : عدة لمعاده ، وصلاح لمعاشه ، وفكر يقف به على صلاح ما أفسده ، ولذة طيبة يتمتع بها تريحه من عناء تلك الثلاث الأول .

والذين درسوا الآداب - آداب الأمم والشعوب - قرروا عظمة الأمة الرومانية في التفنن في اللهو واللعب ، وعظمة الأمة الفارسية في العلم والحرب ، وعظمة الأمة العربية في الأدب والتاريخ ، ثم اختصوا العرب بعد ذلك بفن البيان .

وقد يجوز لنا أن ندخل تحت نوع تقرير الحقائق - الذي نحن بصدده - المعاني التقريرية التي يعرضها الأديب في وصفه الأدبي ، أو فخره ، أو مدحه ، أو رثائه ، أو هجائه .... إلخ إذا ما عرضت بطريق الحكاية ، كما في :

وصف النابغة لمحبوبته :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه ... فتناولته ، واتقتنا باليد(١)
بمخضب رخص كأن بنانه ... عنم ، يكاد من اللطافة يعقد(٢)
نظرت إليك بحاجة لم تقضها ... نظر السقيم إلى وجوه العود(٣)
تجلو بقادمتي حمامة أيكة ... بردا أسف لثاته بالإثمد(٤)

(١) النصيف : كل ماغطى الرأس من خمار وغيره :

(٢) أصل الخضب : الخضرة تظهر فى الشجر ، يقال خضب الشجر أو الأرض ، يخضب ، كضرب يضرب ، ثم أطلق فى الألوان فقيل : خضبه : غير لونه بحمرة أو صفرة ، أو غيرهما . والخضاب : مايختضب به من حناء ونحوه . والمقصود بالمخضب : كفها قد خضبت بالحناء ، وذلك من زينة النساء ، وذكر الصفة « مخضب » وأراد العضو « الكف » ، وهو كثير فى كلامهم . والرخص : الناعم من الشىء ، وامرأة رخيصة البدن أى ناعمة البشرة . البنان : الإصبع ، العنم : جمع عنمة ، زهر أحمر مستطيل مثل الأصابع . أراد الشاعر أن يقول : اتقتنا بكف حمراء يكاد بنانها يعقد من لطافته ورقته . وفى البيت إقواء ، وهو عيب يلحق قوافى القصائد ، وينتج عن اختلاف حركة الروى بين أبيات القصيدة ، وكان فى شعر النابغة هذا العيب ، ويقال : إنه لما ورد يثرب أمر أهلها قينة أن تتغنى بشعره ، فلما سمع قوله « واتقتنا باليد» وقوله « يكاد من اللطافة يعقد» فطن لهذا العيب ، ذلك أن القينة مدت كسرة الدال فى « اليد » حتى صارت ياء ، كما مدت ضمة الدال فى « يعقد » حتى صارت واوا ، فغير النابغة بيته الثانى وجعله « عنم على أغصانه لم يعقد » ، وكان يقول : وردت يثرب وفى شعرى هنة ، وصدرت عنها وأنا أشعر الناس .

(٣) نظرت إليك بحاجة : أى نظراً ينبىء عن حاجة ولم تتكلم كما ينظر المريض غير القادر على الكلام . لم تقضها : لم تتمها .

(٤) تجلو : تكشف وتصقل ، أراد أنها تستاك . القوادم : الريش المقدم فى جناح الطائر ، ويكون شديد السواد فى الحمام عادة ، وقوله « بقادمتى حمامة » تشبيه بليغ ، أى أن أصبعيها فى الطول وسواد الحناء عليهما حين تأخذ بهما المسواك يشبهان قادمتى

كالأقحوان غداة غب سمائه ... جفت أعاليه، وأسفله ندى(١)

ونخر الفرزدق بقومه

لنا العزة القعساء والعدد الذي ... عليه إذا عد الحصى يتخلف
ومنا الذي لاينطق الناس عنده ... ولكن هو المستأذن المتصرف
تراهم قعوداً حوله وعيونهم ... مكسرة أبصارها ما تصرف
ترى الناس ماسرنا يسيرون خلفنا ... وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
ولا عز إلا عزنا قاهر له ... ويسألنا النصف الذليل فننصف

مدح المتنبى لبدر بن عمار بن إسماعيل الأسدى :

إنما بدر بن عمار سحاب ... هطل فيه ثواب وعقاب(٢)
إنما بدر رزايا وعطايا ... ومنايا وطعان وضراب(٣)
ما يجيل الطرف إلا حمدته ... جهدها الأيدى وذمته الرقاب(٤)

جناح حمامة . الأيكة : الشجر الكثير الذى يلف بعضه بعضها . البرد «بالتحريك» : الثلج : شبه بياض أسنانها ببياض البرد . اللثات : مغرز الأسنان ، ومن عادتهم أن يذروا عليها الإثمد ليبين بياض الأسنان .

(١) الأقحوان هنا : نور ، أبيض ، وأشد ما يكون صفاؤه غب المطر . إذ يزول ما عليه من الغبار بالماء .

(٢) يقول هو مجمع النفع والضر كالسحاب الذى ينهل بالمطر ، وتنقض منه الصواعق ، ففيه حياة لقوم وهلاك لآخرين .

(٣) جعله هذه الأشياء مبالغة لكثرة وقوعها منه حتى صار وإياها كالشىء الواحد ، وهذا هو أسلوب المجاز العقلى فى البلاغة .

(٤) الطرف — بالكسر — الفرس الكريم ، والجهد — بالضم — الطاقة والوسع ، وهو منصوب على الحال على تقدير جاهدة جهدها . يقول : إنه ما أجال فرسه فى الحرب إلا ملأ أيدى أوليائه من الغنائم فحمدته جهدها ، وضرب رقاب أعدائه فذمته هذه الرقاب أى الأعداء .

مابه قتـــل أعاديه ولكن يتقى إخلاف ماترجو الذئاب(١)
فله هيبـــة من لا يترجى وله جود مرجى لايهاب(٢)

ورثاء أبي الفتح كشاجم لقدح له انكسر :

عراني الزمان بأحـــداثه فبعضا أطقت وبعض فدح(٣)
وعنـــدى فجائع للحادثات وليس كفجيعتنا بالقدح(٤)
وعاء المدام وتاج البنان ومدني السرور ومقصى الترح(٥)
ومعرض راح متى كسه ويستودع السر منهـــا ربح
وجسم هواء وإن لم يكن يرى للهـــواء بكف شبح
يرد على الشخص تمثـــاله وإن تتخذه مرآة صلح

وهجاء ابن الرومي لأبي سليمان المغني :

مسمع لا عدمت فرقتـــه فإنهـــا نعمـــة من النعم
يطـــول يومي إذا قرنت به كأنني صـــائم ولم أصم
يفتح فاه من الجـــاد كما يفتـــح فاه الأعظم اللقم
مجلسه مأتم اللذاذة والقصـف وعرس الهموم والسدم(٦)
كأنني طول ما أشاهـــده أشرب كأسي ممزوجة بدم

(١) يقول : إنه لم يتعود أن يخيب راجيا ، ولذلك يقتـل أعداءه حذراً من أن يخالف رجاء الذئاب التي تعودت منه على الإحسان .

(٢) يقول : له إن له هيبة جبار عنيف لا يرجى عنده الصفح ، وجود سمح كريم يرجى إحسانه ولا تحذر هيبته .

(٣) عراني : نزل بي ، فدح : ثقل وعسر حمله .

(٤) القدح : الكوب . (٥) الترح : الحزن .

(٦) القصف : اللهو واللعب . والسدم : الندم والحزن .

ثم امثل بالأساليب الانشائية :

يقول أبو العلاء المعرى هامسا بفلسفته فى حديث منزعجى لبنى زمنه :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى لتسمع أنباء الأمور الصحائح
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح(١)
وأبيض أمات أرادت صريحه لأطفالها دون الغوانى الصرائح(٢)
ولا تفجعن الطير وهى غوافل بما وضعت والظلم شر القبائح
ودع ضرب النحل الذى بكرت له كواسب من أزهار نبت فوائح(٣)
فما أحرزته كى يكون لغيرها ولا جمعته للندى والمنائح
مسحت يدى من كل هذا فليتنى أبهت لشأنى قبل شيب المسائح(٤)
بنى زمن هل تعلمون سرائرا علمت ولكنى بها غير بائح

ويقول دعبل بن على الخزاعى فى حوار متخيل :

أين الشباب ؟ وأية سلكا لا أين يطلب ؟ ضل بل هلكا
لا تعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى
ياليت شعرى كيف يومكما يا صاحبى إذا دمى سفكا
لا تأخذا بظلامتى أحدا قلبى وطرفى فى دمى اشتركا

ويقول ابن المعتز معتذراً للقاسم بن عبيد الله : « ترفع عن ظلمى إن كنت بريئاً ، وتفضل بالعفو إن كنت مسيئاً ، فوالله إنى لأطلب عفو ذنب لم أجنه ، وألتمس الاقالة مما لا أعرفه ، لتزداد تطولا ، وأزداد تذللا ، وأنا أعيذ حالى عندك بكرمك من واش يكيدها ، وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها ،

---

(١) الغريض : الطرى من اللحم وغيره . أى لا تأكل السمك ونحوه ولا ذبائح الدواب .
(٢) الأبيض : اللبن . والأمات : لغة فى الأمهات . أو الأولى خاصة بالحيوان والأخرى بالناس . الغوانى الصرائح : الخالصات الحسن .
(٣) الضرب : العسل . (٤) المسائح : جمع مسيحة وهى ذوائب الشعر .

وأسأل الله تعالى أن يجعل حظى منك بقدر ودى لك ، وعلى من رجائك بحيث أستحق منك » .

تحليل هذه الأمثلة :

الناظر فى أبيات أبى العلاء يجدها تدعوه ليسمع وينفذ أموراً اقتنع بها صاحبها واتخذ منها مذهباً ، وهـــذه الأمور ترسم منهج حياة : لا تأكل ما أخرج الماء من السمك ، لأن هذا السمك قد ظلمه الماء وأخرجه من دياره ووطنه ، والواجب عليك أن تساعده كمظلوم لا أن تأكله ، لا تتخذ من لحم الذبائح طعاماً لك ، لأن ذبحها هـــو الظلم كله قبل أكلها ، لا تشرب اللبن الأبيض الذى يكون فى ضرع أمهات الحيوان لأنها قد أعدته لصغارها لا لك وكيف تأخذ شيئاً ليس لك ؟ ! . لا تأخذ بيض الطيور فتأكله أو تنتفع به لأن هذا ظلم أيضا ، لا تأخذ عسل النحل الذى اكتسبه بغدوه ورواحه إلى أزهار الحدائق لأنه لم يجمعه لك ، فبأى منطق تحصل على كد غيرك وتعبه؟! إن هذا ظلم مبين .

هكذا يملى أبو العلاء مذهبه على الناس مبيناً أن هذا المذهب فى الحياة هو المذهب الصحيح ، وليته تنبه إليه قبل المشيب ـ على حد قوله وتعبيره ـ ومن هنا فإنه ينادى بنى زمنه أو قل يهمس إليهم بأن وراء هذا المذهب أسراراً من الصفاء والنقاء لا يحس بها إلا أصفياء العقول الذين يحبون الكون كله عدلا ليس فيه اعتداء أحد على أحد ، وليتهم يعلمونها مثله .

والناظر فى أبيات دعبل بن على الخزاعى يجد حواراً متخيلا حول منهج حياة هذا الشاعر ، وهذا الحوار يغريه بالمشاركة فيه والمتابعة له ، إنه يبدأه بالتحسر على شبابه الذى تركه وابتعد عنه ، لقد سار مصاحباً له فترة من الوقت ، ثم ضل فى طريقه ولم يسر معه حيث سار ، إنه هلك دون شك لأن الشاعر يبحث عنه فى كل مكان فلم يجده ، من هنا كان بكاؤه على ضياع هذا

الرفيق الذي كان يساعده في تحقيق كل شهواته، ومن هنا أيضا يخاطب محبوبته سلمى التي تتعجب من بكائه على هذا الرفيق قائلا :

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

ثم يتخيل الشاعر رفاقه الذين كانوا يقضون معه أيام لهوه فيأمرهم بأن عليهم إذا وجدوه قد أصبح في حوزة الموتى ألا يحملوا أحداً جزاء هذا الموت ، ذلك أن قلبه وعينه اللذين تعودوا أثناء الشباب تحقيق ملذاتهما ما زالا يطلبان ذلك في أيام المشيب التي لا تسعف بهذا الأمر ، ومن ثم فهما اللذانْ أوديا به .

أما اعتذار ابن المعتز للقاسم بن عبيد الله فإنه دعوة إلى منهج الصفح والعفو ، سواء كان ذلك عن طريق إحقاق الحق إذا كان المذنب بريئاً ، أو عن طريق إكرام المذنب والاحسان إليه ، إذا كان مجرماً ، ثم تأكيد على قبول هذه الدعوة بذكر براءته من هذا الذنب الذي وشى الأعداء به إليه ، ثم إبتهال إلى الله عز وجل أن يصدق القاسم هذا القول فيحل ابن المعتز محل الرضا والقبول لديه .

ونخلص من هذا كله إلى أن الفرق بين الأساليب الخبرية والأساليب الانشائية :

أن الأساليب الخبرية غالباً ما تكون عندما يريد المرء عرض فكرة أو قضية أو رأي أو حدث يقرر فيه أمرا ما ، سواء كان ذلك كله حديث الحقيقة العلمية الخالصة ، أو الحقيقة الأدبيـــة المفعمة بشعور الأديب وإحساسه .

وأن الأساليب الانشائية غالباً ما تكون عند عرض منهج يدلي فيه الأديب بمعالم هذا المنهج أمرا ونهيا ، وعند الحديث عن الآفاق النفسية التي تجول في أحشاء الأديب سواء كانت تمنياً أو رجاء أو استطلاعاً للفهم ،

أو إبداء للحيرة والشك الكامنين فى نفسه، أو غير ذلك من الأمور التى تجرى على هذه الشاكلة.

أما الاتجاه الثالث — أعنى الواقع الأدبى لهذا الفرق فإنه من الحق أن نقول: إن العمل الأدبى لا يعرف فرقاً بين الأسلوبين، فكلاهما قسيم الآخر فى التعبير عنه، وأنت لا تستطيع أن تجد عملا أدبياً خالصا بأحد هذين النوعين من الأساليب، بل إن الأمر على نقيض ذلك تماما، بمعنى أنه لا بد أن يستعين الأديب بكلا الأسلوبين، غير أن الانشاء يتقدم - وجوبا - على الخبر(١)، يشهد لذلك حديث مطالع القصائد العربية تليدها وطريفها.

من ذلك مطلع قصيدة عبد يغوث بن وقاص الحارثى التى ينعى فيها نفسه ويلوم قومه أن تركوه ليقتل(٢):

ألا لا تلومانى كفى اللوم ما بيا ... وما لكما فى اللوم خير ولا ليا
ألم تعلما أن الملامة نفعها ... قليل وما لومى أخى من شماليا
فيا راكبا إما عرضت فبلغن ... ندامى من نجران أن لا تلاقيا
أبا كرب والأيهمين كليهما ... وقيسا بأعلى حضرموت اليمانيا

---

(١) ذكر الرضى ذلك فى حديث له عن (كم) الخبرية والاستفهامية فقال: «ولهما صدر الكلام. أما الاستفهامية فللاستفهام. وأما الخبرية فلما تضمنته من المعنى الإنشائى فى التقليل وجب لها صدر الكلام.

«وإنما وجب لصدر متضمن معنى الإنشاء لأنه مؤثر فى الكلام مخرج له عن الخبرية. وكل ما أثر فى معنى الجملة من الاستفهام والعرض والتمنى والتنبيه ونحو ذلك فحقها صدر تلك الجملة، خوفاً من أن يحمل السامع تلك الجملة على معناها قبل التغيير، فإذا جاء المغير فى آخرها تشوش خاطره، لأنه يجوز رجوع معناه إلى ما قبله من الجملة مؤثراً فيها. ويجوز بقاء الجملة على حالها فيترتب جملة أخرى يؤثر ذلك المؤثر فيها» راجع شرح حديث الرضى فى شرحه على الكافية ٢/٩١.

(٢) من قصائد المفضليات انظر ص ١٥٠ وما بعدها - المفضليات تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون - دار المعارف ط ٧.

جزى الله قومى بالكلاب ملامة   صريحهم والآخرين المواليا

. . . .

ومن ذلك مطلع قصيدة المتنبى التى يمدح فيها مساور بن محمد الرومى فيقول[1]:

أمساور أم قرن شمس هذا   أم ليث غاب يقدم الأستاذا ؟
شم ما انتضيت فقد تركت ذبابه   قطعا ، وقد ترك العباد جذاذا
هبك ابن يزداذ حطمت وصحبه   أترى الورى أضحوا بنى يزداذا ؟
غادرت أوجههم بحيث لقيتهم   أقفاءهم وكبودهم أفلاذا
فى موقف وقف الحمام عليهم   فى ضنكه واستحوذ استحواذا

. . . .

ومن ذلك مطلع قصيدة أحمد شوقى أيها النيل ، حيث يقول[2] :

من أى عهد فى القرى تتدفق ؟   وبأى كف فى المدائن تغدق ؟
ومن السماء نزلت أم فجرت من   عليا الجنان جداولا تترقرق ؟
وبأى عين أم بأية مزنة   أم أى طوفان تفيض وتفهق ؟
وبأى نول أنت ناسج بردة   للضفتين جديدها لا يخلق ؟
تسود ديباجا إذا فارقتها   فإذا حضرت اخضوضر الاستبرق

. . . .

---

(١) راجع دار المثنى – الجزء الأول ص ٨٢ – شرح أبى البقاء العكبرى – الطبعة الأخيرة ١٩٧١ بتصحيح مصطفى السقا وآخرين – مطبعة مصطفى البابى الحلبى .

(٢) ديوان شوقى جـ ١ / ٢٣٣ – ٢٤٤ توثيق وشرح د . أحمد محمد الحوفى دار نهضة مصر للطبع والنشر .

الفصل الأول

الأساليب الإنشائية فى ظل التاريخ العلمى حتى عهد الإمام عبد القاهر

تمهيد

أقدم نص عثرنا عليه من خلال البحث يطلق اصطلاح الأساليب الانشائية على مدلولها العلمى المعروف الآن هو نص الخليفة الأموى القرشى عبد الملك بن مروان فى تعقيبه على أبيات خداش بن زهير الآتية بعد ، والتى ذكرها صاحب الأغانى فى روايته لحديث حرب الفجار الثانية(١) . وإن كنا

---

(١) كانت هذه الحرب بين قريش وقيس وكان رؤساء قريش فى الحرب يومئذ حرب بن أمية ، وعبد الله بن جدعان ، وهشام بن المغيرة ، وكان رؤساء قيس عامر ابن مالك ، ملاعب الأسنة ، وكدام بن عمير ، ومسعود بن سهم ، وكان سببها أن النعمان بن المنذر ـ ملك الحيرة ـ كان يرسل كل عام عيراً تحمل المسك والبز وغيرهما من عروض التجارة تسمى اللطيمة تباع فى سوق عكاظ ، وكان لابد لهذه اللطيمة من سيد يحميها حتى لا تنتهب ، فعرض البراض بن قيس بن رافع على النعمان أن يحميها ، وعرض عروة الرحال بن عتبة هذا الأمر أيضا على النعمان ، فدفعها الأخير إلى عروة فتبعه البراض متخفياً . وفى الطريق عند وادى تيمن لاحظ منه غفلة فقتله واستاق الركاب ، ثم لقى بشر بن أبى خازم وطلب منه أن تبلغ حرب بن أمية ، وعبد الله ابن جدعان ، وهشاماً ، والوليد ابنى المغيرة أنه قتل عروة عند وادى تيمن فقامت الحرب وهزمت قيس قريشاً شر هزيمة حتى دخلت الحرم وجن الليل ، فكف القتال ونادى الأدرم بن شعيب أحد بنى عامر ـ من زعماء قيس ـ يامعشر قريش ، ميعاد ما بيننا هذه الليلة من العام المقبل بعكاظ .

تؤمن أن الأسماء الاصطلاحية لهذه الأساليب ربما تكون قد تولدت مع لغة الكلام عند الإنسان(١).

يقول خداش بن زهير :

يا شدة ماشددنا غير كاذبة   على سخينة لولا الليل والحرم(٢)
إذ يتقينا هشام بالوليد ولو   انا ثقفنا هشاماً شالت الخدم(٣)
بين الأراك وبين المرج تبطحهم   زرق الأسنة فى أطرافها السمم(٤)
فإن سمعتم بجيش سالك سرفاً
وبطن مر فأخفوا الجرس واكتتموا(٥)

ويقول صاحب الأغانى عقب هذه الأبيات :(٦) « وزعموا أن عبد الملك ابن مروان استنشد رجلا من قيس هذه الكلمة ، فجعل يحيد عن قوله (سخينة)

---

(١) إيضاح ذلك أن الأمر فى لغة الكلام يعنى طلب حدوث شىء من المخاطب ، والنهى يعنى طلب الكف عن شىء ، والاستفهام يعنى طلب فهم شىء من المخاطب . . الخ وكل ذلك من مقتضيات لغة الكلام ، حيث يقال مثلا : فلان أمر فلاناً بكذا ، ونهاه عن كذا ، وطلب منه أن يفهم كذا .... الخ .

(٢) الشدة : يريد بها الهجوم . ماشددنا : ماشددناها . سخينة : لقب يطلق على قريش ، وهو فى الأصل طعام كانت تتخذه ، فأطلق عليها .

(٣) كان كل من هشام والوليد ابنى المغيرة يتقيا بأخيه ليقتل بدله . ثقفه : أدركه . شالت الخدم : كناية عن الهزيمة أيضا ، والخدمة جمع خدمة وهى الحلقة المحكمة .

(٤) الأراك ، والمرج : مكانان . والسمم : بضم السين والهاء ـ الحرارة الغالبة يعنى أن الأسنة الزرقاء حامية الأطراف .

(٥) سرف ، وبطن مر : مكانان ، يريد أنهم ينبغى عليهم حينما يسمعون بجيشهم أن يختفوا عن العيون ويكفوا عن الهمس حتى لايعرف مكانهم .

(٦) انظر الأغانى ٢٢/٦١ .

فقال عبد الملك إنا قوم لم نزل يعجبنا السخن ، فهات ، فلما فرغ قال : يا أخا قيس ، ما أرى صاحبك زاد على التمنى والاستنشاء » .

والتمنى الذى يشير إليه عبد الملك فى الأبيات هو قول خداش فى البيت الثانى (ولو أنا ثقفنا هشاماً شالت الخدم) ، والاستنشاء هو النداء فى أول الأبيات ، والجملة الشرطية فى آخر الأبيات حيث جوابها فعل أمر ، والعلماء قد صرحوا فيما بعد أن الجملة الشرطية من حيث الخبرية والانشائية معتبرة بجوابها ، ذلك أن الشرط قيد فى الجملة ، لكننا مع هذا النص نرى أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان قد عرض الاسم الاصطلاحى لهذه الأساليب بطريقة توحى بأن مستمعه يعرف مدلوله ومن ثم فإننا نرجح شيوع مدلول هــــذا الاصطلاح فى الأوساط الأدبية قبل زمن عبد الملك بوقت كبير ، وذلك يؤكد صدق ما زعمناه من قبل من أن مجال دراسة هذه الأساليب الأول هو الدراسات الدينية التى نهضت مع القرآن الكريم .

ويحلو لنا أن نذكر بعد ذلك طرفا من الدراسة الدينية لهذه الأساليب قبل أن نتوسع فى ذكر حديث الدراسة العربية لها ، حيث إن هذه الأخيرة هى مقصدنا وغايتنا من هذا البحث .

الدراسات الدينية للأساليب الإنشائية

قبل البدء فى الحديث عن هذه الدراسات نقول : إن علماء الدين قــد استجمعوا من النصوص التى وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته من أمثال ما ذكرته كتب التفسير :

- من حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل الأمر فى الآية الكريمة (استغفر لهم أولا تستغفر لهم) على التخيير ، وحمل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذلك الفعل على التسوية ، وتذكير عمر - رضى الله عنه - رسول الله صلى الله عليه وسلم - ألا يستغفر لعبد الله بن أبى لأنه منافق ، وقوله صلى الله

عليه وسلم لعمر : « إنما خيرني الله فقال : (استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وسأزيد على السبعين »(١)

ـ ومن تأويل عمرو بن العاص رضى الله عنه فعل النهى فى الآية الكريمة (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) على معنى الارشاد دون معنى التحريم الذى هو نص فى عدم ارتكاب المحرمات من قتل الناس بعضهم بعضا ، حيث ورد عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه قال لما بعثه النبى صلى الله عليه وسلم عام ذات السلاسل قال: احتلمت فى ليلة باردة شديد البرد فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابى صلاة الصبح قال : فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت ذلك له فقال : يا عمرو ، صليت بأصحابك وأنت جنب ، قال : قلت يارسول الله : إنى احتلمت فى ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فذكرت قول الله عز وجل (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) فتيممت ثم صليت فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا(٢) .

ـ ومن جعل ابن مسعود الاستفهام فى الآية الكريمة (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) مقصوداً به العتاب حيث قال : ما كان بين إسلامهم وبين أن عوتبوا بهذه الآية إلا أربع سنين(٣) .

ـ ومن قول ابن عباس وقتادة عن (هل) فى الآية الكريمة (هل أتى على الإنسان حين من الدهر) إنها بمعنى قد(٤) .

أقول : قد استجمع علماء الدين من أمثال ماقدمنا من النصوص ما مكنهم من أن يقيموا أسسا عامه لدراسه الأساليب الانشائية على نحو ماسنبينه الآن

(١) تفسير ابن كثير ٣٧٨/٢ . (٢) تفسير ابن كثير ٤٨٠/١ .
(٣) الاتقان فى علوم القرآن ٨٠/٢ .
(٤) البحر المحيط لأبى حيان ٣٩٣/٨ .

ونبدأ فى دراسة الأمر والنهى :

أحسن ما نمهد به لهذه الدراسة تمهيد الإمام الغزالى للحديث عن أقسام الأحكام الشرعية حيث قال(١) « خطاب الشرع إما أن يرد باقتضاء الفعل ، أو اقتضاء الترك ، أو التخيير بين الفعل والترك ، فإن ورد باقتضاء الفعل فهو أمر ، فإما أن يقترن به الاشعار بعقاب على الترك فيكون واجبا ، أو لا يقترن فيكون ندبا ، والذى ورد باقتضاء الترك ، فإن أشعر بالعقاب على الفعل فحظر ، وإلا فكراهية ، وإن ورد بالتخيير فهو مباح » .

ثم نقول :

توقف علماء الدين بصفة عامة ـ وعلماء الأصول بصفة خاصة ـ فى بحث أساليب الأمر والنهى أمام ثلاث نقاط :

النقطة الأولى : حدهما :

النقطة الثانية : صيغتهما .

النقطة الثالثة : مقتضاهما .

ولا يعنينا هنا تفاصيل هذه النقاط الثلاث فسبيل ذلك علم أصول الفقه ، وإنما يعنينا أن نشير بإيجاز إلى ما يخصنا من هذه النقاط .

وعن النقطة الأولى : نقول(٢) : حد الأمر أنه القول المقتضى طاعة المأمور بفعل المأمور به ، وحد النهى : أنه القول المقتضى ترك الفعل .

وعن النقطة الثانية أقول (٣) : الأمر هو قول القائل استعلاء افعل .

---

(١) المستصفى من علم الأصول للامام حجة الإسلام الغزالى ١/٤٢ .

(٢) المرجع السابق ١/١٦٢ .

(٣) انظر كتاب التوضيح لمتن التنقيح فى أصول الفقه للقاضى صدر الشريعة عبيد الله بن مسعود البخارى ١/١٤٩ .

والنهي قوله - استعلاء(١) - لاتفعل. واشترط بعضهم العلو - دون الاستعلاء .

وهما وإن كانا يفترقان من حيث إن العلو من الصفات العارضة المتكلم حيث يكون الآمر - في نفسه - أعلى درجة ومرتبة من المأمور ، والاستعلاء من الصفات العارضة للكلام حيث يجعل المتكلم نفسه عاليا بكبرياء أو غيره . أقول : وهما وإن كانا يفترقان من هذه الحيثية فإنهما يتفقان من حيث الإلزام والوجوب .

ويجب أن نسجل هنا أن لكلا الشرطين قيمة بلاغية جديرة بالذكر والتنويه ، فشرط العلو قد دفع العلماء إلى البحث في المخاطب الذي هو محل الأمر ، حيث ذكر صاحب الابهاج في شرح المنهاج مانصه(٢) : « قالوا : - أي عن الأمر واشتراط العلو فيه - لا يصدق إلا به ، أي بأن يكون الطالب أعلى مرتبة من المطلوب منه ، فأما إن كان مساويا له فهو التماس ، وإن كان دونه فهو سؤال » .

وهذا الأخير هو الذي أطلق عليه البلاغيون اسم الدعاء .

وربما كان شرط العلو أيضا هو الدافع للعلماء لكي يبحثوا الموقف الخطابي للأمر حيث ذكروا من معانيه التعجيز في مثل قوله سبحانه(٣) (كونوا حجارة أو حديدا) ، والإهانة في مثل قوله عز وجل (ذق إنك أنت العزيز الكريم)(٤) وغير مما سيأتي ذكره

وشرط الاستعلاء هو الذي دفع العلماء أيضا إلى المقارنة بين قرائن الحال وقرائن المقال ، وبيان أن قرائن الحال أقوى من قرائن المقال ، يقول صاحب الابهاج أيضا(٥) : « وقد يتردد المتردد في الصيغة التي فيها الكلام إذا اقترنت

---

(١) يخرج بذلك الدعاء والالتماس . (٢) جـ ٢/٦ .
(٣) سورة الأسراء آية ٥٠ . (٤) سورة الدخان آية ٤٩ .
(٥) جـ ٢ ص ١٦ .

بالألفاظ التي ذكرناها - أي بالقرائن اللفظية ... فأما قرائن الأحوال فلا ينكرها أحد ».

وعن النقطة الثالثة نقول(١) : اختلف الأصوليون في مقتضى صيغة الأمر على أقوال :

ذهب كثير من العلماء ومنهم الإمام الشافعي في أحد قوليه : إلى أن صيغة الأمر مشتركة اشتراكا لفظيا بين الوجوب والندب ، بمعنى أنها موضوعة لكل منهما استقلالا ، وهي في كليهما تعني الطلب الجازم أو الراجح للشيء ، ومن ثم فإنها تطلق حقيقة على الأمر الواجب والأمر المندوب، لأن المندوب طاعة ، ولا تطلق على المباح إلا مجازاً خلافا للكعبي الذي يرى أن المباح واجب ومأمور به لكون المرء قد ترك من أجله الحرام .

وذهب بعض العلماء إلى أن صيغة الأمر مشتركة بين الوجوب والندب اشتراكا معنويا ، بمعنى أنها موضوعة للقدر المشترك المناسب بينهما ، وهو مجرد الطلب على جهة الاستعلاء .

وذهب المرتضى - من الشيعة - إلى أن صيغة الأمر مشتركة بين الوجوب والندب والإباحة ، فهي موضوعة للقدر المشترك بين الثلاثة - أعني الإذن في الفعل - ، ومن ثم فهي تعني مطلق الطلب جازما أو راجحا أو مساويا - بينما يرى جمهور الشيعة أن صيغة الأمر مشتركة بين هذه الأمور الثلاثة مضافا إليها أمر رابع هو التهديد .

على أن هناك من علماء الفقه والأصول من يرى أن الاشتراك في صيغة الأمر يخل بالمعنى لأنه خلاف الأصل ، ومن ثم فهو يقول : إن موجب صيغة الأمر ومقتضاها شيء واحد هو الإباحة - كما هو قول الإمام مالك

---

(١) راجع كتاب التوضيح السابق ١/١٤٩-٢٦٥ هذا، وهناك مقتضيات أخرى سنذكرها في حينها .

رضى الله عنه - لأن الأمر بمعنى طلب وجود الفعل يفيد - من حين - الشىء الأدنى المتيقن - الإباحة .

وقال أبو هاشم وجماعة من الفقهاء وعامة المعتزلة - وهو أحـــد قولى الشافعى رضى الله عنه - : إنه الندب لأنه لطلب الفعل ، فلابد من رجحان جانبه على جانب الترك ، وأدناه الندب، لاستواء الطرفين فى الإباحة، وكون المنع عن الترك أمراً زائداً على الرجحان .

وقال أكثر العلماء - الجمهور - إنه الوجوب لأنه كمال الطلب ، والأصل فى الأشياء الكمال ، لأن الناقص ثابت من وجه دون وجه ، فمن جعله للإباحة أو الندب جعل النقصان أصلا ، والكمال عارضا ، وهو قلب المعقول .

لكن يبقى السؤال - الآن - هل يكون هذا الوجوب الذى قال به أكثر العلماء من جهة اللغة أو من جهة الشرع أو من جهتهما معا ؟

الواقع أن إجابات العلماء تمتور هذه الاتجاهات الثلاثة ، فالقائل بأن الوجوب فى صيغة الأمر إنما جاء من جهة اللغة قال : إنه إذا كان قد ثبت فى إطلاق أهل اللغة تسمية من خالف مطلق الأمر عاصيا ، وأنه يستحق التقريع والتوبيخ ، وثبت أيضا أن التوبيخ والتقريع لا يكون إلا بترك واجب ، فالوجوب لابد أن يكون وجوبا لغويا مستفاداً من اللفظ . والقائل بأن الوجوب فى صيغة الأمر عن جهة الشرع قال : إن الوجوب لا يعقل دون التقييد بالوعيد على الترك ، والقائل بأن الوجوب فى صيغة الأمر من جهتهما معا جمع بين الأمرين فقال : إن الصيغة لتمحيص الطلب وإيجابه ، والوعيد على الترك ثابت عند مخالفة أوامر الشرع(١) .

ولعل من أدلة هذا الرأى الأخير الذى عليه أكثر العلماء - أعنى الوجوب -

---

(١) راجع الإبهاج فى شرح المنهاج لشيخ الإسلام على بن عبد الكافى السبكى وولده تاج الدين عبد الوهاب بن على السبكى ج ٢ - ٢٦ .

إجماع الأمة عليه من جهة ، وذكر أكثر العلماء فى الاستدلال له الآيات الصريحة الكريمة الآتية : (ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك)[1] ـ (وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون) ـ (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) ـ (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) ـ (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) ، حيث إن الآية الأولى تشير إلى ذم ترك السجود وهو ما يدل على وجوب الأمر به ، سواء كان ذلك من جهة اللغة أو الشرع أوهما معاً ، والآية الثانية تشير إلى العرف المشاهد حيث إن كل من يريد طلب الفعل جزماً يطلب بهذا اللفظ ـ أعنى صيغة افعل ـ وهذا هو الوجوب اللغوى ، والآية الثالثة توجب على المؤمنين والمؤمنات أن يكون اختيارهم تبعاً لاختيار الله ورسوله وذلك هو الوجوب الشرعى ، والآية الرابعة يشير تعليق الحكم فيها بالوصف إلى العلية ، أى أن خوفهم وحذرهم من إصابة الفتنة فى الدنيا أو العذاب فى الآخرة يجب أن يكون بسبب مخالفتهم الأمر . وذلك هو الوجوب الشرعى أيضا ، أما الآية الخامسة فقد ذهب الشيخ الإمام أبو منصور الماتريدى وغيره من العلماء إلى أنها مجاز عن سرعة الإيجاد ، والمراد بها التمثيل لاحقيقة للقول ، وقد جعل الأمر قرينة الإيجاد ، ومثل سرعة الإيجاد بالتكلم بهذه الكلمة وترتب وجود الأمر به عليها ، فلو لم يكن الوجود مقصوداً بأمر (كن) لما صح هذا التمثيل ، سواء جعلنا هذا الكلام حقيقة

---

(١) الآيات على الترتيب : سورة الأعراف ١٢ ـ سورة المرسلات ٤٨ ـ سورة الأحزاب ٣٦ ـ سورة النور ٦٣ ـ سورة يس ٨٢ ، هذا وقد رأيت عدم التوسع فى ذكر أدلة كل فريق ومناقشتها لأن هذا مما يخرجنى عن صميم بحثى ، ويمكن لمن شاء الرجوع إليه فى كتب الأصوليين ، ومنها : الأحكام فى أصول الأحكام للآمدى ١٦٢/٢ ـ ١٦٣ ، الإبهاج فى شرح المنهاج ٢٢/٢ ـ ٤٢ ، فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت ٣٧٣/١ ـ ٣٧٧ .

- كما قال فخر الإسلام البزدوى - أو مجازاً - كما قال الماتريدى - يجب أن يكون الوجود مراداً بأمر (كن) وكما يكون الوجود مراداً بأمر (كن) يكون مراداً بجميع أوامر الله تعالى، لأنها من قبيل أمر (كن) كلها لأن معنى أقيموا الصلاة ، كونوا مقيمين للصلاة[1] .

وقد ندى من وحى هذا الرأى الأخير الذى عليه أكثر العلماء أيضاً أن نخالف ما عرضه فخر الإسلام البزدوى رحمة الله علينا وعليه فقال : إذا أريد بالأمر الإباحة أو الندب فقد زعم بعضهم أنه حقيقة ، ونقول مع الكرخى والجصاص وأكثر الشارحين أنه مجاز ، ذلك أن هذا الزعم - كما أسلفنا - يؤدى إلى جعل النقصان أصلا ، والكمال عارضاً ، وهو قلب المعقول[2] .

بقى أن نقول : إن الإمام الغزالى وابن سريج من أصحاب الإمام الشافعى

---

(١) أمر التكوين يكون من الكون بمعنى الحدوث والوجود والخلق من كان التامة أما أمر التكليف فهو من الكون بمعنى وجود الشيء على صفة خاصة من كان الناقصة ، إذ لو جعل الوجود على صفة خاصة والتكون مراداً من جميع الأوامر على معنى كان للقامة لزم عدم اختيار العبد فى الأتيان بالفعل المكلف به بأن يحدث الفعل شاء أو لم يشأ . وبطلت قاعدة التكليف .

(٢) المشهور فى كتب الأصوليين أن أخبار الشارع يراد بها الأمر مجازاً ، وإنما عدل عن الأمر إلى الأخبار لأن المخبر به (اسم مفعول) إن لم يوجد فى الأخبار يلزم كذب الشارع ، والمأمور به إن لم يوجد فى الأمر لا يلزم ذلك ، فإذا أريد المبالغة فى وجود المأمور به عدل إلى لفظ الأخبار مجازاً (راجع حوار العلماء حول الآية الكريمة : والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين - ومنهم الزمخشرى فى الكشاف ٣٦٩/١) ، والمشهور أيضاً عند أكثر علماء الأصول أن الأمر المطلق بعد الحظر للاباحة ، بينما المختار فى هذا الأمر الأخير لدى المحققين أنه للوجوب ، على أن البعض قد ذهب إلى التوقف أيضا ، لكنه لا نزاع - فى أى موطن - فى الحمل على مايقتضيه المقام عند إشارة القرينة إليه .

وجماعة من المحققين رحمة الله علينا وعليهم جميعاً قد زعموا أن موجب الأمر ومقتضاه التوقف، لأنه يستعمل فى معان كثيرة بلغ بها الإمام الغزالى خمسة عشر معنى هى :

١ - الوجوب مثل قوله سبحانه (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل)(١)

٢ - الندب مثل قوله سبحانه (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا)(٢) .

٣ - الارشاد مثل قوله سبحانه (واستشهدوا شهيدين من رجالكم)(٣) .

٤ - التأديب مثل قول الرسول الأعظم لابن عباس (كل مما يليك)(٤) .

٥ - الاباحة مثل قوله عز من قائل (وإذا حللتم فاصطادوا)(٥) .

---

(١) سورة الإسراء آية ٧٨ .

(٢) سورة النور آية ٣٣ قال البدخشى فى شرحه لكتاب منهاج الوصول فى علم الأصول ٢/١٦ وهو يحال الندب فى الآية : فإن كلا من الكتابة وإيتاء المال مندوب لكونه مقتضياً للثواب مع عدم العقاب على الترك .

(٣) سورة البقرة آية ٢٨٢ . قال الآمدى ٢/ ١٦٠ « وهو - أى الإرشاد - قريب من الندب لاشتراكهما فى طلب تحصيل المصلحة غير أن الندب لمصلحة أخروية ، والإرشاد لمصلحة دنيوية » وقال الإسنوى فى شرحه لكتاب منهاج الوصول فى علم الأصول ٢/ ٢٠ « والعلاقة التى بين الواجب وبين المندوب والإرشاد هى المشابهة المعنوية لاشتراكهما فى الطلب » .

(٤) ذكر الغزالى - كما ذكر البيضاوى - التأديب منفصلا عن الندب مع أنه داخل فيه ، وعلل البدخشى ذلك بقوله ٢/١٦ ، ١٧ فى شرح كلام البيضاوى (لأن الندب لثواب الآخرة ، والتأديب لتهذيب الأخلاق وإصلاح العادات وذلك ربما يفيد ملكة يصدر عنها الأفعال المستجلبة للثواب .

(٥) سورة المائدة آية ٢ ، والعلاقة بين الوجوب والإباحة الإذن ، وهى مشابهة معنوية أيضا - كما قال الإسنوى ٢ / ٢١ (الشرح السابق) .

٦ - الامتنان مثل قوله عز من قائل (فكلوا مما رزقكم الله) .[1]

٧ - الإكرام بالمأمور مثل الآية الكريمة (ادخلوها بسلام آمنين)[2] .

٨ - التسوية مثل قوله سبحانه (اصبروا أولا تصبروا)[3] .

٩ - التهديد مثل قوله سبحانه (اعملوا ماشئتم)[4] .

١٠ - الانذار مثل قوله سبحانه (كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون)[5] .

١١ - التسخير مثل قوله سبحانه (كونوا قردة خاسئين)[6] .

---

(١) سورة النحل آية ١١٤ هذا ، وقد فرق الأسنوى بين الإباحة والإمتنان بأن الاباحة هى الإذن المجرد والامتنان إذن يقترن بالاحتياج أو عدم القدرة مثل ما فى الآية من أن الله هو الرازق ، والعلاقة أيضا هى المشابهة المعنوية لأن الامتنان يكون فى مأذون فيه .

(٢) سورة الحجر آية ٤٦

(٣) سورة الطور آية ١٦ والعلاقة بين الوجوب والتسوية هى التضاد حيث التسوية تفيد تعادل الفعل مع الترك .

(٤) سورة فصلت آية ٤٠ والتهديد هو التخويف قال البدخشى ٢/١٧ لظهور أن ليس المراد الإذن بالعمل بما شاءوا بمعونة القرائن على إرادة التخويف

(٥) سورة المرسلات آية ٤٦ والإنذار فى معنى التهديد ، والعلاقة بين أى من التهديد أو الإنذار والإيجاب هى التضاد . قال البدخشى ٢/١٧ عن الإنذار وهو « إبلاغ مع تخويف » وفى القاموس : أنذره بالأمر : أعلمه وحذره وخوفه فى إبلاغه - مادة نذر ، هدده : خوفه - مادة هدد - وألاحظ أن الفرق بينهما هو أن التهديد يكون فى مقام العداء ، ولذلك مثل له البعض بقوله سبحانه (واستفزز من استطعت منهم) والإنذار يكون فى مقام التخويف مثل (فأنذرتكم ناراً تلظى) وقد يكون فى موقف غير عدائى مثل قوله سبحانه (وأنذر عشيرتك الأقربين) .

(٦) سورة البقرة آية ٦٥ ، وسورة الأعراف آية ١٦٦ ، والمعنى : صيروا قردة خاسئين ، وقد صاروا كما أراد ، وهذا هو معنى التسخير وهو الانتقال إلى حالة ممتهنة ، وقد ذكر الغزى أنه تعالى إنما خاطبهم بذلك فى معرض تذليلهم ، وقد يتناسب هذا مع ما سيأتى فى مثل قوله سبحانه (ذق ....) .

١٢ ـ كمال القدرة مثل قوله عز وجل (كن فيكون)(١) .

١٣ ـ الإهانة مثل قوله سبحانه (ذق إنك أنت العزيز الكريم)(٢) .

١٤ ـ الدعاء مثل قوله سبحانه (رب اغفر لى ولو الدى ولمن دخل بيتى مؤمنا)(٣) .

١٥ ـ التمنى قول امرىء القيس(٤) .

---

(١) سورة البقرة آية ١١٧ ، وسورة يس آية ٨٢ وسماه بعضهم التكوين إذ ليس المراد حقيقة الخطاب والإيجاد ، قال الأسنوى (٢/٢١ ، ٢٢) والفرق بين التكوين والتسخير أن التكوين سرعة الوجود عن العدم وليس فيه انتقال من حالة إلى حالة ، والتسخير هو الانتقال إلى حالة ممتهنة إذ التسخير لغة هو الذلة والامتهان فى العمل ، ومنه قوله تعالى (سبحان الذى سخر لنا هذا) أى ذلله لنا لنركبه . . . والبارىء تعالى خاطبهم بذلك فى معرض التذليل ، والعلاقة فيه وفى التكوين هى المشابهة المعنوية ، وهى التحتم فى وقوع هذين ، وفى فعل الواجب . وقد يقال العلاقة فيهما هو الطلب » .

(٢) سورة الدخان آيه ٤٩ قال البدخشى فى تحليل الآية ٢/١٨ « للاهانة بقرينة المقام ، ومن هذا يستفاد أن الوصف بالعزيز الكريم استهزاء بهم » ثم قال : والأنسب جعله من الاذلال وقال الأسنوى ٢/٢٣ « والفرق بين الاحتقار والإهانة أن الإهانة تكون بقول أو فعل أو ترك قول أو ترك فعل ، كترك إجابته والقيام له عند سبق عادته ولا يكون بمجرد الاعتقاد فإن من اعتقد فى شىء أنه لا يعبأ به ولا يلتفت إليه لا يقال إنه احتقره ولا يقال إنه أهانه . والحاصل أن الإهانة هى الإنكار كقوله تعالى (ذق) والاحتقار عدم المبالاة كقوله تعالى (بل القوا ما أنتم ملقون) » وأقول معقباً على هذا الفرق إن العلماء قد مثلوا للاهانة أيضاً بما يقصد به قلة المبالاة كقوله سبحانه (قل كونوا حجارة أو حديداً) وليس هذا من باب التسخير لأنه لا يقصد صيرورتهم كذلك . راجع شرح البدخشى ٢/١٨ .

(٣) سورة نوح آية ٢٨ . والدعاء هو الطلب بتضرع و والعلاقة بينه وبين الوجوب هى الطلب .

(٤) الأمر هنا إشعار بتمنى انجلاء الليل وانكشافه . فإن قلت ـ كما قال بعضهم ـ الليل وإن كان طويلا يرجى انجلاؤه فالأنسب الحمل على الترجى فإن الأسنوى يجيبك

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى   بصبح وما الاصباح منك بامثل

كما ذكروا ايضا للنهى سبعة معان هى :

١ - التحريم مثل قوله سبحانه (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا)(١) .

٢ - الكراهة مثل قولك لرفيقك : لا تصل يافلاين فى الأرض المغصوبة .

٣ - التحقير مثل قوله تعالى : (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه)(٢) .

٤ - بيان العاقبة مثل قوله سبحانه (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون)(٣) .

٥ - الدعاء مثل قوله عز وجل(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو اخطأنا)(٤) .

٦ - الارشاد مثل قوله عز وجل (لاتسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم)(٥) .

٧ - اليأس مثل قوله عز وجل (يا أيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم)(٦)

على أن هذا الرأى الأخير القائل بالتوقف قد عارضه شارح التلويح الشيخ سعد الدين التفتازانى بما لاداعى لذكره هنا ، فمكانه علم الأصول لايفوت من يطلبه(٧) .

هذا ، ويجب أن يكون ملاحظا سعة باع الأمر عن النهى ، ذلك أن

= بقوله : الترجى يكون فى الممكنات والتمنى فى المستحيلات ، وليل المحب لطوله كأنه مستحيل الانجلاء ، ولهذا قال الشاعر (وليل المحب بلا آخر) .

(١) سورة الإسراء آية ٣٢ .   (٢) سورة طه آية ١٣١ .

(٣) سورة إبراهيم ٤٢ .   (٤) البقرة آية ٢٨٦ .

(٥) سورة المائدة ١ ١ .   (٦) سورة التحريم آية ٧ .

(٧) راجع الشرح المذكور ١/١٥٢ .

هناك فرقا بينهما فى مجال التكليف ، فهو فى الأول فى حدود الاستطاعة بنص القول الكريم (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)(١)، وقوله عز وجل (فاتقوا الله ما استطعتم)(٢) ، والحديث الشريف (مانهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)(٣) ومن هنا يتوارد عليه كثير من المعانى . أما فى النهى فكما هو مبين فى الحديث الأخير ، وكما هو ملاحظ فى أساليب النهى الكريمة مثل (لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله)(٤) لايعدو أن يكون فى غالب الأمر تحريم وترك ، أو كراهية وترك ، وقد أكد العلماء أن مجال المفارقة بين الأمر والنهى على هذه الصورة من خصائص هذه الأمة حيث قد رخص الله عز وجل لها من أمور التكليف مالم يرخص لغيرها .

وقبل أن نترك هذه النقطة لابد أن نشير إلى أنه لم يرد ضمن المعانى المجازية للامر والنهى معنى الالتماس الذى يكون عند تساوى المتكلم مع المخاطب ، وقد رأيت القاضى البيضاوى (ت ٦٨٥ هـ)صاحب منهاج الوصول إلى علم الأصول يشير إلى هذا المعنى فيعلق عليه الشارح بأن ابن دقيق العيد رأى أن ذلك منه اصطلاح خاص . ونحن نقول لابن دقيق العيد إن البلاغيين قد أخذوا بهذا الاصطلاح(٥) .

التكرر والفور فى حديث الأمر والنهى :

إذا كان لنا أن نتوسع قليلا فى مجال حديث العلماء عن المفارقات بين

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٦ . (٢) سورة التغابن آية ١٦ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الاعتصام ، ومسلم فى كتاب الفضائل ، واللفظ له .

(٤) سورة المنافقون آية ٩ .

(٥) راجع جـ ١/ ٢١٨ الإبهاج فى شرح المنهاج لشيخ الإسلام على بن عبد الكافى السبكى (ت ٧٥٦ هـ) وولده تاج الدين عبد الوهاب (ت ٧٧١ هـ) .

صيغتى الأمر والنهى – فيما يخص حديث اللغة والبلاغة – فإن لنا أن نعرض لحديثهم عن الامتثال المتكرر والامتثال الفورى لمضمون صيغتيهما .

وعن الأمر الأول (الامتثال المتكرر) نقول :

يكاد يجمع العلماء على أن النهى المطلق أو المعلق بشرط أو صفة يقتضى التكرار دائماً ، ذلك أن مقتضى الأول الكف عن المنهى عنه ، ولا يتأتى ذلك إلا بالامتناع المستمر المتجدد مثل قول الله سبحانه (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين)(١) ، ومقتضى الثانى أن الحكم يتعلق بالعلة ، أعنى الشرط أو الصفة ، ويتكرر بتكررها مثل قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون)(٢) .

أما الأمر فالحديث عنه حديث اتفاق واختلاف ، أما عن الاتفاق فقد اتفق جمهور العلماء على ما يلى :

أولا : الأمر الذى يعلم تكراره بقرينة عرفية أو شرعية مثل قول القائل لغيره : احفظ دابتى ، وأمسك ودیعتى ، وقول الله عز وجل (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) يفيد التكرار دوما .

ثانيا : الأمر المعلق بشرط أو صفة هى عـــلة فى وجوده وإيجابه يفيد التكرار دوماً ، مثل قول الله سبحانه (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله)(٣) ، وقوله عز من قائل (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله)(٤) ، وقوله تبارك وتعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ، وإن كنتم

---

(١) سورة النساء آية ١٤٤ . (٢) سورة الحجرات آية ٢ .
(٣) سورة النور آية ٢ . (٤) سورة المائدة آية ٣٨ .

جنبا فاطهروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه)[1].

ثالثا : الأمر المقيد بقيد المرة الواحدة لا يفيد التكرار مثل قوله سبحانه (وأتموا الحج والعمرة لله)[2] فقد ورد أن الأقرع بن حابس الذى كان يحج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وجوب الحج بالآية الكريمة (ولله على الناس حج البيت)[3] قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أحجنا هذا لعامنا هذا أم للأبد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: للأبد ، ولو قلت: نعم لوجب .

وأما عن الاختلاف فقد اختلف الأصوليون فى الأمر المطلق العرى عن القرائن مثل قول الله سبحانه (فاقتلوا المشركين)[4] فذهب الأستاذ أبو إسحاق الاسفرائينى وجماعة من الفقهاء والمتكلمين إلى أنه مقتض للتكرار المستوعب لزمان العمر مع الامكان، وذهب آخرون إلى أنه للمرة الواحدة ومحتمل للتكرار ، ومنهم من نفى احتمال التكرار ، وهو اختيار أبى الحسين البصرى وكثير من الأصوليين ، ومنهم من توقف فى الزيادة ولم يقض فيها بنفى ولا إثبات ، وإليه ميل إمام الحرمين والواقفية[5] :

والمختار لدى أكثر العلماء أن الأمر المطلق لا يفيد التكرار ولا يدفعه، وإنما يفيد طلب الماهية من غير إشعار بالوحدة أو الكثرة ، والدليل على ذلك أنه إذا قال الشارع صم أو صل، فقد أمر بإيقاع فعل الصوم او الصلاة، وهو مصدر افعل ، والمصدر محتمل للاستغراق والعدد[6] .

---

(١) سورة المائدة ٦ . (٢) سورة البقرة آية ١٩٦ .
(٣) سورة آل عمران آية ٩٧ . (٤) سورة التوبة آية ٥ .
(٥) انظر الأحكام فى أصول الأحكام للآمدى ٢/١٧٣ ، ١٧٤ .
(٦) الموضع السابق .

أما عن الأمر الثانى (الامتثال الفورى) فإننا نقول :

يكاد يجمع العلماء أيضا ، على أن النهى - بصفة عامة - يفيد الامتثال الفورى المستمر أو المتجدد ، لأنه يتعلق إما تعلق بدفع المفاسد والمضرات فى دنيا الناس ، أو بالأمور التحريمية فى الدين مثل قوله سبحانه (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق)(١) .

أما الأمر فإن كان معه ما يفيد الفورية فى الامتثال كان مفيداً للامتثال الفورى ، وكان مفيداً لمعنى الوجوب مثل قوله سبحانه (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين)(٢) فإن الأمر بالسجود هنا أمر يفيد التعجيل بدليل قوله سبحانه فى هذا المقام (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين)(٣) حيث جعل الأمر بالسجود جزاء لشرط التسوية والنفخ ، والجزاء يحصل عقيب الشرط ، وبدليل توبيخ الله عز وجل إبليس فى هـــذا المقام أيضا بقوله (ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك)(٤) .

وإذا لم يكن مع الأمر ما يفيد الفورية فى الامتثال بأن كان أمرا مطلقا فإنه بذاته لا يفيد الفور ولا يدفعه ، ولذلك اختلفوا فيه ، فذهبت الحنفية والحنابلة وكل من قال بحمل الأمر على التكرار إلى وجوب التعجيل ، ذلك أنه قد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا أبا سعيد بن المعلى(٥)

---

(١) سورة الإسراء آية ٣٣ . (٢) سورة البقرة آية ٣٤ .

(٣) سورة ص آية ٧٢ . (٤) سورة الأعراف آية ١٢ .

(٥) ذكر فى كثير من كتب الأصوليين أنه أبو سعيد الخدرى ، وذكر الطبرى فى تفسيره (١٤٢/٦ - بيروت ١٩٨٧) إنه أبى بن كعب ، وقد حقق إنه أبو سعيد ابن المعلى الشيخ القرافى ، ونقله عنه الشيخ على عبد الكافى السبكى صاحب الإبهاج فى شرح المنهاج ٣٨/٢ ، ثم قال : وقد سألت شيخنا الحافظ الذهبى رحمه الله : هل روى هذا الحديث من طريق الخدرى فى شىء من الكتب والأجزاء ؟ فقال : لا .

- رضى الله عنه - وهو فى الصلاة فلم يجبه ، فقال له صلى الله عليه وسلم ذاما وموبخا على تراخيه : أما سمعت الله تعالى يقول: (ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم)[1] .

وذهبت الشافعية والقاضى أبو بكر وجماعة من الأشاعرة والجبائى وابنه وأبو الحسين البصرى إلى التراخى ، وجواز التأخير عن أول وقت الامكان .

وأما الواقفية فقد توقفوا ، لكن منهم من قال : التوقف إنما هو فى المؤخر هل هو ممتثل أم لا ؟ وأما المبادر فإنه ممتثل قطعا ، لكن هل يأثم بالتأخير ؟ اختلفوا فيه : فمنهم من قال بالتأثيم ، وهو اختيار إمام الحرمين ، ومنهم لم يؤثمه ، ومنهم من توقف فى المبادر أيضا ، وخالف فى ذلك إجماع السلف .

والمختار أنه مهما فعل ، كان الفعل مقدما أو مؤخراً ، كان ممتثلا للأمر ، ولا إثم عليه بالتأخير ، والدليل على ذلك أن الأمر حقيقة فى طلب الفعل لاغير ، فمهما أتى بالفعل فى أى زمان كان ، مقدما أو مؤخرا ، كان آتيا بمدلول الأمر ، فيكون ممتثلا للأمر ، ولا إثم عليه بالتأخير لكونه آتيا بما أمر به على الوجه الذى أمر به[2] .

وبعد ، فإنى فى نهاية حديث المفارقات بين الأمر والنهى أقول : إنهم إنما فرقوا بينهما[3] :

- ٥ لأن النهى لرفع المفاسد المتعلقه بالمنهى ، والأمر لتحصيل المصالح المتعلقة بالمأمور ، واعتناء الشارع بدفع المفاسد أشد من اعتنائه بجلب المصالح .

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٤ .

(٢) انظر الاحكام فى أصول الاحكام للآمدى ٢/١٨٤ ، ١٨٥ .

(٣) انظر الإبهاج فى شرح المنهاج ٢/٤٧ .

- ... ولأن النهى عن الشىء موافق للأصل الذى هو عدم الفعل ، ولا كذلك الأمر لاقتضائه الفعل .

- ... ولأن دلالة النهى على التحريم أقوى من دلالة الأمر على الوجوب، لأنه إذا اجتمع الحلال والحرام ، غلب الحرام ، والله أعلم .

ثم أقول :

إنه لم يلتفت أحد من البلاغيين إلى استثمار حديث الأصوليين السابق إلا فى الحديث عن المعانى المجازية التى سبق ذكرها . أما هذا الحديث الأخير فلم يستفد منه سوى السكاكى الذى قاس الامتثال الفورى(١) لصيغة الأمر على الاستفهام والنداء فقال(٢) : « والأمر والنهى حقهما الفور ، والتراخى يوقف على قرائن الأحوال لكونهما للطلب ، ولكون الطلب فى استدعاء تعجيل المطلوب أظهر منه فى عدم الاستدعاء له عند الانصاف والنظر إلى حال المطلوب بأخويهما ، وهما الاستفهام والنداء »(٣) .

---

(١) رأى القزوينى أن مدلول صيغة الأمر هو طلب ماهية الفعل مطلقاً دون اعتبار الفور أو التراخى ، فهما لا يعتبران إلا بالقرينة ، فإذا قلت لولدك : اسقنى ، فالمراد طلب السقى على الفور بقرينة الاحتياج إليه . انظر شروح التلخيص ٢/٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٢) مفتاح العلوم ١٣٧ .

(٣) ومما قال السكاكى من أدلة الامتثال الفورى أيضا : « ومما ينبه على ذلك تبادر الفهم إذا أمر المولى عبده بالقيام ، ثم أمره قبل أن يقوم بأن يضطجع وينام حتى المساء - إلى أن المولى غير الأمر ، دون تقدير الجمع بينهما فى الأمر وإرادة التراخى للقيام ، وكذا استحسان العقلاء عند أمر المولى عبده بالقيام أو القعود ، أو عند نهيه إياه ، إذا لم يتبادر إلى ذلك ذمه » .

هذا ، وقد تعرض السكاكى أيضا لما عبر عنه بمذهب البعض ، وهو أن الأمر أصل فى المرة . والنهى أصل فى الاستمرار ، فقال : « وأما الكلام فى أن الأمر أصل فى المرة أم فى الاستمرار وأن النهى أصل فى الاستمرار أم فى المرة - كما هو مذهب البعض - فالوجه هو أن ينظر : إن كان الطلب بهما راجعة إلى قطع الواقع ، كقولك =

وأقول معقباً على رأيه : إنه لم يحاول بيان أثر ذلك على الحديث الأدبي ، وهو الأمر المهم الذي يخدم البلاغة بصورة مباشرة .

وأقول في بيان هذا الأثر :

إن الامتثال الفوري والمتجدد الذي قال به الأصوليون في صيغة النهي وبعض صور صيغة الأمر يفيد في استحضار الصورة الأدبية ودوام استمرار وجودها في نظر المتعمق للنص الأدبي ، وها نحن نختار بعض ما جاء من ذلك في أكرم النصوص وأشرفها ، ألا وهو القرآن الكريم ، يقول الله سبحانه في حق عذاب الكافر يوم القيامة (خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه)(١) .

إن صيغ الأمر في هـــذه الآيات الكريمة تفيد تعجيل تنفيذ الملائكة أوامر الله سبحانه في تعذيب الكافر بما ذكر في الآيات ، كما تفيد تجدد ذلك واستحضاره صورة مرئية للناظرين ، وفي ذلك من الإهانة والخزي النفسي المؤلم ما يناسب معرض الآية على كفار مكة حيث بدأ عرض حال المؤمنين والكافرين على مسامع ومرائي أهل مكة بصورة مرئية تبدأ بقوله سبحانه (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية)(٢) فالمشهد هنا مشهد منظور ، وذلك ما يناسب عرض الصورة مرئية متجددة .

آية أخرى لصيغة النهي ، هي قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله)(٣) وردت هذه الآية في سورة المنافقون

= في الأمر للساكن : تحرك ، وفي النهي للمتحرك : لا تتحرك ، فالأشبه المرة . وإن كان الطالب بهما راجعاً إلى الحال الواقع ، كقولك في الأمر للمتحرك : تحرك ، وقولك في النهي للمتحرك : لا تسكن ، فالأشبه الاستمرار » مفتاح العلوم ١٣٧ ، ١٣٨ .

(١) سورة الحاقة آية ٣٠ — ٣٢ . (٢) سورة الحاقة آية ١٨ .

(٣) سورة المنافقون آية ٩ .

بعد ذكر طرف من أخبار المنافقين الذين اعتقدوا أنهم منوا على الله ورسوله بالنصرة بالمال والأنفس ، وكان من جراء مساعداتهم أن أصبح الدين ، بل والمجتمع الإسلامي كله عزيزاً ، وذلك خيال مريض رده الله عليهم بقوله: (ولله خزائن السماوات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون)[1] ، وقوله (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون)[2] .

أقول : وردت هذه الآية بعد ذكر ما قدمنا تحذيراً للمؤمنين أن يصيبهم ما أصاب المنافقين فيخسروا كل شيء كما خسر المنافقون ، وبدهي أن هذا التحذير يستمر ويتجدد مع الزمن يذكر المؤمنين بما حـــدث للمنافقين ويستحضر لهم صورته مرئية أمام أعينهم حتى يكونوا دائماً فى منأى عنه .

موقف الأصوليين من الأساليب الإنشائية غير الأمر والنهى :

ما سبق كله عن دراسة الأصوليين للأمر والنهى ، أما عن دراستهم لبقية الأساليب الانشائية فإن بعضهم يرى إخراج التمنى والنداء من أبواب هذه الأساليب وإدخالها فى باب التنبيه ، ولنقرأ فى هـــذا الصدد قول صاحب الابهاج فى شرح المنهاج فى حديثه عن شرح الكلام المركب الذى صيغ للإفهام وإفادة الطلب[3] « فإن أفاد – أى المركب – بالذات طلباً ، فالطلب للماهية استفهام ، وللتحصيل مع الاستعلاء أمر ، ومع التساوى التماس ، ومع التسفل[4] سؤال ، وإلا فمحتمل التصديق والتكذيب خبر ، وغيره تنبيه ، ويندرج فيه الترجى ومتمنى والقسم والنداء » .

ونحن نقول فى شرح هذه العبارة : إنه قد قسم المركب إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) سورة المنافقون آية ٧ .   (٢) سورة المنافقون آية ٨ .

(٣) الابهاج ٢١٨/١ .

(٤) يشير بالتسفل إلى أن السائل حيث لا يعلم يكون فى المقام الأدنى ، والمجيب حيث يعطيه الإجابة يكون فى المقام الأعلى .

خبر، وطلب، وتنبيه، فالخبر: ما احتمل التصديق والتكذيب، والطلب: ما أفاد - بالذات - طلباً، ثم قسم الطلب إلى طلب للماهية، وهو الاستفهام، وطلب للتحصيل والوقوع مع الاستعلاء، وهو الأمر، ويدخل فيه النهى - كما أسلفنا، والتنبيه - كما ذكر الآمدى - هو الذى يفيد الطلب باللازم - وليس بالذات، ويندرج تحته: الترجى، ويكون فى المستحيلات، والتمنى، ويكون فى الممكنات والمستحيلات، والنداء، والقسم.

كما يدخل فى التنبيه أيضا: الأمر والنهى[1] والدعاء إذا كانا عن طريق الخبر مثل قوله سبحانه (والوالدات يرضعن أولادهن)[2] فى الأمر، وقوله عز وجل عن كتابه الكريم (لا يمسه إلا المطهرون)[3] فى النهى، وقوله عز من قائل فى الدعاء (إياك نعبد وإياك نستعين)[4] و (تبت يدا أبى لهب وتب)[5]، و (قاتلهم الله أنى يؤفكون)[6] و (غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا)[7].

على أن بعض الأصوليين قد درس أبواب التمنى والترجى والنداء والقسم على أنها من أقسام الأساليب الانشائية، ومن هؤلاء الإمام السيوطى حيث

---

(١) قال السيوطى فى الاتقان (٧٦/٢): نازع ابن العربى فى قولهم: إن الخبر يرد بمعنى الأمر أو النهى، قال فى قوله تعالى (فلا رفث) ليس نفياً لوجود الرفث، بل نفى لمشروعيته، فإن الرفث يوجد من بعض الناس، وأخبار الله تعالى لا يجوز أن تقع بخلاف مخبره، وإنما يرجع النفى إلى وجوده مشروعاً لا إلى وجوده محسوساً، كقوله (والمطلقات يتربصن) ومعناه مشروعاً لا محسوساً فإنا نجد مطلقات لا يتربصن، فعاد النفى إلى الحكم الشرعى لا إلى الوجود الحسى، وكذا (لا يمسه إلا المطهرون) أى لا يمسه أحد منهم شرعاً، فإن وجد المس فعلى خلاف حكم الشرع.

(٢) سورة البقرة آية ٢٣٣. (٣) سورة الواقعة آية ٧٩.

(٤) سورة الفاتحة آية ٥. (٥) سورة المسد آية ١.

(٦) سورة التوبة آية ٣٠. (٧) سورة المائدة آية ٦٤.

يقول عن القسمين الأولين(١) : «نقل القرافى الإجماع على أنه ـ أى أسلوب الترجى ـ إنشاء ، وفرق بينه وبين التمنى ، وبأنه فى الممكن ، والتمنى فيه وفى المستحيل ، وبأن الترجى فى القريب والتمنى فى البعيد ، وبأن الترجى فى المتوقع والتمنى فى غيره ، وبأن التمنى فى المشقوق للنفس والترجى فى غيره » .

وإذا كان السيوطى لم يزد فى حديثه عن التفريق بين التمنى والترجى فإنه قد توسع فى حديثه عن النداء والقسم حيث قال عن النداء :

« النداء(٢) : هو طلب إقبال المدعو على الداعى بحرف نائب مناب ادعو ، ويصحب ـ فى الأكثر ـ الأمر والنهى ، والغالب تقدمه نحو : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم)(٣) ، (يا عباد فاتقون)(٤) ، (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا)(٥) (وياقوم استغفروا ربكم)(٦)،(يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا)(٧) وقد يتأخر نحو (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون)(٨) .

« وقد يصحب الجملة الخبرية فتعقبها جملة الأمر نحو (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له)(٩) ، (وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها)(١٠) ، وقد لا يعقبها نحو (يا عباد لا خوف عليكم اليوم)(١١) ، (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله)(١٢) ، (يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل)(١٣) .

« وقد تصحبه الاستفهامية نحو (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر)(١٤)

---

(١) الإتقان ٢/٨٢ .
(٢) الإتقان ٢/٨٢ ، ٨٣ .
(٣) سورة البقرة آية ٢١ .
(٤) سورة الزمر آية ١٦ .
(٥) سورة المزمل آية ١ ، ٢ .
(٦) سورة هود آية ٥٢ .
(٧) سورة الحجرات آية ١ .
(٨) سورة النور آية ٣١ .
(٩) سورة الحج آية ٧٣ .
(١٠) سورة هود آية ٦٤ .
(١١) سورة الزخرف آية ٦٨ .
(١٢) سورة فاطر آية ١٥ .
(١٣) سورة يوسف آية ١٠٠ .
(١٤) سورة مريم آية ٤٢ .

(يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك)(١)، (ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار)(٢) .

« وقد ترد صورة النداء لغيره - أي لغير النداء - مجازاً كالإغراء والتحذير، وقد اجتمعا في قوله تعالى (ناقة الله وسقياها)(٣)، والاختصاص كقوله (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت)(٤) ، والتنبيه كقوله سبحانه (ألا يسجدوا لله)(٥) ، والتعجب كقوله سبحانه (يا حسرة على العباد)(٦)، والتحسر كقوله (يا ليتني كنت ترابا)(٧) .

« وأصل النداء بـ « يا » أن تكون للبعيد، حقيقة أو حكما، وقد ينادى بها القريب لنكت منها : إظهار الحرص في وقوعه على إقبال المدعو نحو : (يا موسى أقبل ولا تخف)(٨) ، ومنها كون الخطاب المتلو معتنى به نحو (يا أيها الناس اعبدوا ربكم)(٩) . ومنها قصد تعظيم شأن المدعو نحو (يا رب)، وقد قال تعالى (فإني قريب)(١٠) ، ومنها قصد انحطاطه كقول فرعون (إني لأظنك يا موسى مسحورا) .(١١) .

وقال السيوطي أيضا عن القسم(١٢) :

« والقصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده حتى جعلوا مثل (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون)(١٣) قسما ، وإن كان فيه إخبار شهادة . لأنه لما جاء توكيداً للخبر سمي قسما . . . وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في سبعة

---

(١) سورة التحريم آية ١ .
(٢) سورة غافر آية ٤١ .
(٣) سورة الشمس آية ١٣ .
(٤) سورة هود آية ٧٣ .
(٥) سورة النمل آية ٢٥ .
(٦) سورة يس آية ٣٠ .
(٧) سورة النبأ آية ٤٠ .
(٨) سورة القصص آية ٣١ .
(٩) سورة البقرة آية ٢١ .
(١٠) سورة البقرة آية ١٨٦ .
(١١) سورة الإسراء آية ١٠١ .
(١٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/١٣٣، ١٣٤، ١٣٥ [عالم الكتب - بيروت] .
(١٣) سورة المنافقون آية ١ .

مواضع الآية المذكورة ، وقوله (قل إى وربى)[١] ، (قل بلى وربى لتبعثن)[٢] ، (فوربك لنحشرنهم والشياطين)[٣] ، (فوربك لنسألنهم أجمعين)[٤] ، (فلا وربك لا يؤمنون)[٥] ، (فلا أقسم برب المشارق والمغارب)[٦] والباقى كله قسم بمخلوقاته كقوله تعالى (والتين والزيتون)[٧] (والصافات)[٨] ، (والضحى)[٩] ، (فلا أقسم بالخنس)[١٠] .

والقسم إما ظاهر - كالآيات السابقة - وإما مضمر ، وهو قسمان : قسم دلت عليه اللام نحو : (لتبلون فى أموالكم)[١١] ، وقسم دل عليه المعنى نحو (وإن منكم إلا واردها)[١٢] ، وتقديره : والله ...

وقال أبو على الفارسى : الألفاظ الجارية مجرى القسم ضربان :

أحدهما : ماتكون كغيرها من الأخبار التى ليست بقسم ، فلا تجاب بجوابه ، كقوله سبحانه (وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين)[١٣] ، (ورفعنا فوقكم الطور خذوا)[١٤] ، فيحلفون له كما يحلفون لكم)[١٥] ، فهذا ونحوه يجوز أن يكون قسما ، وأن يكون حالا لخلوه من الجواب .

والثانى : مايتلقى بجواب القسم . كقوله سبحانه (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس)[١٦] .

---

(١) سورة يونس ٥٣ .
(٢) سورة التغابن آية ٧ .
(٣) سورة مريم آية ٦٨ .
(٤) سورة الحجر آية ٩٢ .
(٥) سورة النساء آية ٦٥ .
(٦) سورة المعارج آية ٤٠ .
(٧) سورة التين آية ١ .
(٨) سورة الصافات آية ١ .
(٩) سورة الضحى آية ١ .
(١٠) سورة التكوير آية ١٥ .
(١١) سورة آل عمران آية ١٨٦ .
(١٢) سورة مريم آية ٧١ .
(١٣) سورة الحديد آية ٨ .
(١٤) سورة البقرة آية ٩٣ .
(١٥) سورة المجادلة آية ١٨ .
(١٦) سورة آل عمران آية ١٨٧ .

« وأكثر ما يحذف الجواب إذا كان في نفس المقسم به دلالة على المقسم عليه ، فإن المقصود يحصل بذكره، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز، كقوله (ص والقرآن ذي الذكر)(١) فإن المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذو الذكر المتضمن لتذكير العباد وما يحتاجون إليه والشرف والقدر ما يدل على المقسم عليه ، وهو كونه حقا من عند الله غير مفترى ، كما يقوله الكافرون ، ولهذا قال كثيرون إن تقدير الجواب : إن القرآن لحق ، وهذا يطرد في كل ما شابه ذلك ، كقوله سبحانه (ق والقرآن المجيد)(٢) وقوله (لا أقسم بيوم القيامة)(٣) فإنه يتضمن إثبات المعاد » .

أما عن الاستفهام :

فقد ذكر الأصوليون في بحثه عدة جوانب ، ربما لا يهمنا بعضها في الحقل البلاغي ، مثل تقسيمهم(٤) الاستفهام الحقيقي بالنسبة إلى مطالبة الجواب إلى قسمين : سؤال حجر ، وسؤال تفويض .

فسؤال الحجر هو : السؤال الذي تحجر فيه على مخاطبك أن يجيب إلا بأحد الوجهين اللذين تحدد هماله ، مثل قولهم : هل العالم - بفتح اللام - محدث أم لا ؟ وقولك : ألحماً أكلت أم خبزاً .

وسؤال التفويض هو : السؤال الذي يجيب فيه مخاطبك بما شاء ، مثل قولهم : ما الدليل على حدوث العالم ؟ (بفتح اللام) ، وقولك : لما أكلت ؟
- ومثل تقسيمهم الاستفهام الحقيقي بالنسبة إلى الاعتبار الشرعي في التعبد - أي التكليف - إلى قسمين أيضا :

---

(١) سورة ص آية ١ . (٢) سورة ق ، آية ١ .
(٣) سورة القيامة آية ١ .
(٤) انظر في هذا التقسيم وما يليه : شرح أنوار العقول لأبي محمد عبد الله بن حميد السالمي ١/٢٢ - ٢٦ (الطبعة الثانية) - سلطنة عمان .

سؤال لازم وهو السؤال عن كل ما لا يسع جهله من دين الله .

وسؤال نفل وهو السؤال عما عدا ذلك .

ـ ومثل تقسيمهم الاستفهام الحقيقي بالنظر إلى نفس لفظه إلى سؤال ساقط ، وسؤال صحيح .

فالأول : ما كان في لفظه أحد أشياء خمسة هي : التناقض ، والاضطراب ، والإثبات ، والسؤال عن المحال ، وجمع سؤالين مختلفين في سؤال واحد مع طلب جواب واحد لهما .

والثاني : ما خلا من هذه الأشياء .

ويكون التناقض : إذا كان آخر السؤال مناقضاً لأوله ، مثل قولهم : إذا كان العالم محدثاً فما الدليل على قدمه ؟

ويكون الاضطراب : إذا أدخل السائل في سؤاله الأعم في الأخص مثل قولهم : ما الدليل الذي صار به العرض حركة[1] ؟

ويكون الإثبات : إذا سأل السائل مخاطبه عن زيادة فائدة في شيء ، والمسئول ينفي أصل ذلك الشيء ، مثل قول بعضهم لمخاطبه الذي ينفي رؤية الله في الآخرة : ما الدليل على ثبوت رؤية الله في الآخرة ؟

ويكون السؤال عن المحال مثل قول بعضهم : هل يقدر الله أن يخلق له شريكاً ؟

ويكون السؤال الذي يجمع سؤالين مختلفين في سؤال واحد مع طلب إجابة واحدة لهما مثل قولهم : ما الدليل على حدوث العالم وصدق الرسل ؟

---

(١) العرض ـ بفتح الأول والثاني ـ أعم من الحركة .

فإذا خلا السؤال من هذه الأشياء الخمسة كان السؤال صحيحاً ، وحقه أن يجاب إلا إذا حصل له مانع من غير لفظه كتمنت فى السؤال .

هذا ، وقد درسوا فى مطلع حديثهم ـ الذى يخصنا ـ موضوع الأساليب الاستفهامية فى القرآن ، ونعيد فى هذا الصدد قول القرافى الذى ذكرناه فى مطلع كتابنا هذا لنحاول التأمل فيه ، وكان بصدد الحديث عن الآية الكريمة (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه)(١) « فيه من الأسئلة »(٢):

ما معنى الاستفهام ؟ فإن الاستفهام على الله تعالى محال ... والجواب : أما الاستفهام فهو على الله تعالى محال ، فحيث ورد عن الله تعالى فهو إما ثبوت صرف ، أو نفى صرف . فإن أصله فى اللغة : السؤال المتردد بين النفى والثبوت لجهل السائل بأيهما الواقع ، فإذا قال القائل : هل زيد فى الدار أم لا ؟ فهو يسأل عن وجود زيد ، هل هو فى الدار أم عدمه ، والله تعالى بكل شيء عليم ، فيستحيل عليه طلب فهم ذلك . والاستفهام : استفعال لطلب ذلك الفعل ، نحو : استسقى : لطلب السقى ، واستخرج الكتاب : أى طلب خروج المعنى منه وقد يرد للفعل نفسه لا لطلبه ، نحو : عجب واستعجب ، وهو قليل ، والأكثر : إنما هو لطلب الفعل .

« فالذى ورد فى حق الله تعالى إنما يحمل على النفى عيناً ، أو الثبوت عيناً(٣)، ويكون إخباراً صرفاً لا طلب فيه ، كقوله تعالى (فهل ترى لهم من باقية)(٤)، أى لا ترى لهم من باقية ، و (هل أتى على الإنسان حين من الدهر ؟)(٥) ، أى قد أتى على الإنسان حين من الدهر : و (ألم نشرح لك صدرك ؟)(٦)، أى قد شرحنا لك صدرك ، وإن كان قد يصحبه الامتنان تارة ، والتهديد

---

(١) سورة البقرة ١٣٠ . (٢) الاستغناء فى أحكام الاستثناء ص ٣٨ .
(٣) عينا : قطعاً ، وكذلك معنى كلة صرفاً فى النص . (٤) سورة الحاقة آية ٨ .
(٥) سورة الإنسان آية ١ . (٦) سورة الشرح آية ١ .

أخرى ، وغير ذلك من المعانى ، إلا أنه لا يكون فيه طلب فهم ، بل الإخبار الصرف ، أى لا أحد يرغب عن ملة إبراهيم إلا هذا الفريق » .

ونقول الآن :

إن الناظر فى هذا النص يفهم أن الاستفهام من الله عز وجل يستلزم الجهل ، وهو على الله محال ، كما يفهم أنه ليس كل سائل يطلب الفهم . ومن هنا ـ كما يقول النص ـ قد يرد الفعل مقصوداً به حدوثه لا لأجل طالبه وسائله وإن كان ذلك قليلا ، وعلى هذا فقد يكون طلب الفهم ـ فى أسلوب الاستفهام ـ لغير السائل ، ويريد السائل أن يفهم ذلك الغير المقصود بالمسئول عنه .

على أن السؤال أيضا قد يكون لغير طلب الفهم أصلا ، فربما يأتى السؤال مراداً به الامتنان ، أو التهديد ، أو غير ذلك من المعانى ، كمعنى النفى الذى أشار إليه القرافى فى الآية المذكورة .

والاشارة الأخيرة من القرافى تحدثنا عن أن الأصوليين يرون أن الاستفهام ينقسم إلى قسمين : حقيقى ، ومجازى .

وننقل فى حديثنا عن الحقيقى قول صاحب شرح أنوار العقول[١] : « السؤال كله عن تسعة أشياء : أولها : السؤال بهل ، وهو لأنك إنما تسأل أولا عن عدم الشىء ووجوده ، وجوابه موجود أو معدوم . فإن قال معدوم فقد بطل ، وإن قال : موجود ، فحينئذ تسأل بما هو ؟ وإنما تسأل بها عن الجنس خاصة فتقول : ماهو ؟ تعنى أى جنس هو ؟ فيقال : إنه محدث ، جسم ، حيوان ، إنسان ، عرض ، حركة ، سكون ، فإذا سأل بمن ؟ فإنما يسأل عن إنسان خاصة ، فيقال له : أعرابى ، تركى ، أخ ، ابن . فإذا سأل بأى ؟ فإنما سأل عن قصد وإشارة ، فيقال له هذا ، وذاك . فإذا سأل عن كم هو ؟ ، فإنما

---

(١) شرح أنوار العقول ١/٢٩ ، ٣٠ .

سأل عن عدد ، فيقال له : واحد ، اثنان ، ثلاثة . فإذا سأل بكيف ؟ ، فإنما سأل عن حال وصفة ، فيقال له : حى ، أو ميت ، أبيض ، أسود ، حلو ، حامض . فإذا سأل بأين ؟ . فإنما سأل عن مكان ، فيقال له : فى مكان كذا وكذا بالمشرق أو بالمغرب أو بمكة أو بالمدينة . فإن سأل : لم كان ؟ فإنما سأل عن علة ، فيقال له : لعلة كذا وكذا ، فإذا سأل بمتى ؟ فإنما سأل عن زمان ماض أو مستقبل ، فيقال له : كان فى الأمس ، أو يكون غداً » .

أما الاستفهام المجازى فإننا بادىء ذى بدء نقول : إن السيوطى قد ذكر أن العلماء قد اختلفوا حول المعانى المجازية التى تصاحب الاستفهام : هل هى من قبيل التوسع ؟ أو أن أدوات الاستفهام قد أشربت هـذه المعانى على سبيل التضمين(١) .

ثم يبدأ السيوطى فى ذكر هذه المعانى ، ويصل بها إلى اثنين وثلاثين معنى ، فذكر منها :ـ

منها الانكار ، والمعنى فيه على النفى ، مثل قوله سبحانه (أنؤمن لبشرين مثلنا ؟)(٢) أى لا نؤمن . وقوله عز وجل (أم له البنات ولكم البنون ؟)(٣) أى لا يكون هذا ، وقوله عز من قائل (أشهدوا خلقهم ؟)(٤) أى ما شهدوا خلقهم .

وتصحبه إلا : كقوله سبحانه (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون)(٥) أى لا يهلك إلا هم ، وقوله عز وجل (وهل نجازى إلا الكفور ؟)(٦) أى لا نجازى إلا الكفور .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن ج ٢/٧٩ (٢) سورة المؤمنون آية ٤٧ .
(٣) سورة الطور آية ٤٩ . (٤) سورة الزخرف آية ١٩ .
(٥) سورة الأحقاف آية ٣٥ . (٦) سورة سبأ آية ١٧ .

ويعطف عليه المنفي كقوله عز وجل (فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين ؟)(١) أي لا يهدى .

وكثيراً ما يصحبه التكذيب : (ومعنى التكذيب في الماضي : لم يكن ، وفي المستقبل : لا يكون) كقوله عز وجل : (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ؟)(٢) أي لم يفعل ذلك ، وقوله سبحانه (أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟)(٣) أي لا يكون هذا الإلزام .

معنى التوبيخ - وقد يسمونه التقريع ، وجعله بعضهم من قبيل الإنكار ، وإن كان فرق بينهما بأن الأول إنكار إبطال ، ولهــذا كان معناه النفي - كما تقدم - أما هنا فالمعنى على التوبيخ ، بمعنى أن الفعل بعده ، وإن كان قد وقع ، إلا أنه جدير بأن ينفى ، ولذلك لحق صاحبه التوبيخ ، ومثاله قوله من قائل : (أفعصيت أمري ؟)(٤) ، وقوله عز وجل (أتعبدون ما تنحتون ؟)(٥) وقوله سبحانه (أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ؟)(٦) .

وكما يقع التوبيخ على فعل قد وقع ، يقع أيضاً على فعل قد ترك بمعنى أن صاحبه يوبخ على الترك ، فقد كان ينبغي أن يحدث الفعل لا أن يقع تركه ، كقوله عز وجل (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر)(٧) ، وقوله سبحانه (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟)(٨) .

معنى التقرير : التقرير : حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده ، والكلام معه موجب ، ذلك أن حقيقة الاستفهام التقريري أن المعنى فيه على النفي ، لأنه استفهام إنكاري ، قد دخل على النفي ونفي

---

(١) سورة الروم آية ٢٩ .
(٢) سورة الإسراء آية ٤٠ .
(٣) سورة هود آية ٢٨ .
(٤) سورة طه آية ٩٣ .
(٥) سورة الصافات آية ٩٥ .
(٦) سورة الصافات آية ١٢٥ .
(٧) سورة فاطر آية ٣٧ .
(٨) سورة النساء آية ٩٧ .

النفى إثبات ، ومثاله قوله سبحانه (أليس الله بكاف عبده ؟)(١) ، ولذلك يعطف عليه صريح الموجب مثل قوله سبحانه (ألم نشرح لك صدرك ؟ ووضعنا عنك وزرك)(٢) ، وقوله عز وجل (ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى)(٣) ، كما يعطف الاستفهام التقريرى على صريح الموجب مثل قوله عز وجل (أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علماً ؟)(٤)

معنى التعجب أو التعجيب : مثل قوله عز وجل (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ؟)(٥) وقوله سبحانه (مالى لا أرى الهدهد ؟)(٦)

يقول السيوطى : وقد اجتمع هذا القسم وسابقاه ـ أى التقرير والتوبيخ ـ فى قوله سبحانه (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ؟)(٧) .

ويقول أيضا : ويحتمل التعجب والاستفهام الحقيقى قوله سبحانه (ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟)(٨) .

معنى العتاب : مثل قوله سبحانه (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟)(٩) .

ونحن بعد هذا نقول :

إننا نلحظ ـ فيما ذكره السيوطى من المعانى أنها تنقسم إلى قسمين : معانى رئيسية مثل الانكار والتقرير ، ومعانى فرعية مثل التعجب(١٠) .

---

(١) سورة الزمر آية ٣٦ .
(٢) سورة الشرح آية ١ ، ٢ .
(٣) سورة الضحى ٦ ، ٧ .
(٤) سورة النمل آية ٨٤ .
(٥) سورة البقره آية ٢٨ .
(٦) سورة النمل آية ٢٠ .
(٧) سورة البقره آية ٤٤ .
(٨) سورة البقرة آية ١٤٢ .
(٩) سورة الحديد آية ١٦ .
(١٠) يقول المحققون : إذا ورد التعجب من الله صرف إلى المخاطب كقوله سبحانه =

كما نلحظ أيضا أنه جعل معنى التعجب مصاحباً للاستفهام الحقيق ، وفى هذا مايفيد بأن السيوطى يميل إلى الرأى القائل بأن المعانى المجازية قد أشربت لأدوات الاستفهام دون أن تلغى معناها الأصلى ، وقد يجعلنا هذه الملاحظة نستنتج أن المعنى المجازى للاستفهام مفاد عن طريق الكناية عند السيوطى على الأقل ، إن لم يكن عند الأصوليين جميعاً .

وقد نلحظ أيضا تداخل المعانى المجازية بعضها فى بعض عند السيوطى ، ونذكر فيما قلناه - مثلا - أن العتاب ليمكن أن يدخل فى التوبيخ ، وفى غير ما نقلناه - مثـــلا - الاكتفاء فى قوله سبحانه (أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ؟)[1] يدخل فى التقرير .

=(فما أصبرهم على النار) أى هؤلاء يجب أن يتعجب منهم، وإنما لا يوصف تعالى بالتعجب لأنه استعظام يصحبه الجهل ، وهو تعالى منزه عن ذلك ، ولهذا تعبر جماعة من العلماء بكلمة التعجيب بدل كلمة التعجب ، [راجع أيضـا حديث سيبويه عن الآية الكريمة (ويل للمطففين) وتأمل كيف عبر عن دعاء الله على المطففين ، وأيضا فى حديث العلماء عن الترجى فى الآية الكريمة (لعله يتـذكر أو يخشى) يقـولون : اذهبا على رجائكما وطمعكما] .

(١) سورة الزمر آية ٦٠ .

الدراسات العربية للأساليب الانشائية

أولا : مقاتل بن سليمان

أهم ما ذكر مقاتل بن سليمان عن الأساليب الإنشائية هو حديثه عن حرف الاستفهام (هل) حيث قال[1]: إنه يأتى على أربعة وجوه هى :

١ — « هل » يعنى « ما » ، فذلك قوله سبحانه فى الأنعام (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة) يعنى ما ينظرون ، نظيرها فى النحل ، وكقوله فى البقرة (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) يعنى ما ينظرون ، كقوله فى الزخرف (هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة) يعنى ما ينظرون، نظيرها فى الذين كفروا (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها) ، كقوله فى النحل (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) ، يعنى فما على الرسل[2].

٢ — « هل » يعنى « قد » ، فذلك قوله فى الإنسان (هل أتى على الإنسان حين من الدهر) ، وكقوله (هل أتاك حديث الغاشية) ، يقول : قد أتاك، وكقوله فى طه (وهل أتاك حديث موسى) يقول : قد أتاك ، وكقوله فى الذاريات (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين) يقول: قد أتاك[3].

٣ — « هل » يعنى « ألا » ، فذلك قوله فى طه (هل أدلك على شجرة الخلد) ، وكقوله (هل ندلكم على رجل ينبئكم) يقول ألا أدلكم، وكقوله

---

(١) راجع تفسير مقاتل بن سليمان (الأشباه والنظائر ١٥١ — ١٥٣) تحقيق د عبدالله محمود شحاته .

(٢) الآيات على الترتيب : الأنعام ١٥٨ ، النحل ٣٣ ، البقرة ٢١٠ ، الزخرف ٦٦ ، محمد ١٨ ، النحل ٣٥ .

(٣) الآيات على الترتيب : الإنسان ١ ، الغاشية ١ ، طه ٩ ، والذاريات ٢٤ .

فى الكهف (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا) يقول : ألا أنبئكم ، وكقوله فى الشعراء (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) يعنى : ألا أنبئكم[1] .

٤ — « هل » استفهام ، فذلك قوله فى الروم (هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم) استفهام ، نظيرها فيها حيث يقول (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم) استفهام منه (من يفعل من ذلكم من شىء) ، وقال فى يونس (هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده) استفهام ، وقال (هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ، قل الله يهدى للحق ، أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع) استفهام كقوله فى الأعراف (فهل لنا من شفعاء) استفهام[2] .

ونحن — بغض النظر عن دقة ما ذكره مقاتل فى دراسة الـ « هل » نقول: إننا نرى قيمة حديث مقاتل الكبرى فى أنه قد نبه الأذهان إلى أن حرف الاستفهام « هل » يتردد فى الأساليب العربية بين معناه الاستفهامى ومعانى الكلمات : ما ، وألا ، وقد رأى أنه كما يفيد الاستفهام يفيد أيضا غير الاستفهام .

ثانياً : أبو عبيدة

تأثر أبو عبيدة — دون شك — بحديث مقاتل عن معانى « هل » فتابعه فى هذا الاتجاه حيث قال فى الحديث عن الهمزة فى الآية الكريمة[3] (أتجعل فيها من يفسد فيها) : « جاءت على لفظ الاستفهام ، والملائكة لم تستفهم ربها ، وقد قال تبارك وتعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة) ولكن معناها معنى الإيجاب ، أى أنك ستفعل ، وقال جرير — فأوجب ولم يستفهم — لعبد الملك ابن مروان .

---

(١) الآيات على الترتيب : طه ١٢٠ ، سبأ ٧ ، الكهف ١٠٣ ، الشعراء ٢٢١ .

(٢) الآيات على الترتيب : الروم ٢٨ ، ٤٠ ، يونس ٣٤ ، ٣٥ ، الأعراف ٥٣ .

(٣) هذه الآية وما بعدها من سورة البقرة ٣٠ ، وانظر مجاز القرآن ج ٣٥/١ ، ٣٦ ، وانظر حديثا آخر لأبى عبيدة عن التقرير فى الهمزة ج ١١٨/٢ .

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وتقول وأنت تضرب الغلام على الذنب : ألست الفاعل كذا ؟ ليس باستفهام ، ولكن تقرير » .

والآية الكريمة [1] (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) [2] : « هذا باب تفهيم ، وليس باستفهام عن جهل ليعلمه ، وهو يخرج مخرج الاستفهام ، وإنما يراد به النهى عن ذلك ويتهدد به ، وقد علم قائله أكان ذلك أم لم يكن ، ويقول الرجل لعبده : أفعلت كذا ؟ وهو يعلم أنه لم يفعله ولكن يحذره ، وقال جرير .

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

ولم يستفهم ، ولو كان استفهاماً ما أعطاه عبد الملك مائة من الإبل برعاتها .

فالهمزة فى الآيتين الكريمتين ، وبيت جرير عند أبى عبيدة قد ترددت بين معنى النفى ومعنى الإيجاب وكلاهما يرجع إلى معنى التقرير . على أن حديث أبى عبيدة - وإن كان قد أفاد تنويع دلالة الهمزة إلى ما ذكرناه - يستحق المراجعة والتعليق ، ذلك أن الهمزة فى الآية الكريمة (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) يتضح فيها معنى التعجب - كما ذكر الزمخشرى [3] - أو هى على حقيقتها الاستفهامية ومضمنة معنى التعجب - كما يقول صاحب تفسير التحرير والتنوير - بينما هى فى الآية الكريمة الأخرى تفيد التوبيخ والتقريع - كما سيأتى .

هذا ، وقد أعاد عاد أبو عبيدة - مقولة مقاتل بن سليمان عن تنويع معنى « هل » ليؤكدها فى مثل قوله عن الآية الكريمة (هل أتى على الإنسان حين

---

(١) سورة المائدة ١١٦ . (٢) انظر مجاز القرآن ج ١/١٨٣ ، ١٨٤ .

(٣) الكشاف ج ١/٦١ .

من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً)[1] : « معناها قد أتى على الإنسان » ، وقوله عن الآية الكريمة : (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا)[2] : «أي لايستوى المثلان» ، أى أنه يوافق مقاتل بن سليمان على معنى التأكيد والنفى للفظ (هل) .

ونحن بعد ذلك لابد أن نستدرك على قارىء نص أبي عبيدة التالى عن الآية الأخيرة[3] مجازه: مثل الكافر وهو الأعمى الذى لا يبصر الهدى والحق ولا أمر الله ، وإن كان ينظر ، وهو الأصم الذى لايسمع الحق ولا أمر الله ، وإن كان يسمع بأذنه ، والمؤمن وهو البصير ، أي المبصر الحق والهدى ، وهو السامع الذى يسمع أمر الله ويهتدى له ، ومجازه مجاز المختصر الذى فيه ضمير ، كقولك : مثل الفريقين كمثل الأعمى ، ثم رجع إلى الوصف إلى مثل الكافر ومثل المؤمن فقال : هل يستويان مثلا) أي لايستوى المثلان ، وليس موضع هـــل ههنا موضع استفهام ، ولكن موضعها ههنا موضع الإيجاب ، أنه لايستويان ، وموضع تقرير وتخيير : إن هذا ليس كذلك » . أقول : نحن لابد أن نستدرك على قارىء هذا النص أن أبا عبيدة يحاول بذكر حديث الإيجاب والتقرير والتخيير تحليل معنى القضية القرآنية فى الآية الكريمة ، وأعنى بها قضية الإيمان والكفر ، وليس تحليل الاستفهام ، ذلك أن الله عز وجل بعد أن عرض قضية المؤمن والكافر عرضاً مجسماً فى هذا المثل (المؤمن هو الذى يستعمل حواسه ، والكافر هو الذى يعطل حواسه) أتى بالسؤال الذى لايحتاج إلى إجابة لتقررها وكونها فى عداد البدهيات ، أو يحتاج إلى إجابة موجبة تميل إلى تأييد غرض الآية واختيار مغزاها من ترجيح كفة المؤمن على الكافر .

---

(١) مجاز القرآن جـ ١ ص ٢٨٧ . (٢) سورة هود آية ٢٤ .

(٣) مجاز القرآن جـ ١ ص ٢٨٧ .

ثالثا : سيبويه

نأتى - الآن - إلى أستاذ الدراسات العربية الأعظم سيبويه لنجد أنه قد ألم بكثير من حديث الأساليب الإنشائية ، ويمكننا أن نوجز حديثه فى النقاط الآتية :

أولا : التفرقة بين الخبر والانشاء .

ثانيا : تحويل الأساليب الخبرية إلى أساليب إنشائية ، والعكس .

ثالثا : قياس أسلوب الاستفهام على أسلوب الأمر .

رابعا : همزة الاستفهام ، والفرق بينها وبين غيرها من الأدوات الاستفهامية .

خامسا : الفرق بين همزة الاستفهام وهل .

سادساً : خروج الأدوات الاستفهامية عن معناها الحقيقى .

سابعا : خروج بعض الأساليب الإنشائية الأخرى عن معناها الحقيقى .

ثامنا : جواب الأساليب الاستفهامية .

وعن النقطة الأولى (التفرقة بين الخبر والإنشاء) نقول :

من يقرأ حديث سيبويه عن المصادر والأسماء المستعملة على وجه الدعاء أو غيره يلمح عظمة تفريقه بين الخبر والانشاء ، وكيف أن الخبر يكون على حد قوله شيئا ثابتا عندك[1] ، وذلك قولك : سلام عليك ولبيك ، وخير بين

---

(١) الكتاب ١ / ٣٢٠ ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ - تحقيق وشرح عبد السلام هارون .

يديك ، وويل لك ، وويح لك ، وويس لك ، وويلة لك ، وعولة لك ، وخير له ، وشر له ، و(لعنة الله على الظالمين)(١) ، فهذه الحروف كلها مبتدأة مبنى عليها ما بعدها ، والمعنى فيهن أنك ابتدأت شيئا قد ثبت عندك » .

أما الإنشاء فهو شيء تعمل في إثباته وتزجيته(٢) ، « وذلك قولك سقيا ورعيا ، ونحو قولك : خيبة ، ودفرا ، وجدعا ، وعقرا ، وبؤسا ، وأفة وتفة ، وبعدا وسحقا ، ومن ذلك قولك : تعسا ، وتبا ، وجوعا وجوسا ، ونحو قول ابن ميادة :

تفاقد قومي إذ يبيعون مهجتي ‏ ‏ ‏ بجارية بهرا لهم بعدها بهرا(٣)

أي تبا . وقال :

ثم قالوا تحبها قلت : بهرا ‏ ‏ ‏ عدد النجم والحصى والتراب(٤)

كأنه قال : جهدا ، أي جهدي ذلك » .

ويرى سيبويه أن المصدر في الإنشاء ينتصب على اختزال الفعل « إذا ذكر مذكور فدعوت له أو عليه ، على إضمار الفعل ، كأنك قلت : سقاك الله سقيا ، ورعاك الله رعيا ، وخيبك الله خيبة .... وإنما اختزل الفعل هاهنا لأنهم جعلوه بدلا من اللفظ بالفعل ، كما جعل الحذر بدلا من احذر ،

---

(١) سورة هود آية ١٨ .

(٢) الكتاب ١/١٦١ ، ١٦٢ ، ولفظ الجوس — بالضم — يعنى الجوع ، ويقال جوعا له وبوسا ، كما يقال جوعا له ونوعا .

(٣) اللسان (فقد ، وبهر) ونسبه المبرد في الكامل إلى ابن مفرغ ، يقول : فقد قومى بعضهم بعضا إذ لم يعينوني على جارية شغفت بحبها ، فكأنهم باعوا مهجتي ، دعا عليهم بالتفاقد وبالغلبة والقهر .

(٤) لعمر بن أبي ربيعة ، وقد ذكر المبرد أن لفظ النجم فيه قولان : أحدهما : أنه أراد بالنجم النجوم ، ووضع الواحد موضع الجمع لأنه للجنس ، والثاني : أن يكون النجم ما نجم من النبت ، وهو ما لم يقم على ساق .

وكذلك هذا كأنه بدل من سقاك الله، ورعاك الله، ومن خيبك الله»[1].

ثم يعلل ذكر العرب (لك) بعد هذا المصدر فيقول: «وأما ذكرهم (لك) بعد سقياً فإنما هو ليبينوا المعنى بالدعاء، وربما تركوه استغناء إذا عرفه الداعى أنه قد علم من يعنى، وربما جاء به على العلم[2] توكيداً، فهذا بمنزلة قولك (بك) بعد قولك: مرحباً، يجريان مجرى واحداً فيما وصفت لك».

أما المصادر الخبرية المرفوعة المبنى عليها الكلام فيقول عنها سيبويه: «لست فى حال حديثك تعمل فى إثباتها وتزجيتها، وفيها ذلك المعنى»[3].

ويرى سيبويه أن نلتزم الاستعمال العربى فى الخبر والانشاء فلا نحاول أن نخلط بينهما فيقول محدثاً لنا[4]: «نجريها كما أجرت العرب، وتضعها فى المواضع التى وضعن فيها، ولا تدخلن فيها مالم يدخلوا من الحروف، ألا ترى أنك لو قلت: طعاماً لك. وشراباً لك، ومالا لك، تريد معنى سقياً، أو معنى المرفوع الذى فيه معنى الدعاء لم يجز؛ لأنه لم يستعمل هذا الكلام كما استعمل ما قبله، فهذا يدلك ويبصرك أنه ينبغى لك أن تجرى هذه الحروف كما أجرت العرب وأن تعنى ما عنوا بها، فكما لم يجز أن يكون كل حرف بمنزلة المنصوب الذى أنت فى حال ذكرك إياه تعمل فى إثباته، ولا بمنزلة المرفوع المبتدأ الذى فيه معنى الفعل، كذلك لم يجز أن تجعل المرفوع الذى فيه معنى الفعل بمنزلة المنصوب الذى أنت فى حال ذكرك إياه تعمل فى إثباته وتزجيته، ولم يجز أن تجعل المنصوب بمنزلة المرفوع».

---

(١) راجع الكتاب ج ١ ص ٣١٢.

(٢) أى مع العلم، وانظر النص فى الكتاب ١/٣١٢، ٣١٣.

(٣) الكتاب ١، ٣٣٠.

(٤) راجع الكتاب ١/٣٣٠، ٣٣١.

أما عن النقطة الثانية (تحويل الأساليب الخبرية إلى أساليب إنشائية ، والعكس) :

فإننا نجده قد أشار إلى أن العرب قد تحول بعض الأساليب الخبرية إلى الانشائية ، والعكس فى قوله : « إلا أن العرب ربما أجرت الحروف - أى الأساليب - على الوجهين »[١] ، ومن حديثه فى هذا المجال قوله : « هذا باب الحروف التى تنزل بمنزلة الأمر والنهى ؛ لأن فيها معنى الأمر والنهى ، فمن تلك الحروف : حسبك ، وكفيك ، وشرعك ، وأشباهها ، تقول : حسبك ينم الناس ، ومثل ذلك : اتقى الله امرؤ فعل خيراً يثب عليه ، لأن فيه معنى ليتق الله امرؤ وليفعل خيراً ، وكذلك ما أشبه هذا »[٢] .

فالأسلوب فى هذا النص أسلوب خبرى مراد به الإنشاء .

ومن عكس هذا الحديث ما أشار إليه من خروج الدعاء عن معناه إلى الخبر فى الآيتين الكريمتين (ويل يومئذ للمكذبين) و (ويل للمطففين) يقول سيبويه[٣] : « وأما قوله تعالى جده (ويل يومئذ للمكذبين)[٤] و (ويل للمطففين)[٥] فإنه لا ينبغى أن تقول إنه دعاء ههنا ، لأن الكلام بذلك قبيح ، واللفظ به قبيح ، ولكن العباد إنما كلموا بكلامهم ، وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون ، فكأنه - والله أعلم - قيل لهم : ويل للمطففين ، وويل يومئذ للمكذبين ، أى هؤلاء ممن وجب هذا القول لهم ، لأن هذا الكلام إنما يقال لصاحب الشر والهلكة ، فقيل : هؤلاء ممن دخل فى الشر والهلكة ووجب لهم هذا » .

(١) الكتاب ١/٣٣١ .　　(٢) الكتاب ٣/١٠٠ .

(٣) الكتاب ١/٣٣١ .

(٤) الآيات ١٥ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ من سورة المرسلات .

(٥) الآية الأولى من سورة المطففين .

« هذا ، ومثله (قاتلهم الله)[١] فإنما أجرى هذا على كلام العباد ، وبه أنزل القرآن ... ومن هذا الباب : فداء لك أبي وأمي ، وحمى لك أبي ، ووقاه لك أمي » .

أما عن النقطة الثالثة (قياس أسلوب الاستفهام على أسلوب الأمر) فنقول :

إنه يبدو أن سيبويه قد اتكأ على الدراسات الدينية قبله فاعتبر الأمر والنهي هما أصل الأساليب الإنشائية حيث جاء فى حديثه قياس الاستفهام على الأمر فى اعتبار إيلاء الفعل أدوات الاستفهام ، يقول سيبويه[٢] : «وحروف الاستفهام كذلك لا يليها إلا الفعل إلا أنهم قد توسعوا فيها فابتدءوا بعدها الأسماء ، والأصل غير ذلك ، ألا ترى أنهم يقولون : هل زيد منطلق؟ وهل زيد فى الدار ؟ وكيف زيد آخذ؟ فإن قلت : هل زيداً رأيت ؟ وهل زيد ذهب ؟ قبح ، ولم يجز إلا فى الشعر ، لأنه لما اجتمع الاسم والفعل حملوه على الأصل ، فإن اضطر شاعر فقدم الاسم نصب كما كنت فاعلا ذلك بقد ونحوها[٣] ، وهو فى هذه[٤] أحسن ، لأنه يبتدأ بعدها الأسماء[٥] .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة التوبة ، ٤ من سورة المنافقين . هذا ، وينبغى هنا أن أنقل قول السيرافي فى التعقيب على هذه الآية [نقلا عن الشارح المحقق عبد السلام هارون] ما يتمازه الناس فى كلامهم دعاء إذا وقع من الله أو من طريق اللفظ على ما تمازفه الناس ، وهو من الله واجب ، ثم أقول : وأدق من هذا القول قول ابن قتيبه ـ وسيأتى ـ الدعاء الوارد على جهة الذم والذى لا يراد به الوقوع كقول الله عز وجل (قتل الخراصون) (قاتلهم الله أنى يؤفكون) .

(٢) الكتاب ١/٩٨ ، ٩٩ .

(٣) ذكر سيبويه خلال حديث له من قبل ـ ولم أنقله ـ أن نحو قد : سوف ، ولما ، ونحوهن .

(٤) الإشارة ترجع إلى حروف الاستفهام والفاظه .

(٥) من أجل التوسع .

وإنما فعلوا ذلك بالاستفهام لأنه كالأمر فى أنه غير واجب[1]، وأنه يريد به من المخاطب أمراً لم يستقر عند السائل، ألا ترى أنه جوابه جزم[2]، فلهذا اختير النصب وكرهوا تقديم الاسم، لأنها حروف ضارعت بما بعدها ما بعد حروف الجزاء، وجوابها كجوابه، وقد يصير معنى حديثها إليه[3]، وهي غير واجبة كالجزاء، فقبح تقديم الاسم لهذا، ألا ترى أنك إذا قلت: أين عبد الله آته، فكأنك قلت: حيثما يكن آته».

قبل أن أعلق على هذا النص أود أن أشير إلى أن فكرة قياس أسلوب الاستفهام على أسلوبى الأمر والنهى قد أصلها سيبويه وهو يدرس الأمر والنهى أيضاً حيث قال فى مطلع الحديث عنهما[4]: «والأمر والنهى يختار فيهما النصب فى الاسم الذى يبنى عليه الفعل ويبنى على الفعل، كما اختير ذلك فى باب الاستفهام، لأن الأمر والنهى إنما هما للفعل، كما أن حروف الاستفهام بالفعل أولى، وكان الأصل فيهما أن يبتدأ بالفعل قبل الاسم، فكهذا الأمر والنهى، لأنهما لا يقعان إلا بالفعل، مظهراً أو مضمراً.

«وهما أقوى فى هذا من الاستفهام لأن حروف الاستفهام قد يستفهم بها وليس بعدها إلا الأسماء نحو قولك: أزيد أخوك؟ ومتى زيد منطلق؟ وهل عمرو ظريف، والأمر والنهى لا يكونان إلا بفعل، وذلك قولك: زيداً اضربه، وعمراً امرر به، وخالداً اضرب اباه، وزيداً اشتر له ثوباً».

ثم أقول: ونحن من خلال نصى سيبويه الأول والثانى نلاحظ أن

---

(١) يعنى غير واقع، بمعنى أنه يجوز أن يقع وألا يقع.

(٢) الجزم يعنى القطع، تقول: أين زيد آته كما تقول: إئتنى آتك.

(٣) أى إلى حروف الجزاء (الشرط) يعنى أنك إذا قلت: أين زيد آته، فأين زيد استفهام بمنزلة الشرط لأن بعده جزاء كما بعد الشرط جزاء.

(٤) الكتاب ١/١٣٧، ١٣٨.

الاستفهام عند سيبويه ينقسم إلى قسمين : استفهام عن الاسم ، بمعنى أنه لا يوجد فى الجملة فعل ، وإن وجد اسم مشتق بمعنى الفعل . واستفهام عن الفعل أو بعبارة أخرى استفهام بمصاحبة الفعل .

والنوع الأول من الاستفهام ـ كما مثل سيبويه ـ يجوز أن يلى الاسم أداة الاستفهام تقول : أزيد أخوك ؟ ومتى زيد منطلق ؟ وكيف زيد آخذ ؟ وهل عمرو ظريف ، لكن ذلك ـ كما قال سيبويه ـ على سبيل التوسع فحسب ، ولذلك حكى الشيخ يس فى حاشيته على شرح التصريح ـ (الذى شرح به الشيخ خالد الأزهرى توضيح ابن هشام الأنصارى لألفية ابن مالك) ـ توقف بعض المشايخ فى تقدير متعلق الجار والمجرور اسماً فى قولنا (هل زيد فى الدار)[١] .

أما النوع الثانى من الاستفهام وهو الذى يأتى فيه الفعل مصاحباً للجملة الاستفهامية فإنه لابد فيـــه أن يلى الفعل أداة الاستفهام ، حتى ولو كان الاستفهام عن الاسم ، قال المازنى [٢]: « سأل مروان الأخفش عن أزيدا ضربته أم عمرا ؟ فقال الأخفش : المختار النصب لأجل الألف . فقال : إنما المستفهم عنه هنا الاسم لا الفعل ، وإنما ينبغى أن يختار الرفع ، فقال[٣]: هذا هو القياس . قال المازنى : وكذا القياس عندى ، ولكن النحاة أجمعوا على اختيار النصب لما كان معه حرف الاستفهام الذى هو فى الأصل للفعل » .

ومعنى كلام الأخفش أن وجود الفعل فى سياق جملة الاستفهام نصب الاسم الواقع بعد الهمزة بفعل محذوف تقديره (ضربت) بل ويجعل المسألة من باب الاشتغال[٤] .

---

(١) انظر الحاشية فى هامش شرح التصريح على التوضيح ١/٢٩٧ .
(٢) انظر شرح التصريح ١/٣٠٠ . (٣) الإشارة إلى الرفع .
(٤) ذكر النحاة أنه يترجح نصب الإسم المشغول عنه فى مسائل منها : (انظر شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام ـ تحقيق محمد محيى الدين الطبعة ١١) ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

وهذا هو الذي أشار إليه سيبويه بقوله[1] : « لأنه لما اجتمع الاسم والفعل حملوه على الأصل ، فإن اضطر شاعر فقدم الاسم نصب »[2] ، وقوله : « كما كنت فاعلا ذلك بقـــد ونحوها » إشارة إلى اختصاص (قد) بالدخول على الأفعال .

= (أ) أن يكون الفعل المذكور فعل طلب ـ وهو : الأمر والنهي والدعاء ـ كقولك : زيداً اضربه ، وزيداً لا تهنـه ، واللهم عبـدك ارحمه وإنما يترجـح النصب في ذلك لأن الرفع يستلزم الإخبـار بالجملة الطلبية عن المبتدأ ، وهو خلاف القياس لأنهـا لا تحتمل الصدق والـكذب .

(ب) أن يتقدم على الإسم أداة الغالب عليها أن تدخل على الأفعال كقولك أزيداً ضربته . وما زيداً رأيته ، قال تعالى (أبشراً منا واحداً نتبعه) سورة القمر آية ٢٤ . هـذا ، والأدوات التي يغلب دخولها على الأفعال هي : همزة الاستفهام لأنها ـ كما قال سيبويه أم الباب ـ ومن ثم كان دخولها على الأفعال غالباً وليس واجباً . ومثل همزة الاستفهام أدوات النفي (ما ، ولا ، وإن) بخلاف (لم ، ولن) فإنهـا مختصة بالأفعال لأنها تعمل فيها .

كما ذكروا أيضا أنه يجب نصب الإسم المشغول عنه إذا تقدم على هذا الإسم أداة خاصة بالفعل كأدوات الشرط ، والتحضيض (ويكون ذلك في الشعر خاصـة كما قال سيبويه) : قال النمر بن تولب :

لا تجـزعي إن منفساً أهلـكته فإذا هلـكت فعند ذلك فاجزعي

هذا ، والأدوات التي تختص بالفعل هي : أدوات العرض (ألا ، وأما) والتحضيض (لولا ، ولوما ، وهلا ، وألا) وأدوات الاستفهام غير الهمزة .

أما حالة رفع الإسم المشغول عنه فليست ممـا نحن فيه الآن ، مثلها في ذلك مثل بقيه أحوال إعرابه .

(١) انظر نص سيبويه الذي بدأنا به حديث النقطه الثالثه .

(٢) في شرح الأشموني وحاشـية الصبان ٢/٧٥ أنه لا يقع الاشتغال بعد أدوات الشرط وأدوات التحضيض والاستفهام إلا في الشعر ، وأما في النثر فلا يليها إلا صريح الفعل إلا إذا كانت أداة الشرط (إذا) أو (إن) والفعل ماض مع هذه الأخيرة .

هذا وقد استثمر الإمام عبد القاهر حديث سيبويه عن الاستفهام استثمارا طيباً ، وطبقه تطبيقاً حسناً على همزة الاستفهام ، وسيأتى ذلك إن شاء في حينه .

وقبل أن أترك هذه المسألة أود أن أعلق تعليقاً بلاغياً على مسألة الحسن والقبح فى أسلوب (هل) التى يأتى للشك فى مضمون الجملة وعدم استقرار خاطره عند السائل — على حد تعبير سيبويه — فأقول : —

يجمع البلاغيون على أن تقديم الاسم النكرة على الخبر الفعلى يفيد التخصيص (القصر) فى الجنس كله ، أو فى فرد واحد من أفراده . أو فى النوع المذكور فى الجملة دون بقية أنواعه مثل : رجل جاءنى ، أى رجل لا امرأة (إذا كان مخاطبك يعرف أنه قد أتاك آت دون أن يعرف جنسه) ، ورجل واحد لا رجلان (إذا كان مخاطبك يعرف أنه قد أتاك من جنس الرجال أحد ، دون أن يعرف العدد) ، ورجل طويل لا قصير (إذا كان مخاطبك يعرف أنه قد أتاك من جنس الرجال أحد ، دون أن يعرف نوعه أو صفته من حيث الطول أو القصر) .

أقول : يجمع البلاغيون على ذلك فى الإثبات والنفى والاستفهام ، وإن كانوا يختلفون فى طريقة إثبات هذا التخصيص على نحو ما أوضحنا فى دراستنا عن القصر[1] .

أما المسند إليه المعرفة فيرى جمهور العلماء أن تقديمه على الخبر الفعلى أو الاسم المشتق يفيد الاختصاص فى الاسم الأغلب ، إذا سبق الجملة نفى ، فإذا انتفى هذا الشرط أفاد التقديم تقوية حكم الجملة ومضمونها .

أما السكاكى فقد وضع شروطاً لإفادة الاسم المقدم للاختصاص أهمها أن يكون هذا الاسم مقدماً من تأخير .

(١) انظر كتابنا بلاغة القصر ١٧٧ وما بعدها — ط ١ مطبعة السعادة .

والمهم هنا أن دلالة الاختصاص (القصر) تأتى عندما يكون غرض المتكلم ومقام الكلام يركزان على الاهتمام بالاسم المتقدم (راجع مثال النكرة المذكور) ، بينما دلالة أدوات الشرط والتحضيض والاستفهام - خصوصاً هل - تأتى عندما يكون غرض المتكلم ومقام الكلام يوليان الاهتمام بمضمون الجملة وما هيتها ، فيتدافعان فيكون القبح .

وقد يتواءمان عندما يتوجه غرض المتكلم ومقام الكلام إلى تقوية حكم الجملة ومضمونها دون إرادة الاختصاص فيكون الحسن ويكون السؤال بغير هل .

إذن فالسؤال بهل يعنى الشك فى حدوث مضمون الجملة، ومن ثم السؤال عنه، والاختصاص يفيد حدوث هذا المضمون ووجوده، وإنما قال سيبويه (قبح) ولم يقل امتنع لأن الاختصاص هنا أغلبي وليس حتمى . وسيأتى إيضاح ذلك كله فى الحديث عن هل عند دراستنا لمدرسة السكاكى إن شاء الله .

وقد يكون كلام سيبويه هذا هو بداية حديثنا عن النقطة الرابعة .

(الهمزة الاستفهامية والفرق العام بينها وبين غيرها من أخواتها) :

حيث نرى سيبويه يستثنى من الحكم السابق (إيلاء حروف الاستفهام الفعل) الهمزة لأنها الأصل فى هذا الباب، ولأنها يمكن أن تدخل على غيرها من أدوات الاستفهام ، يقول سيبويه[1] : « واعلم أن حروف الاستفهام كلها يقبح أن يصير بعدها الاسم إذا كان الفعل بعد الاسم : لو قلت : هل زيد قام ، وأين زيد ضربته . لم يجز إلا فى الشعر ، فإذا جاء فى الشعر نصبته ، إلا الألف ، فإنه يجوز فيها الرفع والنصب ، لأن الألف قد يبتدأ بعدها الاسم . فإن جئت فى سائر حروف الاستفهام باسم وبعد ذلك الاسم اسم من فعل نحو ضارب ، جاز فى الكلام ، ولا يجوز فيه النصب إلا فى الشعر ،

(١) الكتاب ١/١٠٢ .

لو قلت : هل زيد أنا ضاربه، لـكان جيدا فى الـكلام ، لأن ضاربا اسم وإن كان فى معنى الفعل ويجوز النصب فى الشعر .

« وأما الألف(١) فتقديم الاسم فيها قبل الفعل جائز كما جاز ذلك فى هلا ، وذلك لأنها حرف الاستفهام الذى لا يزول عنه إلى غيره ، وليس للاستفهام فى الأصل غيره ، وإنما تركوا الألف فى من ، ومتى ، وهل ، ونحوهن حيث أمنوا الالتباس ، ألا ترى أنك تدخلها على من إذا تمت بصلتها ، كقول الله عز وجل : (أفمن يلقى فى النار خير أمن يأتى آمنا يوم القيامة) »(٢) .

على أن « أم »(٣) المنقطعة بمنزلة الهمزة عند سيبويه ، ومن هنا يحق لها

---

(١) الـكتاب ١/٩٩ ، ١٠٠ . (٢) سورة فصلت آية ٤٠ .

(٣) أم المنقطعة ، تفيد الاضراب دائماً ، ويجب تفسيرها بمعنى بل فقط ، أو بل والهمزة خاصة إذا وليها حرف استفهام ، وتفيد الاستفهام الحقيقى مثل قول الله سبحانه (وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) وقول بعض العرب : إنها لابل أم شاء ؟ يقول العلماء فى تأويل (أم) فى المثالين المذكورين : نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره فقال : مالى لا أرى الهدهـد ؟ على معنى أنه لايراه وهو حاضر لساتر ستره ، أو غير ذلك ، ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول : بل أهو غائب ؟ كأنه يسأل عن صحة مالاح له (انظر كلام الزمخشرى فى الآية : النمل ٢٠) ، ومن المثال الثانى ، كأنه رأى شخصا فغلب على ظنه أنها إبل فأخبر بحسب ماغلب على ظنه ، ثم أدرك الشك فرجع إلى السؤال والاستثبات ، فـكأنه قال : بل أهى شاء ؟

وقد تفيد الاستفهام الإنـكارى ــ بمعنى النفى ــ مثل قوله سبحانه (أم له البنات ولـكم البنون ؟) بمعنى بل أله البنات ولـكم البنون ؟ ولا يجوز أن تقدر أم بمعنى بل وحدها ــ كما زعم بعضهم ، لأن المعنى فى هذه الآية ــ مثلا ــ (على بل دون الهمزة) يؤدى إلى الـكفر .

وقد يفيد الاستفهام التقريرى ــ كما فى قول الله سبحانه (آلم تنزيل الـكتاب لاريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه) .

وقد تصاحب أدوات الاستفهام مثل ما ، وماذا ، ومن ، وهل .

وإذا تـكررت (أم) المنقطعة متضمنة فى كل مرة استفهاماً حقيقيا كان الجواب

أن تدخل على أدوات الاستفهام الأخرى ، لكنها تلى الهمزة فى الرتبة ، ومن ثم لاتدخل عليها ، يقول الله سبحانه [١] (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون ، أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ إله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون) فأم هنا دخلت على ما ، ومن ، لكنها لم تدخل على الهمزة ، ذلك أنها - كما قلنا أم الباب .

وقد تركت كثرة استعمال بعض أدوات الاستفهام فى معنى السؤال أثرها على « أم » أيضا مثل الهمزة ، فاستغنت هذه الأدوات عن « أم » كما استغنت قبل ذلك عن الهمزة ، فأصبح لا يقال : أم متى ، ولا أم كيف ، مثلما لا يقال : أمتى ، ولا أكيف ، ولا يستثنى من ذلك إلا هل ، فإنها كما تكون أداة استفهام تكون أيضا بمعنى « قد » ، ومن هنا تقع « أم » قبلها دون الهمزة .

يقول سيبويه فى الإشارة إلى كون « أم » المنقطعة بمنزلة الهمزة [٢] : تقول : أم من تقول ، أم هل تقول ، ولا تقول : أم أتقول ؟ وذاك لأن أم بمنزلة الألف ، وليست : أي ومن وما ومتى بمنزلة الألف ، وإنما هي أسماء

للأخير مثل الآيات الكريمة من سورة الطور (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ؟ أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون؟ أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ....) على أن أكثر مجيء أم المنقطعة فى الأساليب الخبرية مفيدة للاضراب فقط مثل قول الله سبحانه (وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ، أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً) . وأم المنقطعة فى كل حالاتها غير عاطفة على الراجح ، وهى حرف ابتداء للاضراب لايدخل إلا على جملة .

(١) سورة النمل الآية ٥٩ ، ٦٠ وأصل (أما يشركون) أم ما يشركون ، وأصل (أمن خلق) أم من خلق .

(٢) الكتاب ١٨٩/٣ .

بمنزلة : هذا وذاك ، إلا أنهم تركوا ألف الاستفهام ههنا ، إذا كان هـذا النحو من الكلام لا يقع إلا فى المسألة ، فلما علموا أنه لا يكون إلا كذلك استغنوا عن الألف .

« وكذلك هل إنما تكون بمنزلة قد ، ولكنهم تركوا الألف ، إذ كانت هل لا تقع إلا فى الاستفهام »[1] .

والفرق بين الهمزة وأم : أن استعمال الهمزة يكون فى صدر الكلام واستقباله ، أما أم فتستعمل إذا أريد الاضراب عن معنى سابق ، والتحول منه إلى معنى جديد مستقبل ، فكأنك أثناء الحديث عن المعنى الأول تقول لا بل المعنى كذا ، ويشير سيبويه إلى هذا الفرق فيقول متسائلا : « فما بال أم تدخل عليهن وهى بمنزلة الألف ؟ »[2] ثم يجيب : « إن أم تجىء ههنا بمنزلة لا بل ، للتحول من الشىء إلى الشىء ، والألف لا تجىء أبداً إلا مستقبلة ، فهم قد استغنوا فى الاستقبال عنها واحتاجوا إلى أم ، إذ كانت لترك شىء إلى شىء ، لأنهم لو تركوها فلم يذكروها لم يتبين المعنى »[3] .

أما « أم » المتصلة التى تأتى مع همزة الاستفهام فتكون بمعنى « أى » ، ويراد منها ومن أى تعيين أحد الشيئين أو الأشياء المسئول عنها ، ويغلب عند سيبويه أن يلى الهمزة المسئول عنه وأن يلى « أم » معادله .

---

(١) يشير سيبويه هنا إلى علة عدم وقوع الهمزة قبل هل فيقول : إنها يمكن أن تكون بمعنى قد ، أى أنها كما تستعمل فى معنى الاستفهام تكون أيضا فى معنى الخبر ، ومن ذلك ما ذكرناه فى حديث مقاتل (ارجع إليه إن شئت) أنها فى الآية الكريمة (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً) بمعنى قد ، ولعل هذا هو السبب أيضا فى وقوع أم المنقطعة قبلها ، ذلك أن أم هذه أكثر ما تكون فى الأساليب الخبرية ـ كما أسلفنا .

(٢) الكتاب ٣/١٩٠ .

(٣) الموضع السابق .

وقد يأتى غير المسئول عنه بعد الهمزة ويجعله سيبويه أيضاً أسلوباً حسناً، لكن الأسلوب الأول ـ أعنى الذى يلى فيه الهمزة المسئول عنه ـ أحسن منه يقول سيبويه فى الحديث عن « أم » المتصلة[1] : هذا باب « أم » إذا كان الكلام بها بمنزلة أيهما أو أيهم ، وذلك قولك: أزيد عندك أم عمرو ، وأزيدا لقيت أم بشرا ، فأنت الآن مدع أن عنده أحدهما ، لأنك إذا قلت : أيهما عندك ، وأيهما لقيت ، فأنت مدع أن المسئول قد لقى أحدهما أو أن عنده أحدهما ، إلا أن علمك قد استوى فيهما لا تدرى أيهما هو .

والدليل على أن قولك : أزيد عندك أم عمرو بمنزلة قولك : أيهما عندك؟ أنك لو قلت : أزيد عندك أم بشر ؟ فقال المسئول : لا ، كان محالا ، كما أنه إذا قال : أيهما عندك ؟ فقال : لا ، فقد أحال .

واعلم أنك إذا أردت هذا المعنى فتقديم الاسم أحسن ، لأنك لا تسأله عن اللقى ، وإنما تسأله عن أحد الاسمين لا تدرى أيهما[2] هو فبدأت بالاسم

---

(١) الكتاب ٣/١٦٩ ، ١٧٠.

(٢) يشرح سيبويه المثال (أزيداً لقيت أم عمراً). والهمزة فى أول الكلام تسمى همزة التعيين ، وهى إحدى علامات « أم » المتصلة، والعلامة الأخرى لأم المتصلة أيضا وقوع همزة التسوية قبلها مثل قوله سبحانه (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) ، وهمزة التعيين قد استعيرت من معناها الاستفهامى لتفيد تعيين أحد الشيئين المشتركين فى الحكم ، والمخاطب بهذه الهمزة الاستفهامية مطلوباً منه تعيين أحد الأمرين عند الجواب مثل قوله سبحانه (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) أى أيهم خير .

أما همزة التسوية فقد استعيرت من معناها الاستفهامى لتفيد الاخبار بالتباس الأمر واستواء الحكم ، والتقدير فى الآية المذكورة : سـواء عليهم أى الأمرين كان ـ الانذار وعدمه ـ لا يؤمنون .

والفرق بين الهمزتين أن همزة التسوية تقع بعد لفظ (سواء) التى يفيد معناها

لأنك تقصد قصد أن يبين لك أى الاسمين فى هـــذا الحال ، وجعلت الاسم الآخر عديلا للأول ، فصار الذى لا تسأل عنه بينهما .

ولو قلت : ألقيت زيداً أم عمرا كان جائزا حسنا ، أو قلت : أعندك زيد أم عمرو كان كذلك .

ولكون الهمزة أم الباب أيضا يجوز أن تأتى (لا) بعدها فتكتسب معنى التمنى أو التنبيه أو التحضيض، وعن الأول يقول سيبويه : « وقد يجوز أن تقول : ألا رجل إما زيد وإما عمرو ؟ كأنه قيل له : من هذا التمنى ؟ فقال : زيد أو عمرو »[1] .

ويمثل لهذا الموضع مرة أخرى بقوله[2] : « ألا غـــلام لى ؟ ألا ماء باردا ؟ »[3] .

= التسويه بذاته ويتقوى هذا المعنى بالهمزة بعده ، والمتكلم بهذه الهمزه يريد إخبار المخاطب استواء الأمرين فى الحكم وعدم تعيينه لواحد منهما ، بينما همزة التعيين تفيد هى وأم بعدها طلب تعيين أمر مثبت يعلمه المتكلم منسوباً لأحد أمرين .

على أن كثيراً من النحاة - وعلى رأسهم سيبويه - يلحق بلفظ سواء فى إفاده معنى التسويه العبارات (ما أبالى - ليت شعرى - ما أدرى - لا أعلم ، وغيرها مما يفيد معناها) ويرى أن الهمزه بعدها جميعاً تسمى همزة التسويه ، ولا يفرق بينهما إلا بشىء واحد هو أن التسويه بلفظ (سواء) تمنع أن تقع (أو) بدل (أم) عند العطف بالمعادل لما بعد الهمزه ، بينما يجوز فى الألفاظ الأخرى أن يحل (أو) محل (أم) عند العطف بالمعادل . أنشد الكسائى :

سواء عليك النفر أم بت ليلة ... بأهل القباب من نمير بن عامر

وأنشده بعضهم : أو أنت بائت .

(١) الكتاب ٢٨٩/١ (٢) الكتاب ٣٠٧/٢ .

(٣) يرى المازنى فى هذا التمثيل أن الاستفهام يراد به التقرير ، والجملة هى التى يراد بها التمنى (عن محقق كتاب سيبويه الأستاذ عبد السلام هارون ٣٠٧/٢) .

وعن الثاني يقول سيبويه[١]: «وأما «ألا» فتنبيه ، تقول: ألا إنه ذاهب. ألا : بلى» .

أما عن المعنى الثالث فيقول سيبويه[٢] : «وسألت الخليل ـ رحمه الله ـ عن قوله :

ألا رجلا جزاه الله خيراً يدل على محصلة تبيت[٣]

فزعم أنه ليس على التمنى ، ولكنه بمنزلة قول الرجل : فهلا خيرا من ذلك ، كأنه قال : «ألا ترونى رجلا جزاه الله خيرا» .

النقطة الخامسة (الفرق بين همزة الاستفهام وهل) :

أهم ما نراه من فروق بين همزة الاستفهام وهل عند سيبويه أن الهمزة تأتى للتقرير دون هل ، ولذلك نجده يقول : «هل ليست بمنزلة ألف الاستفهام ؛ لأنك إذا قلت : هل تضرب زيدا ؟ فلا يكون أن تدعى أن الضرب واقع ، وقد تقول : أتضرب زيدا وأنت تدعى أن الضرب واقع»[٤] .

---

(١) الكتاب ٤/٢٣٥ . (٢) الكتاب ٢/٨ ٣ .

(٣) المحصلة : فسرها بعضهم بالمرأة التى تحصل تراب المعدن ، وذكر بعضهم أن قوله محصلة : موضع يجمع الناس أى يحصلهم ، ويروى : تبيت : بفتح التاء الأولى وضمها ، وعد الثانى تكون مضارع أبات ، أى تبيت لى بيتا ، أى امرأة بنكاح ، والشاهد فيه عند سيبويه نصب رجل وتنوينه ، لأن سيبويه حمله على إضمار فعل ، وأن ألا حرف تحضيض ، والتقدير : ألا ترونى رجلا ، ولو كانت للتمنى لنصب ما بعدها بغير تنوين فى مذهب الخليل وسيبويه ، ويونس يرى أنه منصوب بالتمنى ، ونون ضرورة ، والأول لأنه لا ضرورة فيه ـ (عن محقق كتاب سيبويه ٢/٣٠٨) .

(٤) الكتاب ٣/١٧٥ ، ١٧٦

« ومما يدلك على أن ألف الاستفهام ليست بمنزلة هل أنك تقول للرجل : أطرباً : وأنت تعلم أنه قد طرب ، لتوبخه وتقرره ، ولا تقول هذا بعد هل » .

ويبدو عندنا أن الواقع الأدبي يخالف هذا الرأى لسيبويه ، ذلك أن أهل العلم بالشعر قد حملوا استفهام أبي تمام بهل في قوله :

رضيت وهل أرضى إذا كان مسخطي
من الأمر مافيه رضى من له الأمر

على التقرير دون أى إشارة إلى مايعارض هذا الحمل ، بل كان حوار الخصوم حول نوع التقرير أهو تقرير نفي أم تقرير إيجاب ، يقول الآمدى صاحب الموازنة بين أبي تمام والبحترى معلقاً على حمل البيت على تقرير النفي(١) : « فمعنى (هل) في هذا البيت : التقرير ، والتقرير على ضربين : تقرير للمخاطب على فعل قد مضى ووقع ، أو على فعل هو في الحال ليوجب المقرر بذلك ويحققه ، ويقتضى من المخاطب في الجواب الاعتراف به ، نحو قوله : هل أكرمتك ؟ هل أحسنت إليك ؟ هل أودك وأوثرك ؟ وهل أقضى حاجتك ؟ وتقرير على فعل يدفعه المقرر وينفى أن يكون قد وقع ، نحو قوله : هل كان منى إليك قط شيء كرهته ؟ وهل عرفت منى غير الجميل ؟

« فقوله في البيت : (وهل أرضى) تقرير لفعل ينفيه عن نفسه ، وهو الرضا ، كما يقول القائل : وهل يمكنني المقام على هذه الحال ؟ أي لا يمكنني ، وهل يصبر الحر على الذل ؟ وهل يدوي زيد ؟ وهل يشبع عمرو ؟ فهذه كلها أفعال معناها النفي فقوله : (وهل أرضى) إنما هو نفي للرضا ، فصار المعنى : ولست أرضى ، إذ كان الذي يسخطنى مافيه رضا من له الأمر : أى رضا الله تعالى ، وهذا خطأ منه فاحش » .

« فإن قال قائل : فلم لا يكون قوله (وهل أرضى) تقريراً على فعل

---

(١) الموازنة جـ ١/ ٢١١ — ٢١٥ .

هو فى الحال ليؤكده من نفسه ، نحو قوله : هل أودك ؟ وهل أوثرك ؟ ونحو قول الشاعر :

هل أكرم مثوى الضيف إن جاء طارقاً
وأبذل معروفى له دون منكرى

وقيل له : ليس قول القائل لمن يخاطبه : هل أودك ؟ هل أوثرك ؟ وقوله : سل عنى هل أصلح للخير ؟ أو هل أكتم السر ؟ أو هل أقنع بالميسور ؟ مثل قول أبى تمام (هل رضيت ، وهل أرضى) لأن صيغة هذا الكلام دالة على أنه قد نفى الرضا عن نفسه بإدخاله الواو على (هل) ، وإنما يشبه هذا قول القائل : وهل أودك إذا كانت فعالك كذا ؟ وهل أصلح للخير عندك إلا إذا كنت تعتقد غير ذلك فى ؟ وهل ينفع فى زيد العتاب ؟ كقول الشاعر :

وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

وقول ذى الرمة :

وهل يرجع التسليم أو يكشف الأسى ثلاث الأثافى والديار البلاقع

لأن الواو ههنا كأنها عطفت جواباً على قول قائل : إن فلاناً سيصلح ويرجع إلى الجميل ، فقال الآخر :

وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

وكقول ذى الرمة :

أمنزلتى مى سلام عليكما هل الأزمن اللائى مضين رواجع

لما علم أن التسليم غير نافع عاد على نفسه فقال (وهل يرجع التسليم) ، وكما قال امرؤ القيس :

وإن شفائى عبرة مهراقة

ثم قال : وهل عند ربع دارس من معول

وكذلك قول أبي تمام (رضيت) ثم قال (وهل أرضى إذا كان مسخطى) إنما معناه : ولست أرضى ، فكان وجه الكلام أن يقول : رضيت وكيف لا أرضى ، أو لم لا أرضى ، إذا كان الذى يسخطنى مافيه رضا الله تعالى ، وكذا أراد فأخطأ فى اللفظ ، وأحال المعنى عن جهته إلى ضده ».

وقد يؤكد ما قلناه من أن الواقع الأدبى يخالف رأى سيبويه قول الآمدى فى نهاية حديثه عن بيت أبى تمام الذى خطأه فيه : « وقد استقصيت القول فى هذا الباب وما ذكره النحويون وسيبويه وغيره ».

النقطة السادسة : خروج الأدوات الاستفهامية عن معناها الحقيق :

قد تكون النقطة السابقة هى بداية حديث هذه النقطة . ذلك أن حديث سيبويه السابق هو حديث عن خروج الهمزة عن معناها الحقيقى إلى التقرير والتوبيخ والتمنى ، وغير ذلك .

ومن حديثه عن خروج همزة الاستفهام عن معناها أيضا قوله فى تحليل قولك لرجل رأيته فى حال تكون وتنقل فقلت له : « أتميميا مرة وقيسيا أخرى[1] ؟ » فأنت فى هذه الحال تعمل فى تثبيت هذا له ، وهو عندك فى تلك الحال فى تلون وتنقل ، وليس يسأله مسترشداً عن أمر هو جاهل به ليفهمه إياه ويخبره عنه ، ولكنه وبخه بذلك ».

« وحدثنا بعض العرب أن رجلا من بنى أسد قال يوم جبلة واستقبله بعير أعور فتطير منه ، فقال : يابنى أسد ، أعور وذاناب ! فلم يرد أن يسترشدهم ليخبروه عن عوره وصحته ، ولكنه نبههم ، كأنه قال : أتستقبلون أعور وذاناب ! فالاستقبال فى حال تنبيهه إياهم كان واقعاً ، كما كان التلون والتنقل عندك ثابتين فى الحال الأول ، وأراد أن يثبت لهم الأعور ليحذروه .

---

(١) الكتاب ١/٣٤٣ ، ٣٤٤

« ومثل ذلك قول الشاعر - هند بنت عقبة :

أفي السلم أعياراً جفاء وغلاظة   وفي الحرب أشباه الإماء العوارك

« أي تنقلون ، وتكونون مرة كذا ومرة كذا .

« وقال :

أفي الولائم أولاداً لواحدة   وفي العيادة أولاداً لعلات »

وقوله في باب أم المنقطعة(١) : « قوله عز وجل(٢) (الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ، أم يقولون افتراه) فجاء هذا الكلام على كلام العرب ؛ قد علم تبارك وتعالى ذلك من قولهم ، ولكن هذا على كلام العرب ليعرفوا ضلالتهم .... ومثل ذلك قوله تعالى(٣) : (أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين) فقد علم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون : أن الله عز وجل لم يتخذ ولداً ، ولكنه جاء على حرف الاستفهام ليبصروا ضلالتهم .

ألا ترى أن الرجل يقول للرجل : السعادة أحب إليك أم الشقاء ؟ وقد علم أن السعادة أحب إليه من الشقاء ، وأن المسئول سيقول : السعادة ، ولكنه أراد أن يبصر صاحبه وأن يعلمه » .

وقوله في باب أم المتصلة(٤) : « وتقول : ما أدري أقام أم قعد ؟ إذا أردت : ما أدري أيهما كان . وتقول : ما أدري أقام أو قعد ، إذا أردت أنه لم يكن بين قيامه وقعوده شيء ، كأنه قال : لا أدعي أنه كان منه في تلك

---

(١) الكتاب ج ٣/١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢) الآيتان ١ ، ٢ من سورة السجدة .

(٣) سورة الزخرف آية ١٦ .   (٤) الكتاب ج ٣/١٧١ ، ١٧٢ .

الحال قيام ولا قعود بعد قيامه ، أي لم أعد قيامه قياماً ، ولم يستبن لى قعود بعد قيامه ، وهو كقول الرجل : تكلمت ولم تكلم » .

النقطة السابعة : خروج بعض الأساليب الإنشائية الأخرى عن معناها الحقيق :

أذكر فى هـــذا المجال لسيبويه قوله عن الأمر والنهى(١) : « واعلم أن الدعاء بمنزلة الأمر والنهى ، وإنما قيل : (دعاء) لأنه استعظم أن يقال : أمر ونهى ، وذلك قوله : اللهم زيداً فاغفر ذنبه ، وزيداً فأصلح شأنه ، وعمراً ليجزه الله خيراً » .

وقوله عن النداء(٢) : « هذا باب ما يكون النداء فيه مضافاً إلى المنادى بحرف الإضافة ، وذلك فى الاستغاثة والتعجب ، وذلك الحرف اللام المفتوحة وذلك قول الشاعر - وهو مهلهل :

يالبكر أنشروا لى كليباً　　يالبكر أين أين الفرار

فاستغاث بهم لينشروا له كليباً ، وهذا منه وعيد وتهدد ، وأما قوله (يالبكر أين أين الفرار) فإنما استغاث بهم لهم ، أى لم تفرون ؟ ! استطالة عليهم ووعيداً .... وأما فى التعجب فقوله : وهو فرار الأسدى .

لخطاب ليــلى يالبرثن منكم　　أدل وأمضى من سليك المقانب(٣)

---

(١) الكتاب ج ١٤٢/١ .

(٢) الكتاب ج ٢١٥/٢ ، ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٣) ليلى ـ امرأته ، وكانت برثن قد داخلوا امرأته وأفسدوها عليه فقال هذا متعجباً من فعلهم فى الاهتداء إلى إفسادها لانتزاعها منه أهدى من سليك بن السلكة ، وهو أحد عدائى العرب وصعاليكهم ، وكان يسمى أيضاً (سليك المقانب) ، والمقنب : الجماعة من الخيل ، وبعد هذا البيت :

تزورونها ولا أزور نساءكم　　ألهفى لأولاد الاماء الحواطب

وقالوا : يالله‌عجب ، ويالله‌ماء ؛ لما رأوا عجباً أو رأوا ماء كثيراً ، كأنه يقول : تعال ياعجب ، أو تعال ياماء ، فإنه من أيامك وزمانك .

ومثل ذلك قولهم : ياللدواهي ، أي تعالين فإنه لا يستنكر لكن ، لأنه من إبانكن وأحيانكن » .

وفي مجال حديث النداء أيضا يقول سيبويه عن المندوب(١) : « اعلم أن المندوب مدعو ولكنه متفجع عليه ، فإن شئت ألحقت في آخر الاسم الألف ، لأن الندبة كأنهم يترنمون فيها ، وإن شئت لم تلحق كما لم تلحق في النداء . واعلم أن المندوب لابد له من أن يكون قبل اسمه « يا » أو « وا » ، كما لزم « يا » المستغاث به ، والمتعجب منه .

« فأما ماتلحقه الألف فقولك : وازيداه ، إذا لم تضف إلى نفسك ، وإن أضفت إلى نفسك ، فهو سواء ، لأنك إذا أضفت زيداً إلى نفسك فالدال مكسورة ، وإذا لم تضف فالدال مضمومة ، ففتحت المكسور كما فتحت المضموم ، ..... وإذا لم تلحق الألف قلت : وازيد (إذا لم تضف) ووازيد (إذا أضفت) ، وإن شئت قلت : وازيدي ، والإلحاق وغير الإلحاق عربي فيما زعم الخليل رحمه الله ويونس » .

ويقول السيرافي في تفسير ذلك(٢) : « الندبة : تفجع ونوح من حزن وغم يلحق النادب على المندوب عند فقده ، فيدعوه وإن كان يعلم أنه لا يجيب لإزالة الشدة التي قد رهقته .

« ولما كان المندوب ليس بحيث يسمع احتيج إلى غاية بعد الصوت ،

---

(١) الكتاب ج ٢/ ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٢) انظر حديث السيرافي في حاشية الأستاذ عبد السلام هارون على الكتاب ج ٢/ ٢٢ .

فالزموا أوله « يا » أو « وا » ، وآخره الألف ، فى الأكثر من الكلام . لأن الألف أبعد للصوت ، وأمكن المد » .

وواضح أن كلا من حديث سيبويه والسيرافى يؤكد على خروج الأسماء المستغاث بها والمتعجب منها والمندوبة عن حديث النداء الذى تنتمى إليه ، ويؤكد هذا أيضا بقوله معللا ذلك(١) : « وأما المستغاث به فيا لازمة له . لأنه يجتهد . فكذلك المتعجب منه ، وذلك : ياللناس ، وياللماء .

وإنما اجتهد لأن المستغاث عندهم متراخ أو غافل ، والتعجب كذلك .

والندبة يلزمها « يا » و « وا » لأنهم يختلطون(٢) ويدعون ماقد فات وبعد عنهم ، ومع ذلك أن الندبة كأنهم يترنمون فيها ، فمن ثم ألزموها المد ، وألحقوا آخر الاسم المد مبالغة فى الترنم » .

ويتحدث سيبويه أيضا عن خروج النداء إلى الاختصاص ، ويزيد هذه الإشارة إيضاحاً بقوله فى افتتاح حديثه أنه ليس بمنادى وإن كان قد جرى على حرف النداء ، يقول سيبويه(٣) : « هذا باب ماجرى على حرف النداء وصفاً له وليس بمنادى ينبه غيره ، ولكنه اختص ، كما أن المنادى مختص من بين أمته ، لأمرك ونهيك أو خبرك .

« فالاختصاص أجرى هذا على حرف النداء ، كما أن التسوية أجرت ماليس باستخبار ولا استفهام على حرف الاستفهام ، لأنك تسوى فيه كما تسوى فى الاستفهام ، فالتسوية أجرته على حرف الاستفهام ، والاختصاص أجرى هذا على حرف النداء .

---

(١) الكتاب ج ٢/٢٣١ .

(٢) الاختلاط (بالحاء المهملة) الضجر والغضب .

(٣) الكتاب ج ٢/٢٣١ .

« وذلك قولك : ما أدرى أفعل أم لم يفعل . فجرى هذا كقولك : أزيد عندك أم عمرو ، وأزيد أفضل أم خالد ؟ إذا استفهمت ، لأن علمك قد استوى فيهما كما استوى عليك الأمران فى الأول : فهذا نظير الذى جرى على حرف النداء .

« وذلك قولك : أما أنا فأفعل كذا وكذا أيها الرجل ، ونفعل نحن كذا وكذا أيها القوم ، وعلى المضارب الوضيعة أيها البائع ، واللهم اغفر لنا أيتها العصابة ، وأردت أن تختص ولا تبهم حين قلت : أيتها العصابة ، وأيها الرجل ، أراد أن يؤكد ، لأنه قد اختص حين قال أنا ، ولكنه أكد كما تقول للذى هو مقبل عليه بوجهه مستمع منصت لك : كذا كان الأمر يا أبا فلان ، توكيدا . ولا تدخل « يا » ههنا[1] لأنك لست تنبه غيرك ، يعنى : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة » .

ونود أن نقول : إن تعليل سيبويه خروج هذا الباب — أعنى باب الاختصاص — عن دائرة النداء بقياسه على خروج استفهام التسوية عن معنى الاستفهام ذاته قد أثار همة المتأخرين ، خاصة بعد نقل الزمخشرى له فى كشافه ، فرأوا أن هذا الخروج هو إشارة إلى تحول الأسلوب إلى طريق المجاز ، ومن ثم أجهدوا أنفسهم فى تحديد نوعية هذا المجاز كل الإجهاد ، وتكلفوا فى تحديد علاقته كل التكلف ، كما سنشير إلى ذلك فى حينه .

النقطة الثامنة : جواب الأساليب الاستفهامية :

تحدث سيبويه عن حروف جواب الأساليب الاستفهامية فذكر من ذلك : نعم ، وبلى ، ولا ، فقال عن الأول والثانى[2] : « وأما (بلى) فتوجب

---

(١) أى فى حديث الاختصاص .

(٢) الكتاب ج ٤/٢٣٤ .

به بعد النفى ، وأما (نعم) فعدة وتصديق ، تقول : قد كان كذا وكذا ، فيقول : نعم ، .... فإذا استفهمت فقلت : أتفعل ؟ أجبت بنعم ، فإذا قلت : ألست تفعل ؟ قال : بلى » .

وقال عن الثالث[١] : « تكون (لا) ضدا لنعم وبلى » .

وتحليل كلا نصى سيبويه يشير إلى استعمال كل من نعم ، وبلى فى الإيجاب ، غير أن نعم يجاب بها سؤال الإثبات ، وبلى يجاب بها سؤال النفى ، كما أن استعمال لا يكون عند الإجابة بالنفى ، وليس بالإيجاب ، سواء كان السؤال سؤال إثبات أو سؤال نفى .

غير أن هناك من الأساليب الاستفهامية ما يكون جوابها بالمطلوب مباشرة وليس بحروف الجواب مثل قول الله سبحانه[٢] (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) ، و « ذا » هنا مع « ما » بمنزلة اسم واحد — كما ذكر سيبويه — وليست اسماً موصولا ، وهذا وجه فى الحديث عن « ماذا » ، والوجه الآخر أن يكون « ذا » بمنزلة الذى ، يقول سيبويه شارحاً كلا الوجهين[٣] : « باب إجرائهم « ذا » ـ وحده ـ بمنزلة الذى ، وليس يكون ـ أى ذا ـ كالذى ، إلا مع ما ومن فى الاستفهام ، فيكون ذا بمنزلة الذى ، ويكون ما حرف الاستفهام ، وإجرائهم إياه مع ما بمنزلة اسم واحد .

« أما إجراؤهم « ذا » بمنزلة الذى فهو قولك : ماذا رأيت ؟ فيقول : متاع حسن ....

« وأما إجراؤهم إياه مع ما بمنزلة اسم واحد فهو قولك : ماذا رأيت ؟ فتقول : خيراً ، كأنك قلت : ما رأيت ؟ » .

---

(١) الكتاب ج ٤/٢٢٢ .

(٢) سورة النحل آية ٣٠ . (٣) الكتاب ج ٢/٤١٦ ، ٤١٧ .

ومقصود سيبويه بإجابة السؤال الأول : ماذا رأيت ؟ متاع حسن : أما مقصوده بإجابة نفس السؤال فى المرة الثانية : رأيت خيراً ، فالوجه الأول فيه « ذا » بمعنى الذى ، والوجه الثانى تكون فيه « ذا » مع « ما » اسما واحداً ، ولذلك قال[١] : « جعلوا ما وذا اسماً واحداً ، كما جعلوا ما وإن حرفاً واحداً حين قالوا : إنما .

وكلا الوجهين فصيح ، ولئن كانت الآية المذكورة تعد مثالا للوجه الثانى ، فإن من أمثلة ـ الوجه الأول قوله عز وجل[٢] (ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) .

والفرق بين الوجهين ـ حسبما نفهم من حديث سيبويه أننا نجرى الإجابة فى الوجه الأول ـ الذى تعتبر فيه « ذا » اسماً موصولا ـ على غير كلام المخاطب ، بمعنى أننا لا نعتبر الحديث بيننا وبين السائل حواراً موصولا ، بل نبدأ حديثنا بجملة مستقلة تؤدى المعنى الذى نريد نحن أن نعلمه للسائل ، بينما الإجابة فى الوجه الثانى تعتبر جملة السائل نفسها جزءاً من تركيبها ، وتحمل فى مضمونها المعنى الذى يريده السائل ، ولذلك جاء نصب اللفظ الكريم (خيرا) فى الآية الشريفة (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) كأنه مفعولا لفعل جملة السؤال ، وجاء المعنى مطابقاً تماماً لما يريده السائل .

وإذا كان تحليلنا لحديث سيبويه هذين المثالين قد يحتاط على الفارىء باعتبار أن (ما) هى الأخرى يظهر فيها معنى الموصولية فإن عبارة سيبويه الصريحة فى قوله[٣] : « ومثل ذلك قولهم فى جواب كيف أصبحت ؟ فيقول : صالح ، وفى من رأيت ؟ فيقول : زيد ، كأنه قال : أنا صالح ، ومن رأيت زيد .

---

(١) الكتاب ج ٢/٤١٨ . (٢) سورة النحل آية ٢٤ .
(٣) الكتاب ج ٢/٤١٨ ، ٤١٩ .

والنصب فى هذا ـ أى المثال الأخير ـ الوجه ، لأنه الجواب ، على كلام المخاطب ، وهو أقرب إلى أن تأخذ به ، تشير إلى أنه يمكن أن تكون إجابة السؤال غير جارية على كلام المخاطب .

وإشارة سيبويه إلى أقرب الوجهين فى الأخذ به لا تعنى إلا أن المعتاد فى السؤال والجواب أن يكونا متصلين .

ثم أقول : قد يكون حديث سيبويه هذا ، وتحليله على النحو الذى حللناه به ، هو الإشارة العلمية التى درس على أساسها السكاكى إجابة الأساليب الاستفهامية ، وجعل منها النوع الذى يجرى على غير كلام المخاطب تحت اسم جديد هو أسلوب الحكيم .

رابعاً : الفراء

نتجه ـ الآن ـ إلى الفراء لندرس كتابه (معانى القرآن) ، وفى هذا الكتاب نجد له حديثاً عن الأمر الذى خرج عن معناه إلى الإباحة ، يقول فيه عن الآية الكريمة[1] (إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) :[2] هذا الأمر ليس بفريضة وإنما هو أدب ورحمة من الله تبارك وتعالى فإن كتب فحسن ، وإن لم يكتب فلا بأس ، وهو مثل قوله[3] (وإذا حللتم فاصطادوا) أى فقد أبيح لكم الصيد ، وكذلك قوله :[4] (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض) ليس الانتشار والابتغاء بفريضة بعد الجمعة ، وإنما هو إذن » .

والملاحظ على الفراء فى هذا النص أنه يتكىء على الدراسات الدينية .

وللفراء حديث آخر عن الأمر الذى خرج إلى التهديد ، يقول فيه

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢ (٢) معانى القرآن جـ ١٨٣/١ .

(٣) سورة المائدة آية ٢ (٤) سورة الجمعة آية ١٠ .

صدد الآية الكريمة(١) (قل تمتع بكفرك قليلا) : (٢) « فهذا تهدد وليس بأمر محض ، وكذلك قوله(٣) (فتمتعوا فسوف تعلمون) وما أشبهه » .

كما أن له حديثاً ثالثا عن الأمر الذى خرج إلى التسوية ، يقول فيه صدد الحديث عن الآية الكريمة(٤) (أنفقوا طوعا أو كرها) :(٥) « وهو أمر فى اللفظ وليس بأمر فى المعنى ، لأنه أخبرهم أنه لن يتقبل منهم ، وهو فى الكلام بمنزلة (إن) فى الجزاء ، كأنك قلت : إن أنفقت طوعا أو كرها فليس بمقبول منك ، ومثله(٦) (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) ليس بأمر ، إنما هو على تأويل الجزاء ، ومثله قول الشاعر :

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة لدينا ولا مقلية « إن تقلت »

أما دراسة الفراء للاستفهام فهى تشمل :

(ا) حروف الاستفهام وخروجها إلى معنى الشرط والجزاء ، وذلك صدد حديثه عن الآية الكريمة(٧) (أينما تكونوا يدرككم الموت) حيث يقول :(٨) « إذا رأيت حروف الاستفهام قد وصلت بـ (ما) مثل قوله : أينما ، ومتى ما أى ما ، وحيث ما ، وكيف ما ، (٩) و (أيا ما تدعو) كانت جزاء ولم تكن استفهاما فإذا لم توصل بـ (ما) كان الأغلب عليها الاستفهام ، وجاز فيها الجزاء » .

(ب) خروج الاستفهام عن معناه إلى الأمر ، وذلك صدد الحديث عن الآية الكريمة(١٠) (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم) حيث

---

(١) سورة الزمر آية ٨ (٢) معانى القرآن جـ ٢/٤١٦ .
(٣) سورة الروم آية ٣٤ . (٤) سورة التوبة آية ٥٣ .
(٥) معانى القرآن جـ ١/٤٤ (٦) سورة التوبة آية ٨٠
(٧) سورة النساء آية ٧٨ (٨) معانى القرآن جـ ١/٨٥ .
(٩) سورة الإسراء آية ١١٠ (١٠) سورة آل عمران آية ٢٠ .

يقول(١) : « وهو استفهام ومعناه أمر ، ومثله قول الله(٢) (فهل أنتم منتهون) استفهام وتأويله : انتهوا ، وكذلك قوله(٣) (هل يستطيع ربك) ، وهل تستطيع ربك إنما هو مسألة . أولا ترى أنك تقول للرجل : هل أنت كاف عنا ؟ معناه : أكفف ، تقول للرجل : أين أين ؟ أقم ولا تبرح ، فلذلك جوزى فى الاستفهام كما جوزى فى الأمر ، وفى قراءة عبدالله(٤) (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، آمنوا) ففسر (هل أدلكم) بالأمر ، وفى قراءتنا على الخبر(٥) ، فالمجازاة فى قراءتنا على قوله (هل أدلكم) والمجازاة فى قراءة عبدالله على الأمر ، لأنه هو التفسير » .

(ح) خروج الاستفهام عن معناه إلى معنى التعجب ، وذلك صدد حديثه عن الآية الكريمة(٦) (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) ، حيث يقول(٧) : « وإدخال العرب (إلى) فى هذا الموضع على جهة التعجب ، كما تقول للرجل : أما ترى إلى هذا ، والمعنى - والله أعلم - هل رأيت مثل هذا ، أو رأيت مثل هذا ، أو رأيت هكذا ، والدليل على ذلك أنه قال(٨) (أو كالذى مر على قرية) فكأنه قال : هل رأيت كمثل الذى حاج إبراهيم فى ربه ، أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها .... ومثله قول الله تبارك وتعالى(٩) (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله) ثم قال تبارك وتعالى(١٠) (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله) فجعل اللام جواباً » .

---

(١) معانى القرآن ج ١/٢٠٢ (٢) سورة المائدة آية ٩١ .
(٣) سورة المائدة آية ١١٢ (٤) سورة الصف ١٠ ، ١١
(٥) أى على قراءة (هل أدلكم على تجارة .... تؤمنون) .
(٦) سورة البقرة آية ٢٥٨ (٧) معانى القرآن ج ١/١٧٠
(٨) سورة البقرة آية ٢٥٩ (٩) سورة المؤمنون آية ٨٤ ، ٨٥ .
(١٠) سورة المؤمنون ٨٦ ، ٨٧ .

(د) خروج الاستفهام عن معناه إلى معنى الإنكار، وذلك صدد حديثه عن الآية الكريمة(١) (كيف يكون للمشركين عهد عند الله)، حيث يقول(٢): «على التعجب، كما تقول: كيف يستبق مثلك، أي لا ينبغى أن يستبق، وهو في قراءة عبدالله (كيف يكون للمشركين عهد عند الله ولا ذمة) لجاز دخول (لا) مع الواو، لأن معنى أول الكلمة جحد، وإذا استفهمت بشيء من حروف الاستفهام فلك أن تدعه استفهاماً، ولك أن تنوى به الجحد، من ذلك قولك: هل أنت إلا كواحد منا؟! ومعناه: ما أنت إلا واحد منا، وكذلك تقول: هل أنت بذاهب؟ فتدخل الباء، كما تقول: ما أنت بذاهب، وقال الشاعر:

يقول إذا اقلولى عليها وأقردت … ألا هل أخو عيش لذيذ بدائم(٣)
فاذهب فأى فتى في الناس أحرزه … من يومه ظلم دعج ولا جبل(٤)

فقال: ولا جبل، للجحد، وأوله استفهام ونيته الجحد، معناه: ليس يحرزه من يومه شيء، وزعم الكسائى أنه سمع العرب تقول: أين كنت لتنجو منى، فهذه اللام إنما تدخل لـ (ما) التى يراد بها الجحد، كقوله(٥): (وما كانوا ليؤمنوا)، (٦)(وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله).

---

(١) سورة التوبة آية ٧ . (٢) معانى القرآن ج ١/٤٢٣ .

(٣) قال ابن برى البيت للفرزدق يذكر امرأة إذا علاها الفحل أقردت وسكنت وطلبت منه أن يكون فعله دائما متصلا .

(٤) الحرز: بالتحريك: الخطر . الدعج والدعجة: السواد، قال ابن برى . ظلم جمع ظلمة (بإسكان اللام) وهى ذهاب النور ويقال الظلمة والظلمة بضم اللام، فأما جمع الظلمة فبالألف والتاء .

(٥) سورة يونس آية ١٣ .

(٦) سورة الأعراف آية ٤٣، هذا، ويبدو أن معنى الجحد قد أخذه الفراء من لام الجحود الداخلة على المضارع بعد الكون المنفى .

ويرى الفراء أن أسلوب الاستفهام قد يتوارد عليه أكثر من معنى ، وذلك صدد الحديث عن الآية الكريمة(١) (إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون) ، حيث يقول(٢) : « إن شئت جعلت (ماذا) استفهاماً محضاً على جهة التعجب ، كقوله ويلهم : ماذا أرادوا باستعجال العذاب ؟ وإن شئت عظمت أمر العذاب فقلت : بماذا استعجلوا ! ، وموضعه رفع إذا جعلت الهاء راجعة عليه ، وإن جعلت الهاء في (منه) للعذاب ، وجعلته في موضع نصب أوقعت عليه الاستعجال » .

ولا يقتصر خروج الاستفهام عن معناه إلى معنى آخر ، وإنما يتعدى إلى خروج الاستفهام عن حدود الأساليب الإنشائية إلى الأساليب الخبرية ، وذلك صدد حديثه عن الآية الكريمة(٣) (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة) حيث يقول :(٤) « رفعت (فتصبح) لأن المعنى في (ألم تر) معناه خبر ، كأنك قلت في الكلام : اعلم أن الله ينزل من السماء ماء فتصبح الأرض ، وهو مثل قول الشاعر :

ألم تسأل الربع القديم فينطق ... فهل تخبرنك اليوم بيداء سملق

أي قد سألته فنطق ، ولو جعلته استفهاماً ، وجعلت الفاء شرطاً لنصبت كما قال الآخر :

ألم تسأل فتخبرك الديارا ... عن الحي المضلل حيث سارا

والجزم في هذا البيت جائز ، كما قال :

فقلت له صوب ولا تجهدنه ... فيدرك من أخرى العطاة فتزلق

فجعل الجواب بالفاء كالمنسوق على ما قبله » .

---

(١) سورة يونس آية ٥٠ ... (٢) معاني القرآن ج ١/٤٦٧ .

(٣) سورة الحج آية ٦٣ ... (٤) معاني القرآن ج ٢/٢٢٩ .

وهكذا يتنوع حديث الفراء فى دراسته للأساليب الإنشائية إلى أمر ونهى واستفهام ، وإلى حقيقة ومجاز ، وبذلك يكون حديثه قد أسهم إسهاما كبيراً فى دراساتها الأولى .

خامساً : ابن قتيبة

دفع اهتمام الفراء بخروج الأدوات الاستفهامية عن معانيها ابن قتيبه بعده أن يعقد باباً لمخالفة ظاهر اللفظ معناه ، ويتحدث فيما يتحدث عن خروج كثير من هذه الأدوات عن معانيها ، مثل خروج أدوات استفهام النصوص الكريمة الآتية إلى التقرير[1] : (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله)[2] ، (وما تلك بيمينك ياموسى)[3] ، (ماذا أجبتم المرسلين)[4] ، (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) » . وخروج أدوات الاستفهام فى الآيتين الكريمتين إلى معنى التعجب[5] (عم يتساءلون عن النبأ العظيم)[6] ، (لأى يوم أجلت ليوم الفصل) . يقول ابن قتيبة عن هاتين الآيتين الكريمتين الأخيرتين[7] : « كأنه قال : عم يتساءلون يامحمد ؟ ثم قال عن النبأ العظيم يتساءلون ، وقوله : لأى يوم أجلت على التعجب ، ثم قال ليوم الفصل » .

كما يتوسع ابن قتيبة فى حديث سيبويه عن الدعاء الوارد على جهة الذم والذى لا يراد به الوقوع كقول الله عز وجل[8] (قتل الخراصون) ،[9] (قتل الإنسان ما أكفره)[10] ، (قاتلهم الله أنى يؤفكون) وأشباه ذلك ،

---

(١) سورة المائدة آية ١١٦

(٢) سورة طه آية ١٧ .

(٣) سورة القصص آية ٦٥

(٤) سورة الأنبياء آية ٤٢ .

(٥) سورة النبأ آية ١ ، ٢

(٦) سورة المرسلات آية ١٢ ، ١٣ .

(٧) تأويل مشكل القرآن ٢١٦

(٨) سورة الذاريات آية ١٠ .

(٩) سورة عبس آية ١٧

(١٠) سورة التوبة آية ٣٠ .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم المرأة : (عقرى حلقى) ، أى عقرها الله وأصابها بوجع حلقها ، فيقول(١) : « وقد يراد بهذا أيضا التعجب من إصابة الرجل فى منطقه أو فى شعره أو فى رميه ، فيقال : قاتله الله ما أحسن ما قال ، وأخزاه الله ما أشعره ، ولله دره ما أحسن ما احتج به ، ومن هذا قول امرىء القيس فى وصف رام أصاب :

فهو لا تنمى رميته ماله لا عد من نفره

يقول : إذا عد نفره أى قومه ، ولم يعد معهم ، كأنه قال : قاتله الله ، أماته الله ، وكذلك قولهم : هوت أمه ، وهبلته ، وثكلته ، قال كعب ابن سعد الغنوى :

هوت أمه مايبعث الصبح غاديا وما يؤدى الليل حين يؤوب »

هذا ، وقد أكد ابن قتيبة ماقاله أهل الدراسات الدينية من خروج الأمر إلى عدة معان حيث قال(٢) : « ومنه - أى ومن باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه - أن يأتى الكلام على لفظ الأمر وهو تهديد ، كقوله(٣) (اعملوا ماشئتم) ، وأن يأتى على لفظ الأمر وهو تأديب كقوله(٤) (وأشهدوا ذوى عدل منكم) ، (٥)(واهجروهن فى المضاجع واضربوهن) ، وعلى لفظ الأمر وهو إباحة كقوله(٦) (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا) ، (٧)(فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض) ، وعلى لفظ الأمر وهو فرض كقوله(٨) (واتقوا الله) ، (٩)(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) .

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٢١٣ ، ٢١٤ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ٢١٦ (٣) سورة فصلت آية ٤٠ .
(٤) سورة الطلاق آية ٢ (٥) سورة النساء آية ٣٤
(٦) سورة النور آية ٣٣ (٧) سورة الجمعة آية ١٠ .
(٨) سورة البقرة آية ٢٨٢ (٩) سورة البقرة آية ٤٣ وغيرها .

سادسا : المـــبرد

يكاد حديث المبرد عن الأساليب الإنشائية يلتقى مع حديث سيبويه ، وربما كان الجديد لديه هو التوسع فى إلحاق (أم) بهمزة الاستفهام فى بعض الخصائص حيث قال(١) : « الألف وأم حرفا الاستفهام اللذان يستفهم بهما عن جميعه ، ولا يخرجان منه ، وليس كذا سائر حروف الاستفهام ، لأن كل حرف منها لضرب لايتعدى ذلك إلى غيره . ألا ترى أن (أين) إنما هو سؤال عن المكان لا يقع إلا عليه ، و (متى) سؤال عن زمان ، و(كيف) سؤال عن حال ، و (كم) سؤال عن عدد ، و (هل) تخرج من حد المسألة فتصير بمنزلة (قد) نحو قول الله عز وجل(٢) (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) .

« فالألف و (أم) لاينتقلان عن الاستفهام كما تنقل هذه الحروف فتكون جزاء ، ويكون ما كان منها يقع للناس وغيرهم نحو (من) و (ما) و(أى) كذلك ، ويكون فى معنى الذى . وحرفا الاستفهام اللذان لا يفارقانه : الألف ، و (أم) وهما يدخلان على هذه الحروف كلها ، ألا ترى أن القائل يقول : هل زيد فى الدار أم هـــل عمرو هناك ؟ وتقول : كيف صنعت أم كيف صنع أخوك ؟ فدخل هذان الحرفان على حروف الاستفهام لتمكنهما وانتقالها ، فمن ذلك قوله (أى علقمة) .

هل ما علمت وما استودعت مكتوم ... أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم
أم هل كبير بكى لم يقض عبرته ... إثر الأحبة يوم البين مشكوم(٣)

---

(١) المقتضب جـ ٢/٢٨٩ - ٢٩١ (٢) سورة الإنسان آية ١ .

(٣) نأتك : أصله نأت عنك ، المشكوم : المجزى ، إثر الأحبة : بكسر الهمزة وسكون الثالثة وفتحهما لغة ، العبرة : الدمعة ، أى لم يشتف من البكاء لأن فى ذلك راحة كما قال امرؤ القيس : (وإن شفائى عبرة لو صببتها) وفى الخزانة (جـ ٤/١٦ ٥)

فأدخل (أم) على (هل) وقال :

سائل فوارس يربوع بشدتنا أهل رأونا بسفح القف ذى الأكم

وقال : كيف القرار ببطن مكة بعد ما هم الذين تحب بالإنجاد
أم كيف صبرك إذ ثويت معالجاً سقماً خلافهم وسقمك بادى

وتدخل حروف الاستفهام على (من) و (ما) و (أى) إذا صرن فى معنى الذى بصلاتهن ، وكذلك (أم) كقول الله عز وجل [1] (أم من يجيب المضطر إذا دعاه) ، وكقوله [2] (أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة) فقد أوضحت لك حالها » .

والملاحظ على هذا النص أنه يتحدث فى مجال الاستفهام الحقيقى ، أما مجال الاستفهام المجازى فقد قال فيه المبرد : (٣) « قول الله عز وجل : [4] (آلم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ، أم يقولون افتراه) وقوله [5] (أم تسألهم أجراً) وما كان مثله نحو قوله عز وجل [6] (أم اتخذ مما يخلق بنات) فإن ذلك ليس على جهة الاستفهام ، لأن المستخبر غير عالم ، إنما يتوقع الجواب فيعلم به ، والله عز وجل منفى عنه ذلك ، وإنما تخرج هذه

= يجوز أن تأتى (هل) بعد (أم) وليس فيه جمع بين استفهامين فإن (أم) مجردة عن الاستفهام إذا وقع بعدها أداة استفهام حرفاً كانت أم اسماً ، وفى الخزانة أيضا (ص٥١٩) . (أم) إذا جاءت بعد (هل) يجوز أن يعاد معها (هل) ويجوز ألا يعاد بخلاف (أم) إذا جاءت بعد اسم استفهام فإنه يجب أن يعاد معها ذلك الاسم ، وقد اجتمع فى البيتين إعادة (هل) وتركها ، فإن (أم) الأولى جاءت بعد (هل) ولم تعد (هل) معها ، وقد أعادها مع (أم) الثانية فى البيت الثانى .

(١) سورة النمل آية ٦٢ .
(٢) سورة فصلت آية ٤٠ .
(٣) المقتضب ج ٣/٢٩٢
(٤) سورة السجدة آية ١ ، ٢ .
(٥) سورة القلم ٤٦
(٦) سورة الزخرف آية ١٦ .

الحروف فى القرآن مخرج التوبيخ والتقرير ، ولكنها لتكرير توبيخ بعد توبيخ عليهم .

ألا تراه يقول عز وجل (أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمناً يوم القيامة) وقد علم المستمعون كيف ذلك ليزجرهم عن ركوب مايؤدى إلى النار ، كقولك للرجل : السعادة أحب إليك أم الشقاء ؟ لتوقفه أنه على خطأ وعلى مايصيره إلى الشقاء ، ومن ذلك قوله [1](أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين) كما قال :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح[2]

وأنت تعلم أنه لم يستفهم ، ولكن قررهم بأنهم كذلك وأنه قد ثبت لهم ، فمجاز هذه الآيات ـ والله أعلم ـ أيقولون افتراه ؟ على التوبيخ لهم ، وأنهم قالوا ، فنبه الرسول والمسلمين على إفكهم ، وترك خبراً إلى خبر لا على جهة الاضراب ، ولكن على جهة تكرير خبر بعد خبر ، كما يقع أمر بعد زجر ، وأمر بعد أمر للترغيب والترهيب ، والله أعلم » .

ولعل من الجديد عند المبرد أيضا التوسع فى الحديث عن معنى التسوية فى همزة الاستفهام مع أم ، وذلك فى الباب الذى عقده للحديث عن مسائل (أم) مع الهمزة وبيان كونهما استفهاماً واحداً أو استفهامين ، حيث يقول : [3]« تقول : أعندك زيد أم عمرو ، فإذا أردت : أيهما عندك ـ فهذا

---

(١) سورة الزمر آية ٦٠ .

(٢) قال ابن هشام فى المغنى (جـ ١ / ١٦) إنه أمدح بيت قالته العرب ، ولو كان على الاستفهام الحقيقى لم يكن مدحاً ألبته . والراح : اسم جمع لراحة ، وهى الكف ، والبيت من قصيدة لجرير فى مدح عبد الملك بن مروان .

(٣) المقتضب جـ ٣ / ٢٩٣ .

عربى حسن ، والأجود : أزيد عندك أم عمرو ؟ لأنك عدلت زيداً بعمرو، فأوقعت كل واحد منهما إلى جانب حرف الاستفهام ، وجعلت الذى لاتسأل عنه بينهما ، وهو قولك : عندك ، وكذلك : أزيداً ضربت أم عمراً ، أزيد أقام أم عمرو ..... فإن أردت أن تجريه على استفهامين قلت : أزيد عندك أم عندك عمرو ؟ فاتى . استفهم أولا عن زيد ، ثم أدركه الشك فى عمرو ، فأضرب عن زيد ورجع إلى عمرو ، فكأنه قال : أزيد عندك بل أعندك عمرو ؟ فهذا تمثيل ذلك ، ومثله قول كثير :

أليس أبى بالنضر أم ليس والدى
لكل نجيب من خزاعة أزهر

ترك الاستفهام الأول ، ومال إلى الثانى ، وإنما أخرجه مخرج التقرير فى اللفظ ، كالاستخبار » .

ويريد المبرد بالاستفهام الواحد استفهام التسوية المجازى لا الاستفهام الحقيقى ، وبالاستفهامين كون أم المنقطعة مفيدة للاستفهام بعد الهمزة الاستفهامية فى أول الكلام .

ويشرح المبرد استفهام التسوية بقوله :(١) « تقول : ليت شعرى أزيد فى الدار أم عمرو ؟ وما أبالى أقمت أم قعدت ، وسواء على أذهبت أم جئت ؟ هذا ليس بالاستفهام ، ولا قولك : قد علمت أزيد فى الدار أم عمرو ، وإنما هو أنك قد علمت أن أحدهما فى الدار ، لا تدرى أيهما هو ؟ فقد استويا عندك ، فهذه الأشياء التى وصفنا مستوية وإن لم تكن استفهاما . فالتسوية أجرت عليه هذه الحروف إذا كانت لا تكون إلا للتسوية .

والدليل على ذلك أن (أيا) لا تكون إلا لهذا المعنى داخلة على جميعها ،

---

(١) المقتضب ج ٣/٢٩٧ .

ألا ترى أنك إذا قلت : أزيد في الدار أم عمرو ؟ فمعناه أيهما في الدار ، وإذا قلت : سواء علي أذهبت أم جئت ـ فمعناه : سواء علي أي ذلك ، كان كما تقول : ما أبالي أقمت أم قعدت ، أي ما أبالي أي ذلك كان ، وليت شعري ! أي ذلك كان » .

كما يشرح الاستفهامين بقوله : « و(أم) المنقطعة تقع بعد الاستفهام كوقوعها بعد الخبر ، ومن ذلك قولك : أزيد في الدار أم لا ؟ ليس معنى هذا : معنى أيهما ، ولكنك استفهمت على أنك ظننت أنه في الدار ، ثم أدركك الشك في أنه ليس فيها فأضربت عن السؤال عن كونه فيها . وسألت عن إصفارها منه »[١] . ويزيد ذلك وضوحاً أيضاً بشرح الآية الكريمة الواردة على لسان فرعون : (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين)[٢] فيقول : « وأما ما حكى الله عن فرعون من قوله : (أليس لي ملك مصر ....) الآية فإنما تأويله ـ ـ والله أعلم ـ أنه قال : أفلا تبصرون. أم أنا خير ؟ على أنهم لو قالوا له: أنت خير لكانوا عنده بصراء، فكأنه قال. والله أعلم ـ أفلا تبصرون ، أم تبصرون، وهذه (أم) المنقطعة لأنه أدركه الشك في بصرهم »[٣] .

وفي إعتقادي أيضاً أن المبرد قد أوضح من ألوان التركيب النحوي للأمر والنهي ما هو أكثر من سيبويه مما يمكن أن يعد له عندما قال[٤] : « هذا باب الأمر والنهي فما كان منهما مجزوماً فإنما جزمه بعامل مدخل عليه ، فاللازم له اللام ، وذلك قولك : ليقم زيد ، ليذهب عبد الله ، وتقول : زرني ولأزرك، فتدخل اللام؛ لأن الأمر ، فأما إذا كان المأمور مخاطباً فعله مبني غير مجزوم ، وذلك قولك : اذهب وانطلق ...

---

(١) المرجع السابق ٣/٢٩٤ .
(٢) سورة الزخرف آية ٥١ ، ٥٢ .
(٣) المقتضب ٣/٢٩٥ ، ٢٩٦ .
(٤) المقتضب ٢/١٣١ ، ١٣٢ .

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأ (فبذلك فلتفرحوا) فهذا مجزوم جزمته اللام وجاءت هذه القراءة على أصل الأمر، فإذا لم يكن الأمر للحاضر المخاطب فلابد من إدخال اللام، تقول: ليقم زيد، وتقول: زر زيداً وليزرك إذا كان الأمر لهما، لأن زيدا غائب، ولا يكون الأمر له إلا بإدخال اللام. وكذلك إن قلت: ضرب زيد، فأردت الأمر من هذا: ليضرب زيد، لأن المأمور ليس بمواجه .... واعلم أن الدعاء بمنزلة الأمر والنهي في الجزم والحذف عند المخاطبة، وإنما قيل: دعاء وطلب للمعنى، لأنك تأمر من هو دونك، وتطلب إلى من أنت دونه، وذلك قولك: ليغفر الله لزيد، وتقول: اللهم اغفر لي، كما تقول: اضرب عمرا، فأما قولك: غفر الله لزيد، ورحم الله زيدا، ونحو ذلك - فإن لفظه الخبر ومعناه الطلب، وإنما كان كذلك لعلم السامع أنك لا تخبر عن الله عز وجل وإنما تسأله، كما أن قولك: علم الله لأقومن، إنما لفظه لفظ رزق الله، ومعناه القسم لأنك في قولك (علم) مستشهد».

سابعا: ابن جنى

ننتقل - الآن - إلى فيلسوف اللغة وباحث أسرارها أبي الفتح عثمان ابن جنى (٣٩٢ هـ) لنرى بحثه الجديد حول الدوافع النفسية للاستفهام في الأساليب حيث يقول: «إن المستفهم عن الشيء قد يكون عارفاً به مع استفهامه في الظاهر عنه، لكن غرضه في الاستفهام عنه أشياء»[1]:

* منها أن يرى المسئول أنه خفي عليه ليسمع جوابا عنه.

** ومنها أن يتعرف حال المسئول هل هو عارف بما السائل عارف به.

*** ومنها أن يرى الحاضر غيرهما أنه بصورة السائل المسترشد، لما له في ذلك من الغرض.

---

(١) الخصائص ٢/٤٦٤، ٤٦٥.

***** ومنها أن يعد ذلك لما بعده مما يتوقعه حتى إن حلف بعد أنه قد سأله عنه حلف صادقا فأوضح بذلك عذرا .

***** ولغير ذلك من المعانى التى يسأل السائل عما يعرفه لأجلها وبسببها .

والناظر فى هذا النص يلاحظ أنه يتحدث عن أسلوب الاستفهام المجازى، ذلك أن أسلوب الاستفهام الحقيقى لايكون إلا لطلب الفهم، وذلك لا يستدعى استبطان نفسية السائل .

ولابن جنى بحث جديد أيضا فى استبطان استعمال أداة الاستفهام استعمالا مجازيا يستخدم فيه الخصائص النفسية للغة ذاتها من حيث اللفظ والمعنى - إن صح هذا التعبير[1] - فمن ذلك حديثه فى باب نقض الأوضاع إذا ضامها طارىء عليها حيث يقول : « لفظ الاستفهام إذا ضامه معنى التعجب استحال خبرا، وذلك قولك : مررت برجل أى رجل، فأنت الآن مخبر بتناهى الرجل فى الفضل، ولست مستفهما، وكذلك مررت برجل أيما رجل، لأن (ما) زائدة، وإنما كان كذلك لأن أصل الاستفهام الخبر، والتعجب ضرب من الخبر، فكأن التعجب لما طرأ على الاستفهام إنما أعاده إلى أصله من الخبرية »[2] .

فأنت تراه فى هذا النص استبطن اللغة حتى رأى تحول الاستفهام

---

(١) فى تراثنا العربى مايستأنس به فى صحة هذا التعبير مثل قول ابن جنى نفسه فى الحديث عن خروج (هل) من معناها الاستفهامى إلى معنى (قد) ، وسننقل هذا النص بعد قليل « وكل حرف فيما بعد يأتيك قد أخرج عن بابه إلى باب آخر فلابد أن يكون قبل إخراجه إليه قد كان يراثيه ويلتفت إلى الشق الذى هو فيه » . وانظر أيضا حديث المتأخرين عن الفرق بين المثالين : هل زيد قام (الممتنع أو القبيح) ، وهل زيد قائم (الجائز) فى شروح التلخيص ٢/٢٦٠ - ٢٦١ .

(٢) الخصائص ٣/٢٦٩ .

إلى خبر إذا انضم التعجب إليه من واقع كون الحديث عن تناهي الرجل في الفضل في المثال الذي ذكره ، ومن ثم ذكر أن التعجب أعاد الاستفهام إلى أصله الخبري .

ومن ذلك حديثه عن خروج همزة الاستفهام إلى التقرير ، حيث يقول :[١] « التقرير ضرب من الخبر ، وذلك ضد الاستفهام ، ويدل على أنه قد فارق الاستفهام امتناع النصب بالفاء في جوابه ، والجزم بغير الفاء في جوابه ألا تراك لا تقول : ألست صاحبنا فنكرمك ، كما تقول : لست صاحبنا فنكرمك ، ولا تقول في التقرير : أأنت في الجيش أثبت اسمك ، كما تقول في الاستفهام الصريح : أأنت في الجيش أثبت اسمك ؟ ، كما تقول : ما اسمك أذكرك ، أي إن أعرفه أذكرك ، ولأجل ما ذكرنا من حديث همزة التقرير[٢] ما صارت تنقل النفي إلى الإثبات ، والإثبات إلى النفي ، وذلك كقوله :

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

أي (أنتم كذا كم) ، وكقول الله عز وجل (آلله أذن لكم)[٣] و(أأنت قلت للناس)[٤] أي لم يأذن لكم ، ولم تقل للناس : اتخذوني وأمي إلهين ، ولو كانت استفهاماً محضاً لأقرت الإثبات على إثباته ، والنفي على نفيه ، فإذا دخلت على الموجب نفته ، وإذا دخلت على النفي نفته ، ونفي النفي عائد إلى الإثبات ، ولذلك لم يجيزوا ما زال زيد إلا قائماً لما آل به المعنى من النفي إلى : ثبت زيد إلا قائما ، فكما لا يقال هذا فكذلك لا يقال ذلك فاعرفه » .

والملاحظ في هذا النص أن ابن جني قد رأى أن يقرب للقارىء استبطان فروق دلالات التراكيب بوسيلة ملموسة هي الإعراب ، أعني قوله : « ويدل على أنه قد فارق الاستفهام امتناع النصب بالفاء في جوابه ، والجزم بغير الفاء في جوابه ، ألا تراك لا تقول : ألست صاحبنا فنكرمك ، كما تقول :

---

(١) الخصائص ٢/٤٦٣ ، ٤٦٤ .   (٢) (ما) هنا مصدرية أي صيرورتها .
(٣) سورة يونس آية ٥٩ .   (٤) سورة المائدة آية ١١٦ .

لست صاحبنا فتنكر معك ، ولا تقول في التقرير : أأنت في الجيش أثبت اسمك ، كما تقول في الاستفهام الصريح : أأنت في الجيش أثبت اسمك؟ ، كما رأى أن يستخدم معرفته في عـــدم جواز القول (مازال زيد إلا قائما) لتناقض استخدام (إلا) مع الغرض من استعمال الفعل (مازال) حيث يشير الفعل للنفي المستمر ، وتشير (إلا) إلى نقض هذا النفي .

وإذا كان ذلك كذلك فإن همزة التقرير تؤدي إلى معنى ضد أسلوب الاستفهام كما صرح بذلك في قوله (التقرير ضرب من الخبر ، وذلك ضـــد الاستفهام ، ومن ثم رأى ابن جنى أن همزة التقرير قد تفيد الإنكار أيضا ، فقال في موضع آخر معقبا على الأمثلة (أأنت قلت للناس)(١) و (آلله أذن لكم)(٢) و (ألست بربكم)(٣) و (ألستم خير من ركب المطايا)(٤) : « وإنما كان الإنكار كذلك لأن منكر الشيء إنما غرضه أن يحيله إلى عكسه وضده ، فلذلك استحال به الإيجاب نفياً ، والنفي إيجاباً » .

كما قال أيضا في التدليل على هـــذه القاعدة(٥) : « ويدل على صحة معنى التناكر في همزة التقرير أنها قد أخلصت للإنكار في نحو قولهم في جواب قوله ضربت عمراً : أعمراه ! ، ومررت بإبراهيم « أإبرهيماه » ، ورأيت جعفراً : (أجعفرنيه ، وأجعفراً إنيه !) ، وهذا واضح »(٦) .

---

(١) سورة المائدة آية ١١٦ . (٢) سورة يونس آية ٥٩ .
(٣) سورة الأعراف آية ١٧٢ . (٤) الخصائص ٣/٢٦٩ .
(٥) الخصائص ٣/٤٦٤ .
(٦) جاء في حديث ابن جني ـ باب في حرف اللين المجهـــول ـ (الخصائص ٣/١٥٤ ، ١٥٥) مانصه : « مدة الإنكار ، نحو قولك في جواب من قال : رأيت بكرا : أبكرنيه ، وفي جاءني محمد : أمحمدنيه ، وفي مررت على قاسم : أقاسمنيه ! وذلك أنك ألحقت مدة الإنكار وهي لامحالة ساكنة ، فوافقت التنوين ساكنا فكسر ـ أي التنوين ـ لالتقاء الساكنين ، فوجب أن تكون المدة ياء لتتبع الكسرة ... » .

ولعل من نتيجة هذه المسألة قوله الرائع : « واعلم أنه ليس شيء يخرج عن بابه إلى غيره إلا لأمر قد كان وهو على بابه ملاحظا له ، وعلى صدد من الهجوم عليه »(١) . ذلك أن المستفهم بطريقة التقرير يعرف إجابة سؤاله قبل أن يسأله ـ كما أوضح ابن جنى فى قوله عقب الشرح المتقدم ، وعقب استبطان نفسية السائل العارف إجابة سؤاله(٢) : « فلما كان السائل فى جميع هذه الأحوال قد يسأل عما هو عارفه ، أخذ بذلك طرفا من الإيجاب ، لا السؤال عن مجهول الحال ، وإذا كان ذلك كذلك جاز لأجله أن يجرد فى بعض الأحوال ذلك الحرف لصريح ذلك المعنى »(٣) .

وقد نلمح عظمة عقلية ابن جنى عندما يتخذ من هذه القاعدة وسيلة للحديث عن خروج (هل) من معنى الاستفهام إلى معنى (قد) ، وإتباع ذلك بتعميم هذه القاعدة لتكون قاعدة لغوية هامة ، يقول ابن جنى :(٤) « فمن هنا جاز أن تقع (هل) فى بعض الأحوال موضع (قد) . . . وكل حرف فيما بعد يأتيك قد أخرج عن بابه إلى باب آخر ، فلا بد أن يكون قبل إخراجه إليه قد كان يرائيه ، ويلتفت إلى الشق الذى هو فيه ، فاعرف ذلك وقسه ، فإنك إذا فعلته لم تجد الأمر إلا كما ذكرته ، وعلى ما شرحته » .

= هذا فى الاسم المنون ، أما الإسم غير المنون فقد قال عنه ابن جنى : «فإن قيل : أيتنص فى هذه المدة ـ أى مدة الإنكار ـ على حرف معين : الألف أو الياء أو الواو ؟ قيل : لم تظهر فى شىء من الإنكار فى صورة مخصوصة فيقطع بها عليها دون أختيها ، وإنما تأتى تابعة لما قبلها : ألا تراك تقول فى قام عمر : أعمروه ، وفى رأيت أحمد : أأحمداه ، وفى مررت بالرجل : آلرجليه » ثم فرق ابن جنى بين مدة الإنكار هذه ومدة الندبة فقال : « وليست كذلك مدة الندبة ، لأن تلك ألف لا محالة ، وليست مدة مجهولة مدبرة بما قبلها ، ألا تراها تفتح ما قبلها أبدا مالم تحدث هناك لبسا ، ونحو ذلك نحو : وازيداه ، ولم يقولوا : وازيدوه ، وإن كانت الدال مضمومة فى (وازيد) » .

(١) الخصائص ٤٦٤/٢ . (٢) انظر مطلع حديثنا عن ابن جنى .
(٣) الخصائص ٤٦٥/٢ . (٤) الموضع السابق .

ويوضح ابن جنى حديث (هل) فى موضع آخر فيقول مبيناً إياها مرة على عدم التزامها ببابها الاستفهامى ، وورودها على معنى (قد) ، وأخرى على التزامها بهذا الباب فيقول :[١] « فأما (هل) فقد أخرجت عن بابها إلى معنى (قد) نحو قول الله ـ سبحانه ـ (هل أتى على الإنسان حين من الدهر) قالوا : معناه : قد أتى عليه ذلك .

« وقد يمكن عندى أن تكون مبقاة فى هذا الموضع على بابها من الاستفهام، فكأنه قال ـ والله أعلم ـ هل أتى على الإنسان هذا ؟ فلابد فى جوابه من (نعم) ملفوظاً بها أو مقدرة ، أى فكما أن ذلك كذلك فينبغى للإنسان أن يحتقر نفسه ، ولا يبأى[٢] بما فتح له . وهذا كقولك لمن تريد الاحتجاج عليه : بالله هل سألتنى فأعطيتك ! ، أم هل زرتنى فأكرمتك ! ، أى فكما أن ذلك كذلك فيجب أن تعرف حقى عليك ، وإحسانى إليك ، ويؤكد هذا عندك قوله تعالى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل)[٣] أفلا تراه ـ عز اسمه ـ كيف عدد أياديه وألطافه له » .

وينبغى أن نذكر هنا أن قول ابن جنى « فلابد فى جوابه ـ أى جواب الاستفهام ـ من (نعم) ملفوظاً بها أو مقدرة » شرح لكون (هل) للاستفهام الحقيقى ، وبيان أن فى إجابة هذا الاستفهام نوع قوى من الاحتجاج على الإنسان كما يكون الاحتجاج القوى فى أسلوب الاستفهام الذى ذكره ابن جنى فى قوله بالله هل سألتنى فأعطيتك ! ، أم هل زرتنى فأكرمتك ! ولقد استشهد ابن جنى على أن الاستفهام الحقيقى يفيد الاحتجاج القوى على الإنسان بالآيات الكريمة عقب هذا الاستفهام حيث قال الله عز وجل (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ...) .

---

(١) الخصائص ٢/٤٦٤ . (٢) يبأى : يفتخر .

(٣) سورة الإنسان الآيات ٢ ، ٣ .

أقول هذا لأوضح غموض عبارة ابن جنى فى بيان الاستفهام الحقيقى على بعض الباحثين(١) ، حيث ظن أن الاستفهام هنا استفهام تقريرى ، وذلك أن الاستفهام التقريري يعنى أيضا خروج (هل) عن بابها إلى معنى التقرير .
وقد حسبت أن هذا الباحث عندما ذكر حديث ابن جنى فى خروج همزة الاستفهام إلى معنى التقرير فأرجعه إلى سيبويه(٢) سيفطن إلى أن سيبويه أثناء حديثه عن خروج الهمزة إلى التقرير أشار إلى أن (هل) لاتقع هذا الموقع كما تقدمنا . .

ثم أقول : إن ابن جنى قد أوضح فى كتاب الخصائص فى (باب التفسير على المعنى دون اللفظ) صعوبة هذا المبحث حين قال :(٣) « إعلم أن هذا موضع قد أتعب كثيراً من الناس واستهواهم ، ودعاهم من سوء الرأى وفساد الاعتقاد إلى ماهذلوا به ، وتتابعوا فيه(٤) ، حتى إن أكثر ماترى من هذه الآراء المختلفة ، والأقوال المستشنعة إنما دعا إليها القائلين بها تعلقهم بظواهر هذه الأماكن ، دون أن يبحثوا عن سر معانيها ، ومعاقد أغراضها ... ومن ذلك قول الله عز وجل (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد)(٥) قالوا معناه : قد امتلأت ، وهذا أيضا تفسير على المعنى دون اللفظ ، و (هل) مبقاة على استفهامها ، وذلك كقولك للرجل لاتشك فى ضعفه عن الأمر : هل ضعفت عنه ، وللإنسان يحب الحياة : هل تحب الحياة ، أي فكما

---

(١) انظر رسالة التخصيص فى البلاغة (مسائل البلاغة فى كتاب الخصائص لابن جنى) ص ٧٥ للباحث الأستاذ عبد المنعم سيد عبد السلام ـ مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة .

(٢) راجع الرسالة المذكورة ص ٨٣ . (٣) الخصائص ٣/٢٦٠ - ٢٦٤ .

(٤) الهذل : الضجر والقلق ، والتتابع فى الأمر وعلى الشيء : التهافت فيه ، والتتابع أيضا : الوقوع فى الشر من غير فكرة ولا روية .

(٥) سورة ق آية ٣٠ .

تعجبها فليتمكن حفظك نفسك لها ، وكما ضعفت عن هذا الأمر فلا تتعرض لمثله مما تضعف عنه ، وكأن الاستفهام إنما دخل هذا الموضع ليتبع الجواب عنه بأن يقال : نعم ، فإن كان كذلك فيحتج عليه باعترافه به ، فيجعل ذلك طريقاً إلى وعظه أو تبكيته ، ولو لم يعترف فى ظاهر الأمر به لم يقو توقيفه عليه وتحذيره من مثله ، قوته إذا اعترف به . لأن الاحتجاج على المعترف أقوى منه على المنكر أو المتوقف ، فكذلك قوله سبحانه : هل امتلأت ، فكأنها قالت : لا ، فقيل لها : بالغى فى إحراق المنكر كان لك فيكون هذا خطابا فى اللفظ لجهنم ، وفى المعنى للكفار ، وكذلك جواب هذا من قولها : هل من مزيد ، أى أتعلم يا ربنا أن عندى مزيداً ؟ فجواب هذا منه - عز اسمه - لا ، أى فكما تعلم أن لا مزيد فحسبي ما عندى ، فعليه قالوا فى تفسيره : قد امتلأت ، فتقول : مامن مزيد ، فاعرف هذا ونحوه ، وبالله التوفيق » .

وقد نرى ابن جنى محللا نفسياً ومستبطناً عبقرياً للغة وأساليبها فى آن واحد عند شرحه للمواقف الخطابيه للأساليب ، وبيانه تغير المعانى المقصودة منها تبعا لتغير الحال المشاهدة للمتكلم عند كلامه ، أو تبعاً لتغير الموقف الخطابى الذى يتحدث فيه ، وهو ما يعرف فى البلاغة الآن باسم قرائن الحال أو المقام ، حيث يقول شارحاً بيت نعيم بن الحارث بن يزيد السعدى :

تقول - وصكت وجهها بيمينها - أبعلى هذا بالرحى المتقاعس[١]

الذى قاله ضمن عدة أبيات حاكياً موقف امرأته التى عقد عليها ولم يدخل بها فمرت عليه فى نسوة فوجدته يطحن بالرحى لضيف نزل به فقالت منكرة على زوجها تقاعسه وهو يطحن بالرحى : أبعلى هـــذا ؟ يقول ابن جنى[٢] : « فلو قال حاكياً عنها : أبعلى هذا بالرحى المتقاعس - من غير أن يذكر

(١) المتقاعس: الذى يخرج صدره ويدخل ظهره ، وذلك شكل من يطحن بالرحى .
(٢) الخصائص ٢٤٥/١ .

صك الوجه الوجه ـ لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة ، لكنه لما حكى الحال فقال : (وصكت وجهها) علم بذلك قوة إنكارها ، وتعاظم الصورة لها » .

ثم يبدأ ابن جنى فى شرح قضيته التى قصدها وهى تغير المعانى المقصودة تبعاً لتغير الحال المشاهدة للمتكلم عند كلامه أو تبعاً لتغير الموقف الخطابى الذى يتحدث فيه فيقول:(١) « هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها ، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ، ولعظم الحال فى نفس تلك المرأة أبين ، وقد قيل (ليس المخبر كالمعاين)(٢) ولو لم ينقل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله : وصكت وجهها ، لم نعرف به حقيقة تعاظم الأمر لها » .

ثم يشير ابن جنى إلى أن موقف المشاهدة أصدق وأجدى من موقف التحليل العلمى مهما كانت عظمة المحلل وعبقريته ، فضلا عن أنه أسهل وأقل جهداً حيث يستطيع إدراكه بسطاء الناس وعامتهم فيقول :(٣) « وبعد ، فالحالون ، والحاميون ، والساسة ، والوقادون ، ومن يليهم ممن لا يعتد بهم يستوضحون من مشاهدة الأحوال ما لا يحصله أبو عمرو من شعر الفرزدق إذا أخبر به ، ولم يحضره ينشده .. فلو كان استماع الأذن مغنيا عن مقابلة العين ، مجزئا عنه لما تكلف القائل ، ولا كلف صاحبه الإقبال عليه والإصغاء إليه ، وعلى ذلك قال :

---

(١) الموضع السابق .

(٢) المخبر بصيغة اسم المفعول . والمعاين بصيغة اسم الفاعل ، وكل منهما مراد منه الشخص ، وقد يراد من الأول النبأ فيكون الثانى بصيغة اسم المفعول .

(٣) الخصائص ١/٢٤٦ ، ٢٤٧ ، هذا . والمقصود بالساسة ساسة الدواب القائمين على خدمتها ؛ والعبارة الأصلية الخصائص (وبعد ، فالحالون ، والحاميون ، والساسة ، والوقادون ، ومن يليهم ويعتد منهم يستوضحون ..) وهى تفسد مقصود ابن جنى . ولذلك صوبناها بما هو مذكور أعلاه .

العين تبدى الذى فى نفس صاحبها من العداوة أوود إذا كانا(١)

وقال الهذلى(٢) :

رفونى وقالوا : ياخويلد لاترع فقلت-وأنكرت الوجوه- : هم هم(٣)

أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوجوه وجعلها دليلا على ما فى النفوس وعلى ذلك قالوا : رب إشارة أبلغ من عبارة ، وحكاية الكتاب من هذا الحديث(٤) ، وهى قوله (ألاتا) و (بلى فا) . وقال لى بعض مشايخنا رحمه الله : أنا لا أحسن أن أكلم إنسانا فى الظلمة » .

ومن الجديد عند ابن جنى أيضا تسمية خروج نحو قولهم (لا أبالك) عن معنى الخبر إلى الدعاء والإنشاء (مثلا) متابعا فى ذلك أبا على الفارسى حيث قال :(٥) « قولهم (لا أبالك) كلام جرى مجرى المثل(٦) ، وذلك أنك إذا قلت هذا فإنك لاتنفى فى الحقيقة أباه ، وإنما تخرجه مخرج الدعاء ، أى أنت عندى ممن يستحق أن يدعى عليه بفقد أبيه ، كذا فسره أبو على ، وكذلك هو لمتأمله ، ألا ترى أنه قد أنشد توكيداً لما رآه من هذا المعنى فيه قوله :

وتترك أخرى فردة لا أخالها

---

(١) قبل هذا البيت :

والعين تنطق ، والأفواه صامتة حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

(٢) هو أبو خراش خويلد بن مرة ، أدرك الإسلام شيخاً كبيراً ، ووفد على عمر وأسلم ومات فى خلافته .

(٣) رفونى : سكنونى وقالوا : لا بأس عليك. وقوله : هم هم أى هم الذين أخاف ، وكان الشاعر قد وقع فى قوم من أعدائه فأظهروا له الملاينة حتى يتمكنوا منه ، ولكنه عرف منهم الشر على الرغم مما أبدوه نفر منهم .

(٤) يقصد حكاية سيبويه أنه سمع من العرب من يقول (ألا تفعل ، وبلى فافعل) بهذه الطريقة الموجزة اعتماداً على مشاهدة الوجوه ودلالتها على ما فى النفوس .

(٥) الخصائص ١/٣٤٣ - ٣٤٥ . (٦) من حيث أنه قول يجب عدم تغييره .

ولم يقل لا أخت لها، ولكن لما جرى هذا الكلام على أفواههم (لا أبالك) و (لا أخالك) قيل مع المؤنث على حد ما يكون عليه مع المذكر ، فجرى هذا نحواً من قولهم لكل أحد من ذكر وأنثى واثنين وجماعة (الصيف ضيعت اللبن) على التأنيث ، لأنه كذا جرى أوله . وإذ كان الأمر كذلك علم أن قولهم (لا أبالك) إنما فيه تعادي ظاهره ، واجتماع صورتي الفصل والوصل ، والتعريف والتنكير ، لفظاً لا معنى ، ... ويؤكد عندك خروج هذا الكلام مخرج المثل كثرته في الشعر ، وأنه يقال لمن له أب ، ولمن ليس له أب ، فهذا الكلام دعاء في المعنى لا محالة ، وإن كان في اللفظ خبراً ، ولو كان دعاء مصرحاً وأمراً معنياً لما جاز أن يقال لمن لا أب له ، لأنه إذا كان لا أب له لم يجز أن يدعى عليه بما هو فيه لا محالة ، ألا ترى أنك لا تقول للأعمى : أعماه الله ، ولا للفقير : أفقره الله ، وهذا ظاهر باد ، وقد مر به الطائي الكبير فقال :

نعمة الله فيك لا أسأل الله إليها نعمى سوى أن تدوما
ولو أني فعلت كنت كمن يسأله وهو قائم أن يقوما

فكما لا تقول لمن لا أب له : أفقدك الله أباك ، كذلك يعلم أن قولهم لمن لا أب له (لا أبالك) لا حقيقة لمعناه مطابقة للفظة ، وإنما هي خارجة مخرج المثل على ما فسره أبو علي ، قال عنترة :

فاقني حياءك لا أبالك واعلمي ... أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

وقال (المتلمس يخاطب طرفة بن العبد — كما في اللسان —) :

ألق الصحيفة لا أبالك إنه ... يخشى عليك من الحباء النقرس

وقال (أبو حية النميري) :

أبالموت الذي لابد أني ملاق لا أباك تخوفيني

أراد : لا أبالك ، فحذف اللام من جاري عرف الكلام .

وقال جرير :

يا تيم تيم عدى لا أبا لكم ... لا يلقينكم فى سوأة عمر

وهذا أقوى دليل على كون هذا القول مثلا لا حقيقة ، ألا ترى أنه لا يجوز أن يكون لتيم كلها أب واحد ، ولكن معناه : كلكم أهل للدعاء عليه والإغلاظ له » .

وأقول فى التعقيب على هـــذا القول : إن ابن جنى يتكىء على أبى على الفارسى فى إيضاح كلمة سيبويه التى أوردناها من قبل عند حديثه عن الآيتين الكريمتين (ويل للمطففين) و (ويل يومئـــذ للمكذبين) ، أعنى قوله : (هؤلاء ممن وجب هذا القول لهم ، لأن هذا الكلام إنما يقال لصاحب الشر والهلكة) ومن هنا فإنه يؤكد كلام ابن قتيبة الذى أوردناه من قبل ، من أن هذا الأسلوب له مقامات ثلاثة هى : التعجب ، الدعاء على جهة الذم ، المثل .

ثامناً : الرمانى

إذا كان ابن جنى اللغوى قد استبطن الألفاظ اللغوية وأتى بالجديد المبتكر فيها فإن الرمانى اللغوى قد استقصى الاستعمالات اللغوية للحروف وجمعها فى كتاب واحد أسماه (معانى الحروف) ، ونجد فى هذا الكتاب ما يثرى بحثنا على نحو ما سنذكر الآن :

حديث الاستفهام :

تحدث الرمانى عن كثير من أدوات الاستفهام ، من ذلك : الهمزة ، أم ، هل ، ما ، من ، أى ، كما تحدث أيضاً عن بعض حروف الإجابة مثل نعم ، بلى .

ولما كان حديثه عن كثير من أدوات الاستفهام غير جديد آثرنا أن لا نستعرض حديثه كله ، واكتفينا بأن نقتطف بعض الوقفات الذكية التى نرى فيها غرساً طيباً يصلح لهذا البحث .

ونبدأ الآن بحديثه عن الهمزة :

ذكر الرمانى أن الهمزة تستعمل فى الاستفهام على وجوه شتى :

— « منها أن يكون على جهل من المستفهم ، كقولك : أقام زيد ؟ أزيد عندك أم عمرو ؟[1] .

— ومنها أن يكون إنكارا : أزيد أمرك بهذا ؟ أمثل عمرو يقول ذلك ؟ كقوله تعالى : (آلله أذن لكم أم على الله تفترون ؟)[2] ، (آلذكرين أم الأنثيين ؟)[3] .

— ومنها أن يكون توبيخا كقوله تعالى : (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟)[4] هذا توبيخ لعيسى عليه السلام فى اللفظ ، ولقومه فى المعنى ، لأن الله تعالى علم أن عيسى لم يقل ذلك ، ولكن قال ذلك له بحضرة قومه ليوبخهم على ذلك ويكذبهم فيما قالوه .

— ومنها أن يكون تعجبا كقولك : أيكون مثل هذا ؟

— ومنها أن يكون استرشاداً كقولك للعالم : أيجوز كذا وكذا ؟ كقوله تعالى : (أتجعل فيها من يفسد فيها ؟)[5] وذلك أنهم استرشدوا ليعلموا وجه المصلحة فى ذلك . وقيل : هى تعجب ، تعجبت الملائكة فى ذلك . وزعم أبو عبيدة أنها إيجاب ، وليس بشىء ، لأن الملائكة لاتوجب مالم يوجبه الله ، ولا تصرف همزة الاستفهام على معنى الإيجاب ، لأن الاستفهام خلاف الواجب .

— وتكون تقريرا وتحقيقا ، وذلك إذا دخلت على « ما » ، أو « لم » ، أو ليس » ، كقولك : أما أحسنت إليك ؟ ألم أكرمك ؟ ألست بخير من زيد ؟

(١) معانى الحروف بتحقيق الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبى ٣٢ — ٣٤ .

(٢) سورة يونس آية ٥٩ . (٣) سورة الأنعام ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٤) سورة المائدة آية ١١٦ . (٥) سورة البقرة آية ٣٠ .

والجواب : بلى . وإن شئت قلت : ألست خيراً من زيد ؟ قال جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وتكون تسوية ، وذلك فى أربعة مواضع ، وهى : ما أبالى ، أقمت أم قعدت ؟ ، وليت شعرى ، أخرج أم دخل ؟ وما أدرى ، أأذن أم أقام ؟ وسواء على ، أغضبت أم رضيت ؟ ، قال الله تعالى : (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين)(١) ، وقال حسان :

ما أبالى ، أنب بالحزن تيس أم لحانى بظهر غيب لئيم(٢)

ونحن إذا تأملنا ماذكره من وجوه استعمالات الهمزة نقول : إنها فى الوجه الأول مستعملة فى معنى الاستفهام الحقيقى ، بينما هى فى الأوجه الأخرى مستعملة فى غير هذا المعنى .

كما نقول : إن وجه الاسترشاد الذى ذكره فى تفسير الهمزة فى الآية الكريمة (أتجعل فيها من يفسد فيها ؟)(٣) وخطأ به زعم أبى عبيدة أنها للإيجاب يعنى أنها تفيد الاستفهام الحقيقى ، وهذا رأى وإن كان محتملا ، فقد قال به غيره(٤) ، وبذلك لا يكون وجها جديدا .

هذا عن رأيه ، أما عن رأى أبى عبيدة فإن الإيجاب عنده ـ كما أشرنا من قبل عند دراستنا له ـ يعنى التقرير ، والتقرير ـ كما نعلم ـ يكون بالنفى وبالإيجاب ، فأبو عبيدة لم يخطىء ، وقد ذكر أبو حيان رأى أبى عبيدة هذا عند دراسته لهذه الآية فقال :(٥) « وقيل : هو استفهام معناه التقرير ، قاله

---

(١) سورة الشعراء آية ١٣٦ .

(٢) أنب : صاح ، والحزن : ماغلظ من الأرض ، لحانى : لامنى .

(٣) سورة البقرة آية ٣٠ .

(٤) نقله أبو حيان عن أحمد بن يحيى (انظر البحر المحيط ١/١٤٢) .

(٥) البحر المحيط ١/١٤١ .

أبو عبيدة » ، ثم ذكر بيت جرير . ثم إن الرماني نفسه فسر الهمزة ـ أعني همزة التقرير ـ في موضع آخر[١] من كتابه بأنها ألف الإيجاب ، وذكر في التمثيل لها بيت جرير ، فلم اعتراضه إذن !

لهذا كله نرى أن اعتراضه على أبي عبيدة اعتراض منقوض .

ويبدو أن معنى التسوية في همزة الاستفهام عنده هو الأصل ، ولذلك قال خلال حديثه عن (أم) :[٢] « وأصل ألف الاستفهام التسوية ، لأنك تستفهم لتستوي أنت ومن تستفهمه في العلم » .

ويمكن أن نلحق بحديث الهمزة حديثه عن (ألا) ، فقد ذكر كثير من النحويين والأصوليين أيضاً أنها مركبة من الهمزة ولا[٣] ، نقول في هذا الصدد إنه قد أكد حديث سيبويه عنها مع زيادة طفيفة فقال[٤] : « ألا ، وهي من الحروف الهوامل ، ولها مواضع :

أحدها : أن تكون تنبيها وافتتاحاً للكلام ، نحو قول الله تعالى : (ألا لعنة الله على الظالمين)[٥] .

والثاني : أن تكون[٦] عرضاً : نحو قولك : ألا تنزل فتصيب خيرا ، ألا تقصدنا فنكرمك .

والثالث : أن تكون[٧] تحضيضا ، نحو قولك : ألا أكرمت زيدا ، ألا عمراً لقيته .

---

(١) معاني الحروف ١٤٤ . (٢) المرجع السابق ٧٠ .

(٣) قدمنا من حديث النحويين إمام النحاة سيبويه ، أما الأصوليون فانظر رأيهم في إتقان السيوطي ١٥٢/١ .

(٤) معاني الحروف ١١٣ .

(٥) سورة هود آية ١٨ ، وفي الأصل تحريف هو (نحو قولك) فأصلحناه لأن هذا نص قرآني .

(٦) في الأصل (يكون) . (٧) في الأصل (يكون) .

وقد تكون تمنيا[١] ، وتنتصب بعدها النكرة بلا تنوين ، كقولك : ألاماء ماء بارداً ، وإن شئت قلت : ألا ماء بارداً » .

كما يمكن أيضا أن نلحق بحديث الهمزة حديث خروج الأسلوب من الاستفهام إلى الخبر ، لأن الرماني أورده في الاستفهام بالهمزة في قوله :[٢] « وأما قوله تعالى: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ، إن الله لطيف خبير) فخبر ، وإن خرج مخرج الاستفهام ، وتقديره : قد رأيت أن الله ينزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ، وهو تنبيه على ما كان رآه ليتأمل ما فيه ، والله أعلم » .

حديث الرماني عن (هل) :

ذكر الرماني أن لحرف الاستفهام (هل) موضعين[٣] :

أحدهما : الاستفهام عن حقيقة الخبر ، وجوابها فيه يكون بنعم أو لا ، مثل : هل قام زيد ؟ وهل عمرو خارج ؟ ، ومنه قوله سبحانه (فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم .

والثاني : أن تكون بمعنى قد ، مثل قوله عز وجل : (وهل أتاك نبأ الخصم)[٤] .

ثم ذكر أن هذا الثاني كثير في القرآن .

ونحن بعد ذلك نقول : إن هذا الحديث ليس فيه جديد سوى التنبيه على كثرة وقوع الموضع الثاني في القرآن .

---

(١) لم يعد هذا موضعاً ، وفي الأصل (يكون) .
(٢) معاني الحروف ٤٤ .
(٣) راجع حديثه ١٠٢ معاني الحروف .
(٤) سورة ص آية ٢١ .

على أنه في موضع آخر من كتابه نبه أيضا على أن الموضع الثاني عادة ما يكون عند دخول (أم) المنقطعة على (هـــل) ، لأنه لا يدخل حرف استفهام على حرف استفهام آخر عنده ، ولنقرأ في هذا الصدد قوله :[١] « نقلت (هل) حين أدخلت عليها (أم) في قول الشاعر :

أم هل كبير بكى لم يقض عبرته إثر الأحبة يوم البين مشكوم

كأنه قال : أم قد كبير ، فنقلها عن معنى الاستفهام إلى معنى قد » .

حديث الرماني عن (ما) و (من) :

ذكر الرماني خلال حديثه عن وجوه استعمالات (ما)[٢] أنها تأتي للاستفهام نحو : ما عندك ؟ فتقول : طعام أو شراب أو رجل أو غلام أو ما أشبه ذلك من الأجناس لأنها سؤال عن الجنس . وكذلك ما تقول في زيد؟ فيقول مجيبا . خيراً أو شراً ، كأنه قال : أي شيء تقول فيه فقلت خيراً » .

كما ذكر خلال حديثه عن (من) أنها تأتي[٣] للاستفهام أيضا نحو قولك : من عندك ؟ فتقول مجيبا : زيد أو عمرو ، وهي نظيرة ما ، إلا أنها لما يعقل خاصة ، وما للأجناس كائنا ما كانت ، ومن ذلك قوله عز وجل : (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا)[٤] مخرجة مخرج الاستفهام ، ومعناه التنبيه على حال لم يكونوا متنبهين عليها » .

وهناك وجه آخر ذكره ضمن وجوه استعمالات (من) وأسماه (من المنقولة من أجل أم) ، وفيه يقول :[٥] « وأما المنقولة من أجل (أم) ـ أي المنقطعة ـ فنحو قوله عز وجل : (أمن هو قانت آناء الليل)[٦] نقلها عن الاستفهام من أجل أم ، لأنه لا يدخل استفهام على استفهام » .

(١) معاني الحروف ١٥٩ .
(٢) معاني الحروف ١٤٣ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) سورة يس آية ٥٢ .
(٥) معاني الحروف ١٥٩ .
(٦) سورة الزمر آية ٩ .

ولم يصرح الرماني بأي معنى خرجت إليه (من) عن الاستفهام . كما صرح أثناء حديثه عن خروج (هل) عن معنى الاستفهام إلى معنى قد .

حديث الرماني عن (أم) الاستفهامية :

يرى الرماني أن (أم) تأتي للاستفهام متصلة ومنقطعة ، ونقرأ في هذا الصدد قوله :[١] « أم ، من الحروف الهوامل ، لأنها تدخل على الاسم والفعل ، تكون عديلة لألف الاستفهام ، وهي معها بمنزلة أي ، وذلك قولك : أزيد عندك أم عمرو ؟ ، والمعنى : أيهما عندك ؟ والجواب يكون بالتعيين ، وذلك أن تقول : زيد ، إن كان عندك زيد ، وعمرو إن كان عندك عمرو .

وتكون عديلة الألف التسوية ، نحو قولك : ما أبالي أقمت أم قعدت ؟ ، وسواء علي أغضبت أم رضيت ؟ ، قال الله تعالى : (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم)[٢] وأصل ألف الاستفهام التسوية ، لأنك إذا استفهمت استوى أنت ومن تستفهمه في العلم .

وتكون قطعا ، يقدر[٣] ببل مع الهمزة ، وذلك نحو قولك : أزيد عندك أم عمرو ؟ والمعنى ، بل أعندك عمر ، ومنه قوله تعالى : (أم يقولون افتراه)[٤] ، والتقدير : بل يقولون افتراه .

وقد يأتي في الخبر ، وذلك نحو قول العرب : إنها لإبل أم شاء : وذلك أنه رأى أشباحا فقال : إنها لإبل متيقنا ، ثم بان له أنها ليست بإبل ، فأضرب عن ذلك فقال : أم شاء على معنى بل هي شاء » .

---

(١) معاني الحروف ٧٠ . (٢) سورة البقرة آية ٦ .

(٣) أي يقدر الاستفهام جزءاً من معنى أم ، فيكون معناها بل التي للاضراب ، والهمزة فيه للاستفهام .

(٤) سورة يونس آية ٣٨ ، وسورة هود الآيتان ١٣ ، ٣٥ .

حديث الرماني عن حروف الإجابة في الاستفهام :

الحديث عن (نعم) :

قال الرماني :(١) « وهي حرف من الهوامل تكون جواباً ، وهي عدة وتصديق ، وهي نقيضة لا ، يقول القائل : هل أنا كزيد ؟ فيقول : نعم ، ولا يجاب بها إلا في التحقيق » .

ونحن نزيد كلامه إيضاحاً فنقول : إن معنى التصديق هو أنها تكون مصـــدقة لما قبلها من كلام منفي أو مثبت ، فنحن إذا سئلنا : أقام زيد ؟ أو سئلنا : ألم يقم زيد ؟ وأردنا أن نحقق ما بعد الهمزة ونوجبه كان علينا أن نجيب بنعم ، أما إذا أردنا نفيه وعدم تحقيقه فإن علينا أن نجيب بلا .

الحديث عن (بلى) :

قال الرماني :(٢) « وهي من الحروف الهوامل ، وهي جواب التقرير ، فيقول القائل : ألم أحسن إليك ؟ فتقول : بلى . قال الله تعالى : (ألست بربكم؟ قالوا بلى)(٣) ، ولا يجوز هنا نعم ، لأنه يصير كفراً ، وذلك أنه يئول إلى معنى نعم لست بربنا » .

وأقول تعقيباً على الرماني : إنها ليست إجابة للتقرير فقط ، وإنما هي تحقيق وإيجاب لما بعد النفي ، ولذلك إذا سئلت (ألم يقم زيد ؟ وأردت أن تجيب بالإيجاب والتحقيق كان لابد أن تجيب بحرف الجواب بلى ، وفي القرآن الكريم : (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوى بنانه)(٤) أي نجمعها حالة كوننا قادرين على أن نسوى بنانه .

---

(١) معاني الحروف ١٠٤ .

(٢) معاني الحروف ١٠٥ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

(٤) سورة القيامة الآيتان ٣ ، ٤ .

يقول الآلوسي :(١) « وتختص بالنفي فلا تقع إلا في جوابه فتفيد إبطاله».
أما قول الرماني : ولا يجوز هنا نعم ، فذلك توجيه ابن عباس حيث قال : لو قالوا نعم لكفروا ـ فيما رواه عنه الآلوسي أيضا(٢) .

حديث الرماني عن التمني :

قدمنا خلال حديث الهمزة إشارة الرماني إلى استعمال (ألا) في التمني ، والآن نقدم أداة التمني الأساسية (ليت) ونرى أن الرماني يشير إلى أن أهل الكوفة يجرونها مجرى فعل التمني ود ، حيث يقول عن قول الراجز :

يا ليت أيام الصبا رواجعا

« وأهل الكوفة(٣) يزعمون أن الراجز أجرى ليت مجرى وددت ، لأنها في معناها . وقالوا : ليت شعري ، والمعنى : ليتني أشعر شعرة(٤) ، والأصل شعرة(٥) إلا أنهم حذفوا الهاء تخفيفا للفرق بينه وبين المعنى الآخر»(٦) .

حديث الطلب بقوة عند الرماني :

يمكن أن نتحدث في هذا المجال عند الرماني عن التحضيض فنذكر حديثه عن لولا ، ولوما « وهلا فننقل عن الأولى قوله(٧) : «لولا» وهي من الحروف الهوامل ، وقد ذكر أنها مركبة من «لو» و «لا» ، ولها موضعان :
أحدهما : أن تكون تحضيضا ، وذلك قولك : لولا أكرمت زيدا ، لولا

---

(١) تفسير روح المعاني ١٠١/٩ . (٢) الموضع السابق .
(٣) معاني الحروف ١١٣ . (٤) بفتح الأول وسكون الثاني وفتح الثالث .
(٥) بكسر الأول وسكون الثاني .
(٦) المعنى الآخر للكلمة بكسر الأول وسكون الثاني : شعر العانة .
(٧) معاني الحروف ١٢٣/١٢٤ ـ (بتصرف) .

أحسنت إلى عمرو ، أي هلا ، قال الله تعالى : (لولا ينهاهم الربانيون)[١] ، أي هلا ، وقال الشاعر :

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم بنى ضوطرى لولا الكمى المقنعا[٢]

أي هلا تعدون الكمى المقنع أفضل مجدكم ...

والثانى : أن يكون لامتناع الشيء لوجود غيره ، وذلك نحو قولك : لولا زيد لأكرمتك ...

« وقد حكى أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن النحاس أنها تكون جحداً فى قوله تعالى: (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها)[٣] ، وقال غيره: هى تحضيض كقوله : لولا أكرمت زيداً ، ولولا أحسنت إلى عمرو ، وما أشبه ذلك » .

ثم نعلق على هذا النص فنقول : إن إشارته إلى رأى ابن النحاس تعنى أن لولا قد تخرج عن معناها لتفيد التوبيخ والإنكار[٤] ، وليس ذلك عن قلة - كما يفهم من عبارته - ولكن عن كثرة حتى إن البيت الذى ذكره يزاحم فيه هذا المعنى معنى التحضيض ، يقول أبو حيان فى الحديث عن هذه الآية[٥] :

---

(١) سورة المائدة آية ٦٣ .

(٢) البيت لجرير يهجو فيه الفرزدق ، تعدون : تحسبون ؛ وهذا يقتضى مفعولين: أحدهما : عقر النيب ، وهى النوق المسنة ، والآخر : أفضل مجدكم ، بنى ضوطرى : منادى حذف منه حرف النداء ، ورماهم بالحمق بذلك ، لأن الضوطرى : المرأة الحمقاء ، وزنها فوعلى ، الكمى : هو المتغطى بالسلاح ، أو هو الشجاع يكمى شجاعته أى يخفيها ، المقنع : هو الذى عليه مغفر أو بيضة .

(٣) سورة يونس آية ٩٨ .

(٤) ذكرنا الإنكار لقول الزمخشرى « والجملة فى معنى النفى ، كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس » - راجع الكشاف ٢/٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٥) تفسير البحر المحيط ٥/١٩٢ .

« لولا هنا هي التحضيضيه التي صحبها التوبيخ ، وكثيراً ما جاءت في القرآن للتحضيض فهي بمعنى هلا » وقرأ أبي وعبدالله فهلا - وكذا هو في مصحفيهما - والتحضيض أن يريد الإنسان فعل الشيء الذي يحض عليه ، وإذا كانت للتوبيخ فلا يريد المتكلم الحض على ذلك الشيء ، كقول الشاعر :

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم ... بني ضوطرى لولا الكمي المقنعا

لم يقصد حضهم على عقر الكمي المقنع ، وهنا وبخهم على ترك الإيمان النافع ، والمعنى فهلا آمن أهل القرية وهم على مهل لم يلتبس العذاب بهم فيكون الإيمان نافعاً لهم في هذه الحال » .

وننقل عن الثانية (لوما) قـــوله :(١) « وهي من الحروف الهوامل ، ومعناها التحضيض ، وهي مركبة من « لو » و « ما » ، تقول : لوما أكرمت زيداً ، ولوما أحسنت إلى عمرو ، وقال الله تعالى (لو ما تأتينا بالملائكة)(٢) بمعنى هلا ، ولا يليها إلا الفعل مظهراً أو مضمراً على ما تقدم في لولا » .

وننقل عن الثالثة (هلا) قوله :(٣) « هلا وهي من الحروف الهوامل ، ومعناها التحضيض ، ولا يليها إلا الفعل مظهراً أو مضمرا لاختصاصها به وهي مركبة من هل ولا ، تقول من ذلك : هلا أكرمت زيدا ، هلا أتيت خيراً من ذلك . فإذا أضمرت الفعل قلت : هلا زيدا ، هلا خيرا من ذلك ، أي هلا أكرمت زيدا ، هلا أتيت خيراً من ذلك ، تضمر فعلا تدل عليه الحال المشاهدة ، ومن العرب من يقول : ألا أكرمت زيدا ، ألا أحسنت إلى عمرو »

واضح من النص أن (ألا) المستعملة في التحضيض هي (هلا) مع إبدال الهاء همزة .

---

(١) معاني الحروف ١٢٤ .
(٢) سورة الحجر آية ٧ .
(٣) معاني الحروف ١٣٢ .

ويمكن أن يدخل فى حديث الطلب بقوة الحديث عن (كلا)، ونقرأ فى هذا الصدد قول الرمانى :(١) «وهى تأتى على ضربين :

أحدهما: أن تكون ردعاً ونفياً كقوله تعالى: (ليكونوا لهم عزا كلا)(٢) وقال تعالى : (قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا) أى لا ، على طريق الزجر والردع .

والثانى : أن يكون بمعنى قولك حقاً ، ومنه قوله تعالى : (كلا إن الإنسان ليطغى)(٣) ، إلا أنك تكسر بعدها إن بخلاف قولك حقاً ، لأن كلا : حرف ، وحقا : مصدر ، وما بعد كلا مستأنف مبتدأ ، وأصلها : الردع والزجر على ماذكر

أما قة حديث الطلب بقوة فهو الأمر والنهى :

ولا نجد للرمانى حديثاً عن النهى يفيدنا ، لأن كتابه خاص بمعانى الحروف ، ولذلك استفدنا من حديثه عن (كلا) ، ومثل ذلك أيضا : الأمر ، لكننا نجد خلال حديثه عن اللام شيئاً من خروج أسلوب الأمر إلى الخبر حيث يقول(٤): «وقد يقع الأمر موقع الخبر نحو قوله تعالى : (فليمدد له الرحمن مداً)(٥) ، وهذا اللفظ لفظ الأمر ومعناه الخبر ، لأن القديم لا يأمر نفسه » .

حديث الرمانى عند النداء :

فرق الرمانى حديثه عن النداء فى مواضع شتى تبعاً لطبيعة منهجه فى كتاب (معانى الحروف) حيث بدأ حديثه عن الحروف بطريقة العدد : الأحادية ، ثم الثنائية ، ثم الثلاثية ، وهكذا ، ونحن سنحاول جمع شتات ذلك ، فنقول :

---

(١) المرجع السابق ١٢٢ .
(٢) سورة مريم آية ٨١ — ٨٢ .
(٣) سورة العلق آية ٦ .
(٤) معانى الحروف ٥٧ .
(٥) سورة مريم آية ٧٥ .

ذكر الرماني خلال حديثه عن الهمزة(١) أنها تأتي للنداء ، وأنه لا ينادى بها إلا القريب دون البعيد لأن مناداة البعيد تحتاج إلى مد الصوت ، وليس في الهمزة مد » .

كما ذكر خلال حديثه عن استعمالات (أي)(٢) أنها تكون حرف نداء ، وذلك قولك : أي زيد أقبل ، أي غلام تعال . قال الشاعر :

ألم تسمعي أي عبد في رونق الضحى بكاء حمامات لهن هـديـر

أما عن الحرف (يا) فقد ذكر الرماني أن هذا الحرف (أم) حروف النداء ، ومثل له بالآيتين الكريمتين (ياصالح ائتنا بما تعدنا)(٣) ، (ياجبال أوبي معه) (٤) ، ثم ذكر أنه يخرج إلى التنبيه مثل قولك : ياذاهب بزيد ، وقول ذي الرمة :

ألا يا اسلمي يا داري على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر(٥)

وقد تدخل الهمزة على الحرف (يا) فتصير (أيا) ، ويقول الرماني عن هذا الحرف(٦) إنه « ينبه به المنادى ، وذلك إذا كان بعيدا منك أو نائماً أو متراخيا ، تقول : أيا زيد ، أيا عبد الله ، قال ذو الرمة :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقا آأنت أم أم سالم(٧)

وقد تأتي الهاء بدلا من الهمزة فيصير الحرف (هيا) ، ويقول عنها الرماني :(٨) « ومجراها مجرى (أيا) ، تقول : من ذلك : هيا زيد ، وهيا وهيا عبدالله والهاء بدل من الهمزة كما أبدلوها في هرقت الماء ، وهيرت الثوب ، وهرحت الدابة وأشباه ذلك » .

---

(١) معاني الحروف ص ٣٢ . (٢) معاني الحروف ص ٨٠ .
(٣) سورة الأعراف آية ٧٧ . (٤) سورة سبأ آية ١٠ .
(٥) الجرعاء : الأرض المستوية . (٦) معاني الحروف ص ١١٧ .
(٧) الوعساء : رملة ، جلاجل : ضبطها ابن منظور بفتح الجيم الأولى .
(٨) معاني الحروف ص ١١٧ .

ونود الآن أن نقول للرماني : إنه ليس (أيا) و (هيا) هما اللذان يستعملان فى نداء البعيد أو من هو بمنزلته بل تنضم إليهما (يا) أيضا ، كما أن هذه الحروف الثلاثة تستعمل فى نداء القريب لنكتة بلاغية ، أما (أى) و (الهمزة) فهما لنداء القريب ، يقول الزمخشرى فى المفصل :(١) « حروف النداء : وهى يا ، وأيا ، وهيا ، وأي ، والهمزة « ووا ، فالثلاثة الأول لنداء البعيد ، أو من هو بمنزلته من نائم أو ساه ، فإذا نودى بها من عداهم فلحرص المنادي على إقبال المدعو عليه ، ومفاطنته لما يدعوه له ، وأي والهمزة للقريب » .

هذا ، وقد أبرز الزمخشرى فى المفصل أيضا نقطة غفل عنها الرمانى حين قال عن نداء الخلق لمولاهم بيا فقال(٢) : « وقول الداعى يارب ، ويا الله : استقصار منه لنفسه ، وهضم لها ، واستبعاد عن مظان القبول والاستماع ، وإظهار للرغبة فى الاستجابة بالجؤار » .

تاسعاً : القاضى عبد الجبار

قد يبدو حديث القاضى عبدالجبار الذى سنعرضه الآن عند النظرة الأولى حديثاً مكرراً ليس فيه شيء إلا خروج بعض الأساليب الانشائية عن معناها الأصلى بمساعدة السياق الوارده فيه ، ولكن النظرة المتأنية الفاحصة تنبئنا عن جديد هذا الحديث ، وذلك أنها تؤكد أنه يعتمد عنـــد تحليل خروج الأساليب عن معناها روح السياق الوارد فيه النص ، ولا يعتمد أشياء معينة يقول فيها : إن الأمر يخرج إلى كذا وكذا من المعانى ، والنهى يخرج إلى إلى كذا وكذا من المعانى ...

وبنا ـ الآن نستعرض حديثه لنرى صدق ما زعمناه .

يقول القاضى عبدالجبار فى الحديث عن خروج أسلوب الأمر إلى معنى التهديد

---

(١) المفصل للزمخشرى فى علم العربية ص ٣٠٩ .

(٢) الموضع السابق .

فى قوله سبحانه (قل كونوا حجارة أو حديدا)(١) : « فالأمر فيه ظاهر أنه ليس بأمر(٢) ، وكذلك قوله (واستفزز من استطعت منهم بصوتك)(٣) إنه تهديد وزجر » ، فليس لأحد أن يسأل عن ذلك ، ولذلك قال بعده (وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) »(٣) .

ويقول أيضا فى خروجه - أى أسلوب الأمر - إلى معنى التقرير فى قوله سبحانه (ألقوا ما أنتم ملقون)(٤) الوارد على لسان نبى الله موسى فى خطاب السحرة : « من المعلوم فى حال موسى أنه لم يأمر بذلك ولا أراده لأنه كان يريد من جميعهم البدار إلى تصديقه فى النبوة ، وإنما قال ذلك على وجه التقرير ليبين أنكم إن كان لابد من أن تفعلوا ما عزمتم عليه فافعلوه ، ليتبين الفرق بين الدلالة والتمويه ، كما يقول الواحد منا للمبطل إذا كلمه وقد أظهر عليه الدلالة : تكلم على هذا إن كنت محقا »(٥) .

ويقول فى خروج الأمر إلى الدوام والثبوت فى قوله سبحانه (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله)(٦) : « المراد من آمن ، فأمره الله أن يدوم على ذلك ويثبت عليه فى المستقبل »(٧) .

كما أنه يشير إلى خروج الأمر عن معناه فى الآية الكريمة (يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا)(٨) بقوله : « وهذا كلام معتذر تائب »(٩) ، أى أن الأمر هنا خرج إلى الاعتذار .

ويتراوح حديث القاضى عبد الجبار عن أوامر الله ونواهيه فى الآيات الأخيرة من سورة الحجر(١٠) (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ،

---

(١) سورة الإسراء آية ٥٠ .
(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٢٣ .
(٣) سورة الإسراء آية ٦٤ .
(٤) سورة الشعراء آية ٤٣ .
(٥) متشابه القرآن ص ٣٤٤م .
(٦) سورة النساء آية ١٣٦ .
(٧) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ١٠٥ .
(٨) سورة يوسف آية ٩٧ .
(٩) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ١٩٥ .
(١٠) انظر الآيات ٧٨ – ٩٩ من سورة الحجر .

ولا تحزن عليهم ، واخفض جناحك للمؤمنين .. فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ... فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) بين خروجها إلى معنى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتحقير متاع الدنيا الذى فى يد الكفار ، والتواضع للمؤمنين ، وإقامة الحجة على المعاندين ، والتأديب بأدب رب العالمين(١) .

وللقاضى عبد الجبار أحاديث شتى عن خروج الاستفهام عن معناه ، من ذلك حديثه عن الآية الكريمة : (وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله)(٢) : « ذلك من الله تعالى على على وجه التوبيخ والتقريع لمن قال ذلك ، وقد يجوز من الحكيم أن يخاطب بذلك متهما بفعل ليكون ردعاً وتوبيخاً لمن فعل ، والله تعالى عالم بالأمور(٣) .

ومن ذلك أيضا حديثه عن الآية الكريمة : (وكيف تكفرون وأنتم تتلون عليكم آيات الله وفيكم ورسوله)(٤) : « هو على التوبيخ والذم لهم من من حيث كفروا مع ظهور آيات الله وظهور أمر الرسول »(٥) .

ومن ذلك حديثه عن الآية الكريمة . (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى)(٦) : « تحذير شديد عن اتخاذه ، ولياً والقرب منه ، ولذلك قال : (وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا)(٧) .

ومن ذلك حديثه عن الآية الكريمة (قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا)(٨) : « ذلك استبعاد من حيث المادة لا من حيث القدرة ، ولذلك يصح فى الأنبياء كما يصح فى غيرهم »(٩) .

---

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٢١٥ .
(٢) سورة المائدة آية ١١٦ .
(٣) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ١١٥ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٠١ .
(٥) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٧٢ .
(٦) سورة الكهف آية ٥٠ .
(٧) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٢٣٨ .
(٨) سورة مريم آية ٨ .
(٩) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٢٤٦ .

الفصل الثانى

الأساليب الانشائية والتعقيد البلاغى

الإمام عبد القاهر الجرجانى

أكاد أجزم مع رواد علمائنا المتأخرين(١) أن مرحلة التعقيد العلمى تبدأ من إمام البلاغة وشيخها الإمام عبد القاهر الجرجانى . ومما يخص بحثنا هذا أن الإمام عبد القاهر تحدث عن الاستفهام بالهمزة فى عدة مسائل هى :

المسألة الأولى : الاستفهام بالهمزة ، وفعل الجملة ماضى :

حديث الإمام عبد القاهر فى أساسه عن الاستفهام غير الحقيقى ، لكنه مهد لهذا الحديث بشىء من الكلام عن الاستفهام الحقيقى فقال(٢) : « إنك إذا قلت : أفعلت ؟ فبدأت بالفعل، كان الشك فى الفعل نفسه ، وكان غرضك من استفهامك : أن تعلم وجوده ، وإذا قلت : أأنت فعلت ؟ فبدأت بالاسم؟ كان الشك فى الفاعل : من هو ؟ وكان التردد فيه .

ومثال ذلك أنك تقول : أبنيت الدار التى كنت على أن تبنيها ؟ أقلت الشعر الذى كان فى نفسك أن تقوله ؟ أفرغت من الكتاب الذى كنت تكتبه ؟

« تبدأ فى هذا ونحوه بالفعل ، لأن السؤال عن الفعل نفسه والشك فيه ،

---

(١) ص ٤ الإمام فخر الدين الرازى فى كتابه (نهاية الإيجاز) ، ج ١/٤ يحيى بن حمزة العلوى فى كتابه (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز)

(٢) دلائل الإعجاز ص ٨٧ ، ٨٨ .

لأنك فى جميع ذلك متردد فى وجود الفعل وانتفائه ، يجوز أن يكون قد كان ، وأن يكون لم يكن .

« وتقول : أأنت بنيت هذه الدار ؟ أأنت قلت هذا الشعر ؟ أأنت كتبت هذ الكتاب ؟ فتبدأ فى ذلك كله بالاسم ، ذلك لأنك لم تشك فى الفعل أنه كان ؟ كيف وقد أشرت إلى الدار مبنية ، والشعر مقولا ، والكتاب مكتوبا؟ وإنما شككت فى الفاعل من هو ؟

ولا يخفى فساد أحدهما فى موضع الآخر ، فلو قلت : أأنت بنيت الدار التى كنت على أن تبنيها ؟ أأنت قلت الشعر الذى كان فى نفسك أن تقوله ؟ أأنت فرغت من الكتاب الذى كنت تكتبه ؟ خرجت من كلام الناس .

« وكذلك لو قلت : أبنيت هذه الدار ؟ أقلت هذا الشعر ؟ أكتبت هذا الكتاب ؟ قلت ماليس بقول ، ذاك لفساد أن تقول فى الشيء المشاهد الذى هو نصب عينيك أموجود أم لا » .

بيان ذلك أن البداية بالفعل بعد همزة الاستفهام تعنى أنك تسأل عنه ، أو بعبارة الشيخ عبد القاهر تعنى أن الشك فيه (وجوداً أو عدماً) ، ومن هنا تكون الأمثلة : أقلت شعراً قط ؟ أرأيت اليوم إنساناً ؟ ـ كلاما مستقيما ، وأسئلة حسنة يحتاج قائلها إلى إجابة ذى فائدة من المخاطب ، بينما الأسئلة : أبنيت هذه الدار ؟ أقلت هذا الشعر ؟ أكتبت هذا الكتاب ؟ خاطئة ، لا يمكن الإجابة عنها ، ذلك أن اسم الاشارة فيها يعنى وجود الفعل ومشاهدته ، بينما السؤال عن الفعل فيها يعنى الشك فى وجوده ، ومن هنا كان رفض الإمام عبد القاهر لها .

أما البداية بالاسم بعد الهمزة فتعنى أن السؤال عنه ، أو بعبارة الشيخ تعنى أن الشك فى نسبة حدوث الفعل منه ، أما الفعل نفسه فهو موجود ومحدد ومشاهد ، بل قد يشير إليه السائل فى السؤال كما فى الأمثلة : أأنت بنيت

هذه الدار ؟ أأنت قلت هذا الشعر ؟ أأنت كتبت هذا الكتاب ؟

وإذا كان الأمر كذلك فإن السؤال عنه فعل عام غير محدد مثل الأمثلة : أأنت قلت شعراً قط ؟ أأنت رأيت إنساناً ؟ خطأ ، لا يمكن إجابته ، وذلك لما فيه اضطراب ، ذلك أن تقـــديم الاسم يعنى أن الفعل موجود ومحدد ومخصص ، بينما الفعل نفسه فى السؤال عام شائع لا يميل إلى التحديد بحال .

ومثل ذلك أيضا خطأ الأمثلة : أأنت بنيت الدار التى كنت على أن تبنيها أأنت قلت الشعر الذي كان فى نفسك أن تقوله ؟ أأنت فرغت من الكتاب الذى كنت تكتبه ؟ لأن تقديم الاسم فى السؤال يعنى أن الفعل موجود محدد يمكن مشاهدته والإشارة إليه ، بينما السؤال نفسه يعنى أن الفعل لم يكتمل حدوثه .

بعد هذا التمهيد انتقل الإمام عبـــد القاهر للحديث عما هو بصدده من الاستفهام غير الحقيقى بالهمزة فقال(١) : « واعلم أن هذا الذى ذكرت لك فى الهمزة « وهى الاستفهام » قائم فيها إذا كانت هى للتقرير .

« فإذا قلت : أأنت فعلت ذاك ؟ كان غرضك أن تقرره بأنه الفاعل يبين ذلك قوله تعالى حكاية عن قول نمروذ(٢) (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم)؟ لا شبهة فى أنهم لم يقولوا ذلك له ـ عليه السلام ـ وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان ، ولكن يقرر بأنه منه كان ، وقد أشاروا له إلى الفعل فى قولهم (أأنت فعلت هذا ؟) وقال عليه السلام فى الجواب (بل فعله كبيرهم هذا) ، ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب : فعلت ، أو لم أفعل » .

وبيان مقولة الإمام عبد القاهر أن وقوع الاسم بعد الهمزة الخارجة عن الاستفهام إلى التقرير ـ كما فى الاستفهام الحقيقى ـ أن الفعل موجود مشاهد محدد يمكن الإشارة إليه ، وأن نسبة هذا الفعل إلى الاسم الواقع بعد

---

(١) دلائل الإعجاز ٨٨ : ٨٩ .
(٢) سورة الأنبياء آية ٦٢ .

الهمزة التقريرية هى محل التقرير ، فالإقرار بهذا الاسم هو موضع الحديث المجازى ، ولذلك كان غرض القرآن الكريم (أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبرهيم) ليس بأن يقر أن كسر الأصنام قد كان ، ولكن أن يقر بأنه منه كان ، بدليل الإشارة إلى الفعل المشاهد .

وإذا كنا قد أشرنا إلى أن الفعل الذى معنا فى هذه المسألة فعل ماضى فإن لنا أن : إن التقرير بالفعل الذى قد كان يعنى إنكاره لم كان ، ويستتبع ذلك حتماً توبيخ فاعله عليه .

والاستفهام المجازى أيضا مثل الاستفهام الحقيقى فى حالة وقوع الفعل بعد الهمزة ، بمعنى أن وقوع الفعل بعد الهمزة التقريرية قد يعنى أن الفعل موجود ، وقد يعنى أيضا أنه غير موجود . وإذا كان الفعل قد كان فإن التقرير والانكار هنا يكون منصباً على أصل الفعل ، يقول الإمام عبدالقاهر رابطاً بين المسألتين (السابقة وهذه)[١] : « واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان وإنكار له لم كان ، وتوبيخ لفاعله عليه » .

« ولها مذهب آخر ، وهو أن يكون لإنكار الفعل قد كان من أصله ، ومثاله قوله تعالى[٢] (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ؟ إنكم لتقولون قولا عظيما) . وقوله عز وجـــل[٣] (أصطفى البنات على البنين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون ؟) فهذا رد على المشركين وتكذيب لهم فى قولهم مايؤدى إلى هذا الجهل العظيم » .

على أن الصورة السابقة — أعنى الصورة التى يلى فيها الاسم الهمزة التقريرية — يمكن أن تأتى لانكار الفعل من أصله أيضا ، توضيح ذلك[٤] بالمثال قوله تعالى[٥] (قل آلله أذن لكم) ؛ نفت الآية وأنكرت على من

---

(١) دلائل الإعجاز ٨٩ .
(٢) سورة الاسراء آية ٤٠ .
(٣) سورة الصافات آية ١٥٣ ، ١٥٤
(٤) سورة يونس آية ٥٩ .
(٥) انظر دلائل الاعجاز ٨٩ ، ٩٠ .

شأنه الأذن — وهو الله عز وجل — أن يكون منه ذلك لتتوصل بهذا إلى نفي وجود الأذن نفسه عن طريق الكناية .

ومثل ذلك أيضا قوله سبحانه(١) : (قل آلذكرين حرم أم الأنثيين ؟ أم اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟) : المقصود هو إنكار أصـــل التحريم ، وأخرج هذا الانكار في صورة طلب التعيين ، والهمزة للإنكار ، فالمنكر ابتداء في ظاهر عبارة الآية هو المفعولات من حيث كونها متعلق الفعل ، وإنكارها على هذه الصورة يستلزم إنكار أصل الفعل لأنها محله ، ونفي المحل — وهو اللازم — يستلزم نفي الحال ، وهو الملزوم — أي الفعل — إذن: توصلت الآية إلى المقصود بالذات وهو إنكار الفعل بإنكار المفاعيل الثلاثة من حيث كونها متعلق هذا الفعل .

المسألة الثانية : الاستفهام بالهمزة وفعل الجملة مضارع :

يقول الإمام عبدالقاهر(٢): « وإذ قد بينا الفرق بين تقديم الفعل وتقديم الاسم والفعل ماض ، فينبغي أن ينظر فيه والفعل مضارع . والقول في ذلك أنك إذا قلت : أتفعل ؟ و أأنت تفعـــل ؟ لم يخل من أن تريد الحال أو الاستقبال .

« فإن أردت الحال كان المعنى شبيها بما مضى في الماضي . فإذا قلت : أتفعل ؟ كان المعنى على أنك أردت أن تقرره بفعل هو يفعله ، وكنت كمن يوهم أنه لا يعلم بالحقيقة أن الفعل كائن ، وإذ قلت : أأنت تفعل؟ كان المعنى على أنك تريد أن تقرره بأنه الفاعل ، وكان أمر الفعل في وجوده ظاهراً ، وبحيث لا يحتاج إلى الاقرار بأنه كائن .

« وإن أردت بتفعل المستقبل كان المعنى إذا بدأت بالفعل على أنك

---

(١) سورة الأنعام آيه ١٤٣ . (٢) دلائل الإعجاز ٩١ ، ٩٢ .

تعمد بالإنكار إلى الفعل نفسه ، وتزعم أنه لا يكون ، أو أنه لا ينبغي أن يكون .

فمثال الأول :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فهذا تكذيب منه لإنسان تهدده بالقتل ، وإنكار أن يقدر على ذلك ويستطيعه ، ومثله أن يطمع طامع في أمر لا يكون مثله ، فتجهله في طمعه فتقول : أيرضى عنك فلان وأنت مقيم على ما يكره ؟ أتجد عنده ما تحب وقد فعلت وصنعت ؟ وعلى ذلك قوله تعالى (أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) .

ومثال الثاني :

قولك للرجل يركب الخطر : أتخرج في هذا الوقت ؟ أتذهب في غير الطريق ؟ أتغرر بنفسك ؟ وقولك للرجل يضيع الحق : أتنسى قديم إحسان فلان ؟ أتترك صحبته وتتغير عن حالك معه لأن الزمان تغير ؟ كما قال :

« أأترك إن قلت دراهم خالد[1] زيارته ؟ إني إذاً للئيم »

وتوضيح مقولة الإمام عبد القاهر أن الهمزة التقريرية تفيد الانكار فيما إذا كان الفعل مضارعاً مراداً به الحال — كما هو الأمر مع الفعل الماضي، سواء في ذلك التقرير بالفعل أو التقرير بالفاعل ، والإمام عبد القاهر في هذا يلحق الزمان الحالي المشاهد بالزمن الماضي، ولعل ما جعله يفعل هذا حدوث الفعل نفسه في كليهما .

أما إذا أريد بالفعل المضارع الزمن المستقبل فإن الانكار هنا يتوجه إلى أمر سيكون ، وعندئذ يكون أحد معنيين : إما أن يكون المعنى المنكر

(١) هو خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ابن عم معن بن زائدة . وقائل البيت عمارة بن عقيل بن جرير — عن المحققين لكتاب عبدالقاهرة في هذه الطبعة : الشيخ محمد عبده ، والشيخ الشنقيطي) .

غير مستطاع ولا يقدر عليه الفاعل المنسوب له الكلام . فيكون الإنكار هنا تكذيباً ، وإما أن يكون المعنى المذكور فى سياق همزة الإنكار حالا ، أو ليس مما يدعيه أحد ، أو لا ينبغى أن يكون إلا على سبيل التشبيه والتمثيل، وحينئذ يكون الإنكار توبيخا ، ويكون المعنى أنه لا ينبغى أن يكون ذلك .

ويوضح ذلك الإمام عبد القاهر بالمثال فيقول ـ من حالة تقديم الاسم ـ وهو يحاول الغوص فى أعماق التحليل النفسى للأساليب[1] « تفسير ذلك أنك إذا قلت : أأنت تمنعنى ؟ أأنت تأخذ على يدى ؟ صرت كأنك قلت : إن غيرك الذى يستطيع منعى والأخذ على يدى ، ولست بذاك ، ولقد وضعت نفسك فى غير موضعك . هذا إذا جعلته لا يكون منه الفعل للعجز ولأنه ليس فى وسعه .

« وقد يكون أن تجعله لا يجىء منه لأنه لا يختاره ولا يرتضيه ، وأن نفسه نفس تأبى مثله ، وتكرهه ، ومثاله أن تقول : أهو يسأل فلاناً ؟ هو أرفع همة من ذلك . أهو يمنع الناس حقوقهم ؟ هو أكرم من ذاك .

« وقد يكون أن تجعله لا يفعله لصغر قدره وقصر همته ، وأن نفسه نفس لا يسمو ، وذلك قولك : أهو يسمح بمثل هذا ؟ أهو يرتاح للجميل ؟ هو أقصر همة من ذلك ، وأقل رغبة فى الخير مما تظن » .

أما حالة تقديم الفعل والإنكار التكذيبى أو التوبيخى فيما موجه إلى الفعل نفسه فيذكر الإمام عبد القاهر تحت هذا اللون بعض الأسباب النفسية ، منها : التكذيب ، كما فى مثل قول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

حيث يوجه امرؤ القيس التكذيب لهذا الإنسان الذى يهدده بالقتل ، وينكر عليه أنه يستطيع ذلك أو يقدر عليه .

---

(١) دلائل الإعجاز ص٩٢ .

ومنها أيضا : التوبيخ على ما لا يستصوب من الفعل ـ فى قولك للرجل يضيع الحق : أتنسى قديم إحسان فلان ؟ أتترك صحبته وتتغير عن حالك معه لأن الزمان تغير ؟

ومنها : التنبيه على عدم الصواب فى هذا الأمر ، كما فى قولك يركب الخطر : أتخرج فى هذا الوقت ؟ أتذهب فى غير الطريق ؟ أتغرر بنفسك ؟ .

ومنها : بيان الإحالة فى الفعل وإظهار أن الأمر لا يدعيه عاقل إلا على سبيل التمثيل والتشبيه ، مثل قولهم : أتصعد إلى السماء ؟ أتستطيع أن تنقل الجبال ؟

هذا ، وقد ألحق الإمام عبد القاهر بهذا السبب الأخير قوله سبحانه (أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ؟)[1] حيث قال : « ليس[2] إسماع الصم مما يدعيه أحد فيكون ذلك للإنكار ، وإنما المعنى فيه التمثيل والتشبيه ، وأن ينزل الذى يظن بهم أنهم يسمعون أو أنه يستطيع إسماعهم منزلة من يرى أنه يسمع الصم ويهدى العمى ، ثم المعنى فى تقديم الاسم وإن لم يقل (أتسمع الصم ؟) هو أن يقال للنبي صلى الله عليه وسلم : أأنت بخصوصا قد أوتيت أن تسمع الصم ؟ وأن يجعل فى ظنه أنه يستطيع إسماعهم ، بمثابة من يظن أنه قد أوتى قدرة على إسماع الصم » . وقول ابن أبى عيينة :

فدع الوعيد ، فما وعيدك ضائرى ‏ ‏ ‏ أطنين أجنحة الذباب يضير ؟

حيث قال : « جعله[3] كأنه قد ظن أن طنين أجنحة الذباب بمثابة ما يضير حتى ظن أن وعيده يضير » .

ويجب أن نلفت النظر إلى أن قول الإمام عبد القاهر فى شرح الآية

---

(١) سورة الزخرف آية ٤٠ . ‏ ‏ ‏ (٢) دلائل الإعجاز ص ٩٤ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٩٥ .

الكريمة : « أأنت خصوصا قد أوتيت أن تسمع الصم » إشارة إلى أن تقديم الاسم هنا يفيد التخصيص .

على أن الإمام عبد القاهر قد رأى أيضاً أن تقديم المفعول فى الجملة على جملته الفعلية ـ ذات الفعل المستقبل ـ وإيلائه همزة الإنكار يقتضى أن يكون الإنكار فى طريق الإحالة والمنع ، بمعنى أنه لا ينبغى أن يقع هذا الفعل على ذلك المفعول ، أو بعبارة أخرى لا يتأتى أن يكون هذا المفعول بمثابة أن يوقع به مثل ذلك الفعل : إما لعجزه وشدة ضعفه مثل قوله ـ سبحانه (قل أغير الله أتخذ ولياً ؟)[١] أى لا ينبغى أن يكون ذلك ، وإما لرقيه وسموه من ذلك الفعل مثل قوله عز وجل (فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفى ضلال وسعر)[٢]، وإما لكونه أمراً لا يكون فى الواقع ولا يتأتى تصديقه مثل قوله تعالى : (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين)[٣] .

هذا ، إذا كان الفعل فعلا مستقبلا لم يحدث بعد ، أما إذا كان فعلا مضارعا يدل على الحال فإن الأمر يعود فيه إلى ما كان عليه الحديث عن الفعل الماضى ، سواء فى ذلك حالة الإنكار أو التقرير : الإنكار على الفاعل عند تقديم الاسم ، أو إنكار الفعل الموجود نفسه عند تقديم الفعل ، والإقرار بأنه الفاعل عند تقديم الاسم[٤] .

يقول الإمام عبد القاهر فى دراسته للاستفهام بالهمزة مع تقـــديم المفعول[٥] : « واعلم أن حال المفعول ـ فيما ذكرنا ـ كحال الفاعل ، أعنى تقديم الاسم على المفعول يقتضى أن يكون الإنكار فى طريق الإحالة والمنع ـ

(١) سورة الأنعام آية ١٤ (٢) سورة القمر آية ٢٤ .
(٣) سورة الأنعام آية ٤٠ .
(٤) ذكرنا من قبل أن إيلاء الفعل همزة التقرير يجعل المنفى للانكار .
(٥) دلائل الإعجاز ص ٩٥ ـ ٩٦ .

من أن يكون بمثابة أن يوقع به ذلك الفعل ، فإذا قلت : أزيداً تضرب ؟ كنت قد أنكرت أن يكون زيد بمثابة أن يضرب ، أو بموضع أن يجترأ عليه ، ويستجاد ذلك فيه ، ومن أجل ذلك قدم (غير) فى قوله تعالى (قل أغير الله أتخذ ولياً) ، وقوله عز وجل (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ؟ » ، وكان له من الحسن والمزية والفخامة ما تعلم أنه لا يكون لو أخر فقيل : قل أأتخذ غير الله ولياً ؟ ، وأتدعون غير الله ؟ وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك : أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ ولياً ؟ أيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ؟ أو أيكون جهل أجهل ، وعمى أعمى من ذلك ؟ ولا يكون شيء من ذلك إذا قيل : أأتخذ غير الله ولياً ، وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل[1] أن يكون فقط . ولا يزيد على ذلك فاعرفه .

وكذلك الحكم فى قوله تعالى : (فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه ؟) وذلك لأنهم بنوا كفرهم على أن من كان مثلهم بشراً لم يكن بمثابة أن يتبع ويطاع وينتهى إلى ما يأمر ، ويصدق أنه مبعوث من الله تعالى وأنهم مأمورون بطاعته ـ كما جاء فى الأخرى (إن إنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا)[2] ، وكقوله عز وجل (ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة)[3] ، فهذا هو القول فى الضرب الأول[4] ، وهو أن يكون يفعل بعد الهمزة لفعل لم يكن .

وأما الضرب الثانى : وهو أن يكون يفعل لفعل موجود فإن تقديم الاسم يقتضى شبهاً بما اقتضاه فى الماضى من الأخذ بأن يقر أنه الفاعل ، أو لإنكار الفاعل ، فمثال الأول ، قولك للرجل يبغى ويظلم : أأنت تجىء إلى

---

(١) أى أن الإنكار يتناول أن يكون الفعل من (تعليق الأستاذ الشيخ محمد عبده على الكتاب) .

(٢) سورة إبراهيم آية ١٠ — (٣) سورة المؤمنون آية ٢٤ .

(٤) الأول فى كلامه ـ هنا ـ عن المستقبل والثانى عن الماضى .

الضعيف فتغصب ماله ؟ أأنت تزعم أن الأمر كيت وكيت ؟ وعلى ذلك قوله تعالى (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟)(١) . ومثال الثانى قوله سبحانه (أهم يقسمون رحمة ربك ؟(٢) .

الإمام جار الله الزمخشرى

ترجع أهمية بحث آراء الإمام الزمخشرى فى هذه المرحلة إلى أنه قد احتذى حذو الإمام عبد القاهر فى البحث التقعيدى للمسائل البلاغية ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه قد اعتمد فى هذا التقعيد على النصوص القرآنية الكريمة عرفنا أنه قد أقام صرح مدرسة التقعيد البلاغى كاملة بحيث أصبحت قطوف كلامه هى المنارة فى تفسير كلام الإمام عبد القاهر ، وهى مناط النظر والبحث إن لم يجد العلماء التقعيديون ، بل والمحدثون أيضا ، حديثاً للإمام عبد القاهر فيما يبحثون .

وإذا كان لا يهمنا الآن — إلا بحث الأساليب الإنشائية فإننا سنحاول — قدر الجهد — إلقاء الضوء على تقعيد الزمخشرى لهذه الأساليب .

أولا : الاستفهام :

أول ما نذكره هنا تأكيد الزمخشرى لأفكار الإمام عبد القاهر فى حديثه عن الاستفهام بالهمزة حيث قال عن الآيات الكريمة : (ومنهم من يستمعون إليك ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ؟ ومنهم من ينظر إليك ، أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون)(٣) ، (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟) ، (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين) ،

---

(١) سورة يونس آية ٩٩ . (٢) سورة الزخرف آية ٣٢ .

(٣) الآيات على الترتيب : سورة يونس ، ٣٢ — ٤٣ ، سورة يونس ٩٩ ، سورة الأنعام ٧٤ ، سورة الأنعام ١٤ ، سورة مريم ٦٦ .

(قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم) ، (ويقول الإنسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا ؟) مايلى :

عن الآية الأولى(١) : « ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع ، ولكنهم لايعون ولا يقبلون ، وناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون ، ثم قال : أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم ؟ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع فى صماخه دوي الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقدتم الأمر ، وأتحسب أنك تقدر على هداية العمى ولو انضم إلى العمى وهو فقد البصر فقد البصيرة ؟ لأن الأعمى الذى له فى قلبه بصيرة قد يحدس .

وقوله : (أفأنت . . . أفأنت) دلالة على أنه لايقـــدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله عز وجل بالقسر والإلجاء ، كما لا يقدر على رد الأصم والأعمى المسلوبى العقل حديدى السمع والبصر راجحى العقل إلا هو وحده » .

وعن الآية الثانية(٢) : « (أفأنت تكره الناس) يعنى إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو لا أنت ، وإيلاء الاسم حرف الاستفهام للإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور عليه ، وإنما الشأن فى المكره من هو ؟ وما هو إلا وحده لايشارك فيه لأنه هو القادر على أن يفعل فى قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان ، وذلك غير مستطاع للبشر » .

وعن الآية الثالثة(٣) : « آزر : اسم أبى إبراهيم عليه السلام ، وفى كتب التواريخ أن اسمه بالسريانية تارح . . . وقرىء أأزراً تتخذ أصناماً آلهة - بفتح الهمزة وكسرها بعد همزة الاستفهام وزاى ساكنة وراء منصوبة

(١) الكشاف جـ ٢/١٩٢ . (٢) الكشاف جـ ٢/٢٠٤ .

(٣) الكشاف جـ ٢/٢٣ .

منونة ، وهو اسم صنم ، ومعناه : أتعبـــد آزراً ؟ ، على الإنكار ، ثم قال : تتخذ أصناماً آلهة ، تثبيتاً لذلك وتقريراً ، وهو داخل فى حكم الإنكار ، لأنه كالبيان له » .

وعن الآية الرابعة(١) : « أولى غير الله؟ همزة الاستفهام دون الفعل الذى هو أتخذ ، لأن الإنكار فى اتخاذ غير الله ولياً ، لا فى اتخاذ الولى فكان أولى بالتقديم(٢) ، ونحوه ـ أفغير الله تامرونى أعبد أيها الجاهلون ـ آلله أذن لكم » .

وعن الآية الخامسة(٣) : « وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار من قبل أن مابعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة ، ومنه جاء إنكارهم ، فهو كقولك للمسىء إلى المحسن : أحين تمت عليك نعمة فلان أسأت إليه ؟ » .

فنحن نستنتج من خلال ذلك كله تأكيد مقولة الإمام عبد القاهر السابقة وهى أن مايلى الهمزة هو محل المعنى المقصود ، سواء كان استفهاماً أو تقريراً أو إنكارا أو تعجبا . . . إلخ ، وسواء كان ذلك فى الفاعل أو فى الفعل أو فى متعلق الفعل كالمفعول والجار والمجرور .

ثم نذكر للزمخشرى بعد ذلك دراسته للمعانى التى تفيدها جملة الاستفهام الظاهرى أو بعبارة أدق أداة الاستفهام بمساعـــدة سياق جملة الاستفهام الظاهرى ، والملاحظ هنا أنه قد استبطن الآيات استبطانا رائعا ، نلمس ذلك مما عرضه من المعانى والأحاسيس النفسية التى يشعر بها قارىء الآيات الكريمة الآتية :

---

(١) الكشاف ج ٢/٦ .

(٢) تحليله يفيد أن المراد هنا إنكار الفعل من أصله رغم إيلاء الاسم الهمزة الانكارية .

(٣) الكشاف ج ٢/٤١٨

١ ـ قوله سبحانه (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)(١) .

٢ ـ قوله سبحانه (ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)(٢) .

٣ ـ قوله سبحانه (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون)(٣) .

٤ ـ قوله سبحانه (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟)(٤) .

٥ ـ قوله سبحانه (وناداهما ربهما لم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟)(٥) .

٦ ـ قوله سبحانه (ويوم يعرض الذين كفرو على النار أليس هـذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا ، قال . فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون)(٦) .

٧ ـ قوله سبحانه (أفبعذابنا يستعجلون ؟)(٧) .

٨ ـ قوله سبحانه (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إنى أعلم ما لا تعلمون)(٨) .

٩ ـ قوله سبحانه (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ؟)(٩) .

---

(١) سورة البقرة آية ٦ .
(٢) سورة البقرة آية ١٢ .
(٣) سورة الأنعام آية ٢٢ .
(٤) سورة النساء آية ٩٧
(٥) سورة الأعراف آية ٢٢ .
(٦) سورة الأحقاف آية ٣٤ .
(٧) سورة الشعراء آية ٢٠٤ .
(٨) سورة البقرة آية ٣٠ .
(٩) سورة البقرة آية ٢٨ .

١٠ ـ قوله سبحانه (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ؟ إنا من المجرمين منتقمون)[١] .

١١ ـ قوله سبحانه (أئنكم لتشهدون مع الله آلهة أخرى ؟ قل لا أشهد، قل إنما هو إله واحد وإنني برىء مما تشركون)[٢] .

١٢ ـ قوله سبحانه (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟)[٣] .

١٣ ـ قوله سبحانه(قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا؟)[٤] .

١٤ ـ قوله سبحانه (أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ؟)[٥] .

١٥ ـ قوله سبحانه (ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ؟ أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ؟ بل أنتم قوم مسرفون)[٦] .

١٦ ـ قوله سبحانه (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟)[٧] .

يقول الزمخشرى عن الآية الأولى :[٨] « سواء : بمعنى الاستواء ، وصف به كما يوصف بالمصادر ، ومنه قوله تعالى[٩] (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) ، (فى أربعة أيام سواء للسائلين[١٠]) بمعنى مستوية ، وارتفاعه على على أنه خبر (لأن) ، ـ وأأنذرتهم أم لم تنذرهم ـ فى موضع المرتفع به على

(١) سورة السجدة آية ٢٢ .
(٢) سورة الأنعام آية ١٩ .
(٣) سورة الأعراف آية ٧٠ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٤٦ .
(٥) سورة الأعراف آية ٦٣ .
(٦) سورة الأعراف آية ٨٠ .
(٧) سورة المائدة آية ٩١ .
(٨) الكشاف ٢٥/١ ، ٢٦ .
(٩) سورة آل عمران آية ٦٤ .
(١٠) سورة فصلت آية ١٠ .

الفاعلية ، كأنه قيل : إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه ، كما تقول : إن زيداً مختصم أخوه وابن عمه ، أو يكون أأنذرتهم أم لم تنذرهم فى موضع الابتداء ، وسواء خبراً مقدما بمعنى سواء عليهم إنذارك وعدمه ، والجملة خبر « لأن » .

« فإن قلت : الفعل أبداً لا مخبر عنه ، فكيف صح الإخبار عنه فى هذا الكلام ؟ قلت : هو من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى ، وقد وجدنا العرب يميلون فى مواضع من كلامهم مع المعانى ميلا بينا ، من ذلك قولهم : لا تأكل السمك وتشرب اللبن ، معناه : لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن ، وإن كان ظاهر اللفظ على مالا يصح من عطف الإسم على الفعل .

« والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء ، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً . قال سيبويه : جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء قولك : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة ، يعنى أن هذا على صورة الاستفهام ولا استفهام ، كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء . ومعنى الاستواء : استواؤهما فى علم المستفهم عنهما لأنه قد علم أن أحد الأمرين كائن إما الإنذار وإما عدمه ، ولكن لا بعينه ، فكلاهما معلوم بعلم غير معين » .

ويقول الزمخشرى عن الآية الثانية :[١] « ألا : مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفى لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها ، والاستفهام إذا دخل على النفى أفاد تحقيقاً ، كقوله[٢] (أليس ذلك بقادر ؟) . ولكونها فى هذا المنصب من التحقيق لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم ، وأختها التى هى « أما » من مقدمات اليمين وطلائعها ، أما والذى لا يعلم الغيب غيره ؟ أما والذى أبكى وأضحك » .

---

(١) الكشاف ٣٣/١ . (٢) سورة القيامة آية ٤٠ .

ويقول الزمخشري عن الآية الثالثة :[1] « أين شركاؤكم ؟ : أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله ، وقوله : الذين كنتم تزعمون ، معناه تزعمونهم شركاء ، فحذف المفعولان . وإنما يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ ، ويجوز أن يشاهدوهم إلا أنهم حين لا ينفعونهم ولا يكون منهم ما رجوا من الشفاعة . فكأنهم غيب عنهم ، وأن يحال بينهم وبينهم في وقت التوبيخ ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بهم الرجاء فيها فيروا مكان خزيهم وحسرتهم » .

ويقول الزمخشري عن الآية الرابعة :[2] « قال الملائكة للمتوفين : فيم كنتم ؟ في أي شيء كنتم من أمر دينكم ، وهم ناس من أهل مكة أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة .

« فإن قلت : كيف صح وقوع قوله (كنا مستضعفين في الأرض) جواباً عن قولهم : فيم كنتم ؟ وكان حق الجواب أن يقولوا : كنا في كذا ، أو لم نكن في شيء .. قلت : معنى (فيم كنتم ؟) التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا ، فقالوا : كنا مستضعفين ، اعتذاراً عما وبخوا به واعتلالا بالاستضعاف : وأنهم لم يتمكنوا من الهجرة حتى يكونوا في شيء فبكتتهم الملائكة بقولهم : (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟) » .

ويقول الزمخشري عن الآية الخامسة :[3] « عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ ، حيث لم يتحذرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس . وروي أنه قال لآدم : ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة ؟ فقال : بلى وعزتك ، ولكن ماظننت أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً ، قال : فبعزتك لأهبطنك إلى الأرض ، ثم لا تنال العيش إلا كداً ،

---

(١) الكشاف ٢/ ٧ ، ٨ .

(٢) الكشاف ١/ ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

(٣) الكشاف ٢/ ٥٨ .

فاهبط وعلم صنعة الحديد ، وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد ودارس وذرى وطحن وعجن وخبز » .

ويقول الزمخشري عن الآية السادسة :[١] « أليس هذا بالحق ؟ محكى بعد قول مضمر ، وهذا المضمر هو ناصب الظرف ، وهذا إشارة إلى العذاب ، بدليل قوله تعالى (فذوقوا العذاب) ، والمعنى : التهكم بهم والتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده ، وقولهم[٢] (وما نحن بمعذبين) » .

ويقول الزمخشري عن الآية السابعة :[٣] « تبكيت لهم بإنكار وتهكم ، ومعناه : كيف يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسأل فيه من جنس ما هو فيه اليوم من النظرة والإمهال طرفة عين فلا يجاب إليها . ويحتمل أن يكون هذا حكاية توبيخ يوبخون به عند استنظارهم يومئذ ، ويستعجلون : على هذا الوجه حكاية حال ماضية .

وجه آخر متصل بما بعــــده ، وذلك أن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه كان غير كائن ولا لاحق بهم ، وأنهم ممتعون بأعمار طويلة فى سلامة وأمن فقال تعالى (أفبعذابنا يستعجلون ؟) أشرا وبطرا واستهزاء واتكالا على الأمل الطويل . ثم قال : هب أن الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم . فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طوال أعمارهم وطيب معايشهم » .

ويقول الزمخشري عن الآية الثامنة :[٤] « أتجعل فيها ؟ ! تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية ، وهو الحكيم الذى لا يفعل إلا الخير ، ولا يريد إلا الخير . فإن قلت : من أين عرفوا ذلك حتى تعجبوا منه وإنما هو غيب ؟ قلت : عرفوه بإخبار من الله أو من جهة اللوح ، أو ثبت فى علمهم أن

(١) الكشاف ٣/٤٥١ .
(٢) سورة الشعراء آية ١٣٨ .
(٣) الكشاف ٣/١٢٨ .
(٤) الكشاف ١/٦١ .

الملائكة وحدهم الخلق المعصومون، وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم، أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر حيث أسكنوا الأرض فأفسدوا فيها قبل سكنى الملائكة».

ويقول الزمخشري عن الآية التاسعة:(١) «ذكرنا أن معنى الاستفهام في (كيف) الإنكار، وأن إنكار الحال متضمن لإنكار الذات على سبيل الكناية، فكأنه قيل: ما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه ...... مثله في قولك: أتكفرون بالله ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان، وهو الإنكار والتعجب، ونظيره قولك: أتطير بغير جناح ؟ وكيف تطير بغير جناح ؟ فإن قلت: قولك أتطير بغير جناح إنكار للطيران لأنه مستحيل بغير جناح، وأما الكفر فغير مستحيل مع ما ذكر من الإماتة والإحياء، قلت: قد أخرج في صورة المستحيل لما قوى من الصارف عن الكفر والداعي إلى الإيمان».

ويقول الزمخشري عن الآية العاشرة:(٢) «الإستبعاد، والمعنى: أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل، كما تقول لصاحبك: وجدت مثل الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه الإنتهاز، ومنه ثم في بيت الحماسة:

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدتها».

ويقول الزمخشري عن الآية الحادية عشرة(٣): «تقرير لهم مع إنكار واستبعاد».

ويقول الزمخشري عن الآية الثانية عشرة(٤): «أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة وترك دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه حباً لما نشئوا عليه وإلفاً لما صادفوا آباءهم يتدينون به».

(١) الكشاف ١/٥٨، ٥٩.   (٢) الكشاف ٣/٢٢٣.
(٣) الكشاف ٢/٧.   (٤) الكشاف ٢/٢٦٩.

ويقول الزمخشري عن الآية الثالثة عشرة(١) : « أراد أن يقول : عسيتم أن لا تقاتلوا ، بمعنى أتوقع جبنكم عن القتال ، فأدخل (هل) مستفهماً عما هو متوقع عنده ومظنون ، وأراد بالاستفهام التقرير وتثبيت أن المتوقع كائن وأنه صائب في توقعه كقوله تعالى (هل أتى على الإنسان) معناه التقرير».

ويقول الزمخشري عن الآية الرابعة عشرة(٢): «الهمزة للانكار، والواو للعطف ، والمعطوف عليه محذوف كأنه قيل : أكذبتم وعجبتم » .

ويقول الزمخشري عن الآية الخامسة عشرة(٣) : « أئنكم لتأتون الرجال : بيان لقوله : أتأتون الفاحشة ، والهمزة مثلها في أتأتون للانكار والتعظيم » .

ويقول الزمخشري عن الآية السادسة عشرة(٤) : « فهل أنتم منتهون : من أبلغ ما ينهى به : كأنه قيل : قد تلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع ، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون : أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا » .

ونحن بعد قراءة تحليل الزمخشري للمعاني المتولدة من الأساليب الاستفهامية الواردة في الآيات التي وقع عليها اختيارنا نرى :

أولا : أن هذه المعاني على الترتيب هي : التسوية ـ والتحقيق والتأكيد(٥) التوبيخ ـ التوبيخ والتبكيت ـ التوبيخ والتنبيه على الخطأ ومن ثم العتاب عليه

(١) الكشاف ١٤٨/١ .　　(٢) الكشاف ٦٨/٢ .

(٣) الكشاف ٧٣/٢ .　　(٤) الكشاف ٣٦٢/١ .

(٥) ذكر العلماء هذا المعنى عند الحديث عن (هل) التي بمعنى (قد) ، وذكره الزمخشري صريحا ـ كما أسلفنا ، أما عن موقف الزمخشري مما ذكره العلماء في (هل) التي بمعنى (قد) فإننا نقول : لعله وقف موقفاً وسطاً ، (قارن بين حديثه عن (هل) في الآية الكريمة (وهل أتاك نبأ الخصم) وحديثه عنها أيضاً في الآية الأخرى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا) .

ـ التوبيخ والتهكم ـ التبكيت والتهكم ـ التعجب ـ الإنكار والتعجب ـ الاستبعاد ـ التقرير والاستبعاد ـ الإنكار والاستبعاد ـ التقرير ـ الإنكار ـ الانكار والتعظيم ـ المبالغة .

ثانيا : أن هذه المعاني التي وقع عليها اختيارنا من حديث الزمخشري هي وحي السياق القرآني ، وليست هي كل المعاني التي تتأتى من سياق الأساليب الاستفهامية بصفة عامة .

ثالثا : إذا كنا قد عرفنا من خلال دراساتنا السابقة أن العلماء قد أكدوا على معاني التقرير والتأكيد والإنكار كمعاني ثابتة تتولد عن الاستفهام الخارج عن معناه فإننا نرى الآن أن نقسم المعاني التي ذكرها الزمخشري في حديثه السابق إلى معاني رئيسية ثابتة ومعاني فرعية قد تصاحب المعاني الأولى الثابتة، على أن نضع في جانب المعاني الرئيسية إلى جانب ما ذكره علماؤنا السابقون من المعاني الثلاثة : التقرير والتأكيد والإنكار ، معاني التسوية ، والتوبيخ ، والتعجب ، والاستبعاد . والمبالغة ، ونضع في جانب المعاني الفرعية : معاني التبكيت ، والعتاب ، والتعظيم ، والتهكم .

رابعا : نستنتج من خلال ماعرضه الزمخشري من معنى التسوية ،خاصة قوله (الهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء ، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً) أن المعنى المتولد من سياق الأسلوب الاستفهامي قد حل محل معنى الاستفهام الذي زال وانسلخ، سواء كان تسوية أم تقريراً أم إنكاراً... إلخ. يؤكد هذا ما استشهد به الزمخشري نفسه من حديث سيبويه عن حروف النداء ، حيث ذكر أن سيبويه يرى أن حروف النداء يجري عليها من المعاني مايزيل منها معنى النداء الأصلي .

وقد يدفعنا هذا إلى اللجوء إلى باب المجاز ـ كما دفع بعض المتأخرين ـ حيث يحل المعنى المجازي محل المعنى الحقيقي ولو بعلاقة اللزوم التي يمكن أن نلتمسها بين معنى الاستفهام ، لكن الذي يمنعنا من اللجوء إلى هذا الباب

حديث الزمخشري عن تعدد المعاني خاصة أمثال حديثه عن الآية الكريمة (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم)[١] حيث نراه يقول ، « الهمزة للتقرير والتوبيخ والتعجب من حالهم »[٢] .

ويزيد من اقتناعنا ورود هـــذا الباب قوله فى تحليل استفهام الآية الكريمة (فبم تبشرون ؟)[٣] : « وهى[٤] « ما » الاستفهامية دخلها معنى التعجب » ، ومن هنا يقع اختيارنا - فى تحديد رأى الزمخشرى - على طريق الكناية ، يؤكد هذا حديثه عن الآية الكريمة (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ؟) - كما أسلفنا .

ونرى الآن أن نختم حديثنا عن الاستفهام عند الزمخشرى بنقطة جديدة على البحث البلاغى ، وهى دراسة جواب الاستفهام ومدى موافقة هذا الجواب أو مخالفته للمطلوب فى السؤال وأحسن ما نفعله فى هذا الصدد أن نفسح له المجال ليقدم أفكاره الجديدة .

يقول الزمخشرى عن الاستفهام فى قول الله عز وجل (واتل عليهم نبأ نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون ، قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين)[٥] « فإن قلت :[٦] ماتعبدون ؟ سؤال عن المعبود فحسب ، فكان القياس أن يقولوا أصناما ، كقوله تعالى (ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قـــل العفو)[٧] (ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق) ، (ما أنزل ربكم ؟ قالوا : خيراً)؟ قلت : هؤلاء قد جاءوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها (نعبد) (فنظل لها عاكفين) ولم يقتصروا على زيادة نعبد وحده ، ومثاله أن تقول لبعض

---

(١) سورة البقرة آية ٤٤ . (٢) الكشاف ج ١/٦٦ .
(٣) سورة الحجر آية ٥٤ . (٤) الكشاف ج ٢/٣١٥ .
(٥) سورة الشعراء الآيات ٦٩ ـ ٧١ . (٦) الكشاف ج ٣/١١٦ ، ١١٧ .
(٧) الآيات على الترتيب : سورة البقرة آية ٢١٩ ، سورة سبأ آية ٢٣ ، سورة النحل آية ٣٠ .

الشطار : ماتلبس فى بلادك ؟ فيقول : ألبس البرد الأتحمى فأجر ذيله بين جوارى الحى » .

وأحسب أن الزمخشرى هنا يريد أن يبين أن السؤال قد صادف هوى فى نفس المسئول فأخذ يجيب لا على قدر السؤال ، ولكن على قدر مايمورعما فى نفسه من حب لهذا الحديث ، وشغف لإطلاع السائل عليه ،

ومثل هذا أيضا حديث إبليس عندما سأله الله عز وجل عن سبب امتناعه عن السجود وقت خلق آدم (مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين)[١] فالإجابة هنا تعلن ـ فوق إجابة السؤال ـ قصة ابتهاج إبليس وافتخاره[٢] .

ويقول الزمخشرى عن الاستفهام فى قوله سبحانه (وما أعجلك عن قومك ياموسى ؟ قال : هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى)[٣] : « فإن قلت : وما أعجلك ؟ سؤال عن سبب العجلة فكان الذى ينطبق عليه من الجواب أن يقال : طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك وتنجيز موعدك ، وقوله : هم أولاء على أثرى ـ كما ترى ـ غير منطبق عليه ؟ قلت : قد تضمن ماواجه به رب العزة شيئين :

أحدها : إنكار العجلة فى نفسها .

والثانى : السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه .

فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر ، وتمهيد العلة فى نفس ماأنكر عليه فاعتل بأنه لم يوجد منه إلا تقدم يسير مثله لايعتد به ولا يحتفل به ، وليس بينى وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم ، ثم عقبه بجواب السؤال فقال : وعجلت إليك رب لترضى »[٤]

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢ .
(٢) الكشاف ج ٢/٥٤ .
(٣) سورة طه ٨٣ ، ٨٤ .
(٤) الكشاف ح ٢/٤٤٣ .

وأحسب أن الزمخشري يريد أن يبين أن الأمر هنا بعكس ما كان في الحديث عن مخالفة السؤال الجواب في الحديث السابق ، بمعنى أن السؤال فضفاض . فجاءت الإجابة لتبين ما هو أهم ، إيضاح ذلك أن الله عز وجل يرجه لموسى السؤال عن سبب عجلته وتقدمه وسبقه ، بل تركه لقومه ، فما كان من موسى إلا أن بسط العذر في أنه لم يتركهم . حيث قال : (هم أولاء على أثري) ، ثم كانت الإجابة عن سبب عجلته وسبقه لقومه وهو طلب رضا الله عز وجل)وعجلت إليك رب لترضى) .

ويقول الزمخشري عن الاستفهام في قوله تعالى (ويقولون متى هـــذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون)(١) ، فإن قلت(٢) : كيف انطبق هذا جواباً عن سؤالهم ؟ قلت : ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له لا تعنتاً إلا استرشاداً ، فجاء الجواب عن طريق التهديد ، مطابقا لمجيء السؤال على سبيل الإنكار والتعنت، وأنهم مرصدون ليوم يفاجئهم فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدماً » .

وأحسب أن الزمخشري هنا كان يبحث عن مقام مطابقة السؤال للجواب، فالتمسه من باب المجاز حيث تلاقى السؤال والجواب فيه ، فهم يسألون تعنتاً لا استرشادا ، والله عز وجل يجيبهم مهددا لا مفهما ومعلما .

ويقول الزمخشري عن الاستفهام في قوله سبحانه (٣)(أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون)(٤) : « فإن قلت : كيف صح قولهم : إنا بما أرسل به مؤمنون جوابا عنه ؟ قلت : سألهم عن العلم بإرساله فجعلوا إرساله أمرا معلوما مكشوفا مسلما لا يدخله ريب ، كأنهم قالوا العلم بإرساله وبما أرسل به مالا كلام فيه ولا شبهة تدخله لوضوحه وإنارته ،

---

(١) سورة سبأ آية ٢٩ ، ٣٠ . (٢) الكشاف ج ٣/ ٢٩٠ .
(٣) سورة الأعراف آية ٧٥ . (٤) الكشاف ج ٢/ ٧٢

وإنما الكلام فى وجوب الإيمان به فنخبرهم أنا به مؤمنون ، ولذلك كان جواب الكفرة إنا بالذى آمنتم به كافرون ، فوضعوا آمنتم به موضع أرسل به رداً لما جعله المؤمنون معلوماً وأخذوه مسلماً » .

وأحسب أن الزمخشرى هنا يبحث عن مطابقة الحوار بعضه بعضاً ، وقد لاقاه عن طريق المجاز أيضا ، فالذين استكبروا قد سألوا المستضعفين عن العلم بإرسال صالح فبين لهم المستضعفون أن هذا كلام بدهى لا يحتاج للسؤال عنه ، وإنما موضع السؤال هو الإيمان به ، فبين لهم المستكبرون أن هذا الإيمان به هو موضع الكفر عندهم ، وأن هذا أمر بدهى أيضا ، يقول القرآن (قال الملأ الذين استكبروا للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون) .

ثانيا : التمنى :

درس الزمخشرى التمنى من خلال الأداة الوضعية له (ليت) فقال صدد الحديث عن الآيتين الكريمتين (ويوم يعض الظالم على يديه يقول : ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا)(١) : « تمنى(٢) أن لو صحب الرسول وسلك معه طريقا واحدا وهو طريق الحق ولم يتشعب به طرق الضلالة والهوى ، أو أراد أنى كنت ضالا لم يكن لى سبيل قط ، فليتنى حصلت بنفسى فى صحبة الرسول سبيلا » .

نزلت هـــذه الآية فى عقبة بن أبى معيط بن أمية بن عبد شمس ، وكان يكثر مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل إنه اتخذ ضيافة فدعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يأكل طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل ، وكان أبى بن خلف صديقه فعاتبه وقال : صبأت يا عقبة ؟ قال : لا ،

(١) سورة الفرقان آية ٢٧ ، ٢٨ .   (٢) الكشاف جـ٣/٩٥ .

ولكن آلى أن لا يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه ، فشهدت له والشهادة ليست في نفسي ، فقال : وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ قفاه ، وتبزق في وجهه ، وتلطم عينه ، فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فقتل يوم بدر . أمر عليا رضي الله عنه بقتله . وقيل قتله عاصم بن ثابت بن أفلح الأنصاري ، وقال يا محمد : إلى من الصبية ؟ قال : إلى النار ، وطعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيا بأحد ، فرجع إلى مكة فمات .

كما درسه أيضا من خلال الأساليب التي تخرج إليه كما في أسلوب « لو » الشرطية التي خرجت عن هذا المعنى إلى التمني في قوله سبحانه على لسان الكافرين يوم القيامة ساعة بروز النار إليهم (فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين)(١) حيث قال : (٢)« لو في مثل هذا الموضع في معنى التمني ، كأنه قيل : فليت لنا كرة ، وذلك لما بين معنى لو وليت من التلاقي في التقدير » . وكما في أسلوب « لعل » التي خرجت عن معناها وهو الترجي إلى معنى التمني في قوله سبحانه حاكياً مقالة فرعون لوزيره هامان بعد لقائه العاصف مع نبي الله موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام(٣) (وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً) حيث قال(٤) : « قرىء : فأطلع - بالنصب ، على جواب الترجي - تشبيها للترجي بالتمني » .

على أن الزمخشري قد أشار أيضا إلى أن التمني قد يتضمن معنى الوعد فيلحقه امتحان الصدق والكذب كالأساليب الخبرية تماماً لخروجه إليها بهذا التضمن

---

(١) سورة الشعراء آية ١٠٢ .
(٢) الكشاف ١٩٥/٣ .
(٣) سورة غافر آية ٣٦ ، ٣٧ .
(٤) الكشاف ٣ / ٣٧١ .

حيث قال صدد الحديث عن الآية الكريمة (١) (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) : (٢)(ياليتنا نرد) : ثم تمنيهم ثم ابتدوا (ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) واعدين الإيمان ، كأنهم قالوا : ونحن لا نكذب ونؤمن على وجه الإثبات ، وشبهه سيبويه بقولهم : دعني ولا أعود ، بمعنى دعني وأنا لا أعود تركتني أو لم تتركني ، ويجوز أن يكون معطوفاً على نرد ، أو حالا على معنى ياليتنا نرد غير مكذبين وكائنين من المؤمنين فيدخل تحت حكم التمني .

فإن قلت : يدفع ذلك قوله (وإنهم لكاذبون) لأن المتمني لا يكون كاذبا؟ قلت : هذا تمن قد تضمن معنى العدة ، فجاز أن يتعلق به التكذيب ، كما يقول الرجل : ليت الله يرزقني مالا فأحسن إليك وأكافئك على صنيعك ، فهذا متمن في معنى الواعد ، فلو رزق مالا ولم يحسن إلى صاحبه ولم يكافئه كذب ، كأنه قال : إن رزقني الله مالا كافأتك على الإحسان » .

ثالثاً ـ الأمر :

درس الزمخشري أسلوب الأمر فبدأه بالحديث عن تعريفه، وذلك صدد الحديث عن تحليل الآية الكريمة(٣)(الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) ، حيث قال(٤): « فإن قلت : ما الأمر ؟ قلت : هو طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه ، وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور ، لأن الداعي الذي يدعو إليه من(٥) يتولاه ، شبه(٦) بآمر

---

(١) سورة الأنعام ٢٧ .　　(٢) الكشاف ٩/٢ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٧ .　　(٤) الكشاف جـ١/٥٩ .

(٥) من : تدل على الشخص العاقل الذي سيتولى الأمر — أي سيقول : افعل كذا .

(٦) الشيء هو الداعي النفسي الذي يحرك الشخص ليقول افعل .

يأمره به ، فقيل له(١): أمر ، تسمية للمفعول(٢) به بالمصدر ، كأنه مأمور به ، كما قيل له : شأن ، والشأن : الطلب والقصد ، يقال : شأنت شأنه ، أي قصدت قصده » .

ثم تحدث الزمخشري عن صيغة الأمر فذكر أنها قد تأتي لتعبر عن حدث وقع في الماضي لتصور بذلك كيفية وقوعه كما جاء في قوله سبحانه (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقـال لهم الله موتوا ثم أحياهم) ، يقول الزمخشري[٣]: « فإن قلت : ما معنى قوله (فقال لهم الله موتوا) ؟

قلت : معناه فأماتهم ، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته وتلك ميتة خارجة عن العادة ، كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالا من غير إباء ولا توقف كقوله تعالى[٤] (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) » .

وقد تكون صيغة الأمر بمعنى الخبر عند الزمخشري دالة على التسوية ، كما في حديثه عن الآية الكريمة[٥] (قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم) حيث يقول [٦] : « فإن قلت : كيف أمرهم بالانفاق ثم قال (لن يتقبل منكم)؟ قلت : هو أمر في معنى الخبر كقوله تبارك وتعالى[٧] (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) ومعناه لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً ، ونحوه قوله[٨] (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) وقوله : — كثير عزة .

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة

---

(١) له : الضمير هنا يعود على اللفظ المقول : المأمور به .

(٢) المفعول به : اللفظ المقول به (المسمى أمرا) .

(٣) الكشاف جـ ١/١٤٧ . (٤) سورة يس آية ٨٢ .

(٥) سورة التوبة آية ٥٣ . (٦) الكشاف ٢/١٥٦، ١٥٧ .

(٧) سورة مريم آية ٧٥ . (٨) سورة التوبة آية ٨٠ .

أى لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم تستغفر لهم، ولا نلومك أسأت إلينا أم أحسنت، فإذا قلت: متى يجوز نحو هذا؟ قلت: إذا دل الكلام عليه، كما جاز عكسه فى قولك: رحم الله زيداً وغفر له، فإن قلت: لم فعل ذلك؟ قلت: لنكتة فيه وهى أن كثيراً كأنه يقول لعزة: امتحنى لطف محلك عندى، وقوة محبتى لك، وعامليني بالاساءة والإحسان، وانظرى هل يتفاوت حالى معك مسيئة كنت أم محسنة، وفى معناه قول القائل:

أخوك الذى إن قمت بالسيف عامداً
لتضربه لم يستغشك من الود

وكذلك المعنى أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم، واستغفر لهم وانظر هل ترى اختلافاً بين حال الاستغفار وتركه».

وقد نلحظ فى حديث الزمخشرى السابق عن التسوية بيان معنى الرفض فى الفعلين، وقد يكون مع الرفض أيضا إشعار باحتقار وازدراء من يقع منه أى الفعلين كما فى حديث الزمخشرى التحليلى للآية الكريمة(١) (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا) حيث يقول(٢): «أمر بالأعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم، وألا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه، وأنهم إن لم يدخلوا فى الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك، فإن خيراً منهم وأفضل وهم العلماء الذين قرءوا الكتب وعلموا بالوحى وبالشرائع قد آمنوا به وصدقوه».

وقد تكون صيغة الأمر بمعنى الخبر للدلالة على أنه حتم واجب كما جاء فى حديث الزمخشرى عن الآية الكريمة(٣) (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) حيث يقول(٤): «معناه: فسيضحكون قليلا ويبكون كثيراً جزاء»

---

(١) سورة الإسراء آية ١٠٧.
(٢) الكشاف ج ٢/٣٧٨.
(٣) سورة التوبة آية ٨٢.
(٤) الكشاف ج ٢/١٦٥.

إلا أنه أخـــــرج على لفظ الأمر للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غـــيره » .

وصيغة الأمر قد تقتضي أن يكون بعدها مايرغب فيها عند الزمخشري ليتحقق بذلك نظم الكلام وجزالته ، هذا ما يفيده حديثه عن الآية الكريمة (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة)(١) حيث يقول (٢) : « فإن قلت : الذي يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها ويبعث عليها ، فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التفصيل الذي ذكره موجباً للتقوى وداعياً إليها ؟ قلت : لأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة ، ومن قدر على نحوه كان قادراً على كل شيء ، ومن المقدورات عقاب العصاة ، فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقي القادر عليه ويخشى عقابه ، ولأنه يدل على النعمة السابقة عليهم فحقهم أن يتقوه في كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها ، أو أراد بالتقوى تقوى خاصة ، وهي أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله ، فقيل : اتقوا ربكم الذي وصل بينكم حيث جعلكم صنوفاً مفرعة من أرومة واحدة فيما يجب على بعضكم لبعض فحافظوا عليه ، ولا تغفلوا عنه ، وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة » .

وقد تكون صيغة الأمر غير دالة على الأمر ، إنما دالة على سخط الآمر كما في حديث الزمخشري عن الآية الكريمة(٣) (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون) حيث يقول :(٤) « فإن قلت : كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر ، وبأن يعمل العصاة ما شـــاءوا ، وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه ؟

(١) سورة النساء ١ . (٢) الكشاف ١/٢٤١ .
(٣) سورة العنكبوت آية ٦٦ . (٤) الكشاف ٣/١٩٦ .

قلت : هو مجاز عن الخذلان والتخلية وأن ذلك الأمر متسخط إلى غاية ، ومثاله : أن ترى الرجل قد عزم على أمر وعندك أن ذلك الأمر خطأ وأنه يؤدى إلى ضرر عظيم فتبالغ فى نصحه واستنزاله عن رأيه ، فإذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم حردت عليه وقلت : أنت وشأنك ، وافعل ماشئت ، فلا تريد بهذا حقيقة الأمر ، وكيف والآمر بالشىء مريد له وأنت شديد الكراهية متحسر ، ولكنك كأنك تقول له : فإذا قد أبيت قبول النصيحة فأنت أهل ليقال لك افعل ماشئت ، وتبعث عليه ليتبين لك إذا فعلت صحة رأى الناصح وفساد رأيك » .

وقد تكون صيغة الأمر دالة على الدعاء كما فى قوله سبحانه(١) (قل موتوا بغيظكم) يقول الزمخشرى :(٢) « دعاء عليهم حتى يهلكوا به » .

وقد يكون الدعاء واقعاً لا محالة ، كما فى حديث الله على لسان الصالحين فى قوله عز وجل(٣) (ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك) ، وكما فى حديث الله على لسان الأنبياء الذين بذلوا جهدهم فى سبيل هداية قومهم ثم لم يجدوا صدى لدعوتهم ، حيث يقول عز من قائل حكاية عن موسى عليه السلام(٤) (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) .

يقول الزمخشرى:(٥) « فإن قلت مامعنى قوله (ربنا ليضلوا عن سبيلك) ؟ قلت : هو دعاء بلفظ الأمر ، كقوله : ربنا اطمس ، واشدد ، وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضا مكرراً ، ورد عليهم النصائح والمواعظ

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٩ .
(٢) الكشاف ٢١٣/١ .
(٣) سورة آل عمران آية ١٩٤ .
(٤) سورة يونس آية ٨٨ .
(٥) الكشاف ٢٠٠/٢ ، ٢٠١ .

زمناً طويلا وحذرهم عذاب الله وانتقامه وأنذرهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين ، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفراً ، وعلى الإنذار إلا استكباراً وعلى النصيحة إلا نبواً ، لم يبق له مطمع فيهم ، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أن لا يجيء منهم إلا الغي والضلال ، وأن إيمانهم كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة ، أو علم ذلك بوحي من الله اشتد غضبه عليهم ، وإفراط مقته وكراهته لحالهم فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره ، كما تقول : لعن الله إبليس وأخزى الله الكافر ، مع علمك أنه لا يكون غير ذلك ، وليشهد عليهم بأنه لم يبق له فيهم حيلة وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخذلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون فيه » .

وقد يراد بصيغة الأمر الاستعجال على حد تعبير الزمخشري في قوله تعالى(١) (فأتنا بما تعدنا) :(٢) « استعجال منهم للعذاب » .

وقد يراد بصيغة الأمر التهكم كما في قوله تعالى(٣) (وادعوا شهداءكم من دون الله) يقول الزمخشري :(٤) « وفي أمرهم أن يستظهروا بالجماد الذي لا ينطق في معارضة القرآن بفصاحته غاية التهكم » .

وقد يراد بصيغة الأمر التبكيت كما في قوله تعالى(٥) (أنبئوني بأسماء هؤلاء) ، يقول الزمخشري :(٦) « وإنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبكيت » .

وقد يراد بصيغة الأمر الاستهزاء كما في قوله تعالى (قل فادرءوا عن

---

(١) سورة الأحقاف آية ٢٢ .
(٢) الكشاف ٤٤٨/٣ .
(٣) سورة البقرة آية ٢٣ .
(٤) الكشاف ٤٩/١ .
(٥) سورة البقرة آية ٣١ .
(٦) الكشاف ٦٢/١ .

أنفسكم الموت)[١]، يقول الزمخشرى :[٢] « استهزوا بهم ، أى إن كنتم رجالا دافعين لأسباب الموت فادرءوا جميع أسبابه حتى لا تموتوا » .

وقد يراد بصيغة الأمر طلب الثبات على الفعل والزيادة منه كما فى قوله تعالى ((يا أيها الناس اعبدوا ربكم)[٣] ، يقول الزمخشرى :[٤] « فإن قلت : لا يخلو الأمر بالعبادة من أن يكون متوجها إلى المؤمنين والكافرين جميعاً . أو إلى كفار مكة خاصة ، وعلى ماروى عن علقمة والحسن فالمؤمنون عابدون ربهم فكيف أمروا بما هم ملتبسون به ؟ وهل هو إلا كقول القائل :

فلو أنى فعلت كنت من تسـ ـأله وهو قائم أن يقوما

أما الكفار فلا يعرفون الله ولا يقرون به فكيف يعبدونه؟ قلت : المراد بعبادة المؤمنين ازديادهم منها وإقبالهم وثباتهم عليها ، وأما عبادة الكفار فمشروط فيها ما لابد منه ، وهو الإقرار ، كما يشترط على المأمور بالصلاة شرائطها من الوضوء والنية وغيرها ، وما لا بد للفعل منه فهو مندرج تحت الأمر به » .

وقد يراد بصيغة الأمر الحيرة كما فى قوله تعالى (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أومما رزقكم الله)[٥] يقول الزمخشرى: « وإنما يطلبون ذلك مع يأسهم من الإجابة إليه حيرة فى أمرهم كما يفعل المضطر الممتحن »[٦] .

وقد تدل صيغة الأمر على شرف المأمور به وفخامته حيث يقول فى قوله تعالى : (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات)[٧] : « فإن قلت[٨] : من المأمور

---

(١) سورة آل عمران آية ١٦٨ .
(٢) الكشاف ١/٢٣٠ .
(٣) سورة البقرة آية ٢١ .
(٤) الكشاف ١/٤٤ .
(٥) سورة الأعراف آية ٥٠ .
(٦) الكشاف ٢/٦٥ .
(٧) سورة البقرة آية ٨٥ .
(٨) الكشاف ج ١/٥١ .

بقوله تعالى (وبشر) ؟ قلت : يجوز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يكون كل واحـــد ـ كما قال عليه الصلاة والسلام : بشر المشائين إلى المساجد فى الظلم بالنور التام يوم القيامة ، لم يأمر بذلك واحدا بعينه ، وإنما كل أحد مأمور به ، وهذا الوجه أحسن وأجزل لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به » .

وقد نلمح على الزمخشرى التأثر بالدراسات الدينيه فى تحليل قوله سبحانه (وإذا حللتم فاصطادوا)[١] حيث يقول[٢] : « إباحة للاصطياد بعد حظره عليهم ، كأنه قيل : وإذا حللتم فلا جناح عليكم أن تصطادوا) .

ومثل ذلك أيضا تحليل قوله سبحانه (ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، وياقوم أوفوا المكيال والميزان)[٣] ، يقول الزمخشرى[٤] « فإن قلت : النهى عن النقصان أمر بالإيفاء ، فما فائدة قوله (أوفوا) ؟ قلت : نهوا أولا على القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، لأن فى التصريح بالقبيح نعياً عن المنهى وتعييراً له ، ثم ورد الأمر بالإبقاء الذى هو حسن فى العقول مصرفاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه » .

رابعا : النهى :

ومن الأساليب الإنشائية التى درسها الزمخشرى أسلوب النهى ، ولعل أول شىء يسترعى نظر الباحث فى هذه الدراسة أنه ربط بين هذا الأسلوب وأسلوب الأمر ، من ذلك قوله صدد الحديث عن قول الله سبحانه (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون)[٥] : (النهى[٦] فى الحقيقة عن كونهم على خلاف حال

---

(١) سورة المائدة آية ٢ .
(٢) الكشاف جـ ١/٣٢١ .
(٣) سورة هود آية ٨٤ ، ٨٥ .
(٤) الكشاف جـ ٢/٢٢٨ .
(٥) سورة البقرة آية ١٣٢ .
(٦) الكشاف جـ ١/٩٥ .

الإسلام إذا ماتوا ، كقولك : لاتصل إلا وأنت خاشع ، فلا تنهاه عن الصلاة ولكن عن ترك الخشوع فى حال صلاته ، فإن قلت : فأى نكتة فى إدخال حرف النهى عن الصلاة وليس بمنهى عنها ؟ قلت : النكتة فيه : إظهار أن الصلاة التى لاخشوع فيها كلا صلاة ، فكأنه قال : أنهاك عنها إذا لم تصلها على هذه الحالة ، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام : لاصلاة لجار المسجد إلا فى المسجد ، فإنه كالتصريح بقولك لجار المسجد : لا تصل إلا فى المسجد، وكذلك المعنى فى الآية إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لاخير فيه ، وأنه ليس بموت السعداء ، وأن من حق هذا الموت أن لايحل فيهم .

« وتقول فى الأمر أيضا : مت وأنت شهيد ، وليس مرادك الأمر بالموت ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات ، وإنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميتته وإظهاراً لفضلها على غيرها وأنها حقيقة بأن يبحث عنها » .

ومن ذلك أيضا قوله فى الحديث عن الأفعال التى لايجوز على الرسول صلى الله عليه وسلم التلبس بها كما فى مثل قوله تعالى (لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد)(١) حيث ذكر فى أحد وجهى الآية(٢) : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان عليه ، وثبت على التزامه ، كقوله سبحانه (فلا تكونن من الممترين)(٣) ، (ولا تكونن من المشركين)(٤) ، (فلا تطع المكذبين)(٥) » وهذا فى النهى نظير قوله فى الأمر (اهدنا الصراط المستقيم)(٦) ، (يا أيها الذين آمنوا آمنوا)(٧) .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩٦ . (٢) الكشاف ج ١/٢٣٩ .
(٣) سورة آل عمران آية ٦٠ .
(٤) سورة القصص آية ٨٧ ، وسورة يونس آية ١٠٥ .
(٥) سورة القلم آية ٨ . (٦) سورة الفاتحة آية ٦ .
(٧) سورة النساء آية ١٣٦ .

هذا ، وقد حمل الزمخشرى مثل هذه الأفعال فى مواضع أخرى على معنى الإلهاب والتهييج ، اقرأ قوله عن الآية الكريمة (لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله)[1] : « اثبت[2] ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله ، ويجوز أن يكون على طريقة التهييج والإلهاب كقوله (فلا تكونن ظهيراً للكافرين ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك)[3] ولزيادة التثبيت والعصمة .

وقد تكون صيغة النهى مفيدة للتهويل عند الزمخشرى كما فى قوله تعالى (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم)[4] ـ على قراءة النهى ـ يقول الزمخشرى[5]: « معناه : تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب كما تقول : كيف فلان ؟ سائلا عن الواقع فى بلية ـ فيقال لك : لا تسأل عنه ، ووجه التعظيم أن المستخبر يجزع أن يجرى على لسان ما هو افظاعته ، فلا تسأله ولا تكلفه ما يضجره ، أو أنت يا مستخبر لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع وإضجاره فلا تسأل عنه » ،

ولا يفتأ الزمخشرى : يذكر للنهى معانى كثيرة ـ كما ذكر للأمر ، وفى ما ذكرناه من المعانى ما يغنى عن الإطالة .

خامسا : النـــداء :

يتحدث الزمخشرى عن النداء حديثا خصبا صدد تحليله لقوله سبحانه : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم)[6] فيقول :[7] « خطاب لمشركى مكة ، و « يا »

---

(١) سورة يونس آية ٩٤ ، ٩٥ .
(٢) الكشاف ٣/٢٠٣ .
(٣) سورة القصص آية ٨٦ ، ٨٧
(٤) سورة البقرة آية ١١٩ .
(٥) الكشاف ١/٩١ .
(٦) سورة البقرة ٢١ .
(٧) الكشاف ١/٤٤ .

حرف نداء ، وضع فى أصله لنداء البعيد ، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه، وأما نداء القريب فله « أى » و « الهمزة » .

« ثم استعمل ـ أى لفظ « يا » ـ فى مناداة من سها وغفل : وإن قرب ، تنزيلا له منزلة من بعد ، فإذا نودى به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذى يتلوه معنى به جدا . فإن قلت : فما بال الداعى يقول فى جؤاره : يارب ، ويالله ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، وأسمع بهم وأبصر ؟ قلت : هو استقصار منه واستبعاد لها من مظان الزلفى وما يقربه إلى رضوان الله ومنازل المقربين هضماً لنفسه وإقراراً عليها بالتفريط فى جنب الله مع فرط التهالك على استجابة دعوته والأذن لندائه وابتهاله »

« وأى : وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام . . . وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه فلابد أن يردفه اسم جنس أو ما يجرى مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء ، وفى هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد .

« وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها ـ يقصد « ها » ـ لفائدتين : معاضدة حرف النداء ومكاتفته بتأكيد معناه ، ووقوعها عوضاً مما يستحقه « أى » من الإضافة .

« فإن قلت : لم كثر فى كتاب الله النداء على هذه الطريقة مالم يكثر فى غيره؟ قلت : لاستقلاله بأوجه من التأكيد ، وأسباب من المبالغة ، لأن كل مانادى الله له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليها وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام ، وخطوب جسام ، ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون ، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ .

ويتحدث الزمخشرى عن تنزيل الجمادات منزلة العقلاء ونداءها من قبل

الله العلي الأعلى فيقول بصدد تحليله لقوله سبحانه : (ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبي معه والطير)(١) « فإن قلت(٢): أي فرق بين هذا النظم و بين أن يقال : وآتينا داود منا فضلا تأويب الجبال معه والطير ؟ ، قلت : كم بينهما ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي لا تخفى من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الألوهية حيث جعلت الجبال منزلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا إشعارا بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع عن إرادته » .

ويلحظ الزمخشري في نداء رسولنا الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم أنه لم يناد باسمه مثل سائر الأنبياء فيسجل في ذلك ملحظاً بلاغيا حيث يقول بصدد تحليله لقول الله تبارك وتعالى (يا أيها النبي اتق الله)(٣) « جعل نداءه بالنبي والرسول في قوله(٤) (يا أيها النبي اتق الله)(٥) ، (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك)(٦) ، (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) ، وترك نداءه باسمه كما قال : يا آدم ، ياموسى ، ياعيسى ، ياداود ، كرامة له وتشريفاً وربأ بمحله وتنويها بفضله » .

« فإن قلت : إن لم يوقع اسمه في النداء فقد أوقعه في الأخبار في قوله (محمد رسول الله)(٧) ؟ (وما محمد إلا رسول)(٨) ؟ قلت: ذلك لتعليم الناس بأنه رسول الله ، وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به ، فلا تفاوت بين النداء والأخبار ، ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الأخبار كيف ذكره بنحو ذكره في النداء (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) (٩)» .

---

(١) سورة سبأ آية ١٠ .
(٢) الكشاف ٣/٢٥٣ .
(٣) سورة الأحزاب آية ١ .
(٤) الكشاف ٣/٢٢٥ .
(٥) سورة التحريم آية ١ .
(٦) سورة المائدة ٦٧ .
(٧) سورة الفتح آية ٢٩ .
(٨) سورة آل عمران آية ١٤٤ .
(٩) سورة التوبة آية ١٢٨ .

وقال الرسول يارب)[١] ، (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة)[٢] ، (والله ورسوله أحق أن يرضوه)[٣] .

وأخيرا يتحدث الزمخشرى عن حذف حرف النداء فيقول صدد تحليله للآية الكريمة) يوسف أعرض عن هذا)[٤] « حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مفاطن للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله »[٥] .

(١) سورة الفرقان الآية ٣٠ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١ .

(٣) سورة التوبة الآية ٦٢ .

(٤) سورة يوسف الآية ٢٩ .

(٥) الكشاف ٢/٢٥٢ .

الأساليب الانشائية ومدرسة السكاكى

تكاد تكون هذه المرحلة نهاية الدراسات الجادة للأساليب الانشائية من حيث التقعيد البلاغى ، ذلك أن هذه المرحلة قد استجمعت كل جهود دراسات السابقين فى قوانين خاصة جامعة مانعة - كما يقول المناطقة - ولئن كانت هذه المرحلة قد قصرت فى مهمة التطبيق الواسع على الأساليب الأدبية - كما يحلو للمحدثين اتهامها بذلك - فإنه يكفيها فضلا أنها جمعت شتات كل ما كتب من قبل فرعته وعياً تاماً ، ثم أعادت صياغته إعادة متينة أمرت كل من أتى بعدها ، ومهمة حفظ المعلومات فى قواعد ثابتة ليست مهمة سهلة ، بل إن هذه المهمة - فى اعتقادى - هى المهمة التى لابد أن تكون قبل مرحلة الانطلاق الواسع نحو التطبيق الأدبى ، كما أننا سنرى بعد سطور قليلة أن السكاكى - رائد مدرسة المتأخرين - لم يقصر فى شرح مقامات الكلام التى تقاس عليها كل الأساليب الأدبية ، وبذلك يكون قد أدى دوره كاملا ، ثم صفى تلاميذه من بعده زبدة كلامه ، وأسلموا القيادة بعد ذلك للمحدثين .

ونحن سنتعامل مع هذه المرحلة بأسلوبها ، بمعنى أننا سنعرض للأساليب الانشائية كموضوعات ، وليس كحديثنا الأول جهد كل شخصية على حدة ، ذلك أن فكر السكاكى ، ثم فكر الخطيب القزوينى من بعده قد حدد دراسة هذه الأساليب فى موضوعات ، كما أنهما قد جعل إضافة كل شخصية تأتى بعدهما دائرة فى هذا الفلك .

وموضوعات الأساليب الإنشائية حددها السكاكى فى قانون واحد أسماه قانون الطلب ، ثم بدأ يتحدث عنه فذكر (١) أن حقيقة الطلب حقيقة معلومة مستغنية عن التحديد ، لأنه يستدعى مطلوباً ، ومن ثم فالحديث عنه يجب أن

---

(١) راجع مفتاح العلوم ١٣١ ، ١٣٢ .

يراعى فيه النظر إلى المطلوب ، وهذا المطلوب له وجهان : وجه بالنسبة للحصول فى الخارج ، ووجه بالنسبة للحدوث فى الذهن .

وعلى هذا الأساس قسم الطلب نوعين :

* نوعاً لا يستدعى فى مطلوبه إمكان الحصول الواقعى ، وهو التمنى ، ذلك أنك تطلب فيه كون غير الواقع - فيما مضى - واقعاً فيه ، مع حكم العقل بامتناعه ، مثل قولك : ليت الشباب يعود ، حيث تطلب عود الشباب مع جزمك بأنه لا يعود ، وتقول أيضاً : ليت زيداً يأتينى ، فتطلب إتيان زيد - مع علمك مثلا بسفره وعدم إتيانه - فإن كانت هناك طماعية أو توقع بمجيئه كان الأولى أن تستعمل لعل أو عسى - كما يقول السكاكى .

* ونوعا يستدعى فى مطلوبه إمكان الحصول الواقعى ، وهو الاستفهام ، والأمر ، والنهى ، والنداء .

هذا باعتبار المطلوب الذى يحدث فى الواقع - أو كما سماه السكاكى الحاصل فى الخارج .

وقد يصاحب هذا الحصول فى الخارج حصول فى الذهن أيضا ، ويكون الأمر بالنسبة للاستفهام أن المطلوب حصوله فى الذهن إما أن يكون حكماً بشىء على شىء أو لا يكون ، والأول هو التصديق ، والثانى هو التصور ، وعلى أى حال فإنك - على حد عبارة السكاكى - تطلب ما هو فى الخارج ليحصل فى ذهنك نقش مطابق له .

أما بالنسبة للأمر والنهى والنداء فإنك تنقش فى ذهنك ما هو مطلوب لحصوله ، ثم تطلب أن يحصل له فى الخارج مطابق ؛ فنقش الذهن فى الاستفهام تابع ، وفى الأمر والنهى متبوع .

ولإيضاح ذلك بالمثال نقول : إنك فى الاستفهام عندما تسأل فى التصور عن محمد تقول : أمحمد عندك أو عمرو ؟ يكون فى الخارج أنه عندك أحدهما ،

ثم يكون السؤال الطلب تحقق نقش فى ذهنك مطابق له (لاحظ أننا نتحدث عن السؤال وليس لنا شأن بالإجابة الآن)

وكذلك عندما تسأل فى التصديق عن نسبة الصدأ للحديد فتقول : أيصدأ الحديد ؟ تكون متردداً بين ثبوت هذه النسبة أو نفيها ، ويكون السؤال عن الأمر الحاصل لهذه النسبة فى الخارج ليحصل فى الذهن نقش مطابق لها .

أما بالنسبة للأمر والنهى والنداء فإنك عندما تقول لصاحبك : قم ، أو لا تتحرك ، أو يازيد ، فإنك حاصل فى ذهنك صورة القيام ، وعدم الحركة ، وإقبال صاحبك زيد عليك ، ثم أنت تطلب بعد ذلك حصول القيام ، وانتفاء الحركة ، وإقبال صاحبك زيد عليك فى الخارج .

ثم إن الطلب يستدعى مطلوباً لا محالة ، ويستدعى أيضاً أن هذا المطلوب لا يكون حاصلا وقت الطلب(١) ، فإن استعملنا أحد أنواع الطلب الخمس السابقة (التمنى - الاستفهام - الأمر - النهى - النداء) فى مطلوب حاصل وقت الطلب امتنع إجراؤه على معناه الحقيقى ، وتولد من ذلك - بمعونة القرائن - من المعانى مايناسب المقام .

ويشرح السكاكى ذلك فى أمثلة كثيرة ، ويتوسع فى عرض مقامات

---

(١) يقول ابن يعقوب فى التعليق على هذا القول (مواهب الفتاح ٢/٢٣٧) أى إن كان الانشاء طلباً اقتضى مطلوباً من وصفه أنه غير حاصل وقت الطلب سواء حين طلب حصوله فيما مضى كاف تمنى حصول مالم يحصل ، كقولك : ليتنى جئتك بالأمس ، أو فى المستقبل - وهو ظاهر - وإنما استدعى مطلوباً غير حاصل لأن طلب تحصيل الحاصل بالطلب القلبى محال ، وأما طلبه بالكلام اللفظى فلا يستحيل . وإنما قلنا يستحيل بالطلب القلبى لأنه إن أريد بالطلب الإرادة فلا تتعلق بالواقع ، وإن أريد به المحبة والشهوة فلا تبقى الشهوة فى حصول المشتهى بعد حصوله ، وإنما تبقى شهوة دوامه ، وإن أريد به الكلام النفسى فهو تابع لأحد هذين وينتفى بانتفائهما بخلاف اللفظى .

الكلام التى تقاس عليها الأساليب الأدبية ، فيذكر(١) : —

١ ـ أنك إذا قلت لمن همك همه : ليتك تحدثنى ، يمتنع إجراء التمنى على الأصل ، ويتولد بمعونة القرينة (قرينة الحال) معنى السؤال .

٢ ـ وإذا قلت : هل لى من شفيع (فى مقام لا يسع إمكان التصديق بوجود الشفيع) امتنع إجراء الاستفهام على أصله ، وتولد ـ بمعونة قرائن الأحوال ـ معنى التمنى .

٣ ـ وإذا قلت : لو يأتينى زيد فيحدثنى (بنصيب الفعل الأخير طالباً لحصول الوقوع ، امتنع إجراء « لو » على أصلها فى تقدير غير الواقع واقعاً ، وتولد معنى التمنى .

٤ ـ وإذا قلت : لعلى سأحج فأزورك (بنصيب الفعل الأخير) وأنت تريد حصول المرجو ، إمتنع إجراء « لعل » على أصلها فى طماعية حصول المرجو ، وتولد معنى التمنى بسبب بعد المرجو عن الحصول .

٥ ـ وإذا قلت لمن تراه لا ينزل : ألا تنزل فتصيب خيراً ، امتنع أن يكون المطلوب بالاستفهام التصديق بحال عدم نزول صاحبك لكونه حاصلا ، ويوجه المعنى بمعرفة قرينة الحال إلى نحو : ألا تحب النزول على محبتنا لك ، فيكون ذلك معنى العرض .

٦ ـ وإذا قلت لمن تراه يؤذى الأب : أتفعل هذا ؟ ! امتنع توجه الاستفهام إلى فعل الأذى ـ بمعونة قرينة الحال ـ وتولد معنى الإنكار والزجر الذى يلابس فعل الأذى ، أى أتستحسن هذا الفعل ؟

٧ ـ وإذا قلت من يهجو أباه ـ مع حكمك بأن هجو الأب ليس شيئا غير هجو النفس ـ هل تهجو إلا نفسك ؟ امتنع إجراء الاستفهام على ظاهره ، وتولد بمعونة القرائن معنى الإنكار والتوبيخ .

(١) انظر مفتاح العلوم ١٣٢ ، ١٣٣ .

٨ ـ وإذا قلت لمن يسوء الأدب : ألم أؤدب فلاناً ؟ امتنع أن تطلب العلم بتأديبك فلاناً وهو حاصل ، وتولد منه معنى الوعيد والزجر .

٩ ـ وإذا قلت لمن كلفته بالذهاب لأمر مهم (والحال أنك تراه طول الوقت عندك) : أما ذهبت بعد ؟ امتنع إجراء الاستفهام على معنى الذهاب ، لأنك تعرف أنه لم يذهب ، وتولد من معرفتك عدم ذهابه معنى تحضيضه وحثه على الذهاب ، واستبطاءك عدم نفاذه هذا الذهاب ، وعلى حد تعبير السكاكى : امتنع الذهاب عن توجه الاستفهام إليه لكونه معلوم الحال ، واستدعى شيئاً مجهول الحال ـ مما يلابس الذهاب ـ مثل : أما يتيسر لك الذهاب ؟ وتولد الاستبطاء والتحضيض .

١٠ ـ وإذا قلت لمن يتصلف ويتكبر يظن ـ غافلا ومخطئا ـ أنك لا تعرفه ، والحال أنك تعرفه : ألا أعرفك ؟ امتنع أن يتوجه السؤال إلى معرفتك به ، وتوجه إلى مايلابس هذه المعرفة من الاعتقاد الخاطىء الذى يظنه (أتظنني لا أعرفك) وتولد بذلك بمعونة القرينة معنى الانكار والتعجب والتعجيب .

١١ ـ وإذا قلت لمن جاءك : أجئتني ؟ امتنع المجيء عن توجه الاستفهام إليه ، وتوجه إلى مايلابسه من حديث المخاطب ، ورأيه فى هـــذا المجيء ، (أترى أن هذا مجيئاً أم ما رأيك فيه ؟) وتولد بمعونة القرينة معنى التقرير .

١٢ ـ وإذا قلت لمن يدعى أمراً ليس فى وسعه : افعله ، امتنع أن يكون المطلوب بالأمر حصول ذلك الأمر فى الخارج لحكمك بامتناعه عليه ، وتوجه إلى مطلوب ممكن الحصول مثل بيان عجزه ، وتولد بذلك معنى التعجيز والتحدي .

١٣ ـ وإذا قلت لعبد شتم مولاه (والحال أنك أدبته حق التأديب أو أوعدته على ذلك أبلغ إيعاد) اشتم مولاك ، امتنع أن يكون المراد الأمر بالشتم ـ مع الحال السابقة ـ وتوجه الأمر بمعونة قرينة الحال هذه إلى مايلابس

هذا الأمر ويلازمه (اعرف لازم الشتم : وهو التأديب) وتولد من هذ اللازم معنى التهديد .

١٤ - وإذا قلت لعبدك الذى لا يمتثل أمرك : لا تمتثل أمرى، امتنع طلب ترك الامتثال - لكونه حاصلا - وتوجه إلى غير حاصل ، مثل : لا تكترث لأمرى ، ولا تبالى به ، وتولد منه معنى التهديد أيضاً .

١٥ - وإذا قلت لمن أقبل عليك يتظلم : يامظلوم ، امتنع توجه النداء إلى طلب الاقبال - لحصوله - وتوجه إلى غير حاصل ، مثل حثه على الزيادة من حديث الشكوى لتمام وضوحها ، ويتولد بذلك بمعونة قرينة الحال هـــذه معنى الإغراء .

ونأتى - الآن - إلى الدراسة التفصيلية لموضوعات الإنشاء الخمس السابقة عند مدرسة السكاكى والمتأخرين ، فنقول وبالله التوفيق .

التمني

تمهيـــد :

رتب السكاكي - ومن بعد القزويني - حديث الأساليب الانشائية الطلبية الترتيب الذي ذكرناه من قبل ، وهو : التمني ، والاستفهام ، والأمر ، والنهي ، والنداء ، وعلل ذلك عنهما تلميذهما الدسوقي فقال(١) : « قدمه - أي قدم القزويني حديث التمني في الترتيب - لعمومه ، لجريانه في الممكن والممتنع ، وعقبه بالاستفهام لكثرة مباحثه ، ثم بالأمر لاقتضائه الوجود ، ثم بالنهي لمناسبته في الأحكام » .

أما النداء فيبدو أن الدسوقي غير مقتنع به في الأساليب الانشائية الطلبية ، وربما كان التمني على شاكلة النداء عنده - بل وعند السبكي أيضاً - يقول الدسوقي(٢) : « ومنهم - أي من العلماء من أخرج التمني والنداء من أقسام الطلب ، بناء على أن العاقل لا يطلب ما يعلم استحالته ، فالتمني ليس طلباً ، ولا يستلزمه - أي لا يستلزم الطلب - ، وأن طلب الإقبال خارج عن مفهوم النداء الذي هو صوت يهتف به الرجل ، وإن كان يلزمه - أي النداء بالمفهوم الذي أوضحه يستلزم الطلب . ويقول السبكي(٣) : « الأصوب أن التمني والترجي والقسم والنداء ليس فيها طلباً ، بل تنبيه ، ولا بد في تسميته إنشاء » .
وأقول للسبكي إن ما عرضته هو رأي الأصوليين ، على أن بعضهم قد جعل الترجي قسماً سادساً ينضم إلى أقسام الطلب الخمس التي ذكرها السكاكي .

تعريف التمني :

عرف ابن يعقوب التمني فقال(٤) : « هو طلب حصول الشيء بشرط

(١) حاشية الدسوقي جـ ٢/٢٣٨ . (٢) الموضع السابق .
(٣) عروس الأفراح جـ ٢/٢٤٠ . (٤) مواهب الفتاح جـ ٢/٢٣٨ .

المحبة ونفى الطماعية فى ذلك الشيء » ، وبين الدسوقى دقة هذا التعريف فقال[١]: « إن طلب حصول الشيء على سبيل المحبة إن كان مع طمع فى حصوله من المخاطب فأمر ، وإن كان مع طمع فى الترك فنهى ، وإن كان مع طمع فى إقباله فنداء ، وإن لم يكن هناك طمع أصلا فهو التمنى » .

مواطن التمنى :

أغلب ما يكون التمنى فى الأشياء المحالة عند كثير من المتأخرين . وإن كان صاحب الطراز قد ذكر[٢] - ونحن لا نؤيده - أن التمنى توقع أمر محبوب فى المستقبل ، ذلك أن رائد المتأخرين الإمام السكاكى فى الحديث الذى ذكرناه له من قبل قد قال عن التمنى : إنه النوع الوحيد من أنواع الطلب الذى لا يستدعى فى مطلوبه إمكان الحصول الواقعى أو الخارجى مثل قوله : ليت الشباب يعود ، كما أن معظم المتأخرين قد ذكر أن الأمر والنهى إذا توجه إلى مالا يعقل خرج إلى معنى التمنى مثل قول عنترة العبسى :

يا دار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى

وقول الخنساء :

أعينى جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى ؟

وليس معنى أن التمنى أغلب ما يكون فى الأشياء المحالة أنه يكون كذلك دائماً ، بل إنه - كما قال السبكى[٣] - : « قد يكون المتمنى قريبا مثل : ليت زيداً يقدم ، وهو مشرف على القدوم ، وقد يكون بعيداً ممكناً مثل قوله سبحانه على لسان الفقراء الذين ينظرون إلى قارون ، ويقولون (ياليت[٤] لنا مثل ما أوتى قارون) ، وقد يكون غير ممكن مثل قوله سبحانه على لسان

(١) حاشية الدسوقى ج ٢/٢٣٨ . (٢) الطراز ج ٣/٢٩١ .
(٣) عروس الأفراح ج ٢/٢٣٨ (٤) سورة القصص آية ٧٩ .

الكافرين يوم القيامة[1] (ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا) .

الفرق بين التمني والترجي :

إذا كان التمني أغلب ما يكون في الأشياء المحالة فإن الترجي أغلب ما يكون في الأمور المترقبة والممكنة والمتوقعة ، فإذا كان الأمر مكروها حمل الترجي معنى الاشفاق ، ولذلك جاء في الأقصى القريب قول التنوخي في التفرقة بين التمني والترجي[2]: « المتمني يكون مشوقا للنفس والمرجو قد لا يكون ، ويكون المرجو متوقعاً ، والمتمني قد لا يكون » .

ألفاظ التمني :

١ — ليت :

اللفظ الموضوع - على سبيل الحقيقة - للتمني « ليت » ، ونضيف أيضا لمناسبة الترجي أن الحرف[3] الموضوع لهذا المعنى (الترجي) - على سبيل الحقيقة « لعل » ، ويستعمل في توقع الأمر المحبوب وترجي حصوله ، ويقال له : طمع - كما أسلفنا - ، مثل قوله سبحانه في خطاب موسى وهارون عند ذهابهما إلى فرعون[4] (فقولا له قولا لينا لعله[5] يتذكر أو يخشى) ، كما يستعمل أيضا في الإشفاق من الأمر المكروه المتوقع مثل قوله سبحانه[6] (لعل الساعة قريب) .

---

(١) سورة الأنعام آية ٢٧ . (٢) عروس الأفراح ج ٢/٢٤٠،٢٤١

(٣) قلنا الحرف ولم نقل اللفظ لأن هناك أفعالا تفيد الرجاء مثل عسى ، وحرى ، واخلولق .

(٤) سورة طه آية ٤٤ .

(٥) رأى الأخفش والكسائي أن معنى لعل هنا هو التعليل .

(٦) سورة الشورى آية ١٧ .

٢ ـ لعل :

إذا كان التمنى أغلب ما يكون فى المحال من الأمور فإن درجة وجوده فى الأمور البعيدة الحصول تكاد تكون محل اختصاصه(١) ، ولذلك استعملوا لعل فى التمنى عند إرادتهم إبراز بعد المرجو عن الحصول ، يقول الله سبحانه حاكياً ما كانوا يرجوه فرعون ويتوقعه من أن يصل بصرحه العالى الذى يبنيه له هامان إلى الله عز وجل مبيناً لهم بعد ما يتوقعه عن الحصول(٢) (وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى(٣)) .

واستعمال « لعل » فى التمنى على سبيل المجاز ، يقول صاحب المطول(٤):

(١) انظر عروس الأفراح جـ ٢/٢٤٣ (٢) سوره غافر ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) نبه الخطيب القزوينى على أن هذه الآية يستشهد بها فى مجالنا الذى نحن فيه على قراءة عاصم فى رواية حفص التى تمضى على مذهب البصريين الذى يجعل الفعل (فأطلع) منصوباً بأن مضمرة فى جواب التمنى الذى هو أحد أنواع الطلب المحض ، وقد أشار ابن مالك إلى هذا فقال :

وبعد « فا » جواب نفى أو طلب محضين « أن » ، وسترها حتم نصب

أى ينصب المضارع بأن مضمرة وجوباً بعد فاء السببية المجاب بها نفى محض ، أو طلب محض فالنفى نحو قولنا : ما تأتينا فتحدثنا ، والطلب المحض مثل الآية الكريمة ، هذا وقد حدد البصريون الطلب المحض بأنه يشمل : الأمر ، والنهى ، والدعاء ، والاستفهام ، والعرض ، والتحضيض ، والتمنى ، ولذلك كانت لعل فى الآية مفيدة التمنى ، وليست مفيدة الترجى ، والفعل منصوب على أنه جواب التمنى .

هذا ، وقد حاول بعض المعترضين القول بأن الكوفيين ينصبون الفعل أيضاً فى جواب الترجى ، ومن ثم فلعل باقية على معناها الأصلى ، وهو الترجى ، فأجاب السبكى بقوله (عروس الأفراح ٢/٢٤٤ ، ٢٤٥) : « استشهاد بعض النحويين على نصب جواب الترجى ، لا ينافى أن « لعل » تفيد التمنى لأن النحوى ينظر فى الترجى والتمنى إلى اللفظ ، والبيانى ينظر إلى المعنى » .

(٤) المطول ٢٢٦ .

« فيسبب بعده - أي المرجو - عن الحصول أشبه المحالات ، والممكنات التي لا طماعية في وقوعها ، فيولد منه التمني ، لما مر من أنه - أي التمني - طلب محال أو ممكن لا طمع في وقوعه » .

٣ — هل :

قد يؤدي معنى التمني بأداة الاستفهام « هل » ويرى البلاغيون أن هذا الأداء يكون في مقام إبراز المتمنى في صورة الممكن الحصول لشدة حاجة السائل إليه ، ذلك أن الاستفهام إنما هو استعلام ، والاستعلام شيء يستوحى منه إمكان حصول المستفهم عنه ، وهذا هو السر في العدول عن (ليت) التي يستوحى منها بعد المتمنى أو إحالة وقوعه ، فإذا قال القائل (هل لي من شفيع ؟) في مقام من يعلم أنه لا شفيع له يكون غرضه استعطاف مخاطبه واسترحامه والاعتذار الشديد إليه عن طريق المبالغة والإلحاح ، وبهذا يصير الشيء البعيد المنال كأنه وشيك الحصول حتى يسأل عنه(١) ، ويحدد ابن يعقوب أحد مجالين لاستعمال هذه الأداة في التمني فيقول(٢) : « أصل التمني إظهار الرغبة في الفائت مضياً أو استقبالا ، إما لمجرد الاعتذار والاستعطاف للمخاطب ليرحم المتمني ، وإما لمجرد موافقة الخاطر والترويح على النفس ، والوجه المذكور - أي استعمال هل في التمني - أبلغ في هذا الإظهار - أي إظهار الرغبة في الفائت الماضي أو المستقبل - فإذا اقتضى المقام الأبلغية لأحد هذين الوجهين - مثلا - عدل عن أصل التمني إلى صورة الاستفهام إظهاراً لزيادة كمال العناية ، أما مقام الأبلغية للاستعطاف فظاهر ، كما إذا كان المخاطب لا يعطف إلا بالمبالغة(٣) ، وأما مقامها لترويح النفس فلأن تخيلها

---

(١) فرق الدسوقي (٢/٢٤٠) بين المستفهم عنه والمتمنى بأن المستفهم عنه ممكن لا جزم بانتفائه بخلاف المتمنى فإنه قد يكون مجزوماً بانتفائه وإن كان ممكناً .

(٢) مواهب الفتاح ٢/٢٤٠ .

(٣) راجع المثال المذكور (هل لي من شفيع ؟) .

أن المتمنى يمكن أشد ترويحاً من خلافه، فإذا كانت فى غاية الأسف ناسب ما ذكر، فليتأمل »(١).

٤ — لو :

أولهما : أن (لو) هذه هى المصدرية التى تستعمل بعد فعل (ود) كثيراً مثل قوله سبحانه(٢) (ودوا لو تدهن فيدهنون) وقوله عز وجل(٣) (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة)، ثم تضمن هذا الفعل معنى الطلب، ثم استغنت (لو) عنه فى كثير من المواقف - فيما يمكن أن نسميه بلغة عصرنا الآن بمرحلة تطورها اللغوى .

وهى على هذا الرأى توافق (أن) المصدرية فى المعنى، وفى سبك الفعل بعدها بمصدر يطلبه العامل قبله(٤)، وفى بقاء الماضى بعدها على مضيه، وإذا جاء بعدها المضارع صرفت معناها إلى الماضى، وتخالفها فى العمل، فأن المصدرية تنصب الفعل بعدها، و (لو) لا تعمل شيئا . وهى فوق ذلك كله تكون حرف موصول، وتوصل بالفعل بعدها ؛ والطلب معها ليس طلباً

(١) فى القرآن الكريم مما يفيد معنى التمنى فيما نحن بصدده قول الله سبحانه (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) سورة الأعراف آية ٥٣ .

(٢) سورة القلم آية ٩ . (٣) سورة النساء آية ١٠٢ .

(٤) فاعلا مثل قولك يعجبنى أن تقوم فى (أن)، وقول قتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث عند رثائها له عقب قتله بعد غزوة بدر حيث كان أسيراً لدى المسلمين فأمر الرسول بقتله :

أمحمد يا خير ضنء كريمة ... فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنق

فى لو، أو مفعولا مثل : أحب أن تقوم، فى أن، وقول الله سبحانه (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر) فى لو ... الخ .

محضاً ، لأنه طلب عن طريق تضمين الفعل المستغنى عنه (ود) هذا المعنى، ومن أجل ذلك رأى بعض العلماء أنها لا تحتاج إلى جواب[1] .

ثانيهما : أن (لو) هذه هي الشرطية ، ومعناها : امتناع الشيء لامتناع غيره ، ثم نقلت ـ على حد تعبير بعضهم ـ من معنى الشرط إلى معنى التمني، من غير أن يبقى فيها معنى الشرطية ، أو على حد تعبير البعض الآخر ـ بقي فيها معنى الشرط وأشربت معنى التمني .

ويختلف العلماء في تفسيرها على هذا الرأي إلى قسمين :

قسم يرى أن يفسرها بأنها حرف لما كان سيقع لوقوع غيره ، وذلك تفسير سيبويه .

والقسم الثاني يفسرها بأنها حرف امتناع متناع ـ وهو الرأي المشهور عند العلماء .

ورجح صاحب البحر المحيط رأي سيبويه لاطراده في كل المواقف . وانخرام الرأي المشهور في نحو : لو كان هذا إنساناً لكان حيوان ، إذ على تفسير الإمام يكون المعنى ثبوت الحيوانية على تقدير ثبوت الإنسانية ، إذ الأخص مستلزم الأعم ، وعلى تفسيرهم ينخرم ذلك ، إذ يكون المعنى

---

(١) عرض الزمخشري للآية الكريمة (وودا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) فقال عن الفعل المرفوع (فتكونون) : عطف على تكفرون ، ولو نصب على جواب التمني لجاز، وتعقبه أبوحيان فقال : ويكون التمني بلفظ الفعل ويكون له جواب فيه نظر ، وإنما المنقول أن الفعل ينتصب في جواب التمني إذا كان بالحرف نحو ليت ، ولو ، وإلا (إذا أشربتا معنى التمني) ، أما إذا كان بالفعل فيحتاج الى سماع من العرب ، بل لو جاء لم تتحقق فيه الجوابية ، لأن ود التي تدل على التمني إنما متعلقها المصادر لا الذوات ، فإذا نصب الفعل بعد الفاء لم يتعين أن تكون جواب ، لاحتمال أن يكون من باب عطف المصدر المقدر على المصدر الملفوظ به فيكون من باب (ولبس عباءة وتقر عيني) ـ راجع الكشاف ٢٨٨/١ ، والبحر المحيط ٣١٤/٣ .

ممتنع الحيوانية لأجل امتناع الإنسانية ، وليس بصحيح ، إذ لا يلزم من انتفاء الإنسانية انتفاء الحيوانية ، إذ توجد الحيوانية ولا إنسانية[١] .

والمذهب السائد فى هذه المسألة أنها إذا جاءت بعد الفعل (ود) فمعموله محذوف لدلالة مابعده عليه ، كما أن جواب (لو) الشرطية الباقية على بابها محذوف أيضا ، يقول أبو حيان فى البحر المحيط صدد الآية الكريمة[٢] : (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء)[٣] : « من أثبت أن لو تكون مصدرية[٤] قدره ودوا كفركم كما كفروا ، ومن جعل لو حرفا لما كان سيقع لوقوع غيره جعل مفعول ودوا محذوفاً ، وجواب لو محذوفاً ، والتقدير ودوا كفركم لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء لسروا بذلك » .

أما إذا جاءت من غير سياق الفعل (ود أو يود) وجاء فيها معنى التمنى ، سواء كان عن طريق النقل إليه ، أو عن طريق إشرابها لمعناه ، فإن لها جوابان جواب للتمنى ، وهو منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية ، وجواب للو ، فإذا قيل على هذا : لو تأتينى فتحدثنى ، فالمعنى لو حصل مايتمنى ، وهو الاتيان فالتحديث لسرنا ذلك ، ويقول صاحب البحر المحيط صدد الحديث عن الآية الكريمة[٥] : (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا)[٦] : « المعنى أنهم تمنوا الرجوع إلى الدنيا حتى يطيعوا الله ويتبرءوا منهم فى الآخرة إذا حشروا جميعاً مثل ماتبرأ المتبوعون أولا منهم ، ولو هنا للتمنى ، قيل : وليست التى لما كان سيقع لوقوع غيره ، ولذلك جاء جوابها بالفاء فى قوله (فنتبرأ) ، كما جاء جواب ليت فى قوله (ياليتنى كنت معهم فأفوز) ، وكما جاء فى قول الشاعر :

---

(١) راجع البحر المحيط ١/٨٨ .
(٢) سورة النساء آية ٨٩ .
(٣) البحر المحيط ٣/٣١٤ .
(٤) لو المصدرية لا تفيد معنى التمنى .
(٥) سورة البقرة ١٦٧ .
(٦) البحر المحيط ١/٤٧٤ .

فلو نبش المقابر عن كليب   فتخبر بالذنائب أى زير

والصحيح أن لو هذه هى التى لما كان سيقع لوقوع غيره ، وأشربت معنى التمنى ، ولذلك جاء هذا البيت جوابها ، وهو قوله :

بيوم الشعثمين لقر عينا   وكيف لقاء من تحت القبور

هذا كله إذا أفادت معنى التمنى، أما إذا لم تفده وجاءت بمعنى (إن)[١] الشرطية فليس لها إلا جواب واحد هو جواب لو ، يقول صاحب البحر المحيط صدد الآية الكريمة[٢] (قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم)[٣] : « (نعلم) هنا فى معنى (علمنا) ، لأن (لو) من القرائن التى تخلص المضارع لمعنى الماضى ، إذا كانت حرفاً لما كان سيقع لوقوع غيره ، فإذا كانت بمعنى (إن) الشرطيه تخلص المضارع لمعنى الاستقبال، ومضمون هذا الجواب أنهم علقوا الاتباع على تقدير وجود علم القتال ، وعلمهم للقتال منتف فانتفى الاتباع ، وإخبارهم بانتفاء علم القتال منهم : إما على سبيل المكابرة والمكايدة . . . وإما على سبيل التخطئة لهم فى ظنهم أن ذلك قتـــال فى سبيل الله ، وليس كذلك ، وإنما هو رمى النفوس فى التهلكة » .

ويجوز أن يحذف جواب (لو) كما قال الزمخشرى صدد الحديث من الآية الكريمة[٤] (فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين)[٥] : « (لو) فى مثل هذا الموضع فى معنى التمنى ، كأنه قيل : فليت لنا كرة ، وذلك لما بين معنى (لو) و (ليت) من التلاقى فى التقدير ، ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب ، وهو لفعلنا كيت وكيت » .

(١) ذكر النيسابورى فى تفسيره (غرائب القرآن ورغائب الفرقان أن (لو) الشرطية التى بمعنى (إن) قد تفيد المغالبة مثل قوله سبحانه (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) أى أنهم على تقدير الأسماع معرضون (راجع هذا التفسير على هامش تفسير الطبرى ١٣٨/٦ دار المعرفة - بيروت) .

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٧ .   (٣) البحر المحيط ١٠٩/٣ ، ١١٠ .

(٤) سورة الشعراء ١٠٢ .   (٥) الكشاف ١٢٠/٣ .

وبعد ، فإن وجه استعمال (لو) كثيراً فى التمنى هو ماقال ابن يعقوب من أنها فى الأصل تدخل على الممنوع والمحال. والمحال هو المتمنى كثيراً(١).

٥ — ألا :

نستدرك الآن على المتأخرين استعمال (ألا) فى التمنى ، وقد ذكرنا من قبل تنبيه سيبويه والرمانى عليها .

٦ — أين :

نستدرك أيضا على السكاكى والقزوينى استعمال القرآن الكريم (أين) فى التمنى فى الآيات الكريمة(٢) (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر(٣) كلا لا وزر) فالإنسان يتمنى يوم القيامة أن يجد مكاناً يفر إليه من هول هذا اليوم ، ويخبره القرآن باستحالة ذلك ، يقول الألوسى فى تفسيره(٤) : « كلا » ؟ ردع عن طلب المفر وتمنيه » .

٧ — متى :

نستدرك أيضا على السكاكى والقزوينى استعمال (متى) فى التمنى ، وقد ذكر ذلك أبو السعود فى تفسيره صدد الحديث عن الآية الكريمة(٥) :

---

(١) راجع مواهب الفتاح ٢/٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٢) سورة القيامة الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ .

(٣) قراءة الجمهور بفتح الميم والفاء ، وقرأ ابن عباس ومعاوية وأبو زيد وأبو عبد الرحمن والحسن وعكرمة والضحاك وابن يعمر وابن أبى عبلة بكسر الفاء ، قال الزجاج : فمن فتح ، فالمعنى أين الفرار ، تقول : جلست مجلساً (بالفتح) يعنى جلوساً ، فإذا قلت : مجلساً (بالكسر) فأنت تريد المكان — راجع زاد المسير فى علم التفسير ٨/٤١٩ ، ٤٢٠) — ط ٣/سنة ١٩٨٤ — نشر المكتب الإسلامى (بيروت — دمشق) .

(٤) تفسير الألوسى ٢٩/١٤٠ — مكتبة التراث بالقاهرة .

(٥) سورة البقرة آية ٢١٤ .

(وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) حيث قال(١): « متى : أى متى يأتى نصر الله : طلباً وتمنيا له واستطالة لمدة الشدة والعناء ».

هذا ، وقد رأى السكاكى فى استعمال (هل ، ولو) كثيراً فى التمنى مدعاة لتحليل دلالة التنديم والتحضيض التى تدل عليهما الأدوات هلا ، وألا ، ولولا ، ولوما ، حيث ذكر أن تمنى مافات يدل على الندم عليه ، وتمنى ماهو آت يدل على التحضيض عليه - أى طلبه بشدة والسؤال عنه ، لكنه بنى هذا التحليل على أساس فرضى من عنده هو أن هلا ، وألا مركبتين من (هل ولا) مع إبدال الهاء همزة فى ألا ، وأن (لولا ، ولوما) مركبتين من (لو ولا) أو (لو وما) مع مراعاة أن (لا وما) فى الحروف المركبة حروف زائدة .

فإذا قيل : هلا أكرمت زيدا ، أو ألا أكرمته أو لو أكرمته ، أو لوما أكرمته ، كان المعنى : ليتك أكرمته ، ويتخذ المتكلم هذا المعنى الأخير - أى معنى التمنى - وسيلة لجعل المخاطب نادماً على ترك الإكرام ، بإظهار أنه كان ينبغى أن يفعل مافاته لما فيه من الحكمة المقتضية للفعل .

هذا مع الفعل الماضى ، أما مع الفعل المضارع فأنت إذا قلت : هلا تقوم ، أو ألا تقوم ، أو لا تقوم لوما ، أولو لا تقوم ، كان المعنى : ليتك تقوم ، ويتخذ المتكلم من معنى التمنى فى العبارات وسيلة إلى حض المخاطب على القيام(٢) .

ويستنتج سعد الدين التفتازانى من وحى تحليل السكاكى لدلالة هذه الكلمات المركبة على التنديم والتحضيض دلالتها أيضا على ضرب من التوبيخ

---

(١) تفسير أبى السعود ١/٢١٥ - دار إحياء التراث العربى (بيروت - لبنان) .
(٢) راجع مفتاح العلوم ص ١٣٣ .

واللوم على ما كان يجب أن يفعله المخاطب قبل أن يطلب المتكلم منه الندم أو التحضيض[١] .

ويرى صاحب البحر المحيط صدد حديثه عن الآية الكريمة (فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض)[٢] أن لو لا يصاحبها معنى التفجع والتأسف فوق الدلالة على التحضيض[٣] .

ونحن نرى فى لفتة كل من السكاكى والسعد وأبى حيان دلالة عميقة على التحليل الفنى الدقيق الذى يستبطن الأدوات اللغوية واستخداماتها ، ونحب أن نطمئن السكاكى إلى أن الافتراض الذى افترضه وكان يخشى أن يكون خطأ قد وجدنا له من الأسس مايساعد على كونه حقيقة ، فقد ذكر الرمانى خلال حديثه عن (لوما) أنها مركبة من (لو) و (ما)[٤] ، كما ذكر ابن جنى أن (لولا) حرف مركب من (لو) و (لا)[٥] ، بل إن سيبويه صرح أثناء حديثه عن تركيب (ربما) و (قلما) من (رب) و (ما) (وقل) و (ما) أن العرب قد فعلت مثل ذلك مع هذه الحروف ، يقول سيبويه[٦] : « ومثل ذلك : هلا . ولولا ، وألا ، ألزموهن (لا) ، وجعلوا كل واحدة مع (لا) بمنزلة حرف واحد ، وأخلصوهن للفعل ، حيث دخل فيهن معنى التحضيض » .

كما أن صاحب حاشية الجمل قد ذكر صدد حديثه عن الآية الكريمة (فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون)[٧] أن التمنى فى (لعل) اتخذ وسيلة للاستهزاء[٨] ، والزمخشرى أيضا ذكر أن التمنى فى (لعل) فى الآية

---

(١) المطول ص ٢٢٥ ، يؤكد ذلك صاحب الفتوحات الإلهية ٣/٢٥ عند تحليل قوله سبحانه (ولولا إذا دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله) سورة الكهف ٣٩ .

(٢) سورة هود آية ١١٦ . (٣) البحر المحيط ٥/٢١٧ .

(٤) معانى الحروف ١٢٤ . وانظر دراستنا له .

(٥) الخصائص ٢/٣٧ . (٦) الكتاب ٣/١١٥ .

(٧) سورة الأنبياء آية ٥٨ . (٨) حاشية الجمل ٣/١٣٣ .

الكريمة (قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون)[١] يفيد التقرير . ذلك أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم[٢] .

(١) سورة الأنبياء آية ٦١ .

(٢) الكشاف ٣/١٥ ، ومن هذا الباب أيضا ما ذكره صاحب الفتوحات الإلهية من أن الترجي في (لعل) قد يقصد به النهي ، كما في قوله سبحانه (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا (انظر ج٣ /٤ ، والآية في سورة الكهف رقم ٦ .

الاستفهـــــام

يمكن تقسيم حديث المتأخرين عن الاستفهام إلى قسمين رئيسيين :

القسم الأول : معنى الاستفهام الحقيقى وأدواته .

والقسم الثانى : المعنى المتولد من المقام لأداة الاستفهام عندما لا يراد بها السؤال ، وعلاقته بالمعنى الحقيقى .

ونبدأ — الآن — بالقسم الأول ، فنقول وبالله التوفيق :

ذكر المتأخرون أن الاستفهام هو : طلب حصول صورة الشيء المستفهم عنه فى ذهن المستفهم (اسم فاعل) بأدوات مخصوصة[١] . ثم رأى المحللون منهم أنه إن[٢] كانت تلك الصورة المطلوبة وقوع النسبة بين الشيئين فى الخارج أو لا وقوعها فيه فحصولها هو التصديق ، وإن كانت تلك الصورة المطلوبة غير ذلك فحصولها هو التصور[٣] .

---

(١) قال الدسوقى : يخرج بقولنا (أدوات مخصوصة) نحـو علمنى ، وفهمنى (حاشية الدسوقى ٢/٢٤٦) .

(٢) راجع المطـول لسعد الدين التفتازانى ٢٢٦ ، وشرح ابن يعقوب للتلخيص ٣/٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٣) ركزنا على غرض المتكلم وطلبه صورة خاصة هى التصديق أو التصور ، لأن كل سؤال عن التصديق فيه طلب تصور على نحو ما ، لـكنه غير مطلوب ، وكل سؤال عن التصور فيه طلب تصديق على نحو ما ، لـكنه غير مطلوب ولنوضح ذلك بالأمثلة :

فى سؤال التصديق الذى يطلب به تعيين الثبوت أو الإنتفاء الحاصل بين الموضوع والمحمول مثل : أقام زيد ، المعنى الظاهر والمطلوب : أقام زيد أم لم يقم ؟ فالنسبة المطلوبة التى يتعلق بها غرض المتكلم هى التصديق .

لـكنه يمكن أيضا تحليل المعنى : أى المحتملين وقع : قيامه ؟ أم عدم قيامه ؟ فيأتى التصور، لـكنه غير مطلوب ولا مقصود من المتكلم ، بدليل أن متعلق الشك والتردد

والألفاظ الموضوعة للاستفهام الحقيقى هى — كما ذكر السكاكى — الهمزة ، أم ، هل ، ما ، من ، أى ، كم ، كيف ، أين ، أنى ، متى ، أيان (بفتح الهمزة و كسرها) ، وزاد السبكى : مهما ، وزاد الكوفيون لعل .

وهذه الكلمات ثلاثة أنواع : هل ، وتستعمل فى طلب التصديق خاصة ، وباقى الأدوات — عدا هل والهمزة — تستعمل فى طلب التصور ، والهمزة — وهى أم الباب — تستعمل فى كل من التصديق والتصور ، وكلها تلزم صدارة الأساليب بحكم أنها تدل على الطلب ، والطلب إنما يكون لشىء

= هو حصول القيام كائناً من زيد أو عدم ذلك منه . أما نفس الاحتمالين (القيام أو عدم القيام) فغير مقصودين لذاتهما ، وإلا لو قصد المتكلم ذلك لنبه عليه فقال : أقام زيد أم قعد ؟ وما من استفهام تصديقى إلا يمكن أن يحال معناه إلى أسلوب (أى) التى هى خاصة بطلب التصور . (يستثنى من ذلك بعض الأساليب الاستفهامية التى تأبى صرورة النقل فى تحليلها هذا الأسلوب مثل قوله سبحانه (ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها ... الآية) سوره الأعراف آية ١٩٥ ، فإنه لا يصح معنى — وإن صح لفظاً — أن تقول : أى الأمرين لهم : الأرجل أم الأيدى ... ؟

ومثل ذلك يقال فى سؤال التصديق وطلبه فى الجملة الإسمية مثل : أزيد قائم ؟ فإن مقصود المتكلم ومتعلق شكه وتردده هو وقوع النسبة أو انتفاء وقوعها ، أو بعبارة أخرى : تحديد تلبس زيد بالقيام من عدم تلبسه ، ولا يتعلق ذلك بشخص آخر . وإلا لنبه عليه المتكلم فقال (مثلا) : أزيد قائم أم عمرو ؟

وفى سؤال التصور الذى يطلب به تعيين المسند أو المسند إليه أو أى نسبة أخرى غير النسبة الخاصة بالإيجاب والسلب بين ركنى الجملة — كالنسبة الكلامية — مثل : أحاضر زيد أم غائب ؟ (فى السؤال عن المسند) : المعنى الظاهر والمطلوب : أن السائل الذى جهل وقوع أى من المسندين لزيد ، فهو يسأل عن أحدهما ، هذا هو التصور المطلوب . لكن تحليل المعنى عقلياً ينبئنا أن السائل أيضاً قد علم أن المسند إليه (زيد) لابد أن يكون منه أحد المسندين (الحضور أو الغياب) وهو يتردد بينهما ، فالنسبة التصديقية التى هى مورد الإيجاب والسلب مطلوبة أيضا ، لكنها مطلوبة تبعاً لا قصداً .

يهمك ويعنيك شأنه ، لا لما وجوده وعدمه سواء ، وكون الشيء مهماً جهة مستدعية لتقديمه في الكلام - كما يقول السكاكي[١].

الاستفهام بالهمزة أم الباب :

يبدأ المتأخرون حديثهم عن أدوات الاستفهام بأم الباب لحديث سيبويه عنها[٢] بأنها حرف الاستفهام الذي لا يزول عنه الاستفهام مطلقاً ، ولأنها يمكن أن تدخل على غيرها من أدوات الاستفهام مثل قول الله عز وجل (أفمن يلقى خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة)[٣]، بل قال بدر الدين بن مالك - فيما نقله عنه السبكي[٤] - إن ألفاظ الاستفهام غير الهمزة نائبة عنها . كما أن الاستفهام بها غير مقيد بوقت مثل متى ، أو بمكان مثل أين، أو بحال مثل كيف .

وطلب التصديق بها أن يسأل المتحدث - كما قدمنا - عن وقوع النسبة بين الشيئين في الخارج أو عدم وقوعها ، ويتلوها في هذه الحالة الجملة الفعلية أو الجملة الاسمية مثل : أنجح علي ؟ - أعلي ناجح ؟

ويجاب هذا الاستفهام بتعيين الثبوت أو الانتفاء ، وقد تأتي (أم) في سياق هذا الاستفهام التصديقي ، لكنها تكون (أم) المنقطعة المفسرة بمعنى بل والهمزة ، ويكون بعدها جملة وليس اسماً مفرداً . ومن أمثلتها من البيان الكريم قوله سبحانه على لسان فرعون : - (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين)[٥] وقوله عز وجل (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون)[٦] وقوله تبارك وتعالى : (أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات)[٧] .

---

(١) مفتاح العلوم ١٣٦ .

(٢) راجع دراستنا لسيبويه ، وكتاب سيبويه ١/٩٩ ، ١٠٠ .

(٣) سورة فصلت آية ٤٠ .

(٤) عروس الأفراح ٢/٢٤٦ .

(٥) سورة الزخرف آيه ٥١، ٥٢ .

(٦) سورة الطور آية ١٥ .

(٧) سورة فاطر آية ٤٠ ، سورة الأحقاف آية ٤ .

أما طالب التصور بالهمزة فهو أن يسأل المتحدث طالباً إدراك المفرد مسنداً أو مسنداً إليه أو غير ذلك من المتعلقات ، ويتلو الهمزة — في هذه الحالة — المسئول عنه ، وغالباً ما تأتى (أم) المتصلة (المعادلة) التي يأتى بعدها المفرد الذى يعادل ما بعد الهمزة ، و(أم) هذه عاطفة للمفردات .

ومن أمثلة التصور :

أحاضر زيد أم غائب ؟ (المسئول عنه المسند) .
أعلى الحاضر أم محمد (المسئول عنه المسند إليه) :
أفقها تدرس أم نحواً (المسئول عنه المفعول به) .
أمازلا تخبرنى أم جاداً (المسئول عنه الحال) .
أظهراً تأتينى أم عصراً (المسئول عنه ظرف الزمان) .
أعند العميد تقابلنى أم فى مكتبى (المسئول عنه ظرف المكان) .
ويجاب هذا الاستفهام بتعيين المفرد المسئول عنه .

ويجب أن يكون معروفاً أن سؤال طلب التصور يستدعى ويستلزم — غالباً — أن يكون أصل التصديق واقعاً ، فنحن إن قلنا : أفقهاً تدرس أم نحواً؟ حيث السؤال هنا عن خصوص المفعول ، يكون الأمر أن السائل لابد أن يعرف أن الدراسة نفسها واقعة إذا كان الفعل ماضياً ، أو ستقع حتماً إذا كان الفعل مضارعاً — كما هنا — على مفعول ما معلوم ، وأن المراد بالأسلوب تحديد هذا المفعول الذى اختص بها : هل هو الفقه أم النحو . وقد شرحنا هذا النقطة بالتفصيل فى مطلع حديثنا عن الإمام عبد القاهر الجرجانى ، فارجع إليها إن شئت .

مقام الاستفهام الحقيقى بالهمزة :

حدد السكاكى مقام الاستفهام الحقيقى بالهمزة بأنه مقام المتردد الشاك ، وهو تحديد دقيق يتسع مع كلا حالتى التصديق والتصور ، وتؤكده النصوص العربية الفصيحة .

يقول الله سبحانه فى السؤال عن التصديق حاكياً تردد السحرة فى اعتقادهم بمجازاة فرعون لهم بعد منازلتهم موسى[1]: (أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين؟ قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين) . (الشك هنا فى النسبة)

كما يقول أيضا فى السؤال : عن التصديق حاكياً تردد إخوة يوسف وارتيابهم فى شخصيته ثبوتاً أو انتفاء[2] :(أإنك لأنت يوسف؟ قال أنا يوسف وهذا أخى) . (الشك فى النسبة أيضا) .

أما فى السؤال عن التصور ، فإليك الأمثلة التى تحكى التردد والشك فى تعيين أحد الشيئين عن طريق ذكر المعادل بعد (أم) المتصلة :

يقول الله سبحانه فى السؤال عن المسند إليه[3] : (أأنتم أشد خلقاً أم السماء ؟) (الشك فى المسند إليه)

ويقول الله سبحانه فى السؤال عن المسند : (هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر)[4]. (الشك فى المسند)

ويقول جرير فى السؤال عن المفعول :

أثعلبة الفوارس أم رياحا   عدلت بهم طهية والخشابا[5]

(الشك فى المفعول) وهكذا الباقى .

---

(١) سورة الشعراء آية ٤١، ٤٢ .   (٢) سورة يوسف آية ٩٠ .

(٣) سورة النازعات آية ٢٧ .   (٤) سورة النمل آية ٤٠ .

(٥) ثعلبة : هم ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . ورياح من يربوع بن حنظلة . وطهية ابن مالك بن حنظلة . الخشاب : قبائل من أبناء مالك ابن حنظلة . وتقدير البيت : أظلمت ثعلبة فعدلت بهم طهية ؟ . يهجو جرير الفرزدق فاخراً عليه برهطه الأدنى إليه من تميم ، لأن ثعلبة ورياحاً من بنى يربوع ، وجرير ابن كليب بن يربوع ، وأما طهية والخشاب فمن بنى مالك بن حنظلة ، والفرزدق من بنى دارم بن مالك بن حنظلة ، فهم أدنى إلى الفرزدق .

الفرق فى الاستفهام بالهمزة بين طلب التصديق وطلب التصور :

يجمل الدسوقى حديث الفرق فى الاستفهام بالهمزة بين طلبى التصديق والتصور فيقول[1] : « اعلم أن الفرق بين الاستفهام بالهمزة عن التصور والاستفهام بها عن التصديق من وجهين :

لفظى ، وهو أن ما صلح أن يؤتى بعده بأم المنقطعة دون المتصلة استفهام عن التصديق ، وما صلح أن يؤتى بعده بأم المتصلة فهو استفهام عن التصور .

ومعنوى ، وهو أن الاستفهام عن التصديق يكون من نسبة تردد الذهن فيها بين ثبوتها ونفيها ، والاستفهام عن التصور يكون عند التردد فى تعيين أحد الشيئين » .

الاستغناء عن (أم) :

يشير المتأخرون إلى أنه قد يستغنى عن (أم) فى كلا حالتى التصديق والتصور اعتماداً على القرائن فى فهم المعنى ، أما عن التصديق فالأمر ظاهر لأن (أم) منقطعة فيه ، وهى بمعنى (بل) أو (بل والهمزة) على اختلافهم فى ذلك [2]، وهى تشكل جملة مستقلة عن سابقتها فى المعنى ، بل أكثر من ذلك أن الجملة بعد (أم) تنقل اهتمام القارىء عن الجملة قبلها فيصير كأنه مستغنى عنه ، فإذا لم يقصد الاستغناء عن الجملة الاستفهامية قبل أم فلا داعى لأن تأتى أم ، ولا الجملة بعدها .

أما عن التصور فلأن مقام الشك فيما يلى الهمزة ، ومجىء أم المتصلة وما

---

(١) حاشية الدسوقى ج ٢٤٨/٢ .

(٢) الرأى الأول هو رأى الكوفيين والزجاج ، ويقول الرضى به لكن إن وقع بعدها استفهام ، وهذا ما يشير إليه سيبويه أيضا ، والرأى الثانى رأى البصريين ، ويجعلون هذه الهمزة مفيدة للاستفهام الانكارى غالباً ، وإذا لم يستقم المعنى جعلوها للاستفهام الحقيقى كما فى قول بعض العرب : إنها لإبل أم شاء .

بعدها إنما هو لغرض الاطناب فى الايضاح والبيان ، مثل أن يكون الموقف موقف جدل حول فكرة أو برهان على قضية ، أو غير ذلك من المواقف التى تحتاج إلى الدلالة على الإيضاح والبيان ، فإذا لم يكن ثم ذلك فلاداعى لمجىء أم ولا معاد لها بعدها .

ونحن بعد ذلك نستطيع أن نفهم عبارة القزوينى التى ذكرها للإشارة إلى الاستغناء عن (أم) حيث قال [1] : « ولهذا لم يقبح أزيد قائم ؟ ، وأعمراً عرفت ؟ » لأنه إذا كانت الهمزة للتصور فى المثالين ، ولابد أن تكون كذلك ، فالشك فى المسند إليه فى المثال الأول ، وفى المفعول فى المثال الثانى ، ولامجال للإيضاح والبيان لأن محدثنا ليس منكراً ولا مجادلا ولايحتاج منا إلى برهان .

أما إنه لابد أن تكون الهمزة للتصور فإنه لامجال لحل أى من المثالين على طلب التصديق . أما عن المثـــال الأول (أزيد قائم ؟) فإن الإمامين عبد القاهر والقزوينى يريان أن التقديم فيه قد يفيد) الاختصاص [2] . ومن ثم فإن أمضيناه على أن المطلوب بالسؤال هو التصديق فالمثال قبيح ؛ ذلك أن السؤال عن النسبة (التصديق) يجعل الشك فيها ، والاختصاص الذى أفاده تقديم المرفوع - على رأيهما هذا - يؤكد حصـــولها ، فيتدافعان فيكون القبح .

أو نقول - كما قال ابن يعقوب [3] - إن السؤال عن التصديق يكون من قبيل تحصيل الحاصل ، أى تحصيل النسبة الحاصلة بالتقديم ، وهى التصديق .

---

(١) الإيضاح جـ ٢/٢٥١ .

(٢) هناك احتمال آخر هو أن يكون التقديم - مثلا - مفيداً للاهتمام والعناية بالمتقدم ، وأن ذاك لايقبح السؤال إذا طلب به التصديق .

(٣) انظر كلامه فى تحليل المثالين ٢/٢٥١ ، ٢٥٢ .

وأما عن المثال الثانى (أعمراً عرفت ؟) فإن تقديم المفعول يستوجب حصول التصديق بنفس الفعل - كما أشرنا من قبل - ومن ثم السؤال أيضا من قبيل تحصيل الحاصل .

السؤال بالهمزة الذى يحتمل طلب التصديق وطلب التصور :

يجدر بنا قبل أن نترك حديث الاستفهام بالهمزة أن نقول : إنه إذا جاء الفعل بعد الهمزة فإن السؤال يحتمل طلب التصديق أو طلب التصور ، ويتعين أحد الأمرين بالقرائن المعنوية أو اللفظية .

أما عن القرائن المعنوية فمثل القرينة الحالية فى قولنا : أكتبت هذا الكتاب أم اشتريته ؟ فإنه سؤال عن تصور المسند وتعيينه ، والقرينة العقلية فى مثل قولنا : أفرغت من الكتاب الذى كنت تكتبه ؟ فإنه سؤال التصديق بالفراغ من الكتاب ، ذلك أن القول (الذى كنت تكتبه) يفيد أن السائل عالم بأن المخاطب يكتب كتاباً .

وأما عن القرائن اللفظية فإنه كثيراً ما تستخدم (أم) فى هذه التفرقة حيث إذا كانت متصلة يليها معادل مابعد الهمزة مثل : أضربت زيدا أم أهنته ؟ ويكون الاستفهام فى هذه الحالة للتصور ، وإذا كانت منقطعة لا يليها هذا المعادل ، فضلا عن أن المعنى - كما ذكرنا من قبل - يكون على إثبات ما بعدها وإبطال ماقبلها ، ولهذا يكون قولنا : أضربت زيداً أم لا لطلب التصديق .

وكثيرا مايستثمر المفسرون للقرآن الكريم هذه النقطة ويثرون المعانى القرآنية ، يقول أبو حيان فى تفسير الآية الكريمة (أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار)[1] : « (أم) إن كان اتخذناهم استفهاماً ، إما مصرحا بهمزته كقراءة من قرأ كذلك ، أو مؤولا بالاستفهام ، وحذفت الهمزة للدلالة - فالظاهر أنها متصلة ، لتقـــدم الهمزة ، والمعنى : أى الفعلين فعلنا بهم :

---

(١) راجع البحر المحيط ٤٠٧/٨ ، والآية الكريمة من سورة ص ٦٣ .

الاستسخار منهم أم ازدراؤهم وتحقيرهم وأن أبصارنا كانت تعلو عنهم . . .
ويكون استفهاماً على الانكار على أنفسهم للاستسخار والزيغ جميعاً .
وإن كان (اتخذناهم) ليس استفهاماً فأم منقطعة . ويجوز أن تكون منقطعة أيضاً مع تقدم الاستفهام ، يكون كقولك : أزيد عندك أم عندك عمرو : استفهمت عن زيد ثم أضربت عن ذلك واستفهمت عن عمرو ، فالتقدير : بل أزاغت عنهم الأبصار » .

ويقول الزمخشري صدد الحديث عن قوله سبحانه : (قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى)(١): « يحتمل فيمن قرأ (تقولون) بالتاء أن تكون (أم) معادلة للهمزة في (أتحاجوننا) بمعنى : أي الأمرين تأتون : المحاجة في حكم الله أم إدعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء ، والمراد بالاستفهام عنهما إنكارهما معاً .
« وأن تكون منقطعة بمعنى بل أتقولون ، والهمزة للانكار أيضا .
وفيمن قرأ بالياء لا تكون إلا منقطعة » .

الحديث عن (أم) :

تتبع (أم) الهمزة في طريقها الاستفهامي ، وكثيراً ما ترافقها ، فيكونان لطلب التصديق ولطلب التصور ، لكنها في طلب التصديق تكون منقطعة ، ويكون بعدها جملة تفيد إبطال الجملة قبلها ، وفي طلب التصور تكون متصلة ، ويكون بعدها مفردا أو جملة تعادل الجملة قبلها ، غير أنها إذا انفردت عن الهمزة تكون منقطعة فحسب .

---

(١) راجع تفسير الكشاف ١ / ٩٨ ، والآيتان الكريمتان من سورة البقرة آية ١٣٩ ، ١٤٠ .

وقد تستبدل (أم) الهمزة بأداة استفهامية أخرى لأنها تفيد الاستفهام كثيرا فى جو الاستفهام ، ولذلك رأى بعض العلماء أنها لاتفيد الاستفهام منفردة ، ولم يعدوها فى أدوات الاستفهام(١) .

(أم) المتصلة :

يطلب بها التصور ، ولابد من وقوع الاستفهام بالهمزة قبلها لفظاومعنى مثل قوله سبحانه (قل أأنتم أعلم أم الله)(٢) ،وقوله عز وجل (قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين)(٣) وقوله عز من قائل (ليبلونى أأشكر أم أكفر)(٤) أو لفظا فقط مثل قوله سبحانه : (سـواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم)(٥) .

(أم) المنقطعة :

يطلب بها التصديق ، وتكون فى جو وسياق الأسلوب الاستفهامى ، سواء كان هذا الاستفهام أو بعدها مثل قوله عز وجل (مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين)(٦) ، وقوله سبحانة (ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها . . .)(٧) وقوله عز من (قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور)(٨) .

كما أنها تأتى فى الأسلوب الخبرى كثيرا – وإن أنكر ذلك بعض العلماء(٩)

---

(١) راجع هذه الآراء فى كتاب أستاذنا محمد عبد الخالق عضيمة دراسات فى القرآن الكريم ١/٢٩٨ ، ٣١٤ .

(٢) سورة البقرة آية ١٤٠ .

(٣) سورة الأنبياء آية ٥٥ .

(٤) سورة النمل آية ٤٠ .

(٥) سورة المنافقون آية ٦ .

(٦) سورة النمل آية ٢٠ .

(٧) سورة الأعراف آية ١٩٥ .

(٨) سورة الرعد آية ١٦ .

(٩) انظر نتائج الفكر للسهيلى ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ، وبدائع الفوائد لابن القيم ١/٢٠٦ – ٢٠٩ .

مثل قوله سبحانه (أم تريدون أن تسألوا رسولكم)(١) وقوله عز وجل: (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت)(٢) وقوله تبارك وتعالى (أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً)(٣).

وتكون أم المنقطعة بمعنى بل والهمزة عند جمهور البصريين، والاستفهام معها إنكارى غالبا، وبمعنى بل عند الكوفيين والزجاج، أما سيبويه والرضى فيقدرانها ببل وحدها إن وقع بعدها استفهام، وأبو حيان يقدرها أيضا ببل وحدها إن وقع بعدها هل خاصة. وفى كل حال فهى تفيد الإضراب الانتقالى الذى يجعل اهتمام المتكلم وغرضه منصبا على ما بعدها.

(أم) بين الاتصال والانقطاع:

قد يترجح جانب الاتصال أو الانقطاع بقرينة لفظية أو معنوية، فيترجح جانب الاتصال فى القرينة اللفظيه بمثل وقوع همزتى التسوية والتعيين قبلها، ووقوع المفرد بعدها معادلا لما بعد الهمزة، ومثل ذلك اشتراك الجملتين قبلها وبعدها فى الفاعل مثل أقام زيد أم انتبه، أقمت أم قعدت.

ويترجح جانب الانقطاع فى القرينة اللفظية بمثل وقوع بعض الأدوات الاستفهامية بعد أم، وبمثل اختلاف الجملتين فى الاسمية والفعلية مثل أقام زيد أم عمرو قاعد؟ وكذلك مع اختلاف المعنى فى الفعلين مثل أقام زيد أم تكلم؟ ومع عدم اشتراك الجملتين فى المسند إليه مثل أزيد قائم أم عمرو قاعد؟.

وقد ذكر الرضى أن الجملتين الفعليتين المشتركتين فى الفعل المتساويتين فى النظم نحو: أقام زيد أم قام عمرو؟ والجملتين الاسميتين المشتركتين فى جزء

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٨.   (٢) سورة البقرة آية ١٣٣.

(٣) سورة النساء ٥٣.

نحو : أزيد قائم أم هو قاعد ، أزيد أخى أم عمرو هو . الأولى فيهما الانقطاع ، لأنك كنت قادرا على الاكتفاء بمفرد منها لو قصدت الاتصال .

وقد يكون الترجيح بقرينة معنوية مثل قوله سبحانه (ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها ...) فإن المعنى يأبى أن تكون أم متصلة ، والضرورة تقتضى أن الأصنام قد جمعت هذه الجوارح (الأرجل والأيدى والأعين والآذان) وليس واحدا منها ، ليتم بهذا الجمع الإنكار على عابديها ، والتعجب من شأنهم فى عبادتها حيث إنها فقدت منفعة هذه الأعضاء فكيف بها تعبد لجلب منفعة لغيرها .

الاستفهام بأداة التصديق (هل) :

تقع (هل) فى الاستفهام على وجهين :

بسيطة ، وهى التى يستفهم بها عن وجود الشىء فى ذاته أو عدم وجوده ، بمعنى هل هو متحقق أو حاصل فى الخارج أولا ، كقولنا : هل العنقاء موجودة ؟ هل العالم الذى لا يخطىء موجود ؟ . ومعنى كونها بسيطة أن المستفهم عنه بها هو شىء واحد هو الوجود أو التحقق أو الحدوث فى الخارج .

ومركبة ، وهى التى يستفهم بها عن وجود شىء لشىء أو عدم وجوده له ، بمعنى هل هو ثابت له ومتحقق فى الخارج أم لا ؟ كقولنا : هل الشمس طالعة ؟ هل العالم حادث ؟ فليس الغرض الاستفهام عن وجود الشمس أو وجود العالم فى ذاتيهما ، وإنما الغرض الاستفهام عن ثبوت شىء لهما ، هو الطلوع فى المثال الأول ، والحدوث فى المثال الثانى . ومعنى كونها مركبة أن المستفهم عنه بها شيئان هما : تحقق وجود المسند اللائق بالمسند إليه ، ثم ثبوت هذا المسند إليه فى الخارج .

ويجاب على أى من السؤالين بنعم أو لا .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٩٥ .

استثمار البلاغيين لخصائص (هل) اللغوية :

١ - لما كانت (هل) تجعل زمن المضارع بعدها مستقبلا رأى البلاغيون استعمال الهمزة مع كل مايفيد زمن الحال .

٢ - لما كانت (هل) تستعمل فى طلب التصديق خاصة رأى البلاغيون قبح استعمال الأساليب التى فيها مظنة العلم بحصول أصل النسبة الخارجية للكلام .

٣ - لما كانت (هل) تدخل غالبا على الأفعال دون الأسماء والحروف رأى البلاغيون أن العدول عن هذا الأصل لا يكون إلا من البلغاء ، ولنكتة بلاغية طريفة وسنفصل هذا الإجمال فيما يلى :

أولا : الخصيصة الأولى (هل تجعل المضارع بعدها للاستقبال):

ذكر البلاغيون أنه حيث لا يكون المضارع بعد (هل) إلا للاستقبال بحكم الوضع(١) لايصح أن يقع بعدها مايفيد زمن الحال مثل قولنا : هـــل تضرب زيدا وهو أخوك ؟ إذ الجملة الحالية (وهو أخوك) تعتبر قيداً فى عاملها وهى تفيد أن مضمونها حاصل فى الحال ، فكذلك العامل أيضا (الفعل بعدها) .

والصحيح فى هذا المجال - أعنى مجال زمن الحال - أن تأتى بالهمزة ، ولذلك قال الله عز وجل (أتقولون على الله مالا تعلمون ؟)(٢) لأن القرائن تدل على أن المراد إنكار القول الحالى لا الاستقبالى ، ولا الماضى . ومثل

---

(١) يقول الدسوقى معلقا على هذه النقطة ٢ / ٢٦١ « أى لا بالقرائن بمعنى أن الواضع وضع هل لتخصيص المضارع بالاستقبال إذا دخلت عليه بعد أن كان محتملا له وللحال » .

(٢) سورة يونس آية ٦٨ .

ذلك أيضا قولنا : أتؤذى أباك ؟ أتشتم الأمير ـ حال الإذاية والشتم » يقول ابن يعقوب : صدد تحليل المثال (أتضرب زيدا وهو أخوك ؟)(١) « استفهام بالهمزة يصح فيه إرادة الحال ومعناها الإنكار بمعنى أنه لا ينبغى أن يقع منك الضرب ، فالإنكار إنما يتسلط هنا على الانبغاء ، ويحتمل أن يتسلط على مالم يقع من الضرب لأن الحال أجزاء ، مضى بعضها وبقى البعض ثم يعلل تسليطه الإنكار على الإنبغاء دون إنكار الفعل الواقع فى الحال وهو (الضرب) فيقول : « وإنما قلنا ذلك لأن الإنكار للواقع بمعنى نفيه لا يتأتى »(٢) .

ثانياً : الخصيصة الثانية (استعمال (هل) فى طلب التصديق خاصة) .

درس البلاغيون خلال حديثهم عن هذه الخصيصة استعمالات (هل) بين الجواز والمنع والقبح فذكروا أنه تستعمل (هل) فى طلب التصديق خاصة، بمعنى أنها يراد بها طلب وقوع النسبة فى الخارج أو لا وقوعها فيه مثل هل قام زيد ؟ هل عمرو قاعد ؟ .

ولهذا يمتنع وقوع (أم) المتصلة بعدها ، بينما يجوز وقوع (أم) المنقطعة ؛ لأن الأولى تأتى فى طلب التصور ، والثانية تأتى فى طلب التصديق . يقول السكاكى :(٣) « امتنع أن يقال : هل عندك عمرو أم بشر ؟ ـ باتصال أم ـ دون أم عندك بشر ؟ ـ بانقطاعها » . ويقول القزوينى أيضا(٤): « امتنع : هل زيد قام أو عمرو ؟ » .

ويشرح الدسوقى هذا المنع فيقول (٥): « المراد أن الجملة الواقعة فيها (هل) لا تكون إلا الطلب التصديق ، والجملة الواقعة فيها أم ـ أى المتصلة ـ

(١) شرح ابن يعقوب ٢/٢٦٢ ، ٢٦٣ . (٢) الموضع السابق .

(٣) مفتاح العلوم ١٣٣ .

(٤) الايضاح للقزوينى (ضمن شروح التلخيص) ج ٢/٢٥٥ .

(٥) حاشية الدسوقى (ضمن شروح التلخيص) ج ٢/٢٥٦ .

لا تكون إلا لطلب التعيين ، فالجمع بينهما يؤدى إلى التناقض ، على أن طلب التعيين بأن يستلزم كون التصديق بأصل الحكم حاصلا إذ قد قلنا إنها لطلب تعيين أحد الأمرين مع العلم بثبوت أصل الحكم ، وهل تقتضى عدم حصوله ، وحينئذ فلا يمكن الجمع بينهما ، فلا يتوجه السؤال من أصله » .

كما قبح البلاغيون استعمال الأساليب التى فيها مظنة العلم بحصول أصل النسبة (أى حصول التصديق) فقال السكاكى [٤]: « وقبح هل رجل عرف ؟ وهل زيداً عرفت ؟ دون : هل زيداً عرفته ؟ ولم يقبح : أرجل عرف ؟ وأزيداً عرفت ؟ لما سبق أن التقديم يستدعى حصول التصديق بنفس الفعل ، فبينه وبين هل تدافع » .

ونحن إذا نظرنا إلى أصل القاعدة التى وضعوها فى تقبيح الأساليب التى فيها مظنة للعلم بحصول أصل النسبة نجد أن مشكلتها الأساسية هى دخول (هل) على الأسماء دون الأفعال التى تصاحبها فى سياق الجملة بدليل أنهم أجازوا ـ بلا قبح ـ هل زيد قائم ؟ ، ومن هنـــا فإننا نضيف إلى ما ذكروه قبح كل الأساليب التى يتقدم فيها المعمول على العامل (الفعل) سواء كان ذلك المعمول مفعولا نحو ما ذكره : هل زيداً ضربت ؟ أو غير مفعول مثل : هل فى الدار جلست ؟ هل راكباً جئت ؟ هل عندك قام عمرو ؟ ، والعلة فى ذلك إن تقديم المعمول على الفعل يقتضى غالباً ـ كما أشرنا عند شرح استفهام التصور فى الهمزة ـ حصول التصديق ، أى حصول العلم للمتكلم بنفس وقوع الفعل ، بينما هل يطلب بها سؤال التصديق ، وبينهما تدافع ـ كما يقول السكاكى .

وإنما كانت هذه الأساليب قبيحة وليست ممنوعة كسابقتها ، لأن التقديم ـ غالباً ـ ما يكون فى الكلام لإفادة الاختصاص .

وسادرس ـ الآن ـ شيئا من نصوصهم حول هذه المسألة .

---

(١) مفتاح العلوم ١٣٣ .

أولا : من كتاب دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى :

[لاحظ أن النصوص ستكون من التصور (المفرود ، وسيكون الكلام من غير استفهام ، أو يكون الاستفهام بالهمزة ، لأن (هل) لا تصح فى السؤال من التصور ، وإنما أتينا بها هنا مع أن الحديث عن (هل) لإثبات أن التقديم يفيد التخصيص ، وهذا موضع شاهدنا حيث عن طريق ذلك نثبت قبح وجود (هل) مع التقديم] .

يقول الإمام عبدالقاهر فى الحديث عن تقديم الاسم المرفوع (الفاعل فى المعنى) على فعله (١): « إن قدمت الاسم فقلت : أرجل جاءك ؟ فأنت تسأله عن جنس من جاءه : أرجل هو أم امرأة ، ويكون هذا منك إذا كنت علمت أنه قد أتاه آت ، ولكنك لم تعلم جنس ذلك الآتى .

« فسبيلك فى ذلك سبيلك إذا أردت أن تعرف عين الآتى فقلت : أزيد جاءك أم عمرو ؟ لأن تقديم الاسم يكون إذا كان السؤال عن الفاعل ، والسؤال عن الفاعل يكون إما عن عينه ، أو عن جنسه ، ولا ثالث » .

والملاحظ أن النص هنا يشير إلى إفادة التقديم للاختصاص ، سواء كان الاسم المتقدم نكرة أو معرفة ، كما أنه يشير أيضا إلى تقديم الاسم النكرة يفيد دائما الاختصاص فى الجنس ، وهذا هو الاختصاص الأصلى للنكرة ، بينما تقديم الاسم المعرفة يفيد ـ غالبا (٢) ـ الاختصاص فى العين ، (أى ذات المعرفة هى فلان أم فلان) .

ولتقديم الاسم النكرة نوعان آخران من الاختصاص هما : اختصاص

---

(١) دلائل الإعجاز ١٠٩ .

(٢) وإنما قلنا فى جانب النكرة (دائما) وفى جانب المعرفة (غالبا) لأن إفادة التخصيص فى جانب النكرة هو الذى سوغ الابتداء بها بخلاف المعرفة .

العدد ، حيث النكرة المفردة تفيد الواحد لا الاثنين ولا الثلاثة ولا غيرهما من الأعداد، واختصاص النوع عن طريق وصف هذه النكرة ، والقرائن هي التي تحدد الاختصاص المراد الذي يقصده المتكلم .

وعبدالقاهر يشير إلى ذلك حين يقول(١): « إنا إذا قلنا في قولهم: أرجل أتاك أم امرأة : إن السؤال عن الجنس لم نرد بذلك أنه بمنزلة أن يقال: الرجل أم المرأة أتاك ، ولكنا نعنى أن المعنى على أنك سألت عن الآتى : أهو من جنس الرجال أم من جنس النساء ، فالنكرة إذن على أصلها: من كونها لواحد من الجنس ، إلا أن القصد منك لم يقع إلى كونه واحداً ، وإنما وقع إلى كونه من جنس الرجال .

« وعكس هذا : إنك إذا قلت : أرجل أتاك أم رجلان ؟ كان القصد منك إلى كونه واحداً ، دون كونه رجلا ، فاعرف ذلك أصلا ، وهو: أنه قد يكون في اللفظ دليل على أمرين ، ثم يقع القصد إلى أحدهما دون الآخر ، فيصير ذلك الآخر بأن لم يدخل في القصد ، كأنه لم يدخل في دلالة اللفظ ...... وكذلك إن قلت : رجل طويل جاءنى ، لم يستقر حتى يكون السامع قد ظن أنه أتاك قصير ، أو نزلته منزلة من ظن ذلك » .

والتقديم عند الإمام عبدالقاهر مرهون بفائدة الاختصاص التى يقصدها المتكلم في جانب النكرة دائما ، وفي جانب المعرفة غالباً ، فإن لم يقصدها لم يكن للتقديم فائدة ، ولذلك نراه يقول(٢): « إذا قلت : رجل جاءنى: لم يصلح حتى تريد أن تعلمه أن الذى جاءك رجل لا امرأة ، ويكون كلامك مع من قد عرف أن قد أتاك آت ، فإن لم ترد ذلك كان الواجب أن تقول : جاءنى رجل فتقدم الفعل » .

---

(١) دلائل الإعجاز ١١٠ ، ١١١ .

(٢) المرجع السابق ١٠٩ .

أما التقديم فى الاسم غير المرفوع فإن الإمام عبدالقاهر يشترط فى إفادته التخصيص ـ دون شيء آخر ـ أن يسبق الجملة نفى ، فإن لم يسبقها نفى احتمل التقديم أن يكون لإفادة الاختصاص ، وأن يكون لغير ذلك ، مثل التقوى (كما سيأتى فى نص الإمام) .

يقول الإمام عبدالقاهر(١) : « إذا قلت : ماضربت زيداً، فقدمت الفعل، كان المعنى أنك قد نفيت أن يكون قد وقع ضرب منك على زيد ، ولم تعرض فى أمر غيره لنفى ولا إثبات وتركته مبهماً محتملا . وإذا قلت: مازيداً ضربت ، فقدمت المفعول : كان المعنى على أن ضرباً وقع منك على إنسان ، وظن أن ذلك الإنسان زيد ، فنفيت أن يكون إياه ، فلك أن تقول فى الوجه الأول : ماضربت زيداً ولا أحداً من الناس ، وليس لك فى الوجه الثانى . فلو قلت : مازيداً ضربت ولا أحداً من الناس كان فاسداً .

« ومما ينبغى أن تعلمه : أنه يصح لك أن تقول : ما ضربت زيداً ولكنى أكرمته ، فتعقب الفعل المنفى بإثبات فعل هو ضده ، ولا يصح أن تقول : ما زيداً ضربت ولكنى أكرمته ، وذاك أنك لم ترد أن تقول : لم يكن الفعل هذا ولكن ذاك ، ولكنك أردت أنه لم يكن المفعول هذا ولكن ذاك ، فالواجب إذن أن تقول : مازيداً ضربت ولكن عمراً .

« وحكم الجار مع المجرور فى جميع ماذكرنا حكم المنصوب ، فإذا قلت : ما أمرتك بهذا : كان المعنى على نفى أن تكون قد أمرته بذلك ، ولم يجب أن تكون قد أمرته بشيء آخر ، وإذا قلت ما بهذا أمرتك : كنت قد أمرته بشيء غيره .

هذا ، ونود أن نؤكد — الآن — ما سبق من رأى الإمام فى حق الاسم المرفوع من جواز إرادة الاختصاص وإرادة غيره فنقول قوله (٢): «واعلم

---

(١) المرجع السابق ٩٨ .

(٢) المرجع السابق ٩٩ .

أن هذا الذى بان لك فى الاستفهام أو النفى من المعنى فى تقديم قائم مثله فى الخبر المثبت ، فإذا عمدت إلى الذى أردت أن تحدث عنه بفعل فقدمت ذكره ثم بنيت الفعل عليه فقلت : زيد قد فعل ، وأنا فعلت ، وأنت فعلت ، اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل ، إلا أن المعنى فى هـــذا القصد ينقسم قسمين :

أحدهما : جلى لا يشكل ، وهو أن يكون الفعل فعلا قد أردت أن تنص فيه على واحد ، فتجعله له ، وتزعم أنه فاعله دون واحد آخر ، أو دون كل أحد ، ومثال ذلك أن تقول : أنا كتبت فى معنى فلان ، وأنا شفعت فى بابه؛ تريد أن تدعى الانفراد بذلك والاستبداد به ، وتزيل الاشتباه فيه ، وترد على من زعم أن ذلك كان من غيرك ، أو أن غيرك قد كتب فيه كما كتبت . ومن البين فى ذلك قولهم فى المثل : (أتعلمنى بضب أنا حرشته)(١).

والقسم الثانى : أن لا يكون القصد إلى الفاعل على هذا المعنى ، ولكن على أنك أردت أن تحقق على السامع أنه قد فعل ، وتمنعه من الشك ، فأنت لذلك تبدأ بذكره وتوقعه أولا ومن قبل أن تذكر الفعل فى نفسه ، ولكى تباعده بذلك من الشبهة ، وتمنعه من الإنكار ، أو من أن يظن بك الغلط أو التزيد ، ومثاله قولك : هو يعطى الجزيل ، وهو يحب الثناء ، لا تريد أن تزعم أنه ليس ههنا من يعطى الجزيل ويحب الثناء غيره ، ولا أن تعرض بإنسان وتحطه عنه ، وتجعله لا يعطى كما يعطى ، ولا يرغب كما يرغب ، ولكنك تريد أن تحقق على السامع أن إعطاء الجزيل وحب الثناء دأبه ، وأن تمكن ذلك فى نفسه » .

---

(١) المثل يقوله العالم بالشىء لمن يريد تعليمه إياه ، وحرش الضب واحترشه: صاده بالحيلة المعروفة ، وهى أن يحرك يده على باب جحره ليظنه حية فيخرج ذنبه ليضربها فيأخذه .

ثانيا : من كتاب مفتاح العلوم للإمام السكاكى :

يقول الإمام السكاكى :[١] وأما اعتبار التقديم والتأخير مع الفعل فعلى ثلاثة أنواع :

أحدها : أن يقع بين الفعل وبين ماهو فاعل له معنى كنحو أنا عرفت ، وأنت عرفت ، وهو عرف ـ دون زيد عرف .

وثانيها : أن يقع بينه وبين غـــير ذلك كنحو زيداً عرفت ، ودرهماً أعطيت ، وعمراً منطلقاً علمت .

وثالثها : أن يقع بين ما يتصل به كنحو عرف زيد عمراً ، وعرف عمراً زيد ، وعلمت زيدا منطلقاً ، وعلمت منطلقاً زيدا ، وكسوت عمرا جبة وجبة عمرا .

ولـكل منها حالة تقتضيه .

فالحالة المقتضية للنوع الأول هى أن يكون هناك وجود فعل ، وعالم به ، لـكنه مخطىء فى فاعله أو تفصيله ، وأنت تقصد أن ترده إلى الصواب ـ كما تقول : أنا سعيت فى حاجتك ، أنا كفيت مهمك ، تريد دعوى الانفراد بذلك ، وتقريرا للاستبداد ، وترد بذلك على من زعم أن ذلك كان من غيرك ، أو أن غيرك فعل فيه مافعلت .

وأما الحالة المقتضية للنوع الثانى [٢] : أن يكون هناك من اعتقد أنك عرفت إنساناً ، وأصاب ، لـكن أخطأ فاعتقد ذلك الإنسان غير زيد ، وأنت تقصد رده إلى الصواب ، فتقول : زيدا عرفت .

والحالة المقتضية للنوع الثالث [٣] هى : كون العناية بما يقدم أتم ، وإيراده فى الذكر أهم » .

(١) مفتاح العلوم ص ١٠٠ . (٢) مفتاح العلوم ص ١٠١ .
(٣) مفتاح العلوم ص ١٠٢

ونحن نعقب على هذا النص فنقول : إن الحالتين الأولى والثانية تفيدان التخصيص ، أما الحالة الثالثة فهي تفيد عند السكاكي أن التقديم للاهتمام ، وشدة العناية بالاسم المتقدم .

غير أننا نجد السكاكي — في موضع آخر — يشترط في إفادة الحالة الأولى التخصيص ثلاثة شروط هي :

١ — أن يجوز تقدير كون المسند إليه — في الأصل — مؤخرا على أنه فاعل معنى ، مثل قولك : أنا قمت ، فإنه يجوز أن يكون أصله : قمت أنا ، فيكون (أنا) فاعلا في المعنى وإن كان في اللفظ تأكيدا للفاعل .

٢ — أن يقدر هذا الذي جوزه (الشرط الأول) حاصلا ، بمعنى أن يقدر كونه في الأصل مؤخرا على أنه فاعل معنى .

٣ — ألا يمنع من إفادة التخصيص مانع .

وعند تطبيق هذه الشروط وشرحها من قبله نجد أنها لا تنطبق إلا على المسند إليه النكرة مثل : رجل جاءني ، ورجل عرف ، حيث لا مسوغ للابتداء بالنكرة إلا إفادة التخصيص .

أما المسند إليه المعرفة مثل زيد عرف ، وزيد قام ، فإن الوجه الواضح فيه أن يعرب مبتدأ ، والجملة بعده خبر ، ولهذا يفيد التقديم فيـــه التقوية لا الاختصاص ، ومثل ذلك المسند إليه الضمير مثل أنا عرفت ، وأنت عرفت وهو عرف ، التقديم فيـــه يفيد التقوية لا الاختصاص ، لأن الضمير إذا قدرنا تأخيره لا ينفصل إذا كان ضمير فاعل — على حد تحديد السكاكي — إلا في حالتين : إذا جرى على غير ما هو له في موضع الالباس ، أي عند خوف اللبس ، وهذا موضع ذكره الكوفيون مثل زيد عمرو ضاربه هو ، وإذا تقدم عليه إلا ، أي يكون الضمير محصورا ، سواء بإلا مثل : ماضرب إلا هو أو إنما مثل قول الشاعر :

أنا الزائد الحامى الذمار وإنما   يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى(١)

ومع ذلك يصر السكاكى على أن يلوى هذين الموضعين ويضمهما إلى موضع المسند إليه النكرة المفيد للاختصاص فيذكر أن هذين الموضعين لها اعتباران : اعتبار يفيدان به تقوية الحكم عن طريق تكرير الإسناد ، واعتبار يفيدان به التخصيص ، ولنقرأ - الآن - عبارته(٢) : « أنا عرفت ، وأنت عرفت ، وزيد عرف : الفعل فيه يستند إلى مابعده من الضمير ابتداء ، ثم بوساطة عود ذلك الضمير إلى ما قبله يستند إليه فى الدرجة الثانية ، وإذا سلكت هذه الطريقة سلكت باعتبارين مختلفين :

أحدهما : أن يجرى الكلام على الظاهر وهو أن أنا مبتدأ . وعرفت

---

(١) شاهد السكاكى هو انفصال هذا الضمير المرفوع ، وأستدرك على تحديده انفصال ضمير المرفوع بموضعين : الضمير فى أول البيت أيضا ، حيث ينفصل الضمير المرفوع إذا كان عامله معنوياً مثل الابتداء - كما هنا ، كما أن مواضع انفصال الضمير المرفوع أيضاً أن يكون عامله حرف نفى مثل قوله سبحانه فى سورة المجادلة (ماهن أمهاتهم) ، وأن يكون فاعلا لمصدر مضاف إلى مفعوله ، فيفصل المفعول به بين الضمير الفاعل وعامله مثل : بنصركم نحن كنتم ظافرين ، فالمصدر (نصر) مضاف إلى مفعوله المتصل به وهو الكاف لأنها ضمير نصب، وفاعله الضمير نحن ، وأن يكون عامله محذوفاً مثل قول الشاعر :

فإن أنت لم ينفعك علمك فانتسب   لعلك تهديك القرون الأولى

ناهيك بعد ذلك عن موضع ضرورة الشعر، مثل قول زياد بن حمل التميمي يتحدث عن قومه :

وما أصاحب من قوم فأذكرهم   إلا يزيدهم حبا إلى هم

راجع شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهرى ١/١٠٥ والنحو الوافى ١/٢٧٦-٢٧٩ للأستاذ عباس حسن .

(٢) مفتاح العلوم ص ٩٦ .

خبره، وكذلك أنت عرفت، وهو عرف، ولا يقدر تقديم وتأخير - كما إذا قلنا زيد عارف أو زيد عرف، اللهم إلا فى التلفظ.

وثانيهما: أن يقدر أصل النظم: عرفت أنا، وعرفت أنت، وعرف هو، ثم يقال: قدم أنا وأنت وهو.

فنظم الكلام بالاعتبار الأول لا يفيد إلا تقوى الحكم.

وبالاعتبار الثانى يفيد التخصيص، قال تعالى (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) المراد لا يعلمهم إلا الله، ولا يطلع على أسرارهم غيره لإبطانهم الكفر فى سويداوات قلوبهم».

ونلاحظ فى الاعتبار الثانى - أعنى الاعتبار المتكلف - أنه لا يقتنع به، ويحاول إثباته عن طريق الاحتماء بالاستشهاد بالآية الكريمة التى ذكرها.

أما الحالة المقتضية للنوع الثانى [عد إلى نصه المذكور سابقاً إن شئت] فيبدو من خلال شرحه لها فى موضع غير الذى ذكرناه أنه يرى أيضا أن أن إفادة تقديم المعمول على جملة عامله التخصيص مشروط بالشروط الثلاثة التى ذكرها ونقلناها عنه من قبل، ولذلك يثبت فى شرحها الاعتبارين السابقين: اعتبار الابتداء من أول الأمر دون مراعاة التقديم والتأخير ويكون الأسلوب لإفادة التقوى وتأكيد الحكم عن طريق تكرير الإسناد، واعتبار أن يكون تقديم الاسم حاصلا ومقدراً من تأخير، وعلى هذا فالأسلوب عن طريق هذا التقديم يفيد الاختصاص، وعبارته[1]: «ونظير قولنا: أنا عرفت، فى اعتبار الابتداء لكن على سبيل القطع[2] قولك: زيد عرفت أو عرفته.

---

(١) مفتاح العلوم ٩٦.

(٢) أى لو أعربنا المثال زيد عرفت أو زيد عرفته: زيد مبتدأ من أول الأمر، والجملة بعده خبر، دون تجويز حالة الاشتغال التى تجعل هذا الاسم (زيد) منصوبا بفعل محذوف يفسره المذكور - كما سيذكر هو فيما بعد.

وفى اعتبار التقديم : زيدا عرفت: الرفع - أى جعلنا لفظ زيد مرفوعا. فتقول : زيد عرفت ، يفيد تحقيق أنك عرفت زيدا - أى يفيد التأكيد وتقوية الحكم ، والنصب - أى قولنا: زيدا عرفت ، دون ضمير الاشتغال ، يفيد أنك خصصت زيدا بالعرفان » .

وأما حالة الاشتغال فيذكرها السكاكي مشيرا إلى وجهى إعرابها، ذاكرا أنها قد تفيد التأكيد والتقوية ، كما أنها تفيد أيضا الاختصاص حسب تقدير وغرض المتكلم ، فيقول:(١) « وأما زيدا عرفته : فأنت بالخيار ، إن شئت قدرت المفسر قبل المنصوب على نحو عرفت زيدا عرفته ، وحملته على باب التأكيد ، وإن شئت قدرته بعده على نحو : زيدا عرفت عرفته وحملته على باب التخصيص »(٢) .

---

(٣) مفتاح العلوم ٩٦ .

(٤) تقديم المعمول مع اشتغال فعله بضميره آكد فى إفادة التقديم التخصيص من تقديم المعمول على الفعل غير المشتغل بضميره (فإياى فارهبون) آكد من نحو (إياى ارهبوا) - كما أشار إليه صاحب الكشاف ، إذ قال (وهو من قولك : فزيدا رهبته، وهو أوكد فى إفادة الاختصاص من (إياك نعبد) .

ووجهه عندى : أن تقديم المعمول يحتمل الاختصاص ، إلا أن الأصل فيه أن يدل على الاختصاص إلا إذا قامت القرينة على التقوى ، فإذا كان مع التقديم اشتغال الفعل بضمير المقدم نحو : زيداً ضربته - كان الاختصاص أوكد ، أى كان احتمال التقوى أضعف ، وذلك لأن إسناد الفعل إلى الضمير بعد إسناده إلى الظاهر المتقدم يفيد التقوى، فتعين أن تقديم المعمول للاختصاص دون التقوى ، إذ التقوى قد حصل بإسناد الفعل أولا إلى الاسم أو الظاهر المتقدم ، وثانياً إلى ضمير المتقدم :

ولهذا لم يقل صاحب الكشاف : وهو أكثر اختصاصاً ولا أقوى اختصاصاً ، إذ الاختصاص لا يقبل التقوية ، بل قال : وهو أوكد فى إفادة الاختصاص ، أى أن إفادته الاختصاص اقوى ، لأن احتمال كون التقديم للتقوى قد صار مع الاشتغال ضعيفاً جداً .

ولسنا ندعى أن الاشتغال متعين للتخصيص فإنه قد يأتى بلا تخصيص فى نحو قوله =

ونحن بعد ذلك نستطيع أن نفهم عبارة القزوينى التى عقب فيها على نص (١) السكاكى الذى ذكرناه فى مطلع حديثنا عن مسألة القبح فى الأساليب فقال (٢): «وجعل السكاكى قبح هل رجل عرف؟ لذلك - أى لإفادة التقديم الاختصاص

= تعالى (إنا كل شىء خلقناه بقدر) وقوله عز وجل (أبشراً منا واحداً نتبعه) وقول زهير :

فـكلا أراهم أصبحوا يعقلونه صحيحات مال طالعات بمخرم

لظهور أن لا معنى للتخصيص فى شىء مما ذكرنا .

غير أن الغالب أن يكون التقديم مع صيغة الاشتغال للتخصيص ، إذ العرب لا تقدم المفعول غالباً إلا لذلك .

ولا التفات إلى ماوجه به صاحب المفتاح أن احتمال المفعول فى الاشتغال التخصيص والتقوى باق على حاله ، ولـكنك إن قدرت الفعل المحذوف متقدماً على المفعول كان التقديم للتقوى ، وإن قدرته بعد المفعول كان التقديم للتخصيص ، فإنه - أى السكاكى - بناه - أى بنى هذا التوجيه - على حالة موقع الفعل المقدر ، مع أن تقرير الفعل اعتبار لا يلاحظه البلغاء ، ولأنهم ينصبون على موقعه قرينة ، فتعين أن السامع إنما يعتد بالتقديم المحسوس ، وبتـكرير التعلق .

وأما الاعتداد بموقع الفعل المقدر فحوالة على غير مشاهد ، لأن التقدير إن كان بنية المتكلم فلا قبل للسامع بمعرفة نيته ، ولا يصح أن يكون الخيار فى التقدير للسامع - عن كتاب تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور - الجزء الأول - الطبعة الأولى ١٣٨٤/١٩٦٤ - عيسى البابى الحلبى - صدد حديثه عن قوله سبحانه (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون) - سورة البقرة آية ٤٠ (ص ٤٣٢ — ٤٣٥) .

(١) نص السكاكى المشار إليه هو قوله : «وقبح هل رجل عرف ؟ وهل زيداً عرفت ؟ دون هل زيداً عرفته ؟ ولم يقبح : أرجل عرف ؟ وأزيداً عرفت ؟ لما سبق أن التقديم يستدعى حصول التصديق بنفس الفعل ، فبينه وبين هل تدافع » .

(٢) الإيضاح « ضمن شروح التلخيص » ٢/٢٥٨ .

كما فى هل زيدا ضربته ـ ، ويلزمه أن لا يقبح نحو (هل زيد عرف ؟)[1] لامتناع تقدير التقديم والتأخير فيه عنده » .

وإذا كان القزوينى يبدو من خلال هـــذه العبارة وكأنه يرفض رأى السكاكى فى حل مشكلة دخول (هل) على الأسماء دون الأفعال التى تصاحبها فى سياق الجملة عن طريق اعتبار التقديم والتأخير فإننا نجده ينقل رأياً آخر لمجهول لم ينسبه ، ونـكاد نحن نجعله وفقاً لتعقيبات الشراح عليه ضرباً من

---

(١) هذا المثال قبيح باتفاق العلماء ، ولم يصححه إلا الزمخشرى فى المفصل على تقدير فعل متقدم ، وعبارته « ص ٢٤ (دار الجيل بيروت) فصل : وقد يجىء الفاعل ورافعه مضمر . . . والمرفوع فى قولهم : هل زيد خرج ، فاعل فعـل مضمر يفسره الظاهر » ، هذا ، وقد عقب السبكى على هذا المثال فقال (ص٢٥٩ عروس الأفراح) اعترض المصنف على السكاكى بأنه جعل قبح هل رجل عرف ؟ للتقديم المفيد للاختصاص قال : ويلزمه أن لا يقبح هـل زيد عرف ؟ لأنه يرى أن نحو زيد عرف ليس فيـه اختصاص ، قلت : ومن أين للمصنف أن السكاكى يوافق على قبح هل زيد عرف ؟ إذا كان المقتضى لقبح هل رجل عرف ؟ عنده إنما هو التقديم المفيد للاختصاص ، فقد لا يقول به . نعم يرد على السكاكى أنه يقول فى نحو : رجل عرف أنه لا يلزم أن يكون للاختصاص ، بل قد يكون له وقد لا يكون ، وإنما يقول به غالباً إذا لم يكن للابتداء بالنـكرة مسوغ سواه ، وقلنا : هل رجل عرف ؟ للابتداء بالنـكرة فيه مسوغ ، وهو حرف الاستفهام ، فليس متعيناً للاختصاص ولا راجحاً فيه ، فـكان من حقه أن يفصل فيه بين أن يقصد الاختصاص فيقبح أو لا ، فلا يقبح .

والزمخشرى لا فرق عنده بين زيد عرف ، ورجل عرف فى إفادتهما الاختصاص ، وقد جوز هذين التركيبين ولم يقبحهما ، وسببه أنه يرى أن العامل سابق فلا تقديم ، فلا اختصاص ، لـكن يلزمه القول بقبحهما ، لأن المستفهم عنه ما يلى الأداة فيلزم أن يكون هو المسند إليه هنا فيـكون تصوراً ، وهو لا يجوز بهل ، ولا عذر عن ذلك إلا أن يقال : المستفهم عنه ما يليها إما لفظاً أو تقديراً ، والذى ولى (هل) هنا تقديراً : الفعل .

البحث فى التاريخ اللغوى للألفاظ(١) ، وهذا الرأى هو قوله : « وعلل غيره القبح فيهما بأن أصل (هل) أن تكون بمعنى قد ، إلا أنهم تركوا الهمزة قبلها لكثرة وقوعها فى الاستفهام »(٢) .

ومن تعقيبات الشراح ننقل رأى السعد فى مختصره على تلخيص المفتاح الذى يقول فيه : « (قد) من خواص الأفعال ، فكذا ما هى بمعناها ، وإنما لم يقبح هل زيد قائم ، لأنها إذا لم تر الفعل فى حيزها ذهلت عنه وتسلت ، بخلاف ما إذا رأته فإنها تذكرت العهود وحنت إلى الألف المألوف ، فلم ترض بافتراق الاسم بينهما »(٣) .

وقد نسب الزمخشرى هذا الرأى لسيبويه فى المفصل(٤) ، لكن دراستنا التاريخية أثبتت أولية هذا الرأى للإمام ابن عباس (رضى الله عنهما) ، وعلى أية حال فإن هذا الرأى يعود أيضا إلى التخصيص ، يقول صاحب إعراب

---

(١) يؤكد هذا ماذكرناه من قبل فى دراستنا للرمانى من أن (هل) تكون بمعنى (قد) إذا دخلت عليها (أم) انظر دراستنا هناك .

(٢) الايضاح ج ٢/ ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٣) مختصر السعد (ضمن شروح التلخيص) ج ٢/٢٦٠ ، ٢٦١ .

(٤) عبارة سيبويه (الكتاب ج ١٨٩/٣) : هو إنما تكون بمنزلة قد، ولكنهم تركوا الألف إذا كانت (هل) لا تقع إلا فى الاستفهام ، وزاد الزمخشرى على هذا المعنى الاستشهاد لدخول الهمزة على هل فى قول الشاعر :

سائل فوارس يربوع بشدتنا أهل رأونا بسفح القاع ذى الأكم

والمعنى : اسأل فوارس قبيلة يربوع عن حملتنا التى حملناها عليهم هل كانت قوية ، فقد رأونا بسفح تلك الأكات (جمع أكمة وهى مانشز من الأرض) وعرفوا مقدار شدتنا فى حملنا وصبرنا على مانلاقيه من مصائب الحروب (راجع المفصل ٣١٩ ـ ط ٢ دار الجيل/ بيروت) .

ولا نترك بيت الزمخشرى قبل أن نقول إن الرواية الصحيحة صحيحة له .

سائل فوارس يربوع بشدتنا أهل رأونا بسفح القف ذى الأكم

ذلك أن القاع هو الأرض السهلة فلا سفح له ، أما القف فهو المكان المرتفع .

القرآن(١) : « (قد ضربت زيدا ، وسوف أضرب عمرا) ولم يجز التقدم فى (قد زيدا ضربت) ولا (سوف عمراً أضرب) » (هـــلا زيداً أتيته) . الاختيار النصب ، لأنه تخصيص بمنزلة الاستفهام فى (أزيداً ضربته) ... (وهل زيد منطلق) أحسن من (هل زيد يذهب) ، لأن الفعل ينبغى أن يلى (هل) » .

ثالثاً : الخصيصة الثالثة لـ (هل) : هل تدخل على الأفعال :

درس البلاغيون خلال حديثهم عن هذه الخصيصة إمكانية دخول (هل) على الأسماء ، والجمل التى ليس فى سياقها الفعل ، ونحن نلخص حديثهم فى السطور القليلة القادمة :

رتب البلاغيون على تخصيص (هل) زمن الاستقبال بالفعل المضارع بعدها ، واستعمالها فى طلب التصديق خاصة أكثرية ارتباطها بالدخول على ماهو زمان كالفعل ، والسبب فى ذلك أن كليهما متوجه إلى الصفة ، فتحريك الأحداث من زمن إلى زمن خاص بالصفات ، لا بالذوات حيث الذوات هى هى فى كل الأزمنة ، وأيضا التصديق حكم بالثبوت أو الانتفاء ، والنفى والإثبات يتوجهان إلى الصفات لا إلى الذوات .(٢) .

كما رتبوا على النتيجة التى توصلوا إليها ـ أعنى أكثرية ارتباط هل بالأفعال.

---

(١) هذا الكتاب منسوب إلى الزجاج ، وقد حققه الأستاذ إبراهيم الأبيارى. ونسبه إلى أبو محمد مكى بن أبى طالب القيسى القيروانى (ت ٤٣٧ هـ) ، وانظر النص فى القسم الأول ص ٣٨٥ /ط ٣ دار الكتاب اللبنانى .

(٢) لشرح ذلك بالمثال إذا قلنا : ما على إلا كاتب ، النفى متوجه إلى على ، حيث إن عليا ذات موصوفة بالكتابة (فى هذا المثال) ولا يصح أن ينفى المتكلم الذات إذن يتوجه النفى إلى الصفات القائمة بالذات عدا هذه الصفة ، وهنا يقول البلاغيون إن هذا المثال من قصر الموصوف على الصفة لبروزها وظهورها فيه ظهورا واضحا وفى هذا من المبالغة مافيه .

ودخولها عليها - اعتبار أن هذا هو الأصل فى استعمالها ، ومن ثم كان العدول عن استعمال هذا الأصل غير مستحسن إلا من الأدباء البلغاء الذين يعرفون أن هذا العدول لا يكون إلا لنكتة بلاغية طريفه ، ولهذا فضلوا قول الله سبحانه (فهل أنتم شاكرون)(١) على أن تقول - مثلا - فهل تشكرون أو فهل أنتم تشكرون ، كما فضلوا استعمال (هل) فى القول الكريم عن استعمال الهمزة فى نفس العبارة حيث ذكروا أن الآية المذكورة أبلغ من قولنا : أفأنتم شاكرون ؟ ، كما قالوا : إنه لا يحسن نحو (هل زيد منطلق؟) إلا من البليغ .

والنكتة البلاغية فى الآية الكريمة ، والمثال المذكور (هل زيد منطلق؟) هو أن الجملة الاسمية تدل على الثبوت والوقوع ، فكأن الشكر والانطلاق الذين هما مطلوبا الاستفهام من فرط رغبة السائل فى حصولهما قد عبر عنهما بالحدوث والوقوع فعلا ، بخلاف ، الجملة الفعلية فإنها تدل على التجدد والحدوث والاستمرار ، يقول القزوينى(٢) « قوله تعالى : (فهل أنتم شاكرون) أدل على طلب الشكر من قولنا فهل تشكرون ، وقولنا فهل أنتم تشكرون(٣) ، لأن إبراز ما سيتجدد فى معرض الثابت أدل على كمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله » .

ومقام الآية الكريمة يشهد بذلك ، فهى حديث عن نعمة الله عز وجل على نبى الله داود خاصة ، وقبلها آيات تتحدث عن نعم الله على الأنبياء عامة ، والنعم دائما تستوجب الشكر وتستدعيه وتلح على طلبه ، يقول الله سبحانه فى

---

(١) سورة الأنبياء آية ٨٠ .

(٢) الإيضاح ٢/٢٦٩ .

(٣) (هل) فى مثل هذا داخلة على فعل محذوف - كما تقرر فى النحو - وفى الجملة تأكيد المحذوف بالمذكور ، ومع ذلك ليس فيها تأكد طلب الثبوت للشكر - كما فى الجملة الاسمية معها ، لجريانها على أصلها - راجع شرح ابن يعقوب ٢/٢٦٩ .

الحديث عن نعمه على بعض أنبيائه (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم * ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين * وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين * وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون)(١) .

هذا عن الجملة الاسمية فى الآية الكريمة (فهل أنتم شاكرون) والفرق بينها وبين الجمل الفعلية (فهل تشكرون) ، (فهل أنتم تشكرون) أما الفرق بين هل والهمزة فى الدخول على الجمل الاسمية فيقول ابن يعقوب(٢) « وهو : أعنى (فهل أنتم شاكرون) أدل على تأكيد طلب الشكر من أن يقال : أفأنتم شاكرون ، بإدخال همزة الاستفهام على الجملة الاسمية ، وإن كان هذا القول أفأنتم شاكرون ، للثبوت أيضا لكونه جملة اسمية ، وإنما كان أدل من هذا القول الذى كان فيه الاستفهام بالهمزة ، لأن هل أدعى أى أقوى طلبا للفعل من الهمزة ، ولو كان المطلوب فيها أيضا - أى الهمزة - الدخول على الفعل ، فلما كانت هل أدعى للفعل من الهمزة كان العدول عما يلزمها دالا على شدة الاعتناء ، وإلا لم يترك ماهو لها لازم » ،

بين الهمزة وهل :

ذكر السبكى(٣) - فيما نقله عن شيخه أبى حيان أن الهمزة لايستفهم بها حتى يهجس فى النفس إثبات ما يستفهم عنه بخلاف هل فإنه لايترجح عند السائل بها نفى ولا إثبات .

كما ذكر فى موضع آخر(٤) - نقلا عن شيخه أيضا وإن كانت هذه

(١) سورة الأنبياء الآيات ٧٦ - ٨٠ .

(٢) شرح ابن يعقوب ٢/٢٧٠ (٣) انظر عروس الأفراح ٢/٢٧١ .

(٤) المرجع السابق ٢/٣٠٨

الملاحظة لا تقتصر على الاستفهام الحقيقى - أن السؤال بالهمزة يأتى للتعيين ، وللتوبيخ والإنكار التوبيخى وللتعجب ، وأن السؤال بهل إذ جاء للإنكار كان المراد به الإنكار التكذيبى .

أمن من الناحية الشكلية فقد نقل صاحب الكشاف[1] عن الأخفش أن همزة الاستفهام قد تقلب هاء كما فى الآية الكريمة (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) ، كما نقل صاحب اللسان أيضا - عن ابن جنى - أن هاء هل تقلب همزة ، حيث قال خلال حديثه عن هل[2]: « قال ابن جنى : وروينا عن قطرب عن أبى عبيدة أنهم يقولون : أفعلت ؟ يريدون : هل فعلت ؟ » .

أدوات الاستفهام المستعملة فى طلب التصور (ما - من - أم المتصلة - أى - كم - كيف - أين - متى - أيان - أنى) :

نبه السبكى فى مطلع حديثه عن هذه الأدوات إلى ماسبق أن ذكرناه من أن سؤال التصور يستدعى ويستلزم أن يكون أصل التصديق واقعاً ، بمعنى أن النسبة بين الموضوع والمحمول فى الجملة تكون حاصلة وكائنة ومتحققة ثبوتاً أو نفياً ، فقال ما حاصله[3] : إن العلماء قد استدلوا على أن المطلوب بالسؤال بمتى فى الآية الكريمة (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين)[4] هو التصور ، لأنهم وجدوا أن هذا السؤال - كما هو واضح فى منطوق الآية - لم يكن إلا بعد تحقق العلم بالتصديق - أى بالنسبة - بدليل تعليق طلب التصور (الزمن) فى الآية على الصدق الكائن فى الجملة الشرطية (إن كنتم صادقين) .

(١) الكشاف ١/١٩٤ ، ومعنى الاستفهام فى الآية (التعجب من حماقتهم) .
(٢) انظر لسان العرب ٩/٤٦٩٤ (طبعة دار المعارف) .
(٣) انظر عروس الأفراح ٢/٢٧٣ .
(٤) وردت فى مواضع كثيرة منها سورة الملك آية ٢٥ .

الحديث عن (ما)[١] :

للمتأخرين حديثان عن (ما) :

أولها ما ذكره السكاكي حيث قال[٢] : « وأما (ما) فللسؤال عن الجنس، تقول : ماعندك؟ بمعنى أي أجناس الأشياء عندك، وجوابه : إنسان أو فرس أو كتاب أو طعام . وكذلك تقول : ما الكلمة ؟ وما الاسم ؟ وما الفعل ؟ وما الحرف ؟ وما الكلام؟ وفي التنزيل (فما خطبكم ؟)[٣] بمعنى أي أجناس الخطوب خطبكم ؟ ، وفيه[٤] (ما تعبدون من بعدى) أي أي من في الوجود تؤثرونه في العبادة .

« أو عن الوصف ، تقول : مازيد ؟ وما عمرو ؟ وجوابه الكريم أو الفاضل وما شاكل ذلك » .

ثم رأى السكاكي أن يطبق رأيه في (ما) فعرض للآية الكريمة (وما رب العالمين ؟)[٥] التي وردت على لسان فرعون في حواره مع موسى موردا إياها على كلا المطلوبين فقال[٦] « ولكون (ما) للسؤال عن الجنس ، وللسؤال عن الوصف وقع بين فرعون وبين موسى ما وقع ؛ لأن فرعون حين كان جاهلا بالله ، معتقدا . أن لا موجود مستقلا بنفسه سوى أجناس الأجسام ـ اعتقاد كل جاهل لا نظر له ، ثم سمع موسى قال (إنا رسول رب العالمين)[٧] : سأل بما عن الجنس ـ سؤال مثله ـ فقال : (وما رب العالمين ؟) كأنه قال : أي أجناس الأجسام هو .

---

(١) قد يصحبها اسم الموصول (ذا) ، وفي القرآن الكريم (ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل العفو) سورة البقرة آية ٢١٩ ويرى بعض النحويين أن (ماذا) كلها استفهاما.

(٢) مفتاح العلوم ص ١٣٤ .

(٣) سورة الحجر آية ٥٧ ، وسورة الذاريات آية ٣١ .

(٤) سورة البقرة ١٣٣ . (٥) سورة الشعراء آية ٢٣ .

(٦) مفتاح العلوم ص ١٣٤

(٧) سورة الشعراء آية ١٦ ، والضمير هنا ليس لموسى وحده وإنما لموسى وهارون .

وحين كان موسى عالماً بالله أجاب عن الوصف تنبيها على النظر المؤدى إلى العلم بحقيقته الممتازة عن حقائق الممكنات .

« فلما لم يتطابق السؤال والجواب عند فرعون الجاهل عجب من حوله من جماعة الجهلة فقال لهم (ألا تستمعون ؟) »[1]

« ثم استهزأ بموسى وجننه فقال (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون)[2] »

« وحين لم يرهم موسى يفطنون لما نبههم عليه فى الكرتين من فساد مسألتهم الحمقاء واستماع جوابه الحكيم غلظ فى الثالثة فقال (رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون)[3] .

« ويحتمل أن يكون فرعون قد سأل بما عن الوصف لكون رب العالمين عنده مشتركا بين نفسه وبين من دعاه إليه موسى فى قوله (إنا رسول رب العالمين) لجهله وفرط عتوه وتسويل نفسه الشيطانية له ذلك الضلال الشنيع ، من إدعاء الربوبية ، وارتكاب أن يقول (أنا ربكم الأعلى)[4] ونفخ الشيطان فى خيشومه بتسليم أولئك البهائم له إياها ، وإذعانهم له بذلك ، وتلقيبهم إياه برب العالمين ، وشهرته فيما بينهم بذلك[5] .

« وأن يكون ذلك السؤال من فرعون على طماعية أن يجرى موسى فى جوابه على نهج حاضريه لو كانوا المسئولين فى وجهه بدله [فحين سمع الجواب تعداه][6] تعجب وعجب واستهزأ وجنن وتفيهق بما تفيهق من (لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين)[7] .

---

(١) سورة الشعراء آية ٢٥ . (٢) سورة الشعراء آية ٢٧ .

(٣) سورة الشعراء آية ٢٨ . (٤) سورة النازعات آية ٢٤ .

(٥) عال السكاكى فى خلال تحليله الطريف تعقيب السحرة بقولهم (رب موسى وهارون) لما قالوا (آمنا برب العالمين) فقال نفيا لاتهاماتهم أن يعنوا فرعون ، كما استنتج أيضا أن هذا اللقاء بين موسى وفرعون كان أول لقاء بدليل قول موسى فيه (أو لو جئتك بشىء مبين) وقول فرعون (فأت به إن كنت من الصادقين) .

(٦) هذه العبارة مما نقله القزوينى عن السكاكى وقد نقلتها للإصلاح الذى فى عبارة السكاكى .

(٧) سورة الشعراء آية ٢٩ .

ثانيهما : ما نقله القزوينى عن أهل العلم ، ويتلخص فى أن (ما) يطلب بها :

١ — شرح الكلمات (الإسمية أو الفعلية أو الحرفية) بمعنى أن المطلوب بـ(ما) بيان مدلولها ومفهومها ومعناها الإجمالى الذى وضعت له ، سواء كان ذلك الوضع لغوياً أو اصطلاحيا

وفى بيان هذا المطلوب نذكر مقولة الدسوقى المبينة لإجمال ما نقله القزوينى التى يقول فيها[١] : « اعلم أن (ما) المطلوب بها شرح الاسم[٢] على قسمين :

الأول : أن يطلب بها بيان أن الاسم معنى وضع ، ومآل هذا البيان إلى التصديق دون التصور ، لأن مقصود السائل هو التصديق بأن اللفظ موضوع فى مقابلة أى معنى ، سواء كان يعرف ذلك المعنى الذى هو موضوع بإزائه مجملا أو مفصلا ، وجوابه بإيراد لفظ أشهر[٣] ، وهذا القسم بالمباحث اللغوية أنسب ، لأنها لبيان مدلولات الألفاظ إجمالا ، لأن أهل اللغة يعتنون بالمعرفة الإجمالية . كقول الجوهرى فى الصحاح : الخبب : ضرب من العدو ، والكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير .

---

(١) حاشية الدسوقى ٢/٢٧٣ .

(٢) التعبير بالاسم هنا تبعاً للقزوينى حيث ذكر بدل قولنا (شرح الكلمات) شرح الإسم ، ومراده شرح الكلمة التى تعم الإسم والفعل والحرف ـ كما ذكرنا .

(٣) حق الجواب حينئذ أن يكون بإيراد لفظ مفرد أشهر عند السامع مثل قولك فى جواب ما الإنسان ؟ بشر ، فإذا لم يوجد مفرد أشهر عدل إلى لفظ مركب مثل قولنا فى جواب : ما العنقاء ؟ طائر عظيم تختطف الصبيان كان فيها من كل شيء من الألوان وكانت فى زمن أصحاب الرس ، تأتى إلى أطفالهم وصغارهم فتخطفهم وتغرب بهم نحو الجبل فتأكلهم ، فشكوا ذلك إلى نبيهم صالح عليه السلام فدعا الله عليها فأهلكها وقطع عقبها فسميت عنقاء .

والثاني : أن يطلب بها تفصيل مادل عليه الاسم إجمالا بأن يكون السائل عالماً بمدلول الاسم إجمالا ، ويطلب تفصيله ، وجواب هذا بالحد الأسمى ، ومآل هذا الجواب للتصور ، لأن قصد السائل تصور مفهوم الاسم تفصيلا ، وهذا القسم بالمباحث الحكمية أنسب، لأنها لبيان تفاصيل الحقائق الموجودة والمفهومات الاصطلاحية .

ومثال الأول قول السائل : ما الغضنفر ؟ حال كونه يعرف معنى الأسد من حيث هو بأنه نوع من الحيوان ، أو حيوان مفترس ، ولا يعرفه من حيث أنه مدلول لفظ الغضنفر، فقصد السائل أن يعلم أن لفظه موضوع لأى معنى ؟ فيجاب بإيراد لفظ أشهر ، وهو أسد .

ومثال الثاني قول السائل : ما العنقاء ؟ والحال أنه يعرف مدلوله إجمالا بأنه نوع من الطير ، ومقصوده أن يعرفه مفصلا ، فيجاب بالحد الأسمى بأن يقال طير صفته كذا وكذا » .

٢ — شرح ماهية المسمى وحقيقة الوجودية الواقعية التفصيلية الثابتة ، أي بعد معرفة المعنى والمفهوم الإجمالى للكلمة تطلب الحقيقة الوجودية الثابتة فى نفس الأمر ، وهى التى بها أفراد الشىء تحققت بحيث لا يزاد فى الخارج عليها إلا العوارض كأن يقال : ماالإنسان ؟ فيقال : الحيوان الناطق ، إذ لا تزيد الأفراد على هذه الحقيقة إلا بالعوارض .

ويجاب هذا المطلوب بإيراد الأجزاء الذاتية الموجودة تفصيلا فى الحقيقة من الجنس والفصل وغير ذلك من الأشياء العارضة ، وقد أوردنا من قبل تعليل السكاكى خلاف موسى مع فرعون حول السؤال عن الماهية ، والذى ذكره الدسوقى أيضا ، ثم قال(١) « إن السؤال عن حقيقة الرب ليس من دأب العقلاء » .

(١) حاشية الدسوقى ٢/١٧٥ .

وكلا المطلوبين واحد من حيث إنهما عبرا عن ذات واحدة هى: الكلمة المراد إيضاحها وبيانها، أو نقول - كما يقول علماء المنطق - كلا المطلوبين تعريف للكلمة، وإن كانا يختلفان من حيث الإجمال والتفصيل، فالأول هو التعريف المجمل، ويسمى فى علم المنطق: الحد الأسمى، وهو عبارة عن جميع ما اعتبره الواضع فى مفهوم اللفظ على سبيل الإجمال، والثانى هو التعريف المفصل ويسمى فى علم المنطق: الحد الحقيقى، وهو عبارة عن جميع ذاتيات[١] الشىء الموجودة فيه[٢].

المطلوب فى السؤال بين (ما) و (هل):

يقول العلماء: (هل) تقع بين (ماءين[٣]) ، و (ما) تقع بين (هلين[٤]).

تفسير ذلك: أن مقتضى الترتيب الطبيعى العقلى هو: وقوع (هل) البسيطة - وهى التى يطلب بها نفس وجود الشىء - بين قسمى (ما)، بمعنى

---

(١) ربما تذكر الرسوم فى مقام الحدود توسعاً أو اضطراراً يقول الفنرى: الواضع إذا تصور حقيقة الشىء وعين الإسم بإزائها، فظاهر أن التعريف حدا سمى قبل العلم بوجودها، وحقيقى: بعد العلم بالوجود، وإذا تصورها ببعض عوارضها واعتباراتها ووضع الإسم بإزائها فالتعريف إنما يكون حداً اسمياً بالنظر لتلك الاعتبارات، فبعد العلم بالوجود يكون حدا حقيقياً بالنظر إليها بلا اشتباه، وأما بالنظر لنفس الشىء فرسم اسمى قبل العلم بالوجود، ورسم حقيقى بعده.

(٢) يقول الدسوقى ٢/٢٧٧ « فى كلامه - أى القزوينى - إشارة إلى أن الحد يطلق على اللفظ المعنون به عن أجزاء الماهية، كما أنه يطلق على مجموع أجزائها». ويقول أيضا ٢/٢٧٨ « إذا قلت لمن لا يعرف معنى لفظ صلاة: الصلاة عبادة ذات أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم كان ذلك حداً إسمياً فإذا علم المخاطب بعد ذلك بوجودها بأن سأل عن وجودها وقال هل هى موجوده فقلت له إن النبى قد أمر بها، وكل ما أمر به النبى فهو موجود انقلب ذلك الحد الإسمى حداً حقيقياً ».

(٣) مثنى (ما). (٤) مثنى (هل).

أن يقع السؤال بهل البسيطة بين (ما) التى لشرح الكلمة إجمالا و (ما) التى يطلب بها الماهية تفصيلا .

وكذلك (ما) التى يطلب بها الماهية تقع بين (هل) البسيطة ، و (هل) المركبة التى يطلب بها ثبوت شيء لشيء ، لأن الاستفهام عن ثبوت شيء لشيء فرع من معرفة معنى اسم ذلك الشيء .

فالشخص إذا سمع اسماً ولم يعرف أن له مفهوماً طلب له مفهوماً على وجه الإجمال، ثم إذا وقف على مفهومه طلب وجوده لاستحالة طلب وجود مفهوم اللفظ قبل العلم بأن له مفهوماً إذ لعله مهمل ، ثم إذا علم وجوده طلب تفصيل ذلك المفهوم بالحد المتضمن للجنس(١) والفصل(٢) وإذا علم تفصيل

---

(١) المراد الجنس اللغوى ، وهو ما صدق على كثيرين فحسب ، فيشمل النوع أيضا سواء كان حقيقياً أو اصطلاحيا نحو قولنا : ما الكلمة ؟ أى أى جنس من الألفاظ هى ؟ ، أو أى نوع من الألفاظ هى ؟ فيجاب بأنها لفظ مفرد مستعمل، أما الجنس المنطقى فهو المقابل للنوع ، وتعريفهما عند المناطقة : الجنس : ماصدق كثيرين مختلفين بالأنواع أو بالحقائق ، والنوع : ماصدق على كثيرين مختلفين بالعدد ، فلفظ الحيوان جنس للانسان ولغيره من أنواع الحيوانات ، ولفظ الإنسان نوع يطلق على ملايين الناس . ويجب أن نلاحظ أن الجنس والنوع فى المنطق لفظان متضايفان ، فلا يكون للجنس معنى بدون نوعين أو أكثر ، ولا يكون للنوع معنى بدون الجنس الذى يشمله ، وتقسيم الحد الذى يطلق على كثيرين فى المنطق أمر نسبى ، فقد يكون للجنس جنساً ونوعاً فى آن واحد ، فلفظ كائن حى جنس يشمل أنواع الطير والحيوان والنبات ، وقد قلنا من قبل أن لفظ الحيوان جنس يشمل الإنسان وغيره من أنواع الحيوانات .

(٢) الفصل : الصفة أو الصفات الجوهرية التى تميز نوعاً معينا عن بقية الأنواع التى تشترك فى نفس الجنس ، فلفظ (عاقل) صفة أساسية تميز الإنسان عن غيره من من أنواع الحيوانات التى تشترك معه فى الجنس، وذكر الجنس والفصل يعنى تحديد المعنى تحديداً تاماً، فنحن نقول : الإنسان : حيوان عاقل، إذا أردنا تحديد المعنى تحديداً تاما بإظهار ماهيته ، وهناك نوع من الصفات غير الجوهرية يختص بها أفراد نوع معين يمكن أيضا

ذلك المفهوم سأل عن أحواله العارضة له كدوامه ـ مثلا ـ لأن العلم بدوام ذلك الشيء يستدعي سبق العلم بحقيقته .

تقول ـ مثلا ـ ما البشر ؟ فتجاب بإنسان ، ثم تقول : هل هو موجود أو لا ؟ ، فتجاب بموجود ، ثم تقول : ما ماهيته وحقيقته ؟ فتجاب بحيوان ناطق ، ثم تقول : هل يمشي على أربع أو على رجلين ؟ ونحو ذلك من الأحوال العارضة .

الحديث عن (من)[1] :

ذكر السكاكي أن (من) للسؤال عن الجنس[2] من ذوي العلم[3]، تقول: من جبريل ؟ بمعنى أبشر هو أم ملك أم جني؟ وكذا من إبليس؟ ومن فلان؟ ومنه قوله تعالى حكاية عن فرعون (فمن ربكما ياموسى ؟) أراد من مالككما ومدبر أمركما ؟ أملك هو أم جني أم بشر ؟ منكراً لأن يكون لهما رب سواه ، لادعائه الربوبية لنفسه ، ذاهباً في سؤاله هذا إلى معنى : ألكما رب سواي ، فأجاب موسى بقوله : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، كأنه قال : نعم ، لنا رب سواك ، وهـــو الصانع الذي إذا سلكت الطريق الذي بين بإيجاده لما أوجده تقديره إياه على ماقدر ، واتبعت فيه الخريت الماهر (وهو

عن طريقها تحديد المعنى تسمى في المنطق الخاصة ، مثل صفة الضحك والكتابة بالنسبة للانسان ، على أن له أحوالا عارضة تسمى في المنطق العرض العام مثل المشي بالنسبة للانسان ولا يمكن عن طريقها تحديد المعنى تحديداً تاما .

(١) قد يصحبها اسم الموصول (ذا) وفي القرآن الكريم (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له) .

(٢) المراد الجنس اللغوي أيضا .

(٣) أي أن السائل يعلم قبل سؤاله أن المسئول عنه من ذوي العلم ، (يعلم أنه شخص ويجهل جنسه) وهـذا قيد في الجنس المراد السؤال عنه ، ومن هنا يعلم أن (من) ليست للسـؤال عن الجنس المطلق (الحقيقة المطلقة) بل الحقيقة المشخصة ، وأن إجابة لابد أن تكون بهذه الحقيقة المشخصة المعينة للمسئول عنه .

العقل الهادي عن الضلال) لزمك الاعتراف بكونه ربا وأن لا رب سواه ، وأن العبادة له مني ومنك ومن الخلق أجمع حق لامدفع له .

ولكن القزويني رأى أن في هذا نظر ، وأن الصحيح أن (من) يسأل بها عن الأمر العارض المشخص لذي العلم ، سواء كان علما أو وصفا(١) خاصاً به ، لأنه إذا قيل : من فلان ؟ يجاب بزيد ، وإذا قيل : من في الدار يجاب بقولك : الرجل الطويل الذي لقيته بالأمس ، عند تعيينه بهذه الأوصاف(٢) ، وأيده سعد الدين التفتازاني في ذلك فقال(٣) : « وأما ماذكره السكاكي في قوله تعالى(٤) حكاية عن فرعون (فمن ربكما ياموسى) أن معناه : أبشر هو أم ملك أم جني ؟ ففساده يظهر من جواب موسى بقوله(٥) (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فإنه قد أجاب بما يفيد تعيينه وتشخصه » .

هذا ، وقد حاول الدسوقي(٦) الدفاع عن السكاكي ذاكراً أن الجنس الذي يعنيه يشمل الوصف أيضا ، والوصف مشخص ومعين لذي العلم ، فمقصود السكاكي : ملك صفته كذا وكذا ، ومقصود القزويني : زيد ، البشر المتصف بصفات معينة ، فلا منافاة بين ماذكره القزويني ، وماقصده السكاكي .

على أنه(٧) قد رأى أنه يمكن حمل الجواب في الآية على أسلوب الحكيم ،

---

(١) المقصود بالوصف هنا الوصف المعنوي الذي يشخص ويعين ذا العلم ، لا الوصف المصطلح عليه عند النحاة مثل عالم وكاتب ، وإلا فإن الوصف غير عاقل ، ومن ثم يخرج عن أن يكون أمراً عارضا مشخصا لذي العلم .

(٢) انظر كلامه في الإيضاح « ضمن شروح التلخيص » ٢/٢٨٣ ، وانظر كلام السكاكي في المفتاح ص ١٢٤ ، ١٣٥ .

(٣) المطول ص ٢٣٤ .

(٤) سورة طه آية ٤٩ .

(٥) سورة طه آية ٥٠ .

(٦) انظر كلامه ٢/٢٨٣ .

(٧) أي الدسوقي .

ويكون فى هذا الجواب إشارة إلى السؤال عن الجنس لا يليق بجنابه تعالى ، إنما اللائق السؤال عن أوصافه الكاملة ، فكأنه قيل لفرعون : دع السؤال عن الجنس فإنه معلوم البطلان ، لأن ذاته تعالى لا تدخل تحت جنس ، بل اللائق بجنابه أن يسأل عن صفاته .

أما ما جاء عن العرب مما يتوهم منه أنه سؤال به (من) عن الجنس مثل قول سمير بن الحارث :

أتوا نارى فقلت : منون أنتم ... فقالوا : الجن ، قلت : عموا ظلاما[1]
فقلت إلى الطعام ، فقال منهم ... زعيم : نحسد الإنس الطعاما

ففى الإجابة نفسها تنبيه على خطأ السائل ، ذلك أن الشاعر ظن الطارقين بشراً فسألهم عن مشخصهم - أى عما يميزهم لديه - العلم ، وأن يقولوا : فلان وفلان ، أو الوصف ، بأن يقولوا : هم من أى قبيلة ، فأجابوا بأنا لسنا من جنس البشر حتى تسأل عن المشخص والمعين ، وإنما نحن من جنس الجن ، والتخطئة فى السؤال واردة .

ونحن مع ذلك الذى ذكروه كله - نرى أن قول السكاكى : إن (من) للسؤال عن الجنس من ذوى العلم صحيح ، يشهد لذلك قول الله سبحانه[2] (قل من رب السماوات والأرض قل الله) .

وهذا ، ويذكر السبكى[3] أنه قد وقع السؤال بـ (من) عن الاسم ، ويستشهد على ذلك بما جاء فى حديث الإسراء عندما سئل جبريل : من أنت؟ فقال : أنا جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) يذكر الشاعر أن الجن طرقته وقد أوقد ناراً لطعامه ، ويروى : (منون ، قالوا : سراة الجن) أى أشرافهم عموا : من وعم نعم ينعم بمعنى ينعم ، أى نعم ظلامكم ، فظلاما منصوب على التمييز .

(٢) سورة الرعد آية ١٦ . (٣) عروس الأفراح ج٢/٢٨٣ .

فوائد وتنبيهات ذكرها السبكى[1] :

١ ـ فى السؤال بـ (من) جانب من التصديق ، لكنه غير مطلوب ولا مسئول عنه ، فقولنا : من عندك؟ سؤال مطلوب به التصور لا التصديق ـ كما فهم بعض الناس خطأ ، بيان ذلك أنه يتضمن أمرين :

أحدهما : استقرار شخص أو أشخاص عند المخاطب وأن المتكلم عالم بذلك (وهذا هو معنى التصديق) فلا يسأل عنه .

والثانى : تعيين ذلك الشخص أو الأشخاص وهو المطلوب بالسؤال فهو تصور محض ، وإن كان يستلزم التصديق الذى هو نسبة الاستقرار عند المخاطب إلى ذلك الشخص . وقد أشرنا إلى ذلك فى الحاشية من قبل فى مطلع حديثنا عن الاستفهام .

٢ ـ قد تكون إجابة سؤال (من) محصلة للتصديق بجانب تحصيلها للتصور ، يقول السبكى . « إذا كانت من لا يسأل بها إلا عن التصور ، فكيف حصل الجواب عن قول عيسى صلى الله عليه وسلم[2] (من أنصارى إلى الله ؟). وهو طلب تصور كما زعموا بالتصديق ، وهو قول الحواريين (نحن أنصار الله) .

قلت : أجاب الوالد رحمه الله فى بعض تعاليقه عن ذلك بأن (من) وإن كانت سؤالا عن التصور ، فالسائل بها تارة يجزم بحصول المبهم ، ولكن يسأل عن تعيينه ، وتارة لا يجزم ، كمن يرجو ناصرا يجوز أن لا يوجد ويرجو أن يوجد ويطلب تعيينه ، فقوله (من أنصارى ؟) محمول على ذلك ، قاله عيسى عليه الصلاة والسلام راجيا من الله تعالى إقامة ناصر له سائلا عن عينه ، فهو سؤال عن التصديق والتصور ، لكنه أخرجه مخرج التصور ثقة بالله سبحانه وتعالى ، وأدبا معه تعالى ومع السامعين ، فكان الأكمل السؤال عن التصور

---

(١) المرجع السابق ٢/٢٧٩ ، ٢٨٠ .　　(٢) سورة الصف آية ١٤ .

وجعل السؤال عن التصديق مطلوبا فيه ، والحواريون تفطنوا لذلك فأجابوا بالتصديق ليحصلوا المقصودين معاً كأنهم قالوا : هنا من ينصرك وهم نحن ، وقالوا أنصار الله ، لأن نصرته ونصرة الله بمعنى نصرة دينه وليبينوا أن نصرتهم له خالصة لله لا يشوبها غيره من حظوظ البشرية .

٣ — جواب سؤال (من) هو الماهية المشخصة (الحقيقة المقيدة بإفادة التشخيص) ، فإذا قلت : من عندك ؟ فقيل : زيد ، كان بمنزلة قولك : ما الإنسان ؟ فتقول : حيوان ناطق » فهو ذكر حد يفيد التصور ، وعلى ذلك قوله تعالى : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله)[١] ، وقد جاء فى الآية الأخرى (خلقهن العزيز العليم)[١] وهو ابتداء كلام يتضمن الجواب وليس اقتصارا على نفس الجواب ، بخلاف الآية قبلها .

٤ ـ لا بد من الجواب المشخص وإن كثر الكلام وتعددت جوانبه حتى يكون جواباً مطابقا ، ويقيس السبكى فى هذا الصدد جواب (من) على الحد الجامع المانع فيقول [٣]: « يقال فى الجواب ـ أى جواب السؤال الذى ذكره (من عندك ؟) ـ زيد ، إن كان واحداً ، أو زيد وعمرو ، إن كانا إثنين ، أو زيد وعمرو وبكر ، إن كانوا ثلاثة ، وعلى هذا إلى أن يستغرق ، ولو ذكر بعض من عنده لم يكن جواباً صحيحاً ، بل الجواب المطابق ما لا يزيد ولا ينقص ، كما أن الجواب الصحيح بالحد أن يكون جامعاً مانعاً . ومن هنا تعلم أن المسئول عنه (من) هو ماهية من عنده د أعم من القليل والكثير ، وبه تعلم أن (من) الاستفهامية ليست للعموم فى الأفراد ، بل الماهية » .

الحديث عن (أى) :

قال السكاكى[٤] : « وأما (أى) فللسؤال عما يميز أحد المتشاركين فى أمر يعمهما ، يقول القائل : عندى ثياب ، فتقول : أى الثياب هى ؟ ، فقد

(١) سورة الزخرف آية ٨٧ . (٢) سورة الزخرف آية ٩ .
(٣) عروس الأفراح ٢/٢٨٠ (٤) مفتاح العلوم ص ١٣٥ .

طلبت منه وصفا يميزها عندك عما يشاركها فى الشوبية ، قال تعالى : حكاية عن سليمان (أيكم يأتنى بعرشها ؟)[١] أى الإنسى أم الجنى ؟ ، وقال حكاية عن الكفار (أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا)[٢] أى أم نحن أصحاب محمد؟ .

وتفسير كلام السكاكى : أن (أى) يطلب بها تميز وتعيين أحد المتشاركين فى أمر من الأمور ، وهذا الأمر المشترك العام الذى قصد التمييز فيه ، تارة يكون هو ما أضيف إليه (أى) وتارة يكون غيره .

فالأول : مثل قوله سبحانه حكاية لسؤال المشركين علماء اليهود عما يميز الفريق الذى ثبتت له الخيرية من كلا فريقين : الكفار ، وأصحاب محمد (أى الفريقين خير مقاما) ، والأمر المشترك الذى يعمهما هو الفريقية ، ولا بأس من اعتبار الإقامة المشار إليها فى الآية أمرا مشتركا ثانيا - والذى يميز أحدهما من الآخر هو الجواب بالتعيين ، والأمر الذى يقع التمييز به هو الخيرية ، فكأنهم قالوا فى سؤالهم . أنحن خير أم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

والثانى : وهو ما كان الأمر المشترك فيه غير ما أضيفت إليه (أى) كقوله سبحانه حكاية عن سليمان - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - (أيكم يأتينى بعرشها) . الأمر المشترك فيه هو كون كل فريق من المخاطبين (الإنس ، والجن) - من جند سليمان ، ومنقاداً لأمره .

والجواب - كما قال السكاكى - الإنسى أم الجنى .

ويقول ابن يعقوب فى تحليل هذه الآية « ويمكن - بالتكلف أن يجعل المشترك فيـــه هو مضمون المضاف إليه ، بمعنى كون كل منهما مخاطبا بالإضمار »[٣] .

والفرق بين التحليلين أن ابن يعقوب يريد أن يجعل الضمير المضاف إليه

---

(١) سورة النمل آية ٣٨ . (٢) سورة مريم آية ٧٣ .

(٣) مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح ٢/٢٨٥ .

(أى) [الكاف فى أيكم] هو المخاطب مباشرة ، بمعنى أن المخاطب فردا الإنس والجن — كما جاء فى جواب السكاكى — أما التحليل الأول فيجعل الضمير مقصودا به الجنس فى كل منهما ، وعلى كل حال فإن (أياً) يطلب بها تمييز أحد المتشاركين فى شىء ، وهذا الأحد أعم من أن يكون أفراداً أم أجناساً .

السؤال بين (من) و (أى) عند السكاكى :

يجب أن نفرق — الآن — بين سؤال (من) وسؤال (أى) عن الجنس — باعتبار كلام السكاكى — فنقول : سؤال (من) عن الجنس المقيد بكونه مشخصاً ، بمعنى أن السائل يعلم أن المسئول عنه شخص ولكنه يجهل جنسه ، والإجابة لابد أن تكون بهذا الجنس المشخص ، ولذلك قال المعترضون على مثاله (من جبريل ؟ بمعنى : أبشر هو أم ملك أم جنى ؟) لا يصح أن يقال فى الجواب : ملك ، ولكن يقال فى الجواب : ملك يأتى بالوحى إلى الرسل ونحو ذلك مما يفيد السامع تشخصه وتعينه .

أما السؤال بأى عن الجنس فإنه إما أن يكون لتحديد الصفات المميزة له عن جنس آخر كما فى تحليلنا للآية الكريمة (أيكم يأتينى بعرشها) ، أو لتحديد الصفات المميزة لأفراد الجنس الواحد ، كما فى تحليل المتأخرين لمثال القزوينى وعدم معارضته لمثال السكاكى (من فلان ؟ زيد) ، وقولهم[1] : يعنى بزيد : البشر المتصف بصفات معينة ، وكما فى تحليل ابن يعقوب للآية الكريمة (أيكم يأتينى بعرشها) عندما أراد أن يجعل (أياً) مطلوبا بها تمييز الفردين المخاطبين باعتبار توجه الخطاب إلى فرديهما وليس إلى جنسيهما .

---

(١) عروس الأفراح ٢/٢٨٣ .

(٣ أى) أداة الاستفهام التى يمكن أن تستعمل مكان جميع الألفاظ المستفهم بها عن التصور :

يجب أن ننبه إلى ما نبه إليه علماء البلاغة من أن (أيا) تستعمل فى جميع مواضع الألفاظ المستفهم بها عن التصور ، فنقول فى (أزيد أم عمرو نائم؟): أى الرجلين قام؟ وفى (أقائم أم قاعد زيد ؟) أى الأمرين فعل ؟ وفى (ما اسم أبيك ؟) أى شىء اسمه ؟ ، وفى (ما ماهيته ؟) أى شىء ماهيته ؟ وفى (من جبريل ؟) أى شىء جبريل ؟ ، وفى (كم عدد هذا ؟) أى شىء هو ؟ ، وفى (كيف زيد ؟) أى حال عليه زيد ، وفى (أين هو ؟) أى مكان فيه هو ؟ ، وفى متى تقوم ؟ أى زمان تقوم فيـــه ؟ وفى (أنى تذهب ؟) أى مكان تذهب فيه .

الحديث عن (كم ؟)

يطلب بها تحديد العدد المبهم المراد تمييزه ، فيقع الجواب بما يعين قدره ، وإذا سألت بها عن شىء واحد فيكون السؤال عن أجزاء هذا الشىء يقول السكاكى(١) : « إذ قلت : كم درهما لك ؟ وكم رجلا رأيت ؟ فكأنك قلت : أعشرون أم ثلاثون أم كذا ؟ » وفى القرآن الكريم (سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة)(٢) .

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٣٥ .

(٢) سورة البقرة آية ٢١١ ، وآية : تمييز لكم ، وكم مفعول الفعل آتيناهم ، والتقدير : كم آية آتيناهم أعشرين أم ثلاثين أم غير ذلك ، وجر التمييز عن هنا الفصل بين كم ومميزها بفعل متعد ، فلو لم تدخل (من) على التمييز لتوهم أنه مفعول للفعل . ويصح أن يكون الاستفهام فى الآية حقيقيا على ظاهره بأن يكون القصد أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يسأل بنى إسرائيل حقيقة ليعلم من قبلهم مقدار الآيات لأنه لم يكن يعلمها بلا إعلام .

وقد يحذف المميز فيقال: كم نقودك؟ وكم مالك؟ أى كم جنيها، وكم ثوبك؟ أى كم متراً، وكم زيد ماكث؟ أى كم يوماً، وكم رأيتك؟ أى كم مرة وكم سرت؟ أى كم ميلا، قال تعالى: (قال قائل منهم كم لبثتم؟)(١) أى كم يوما أو كم سنة أو كم ساعة.

هذا، وقد استشهد السكاكى وتبعه الخطيب القزوينى ببيت الفرزدق:

كم عمة لك ياجرير وخالة   فدعاء قد حلبت على عشارى(٢)

على رواية نصب مميز (كم) – أعنى لفظ (عمة)، ذلك أن رواية الرفع تجعل (كم) محتملة للاستفهام والخبر، أما رواية الجر فيتعين أن تكون (كم) فيها خبرية.

وقد نازع السبكى هذا الاستشهاد برواية النصب على زعم معنى الاستفهام،

= أو غير حقيقى لأنه ليس القصد إلى استعلام مقدار عدد الآيات من جهة بنى إسرائيل لأن الله تعالى علام الغيوب. فلو أريد مجرد علم مقدار الآيات لتولى الله تعالى الإعلام بقدرها لنبيه صلى الله عليه وسلم، وإنما القصد التقريع والتوبيخ على عدم اتباع مقتضى الآيات مع كثرتها وبيانها، أى قل لهم ذلك ووبخهم به كما يقال لمنكر النعم كم نعمة أتفضل بها عليك ومع ذلك لم تشكرلى شيئا. ويترجح الاستفهام غير الحقيقى على الحقيقى بقوله تعالى (ومن يبدل نعمة الله الآية ...).

(١) سورة الكهف آية ١٩.

(٢) الفدع: زيغ فى القدم بينها وبين الساق، والمرأة الفدعاء هى التى أصاب رجلها الفدع من كثرة مشيها وراء الإبل. والعشار: جمع عشراء (بضم العين المهملة وفتح الشين) هى الناقة التى أتى عليها من وضعها عشرة أشهر، وفى القرآن الكريم (وإذا العشار عطلت).

ويجوز فى البيت أن تكون (كم) خبرية، وتمييزها مجرور – كما هو معلوم فى النحو، وأن تكون استفهامية وتمييزها منصوب، ولفظ (خالة) معطوف على عمة فى كلا الوجهين.

فقال(١) : (كم) الخبرية قد تنصب المميز ، وعلى ذلك أنشد سيبويه هذا البيت وأنشده ابن عصفور على ذلك أيضا » .

الحديث عن «كيف» :

إذا كانت (ما) للسؤال عن حقيقة الشيء ، و(من) للسؤال عن مشخصاته مطلقا ، فإن (كيف) للاستفهام عن حال الشيء وهيئته الطارئة وصفته التي هو عليها ، تقول : كيف محمد ؟ وكيف الجو ؟ مريداً في أي حال محمد ؟ وفي أي حال الجو؟ ، وتقول : كيف وجدت زيدا ؟ أي على أي حال وجدته؟ فيقال : صحيح أو مريض ويقال : كيف جاء زيد ؟ فيقال : راكباً أوماشياً، وفي القرآن الكريم (رب أرني كيف تحيي الموتى ؟) يقول القرطبي : « الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود ومتقرر الوجود عند السائل والمسئول نحو قولك : كيف علم زيد وكيف نسج الثوب ؟ ... وكيف في هذه الآية إنما هي إستفهام عن هيئة الإحياء ، والإحياء متقرر »(٢) .

وتفسير كيف بالظرف بقولنا : (في أي حال)من قبيل التفسير المعنوي ، فهي ليست ظرفاً ، كما يقال في تفسير الحال في قولنا : (جاء زيد راكبا) ، جاء في حالة الركوب(٣) .

---

(١) عروس الأفراح ٢/٢٨٦ .

(٢) تفسير القرطبي ١/١١٠٧ (طبعة الشعب)

(٣) قال علماء النحو : إن (كيف) ثلاث حالات لا تخرج عنها :

استفهامية للاستفهام عن حال الشيء وهيئته الطارئة دون السؤال عن ذاته وحقيقته . ولها الصدارة في جملتها ، وهي مبنية على الفتح وجوبا في كل مواقعها ، وضابط إعرابها أن تنظر إلى العامل بعدها ، فإن كان محتاجا إليها باعتبارها جزءاً أساسيا لا يستغنى عنه فإنها تعرب على حسب حاجته ، فتكون خبراً في مثل : كيف أنت ؟ ، وكيف بك ؟ لأن العامل الذي بعدها مبتدأ يحتاج للخبر ، فهي الخبر له ، مبنية على الفتح في محل رفع ، والمثال الأول واضح، وأصل المثال الثاني (كيف أنت ؟) أيضا ، فلما زيدت

السؤال عن المكان والزمان :

تستعمل (أين) للسؤال عن المكان . فإذا قيل : أين زيد ؟ فجوابه : فى الدار أو فى المسجد أو فى السوق أو نحو ذلك ، ويقال : أين جلست بالأمس ؟ فتقول : أمام فلان .

وتستعمل (متى) للسؤال عن الزمان ماضيا كان أو مستقبلا أو حالا ، فيقال فى الماضى - مثلا - متى جئت ؟ والجواب : سحرا أو ظهرا ، ويقال فى المستقبل : متى تأتى ؟ فيقال : بعد شهر ، ويقال فى الحال : متى تأتى ؟ فتقول : الآن .

أما (أيان)(١) فإنها تستعمل للسؤال عن الزمان المستقبل خاصة . كما أنها تستعمل فى المواضع التى يقصد فيها تعظيم المسئول عنه والتهويل من

= الباء على المبتدأ وجب تغيير الضمير (لأنه ضمير مقصور على الرفع) فأصبح (بك)، وكذلك أيضا المثال : كيف به . وفى (كيف كنت ؟) تعرب خبراً لكان ، وفى مثل : كيف ظننت الضيف ؟) تعرب مفعولا ثانيا لفعل ظن ، أما إن كان ما بعدها غير محتاج لها فإنها تبقى مبنية على الفتح أيضا ، ولكنها فى محل نصب دائما إما لأنها حال نحو : كيف حضر الضيف (أى فى أى حال) وإما لأنها مفعول مطلق نحو (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) إذ المعنى فعل ربك بأصحاب الفيل أى فعل . .

اسم معرب يدل على الحالة المجردة والهيئة المحضة دون الاستفهام ، وهى بمعنى الكيفية ، وهى اسم مبنى على الفتح فى جميع الحالات إلا إذا احتاج إليها العامل لتكون مفعولا به فتكون اسماً معربا مفعولا مجردا عن معنى السؤال، وليس لها وجوب الصدارة آنذاك ، وقد رأى ذلك بعض العلماء فى الآية الكريمة (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) حيث قال معنى الآية : ألم تر كيفية فعل ربك بأصحاب الفيل .

شرطية (اسم شرط غير جازم على الأرجح) ولابد أن يكون الفعلان بعدها متفقين فى مادة اشتقاق اللفظ وفى المعنى نحو : كيف تكتب أكتب ، ولا يجوز كيف تكتب أقرأ .

(١) تقال بفتح الهمزة وبكسرها

شأنه[١] ، تقول أيان يثمر هذا الغرس ؟ فيقال : بعد عشرين سنة ، وتقول : أيان يأتى القاضى من سفره ؟ فيقال : بعد غد ، وفى القرآن الكريم : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟)[٢] المراد : أيان الزمان الذى ترسى وتستقر فيه ، هل هو زمان قريب أو بعيد . وفى القرآن أيضا : (يسأل أيان يوم القيامة ؟)[٣] وقوله سبحانه (يسألون أيان يوم الدين ؟) .

الحديث عن أنى :

ذكر العلماء لها عدة استعمالات :

أحدها : أن تكون بمعنى (كيف) ، ويجب فى هذه الحالة أن يليها فعل ، ومن أحسن أمثلة ذلك قوله سبحانه (أنى يحيى هذه الله بعد موتها)[٤] . وإنما قلنا : يجب أن يكون بعدها فعل لأنه لم يرد موالاة الاسم إياها إذ لم يسمع أنى زيد ؟ على معنى : كيف هو[٥] ؟

والثانى : أن تكون بمعنى (من أين) فتتضمن الظرفية والابتدائية مثل قوله سبحانه حكاية عن زكريا (أنى لك هذا ؟)[٦] أى يامريم من أين لك

---

(١) المشهور عند النحاة أنها مثل (متى) تستعمل فى التفخيم وفى غيره .

(٢) سورة النازعات آية ٤٢ .

(٣) الآية الأولى سورة القيامة ٦ ، والآية الثانية سورة الذاريات ١٢ ، واعترض بعضهم على التمثيل بالآيتين بأنه كلام محكى عن الإنسان الذى يحسب أن لن يجمع الله عظامه فى الآية الأولى ، والإنسان الذى فى غمرة الجهل والغفلة عما أمر الله تعالى فى الآية الثانية ، وكل منهما لا يقصد تفخيم يوم القيامة لأنه لا يقر به ، والجواب عن ذلك أن يقال : إن التفخيم متعلق باعتبار اليوم نفسه وإن كان الجاحد لا يقر به .

(٤) سورة البقرة آية ٢٥٩ .

(٥) كيف هذه التى كانت (أنى) بمعناها هى الاستفهامية استعملت فى الأخبار مجازا فإذا قيل : افعل هذا كيف شئت فمعناه افعله على الحالة التى لو قيل كيف شئت ، أى أى حال شئت لأجبت بها ، ومثلها (أنى) فى هذا القصد .

(٦) سورة آل عمران آية ٣٧ .

هذا الرزق الآتى كل يوم ، وكان يجد عندها فاكهة فى وقت غير أيامها .

والثالث أن تكون بمعنى (أين) فقط فتتضمن الظرفية دون الابتدائية (١)، كقول الشاعر :

من أين عشرون لنا من أنى

والرابع : أن تكون بمعنى (متى) ، وقد نقل عن الضحاك هذا المعنى فى قوله سبحانه (فأتوا حرثكم أنى شئتم)(٢) .

ويرد على هذا المعنى سبب نزول الآية ، وهو ماروى أن اليهود كانوا يقولون : من باشر امرأته من دبرها فى قبلها جاء الولد أحول ، فذكر ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية .

هذا ، ولم يذكر السكاكى ولا القزوينى غير المعنيين الأولين ، وعقب الشراح على ذلك فقال قائلهم(٣) : « يحتمل أن تكون (أنى) حقيقة فى الاستعمالين ، فتكون من قبيل المشترك ، وأن تكون مجازا فى أحدهما .

---

(١) حاول بعض النحاة إدماج هذا المعنى فى المعنى الذى قبله فقال : إن (أنى) بمعنى (أين) إلا أنه فى الاستعمال قد يصرح بـ (من) ظاهرة كما فى قول الشاعر السابق، وقد تضمر (من) وتقدر كما فى الآية المذكورة فى المعنى الثانى .

(٢) سورة البقرة آية ٢٢٣ ، هذا ، وقد مثل كل من السكاكى والقزوينى بهذه الآية للدلالة على المعنى الأول ، ورد الشراح ذلك فقالوا إن (أنى) لو كانت استفهامية لاكتفت بما بعدها ، لأن من شرط الاستفهامية أن تكتفى بما بعدها فعلا كان مثل قوله سبحانه (أنى يكون لى ولد) أو إسماً مثل قوله عز وجل (أنى لك هذا) واختار أبو حيان أن تكون (أنى) شرطية فى هذه الآية ، وأقيمت فيها الأحوال مقام الظروف المكانية ، وجوابها محذوف .

(٣) حاشية الدسوقى ٢/٢٨٨ .

والخلاصة : أن أدوات الاستفهام إذا استعملت فى معناها الحقيقى تكون على ثلاثة أضرب :

ضرب يطلب به أحد أمرين : إما التصور الذى هو إدراك المفرد ، وإما التصديق الذى هو إدرك النسبة ، وهذا الضرب يشمل الأداتين : الهمزة ، وأم ، ويجاب عن التصور بتعيين المسئول عنه ، ويجاب عن التصديق بنعم أولا .

والضرب الثانى لايطلب به إلا التصديق ، وهو خاص بالأداة (هل) ، ويجاب فيه ـ كما يجاب عن التصديق فى الضرب الأول ـ بنعم أولا .

أما الضرب الثالث فلايطلب به إلا التصور ، ويشمل باقى أدوات الاستفهام ، ويسأل به عن معناها ، ويكون الجواب بتعيين المسئول عنه .

فالأداة (ما) يطلب بها شرح الاسم الغامض على السائل إجمالا مثل : ما الغضنفر ؟ والجواب : الأسد ، كما يطلب بها شرح وتعيين حقيقة المسمى وماهيته وجنسه مثل : ما الشمس ؟ والجواب كوكب نهارى ، ويطلب بها أيضا تعيين وبيان الصفة والحال ، وتقول : ما أحمد ؟ والجواب : طبيب أو عالم .

وإذا كان المطلوب الأول أدخل فى علم اللغة من البلاغة فإن المطلوبين الآخرين جديران بأداء المعانى الحقيقية أداء بليغا ، وفى القرآن الكريم مايشهد لذلك عند الحديث عن حكاية الله أسئلة بنى اسرائيل عن ذبح البقرة التى أمرهم الله بذبحها ، يقول الله سبحانه[1] (وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ؟ قال إنه يقول إنها بقرة لافارض ولا بكر ، عوان بين ذلك فافعلوا ماتؤمرون ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها ؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ؟

(١) سورة البقرة ٦٧ ـ ٧١ .

إن البقرة تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها ، قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها) . ففى السؤالين الأولين : ما هى ؟ مالونها ؟ السؤال عن تعيين حال البقرة وبيان صفتها فى الأول ، ومثل ذلك فى الثانى باعتبار أن اللون من أحوال الملون ، أما السؤال الثالث : ما هى ؟ فهو سؤال عن شرح جنس المسمى وتعيينه ، والاجابات القرآنية موضحة ومبينة للمعانى الحقيقية التى وردت على لسانهم عند سؤالهم بما ، حيث أفصحت عن طبيعتهم الجدالية ومراوغتهم فى تنفيذ أمر الله عز وجل مما ينبىء عن طبيعتهم غير المنقـــادة لله من أول الأمر ، واستحقاقهم للتوبيخ الذى هو مضمون السياق كله .

والأداة (من) يطلب بها تعيين العقلاء سواء بذكر الاسم العلم أو صفته عند الإجابة مثل قول الأعشى أبي بصير ميمون بن قيس بن جندل .

وقصيدة تأتى الملوك غريبة قد قلتها ليقال من ذا قالها ؟

وقوله الله عز وجل حاكياً سؤال أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم (١) (من أنبأك هذا ؟ قال نبأنى العليم الخبير) . أو تعيين الماهية المشخصة مثل قوله سبحانه (٢) (قل من رب السماوات والأرض ؟ قل الله) .

والأداة (كم) يطلب بها تعيين العدد مثل قوله سبحانه فى سؤال عزير بن شرخيا - كما هو مشهور عند المفسرين - الذى مر على بيت المقدس وهو خرب فأماته الله ثم بعثه وسأله (٣) (كم لبثت ؟ قال لبثت يوماً أو بعض ، قال بل

---

(١) سورة التحريم ٣ ، والقصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد حرم على نفسه شرب العسل أو اقتراب جاريته مارية - على اختلاف أقوال المفسرين - واكتتم زوجته حفصة هذا السر فأفشته لعائشة واكتتمتها إياه ، فلما أخبر الرسول حفصة عن قولها ظنت أن عائشة فضحتها فوجهت له هذا السؤال .

(٢) سورة الرعد ١٦ . (٣) سورة البقرة ٢٥٩ .

لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظــر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس) .

والأداة (كيف) يطلب بها تعيين الحال مثل قوله سبحانه (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا)[1] .

والأداة (أين) يطلب بها تعيين المكان مثل قولك لصديقك : أين بيتك ؟

والأداة (متى) يطلب بها تعيين الزمان ماضياً أو مستقبلا مثل قولك : متى ولدت ؟ ومتى ستأتيني ؟

والأداة (أيان) يطلب بها تعيين الزمان المستقبل خاصة ، وتكون في موضع التهويل دون غيره مثل قوله سبحانه حاكياً سؤال الكافر المستهزىء الغافل عن هول يوم القيامة (يسأل أيان يوم القيامة ؟)[2] .

والأداة (أنى) تأتي لعدة معان ، ويطلب بها في كل مرة تعيين المعنى الذي سيقت له ، فهي إذا جاءت بمعنى (متى) كان المطلوب بها تعيين الزمان مثل قولنا : أنى تأتيني ؟ وإذا جاءت بمعنى (من أين) كان المطلوب بها تعيين المكان مثل القول الكريم (يامريم أنى لك هذا) ، وإذا جاءت بمعنى (كيف) كان المطلوب بها بيان الحال مثل قولنا : أنى تسود العشيرة وأبناؤها متخاذلون ؟

والأداة (أي) يطلب بها تمييز أحد المتشاركين في أمر يعمهما ، مثل قولنا : أي الرجلين أكبر سنا ؟ كما أنها قد تضاف إلى أحد المعاني السابقة فتكتسب معنى ما تضاف إليه ، ومن هنا يطلب بها تعيين هذا المعنى ، فيسأل بها عن الزمان في مثل قولنا : أي يوم تسافر ؟ ، وعن المكان في مثل قولنا : في أي منطقة تسكن ؟ وعن الحال في مثل قولنا : على أي حال جئت ؟ وعن العدد في مثل قولنا : إلى أي عدد من الطلاب تدرس ؟ وعن الصفة في قولنا : إلى أي

---

(١) سورة النساء آية ٤١ . (٢) سورة القيامة آية ٦ .

شعبة من الطلاب تحاضر ؟ وعن العاقل مثل قولنا ؟ أى رجل قابلت؟ وعن غير العاقل مثل قولنا : أى فصل دخلت ؟

إجابة الاستفهام الحقيقى[1]:

الأصل فى السؤال أن يكون عن جهل أو شك فى أمر ، والأصل فى الإجابة أن تكون مطابقة لما يريده السائل من بيان .

وقد تكون الإجابة بحرف من حروف الإجابة مثل قوله سبحانه (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ قالوا نعم)[2] . وقوله عز وجل (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا)[3] .

وقد تكون الإجابة بالمطلوب مباشرة مثل قوله سبحانه فى سرد حوار نبى الله زكريا ـ عليه السلام ـ مع مريم البتول رضى الله عنها ـ (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يامريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله)[4] ، وقوله عز من قائل حاكياً حواره مع موسى ـ عليه السلام ـ حول رؤيته (رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى)[5]

(١) قد يجاب الاستفهام غير الحقيقى أيضاً وقد يكون ذلك من كلام السائل نفسه مثل قوله سبحانه (أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون) حيث الإجابة هنا أكيدة لابديل عنها ، ومثل قولة عز وجل (أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم ؟ كلا) حيث الإجابة هنا للزجر ، فيكون الزجر بعد الإنكار والتوبيخ، وقد تكون الإجابة من كلام المخاطب تعجباً مثل قول عيسى عليه السلام فى اجابة مالك يوم الدين عند سؤاله له (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك) ، وقد يكون جواب الاستفهام باستفهام آخر مثل قوله عز وجل حاكياً سؤال موسى عليه السلام الخضر منكراً ، وإجابة الخضر لموسى ذات الاستفهام التقريرى (قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمراً ؟ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ؟) .

(٢) سورة الأعراف آية ٤٤ .
(٣) سورة الأعراف آية ١٧٢ .
(٤) سورة آل عمران آية ٣٧ .
(٥) سورة الأعراف آية ١٤٣ .

هكذا يقول منطق الكلام المستفهم عنه .

لكننا نجد بعض الأساليب الاستفهامية يأتى جوابها بغير ما يريده السائل مثل قوله سبحانه (يسألونك عن الأهلة ؟ قل هى مواقيت للناس والحج)[1] . فماذا عن رأى المتأخرين فى هذه المسألة ؟

نظر السكاكى ـ رائد مدرسة المتأخرين ـ فى هذا الأمر ، ثم نظر فى دراسات علماء العربية فوجد إشارة لرائد الدراسات العربية سيبويه حول الآيتين الكريمتين (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا خيرا[2] ، (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين)[3] يقول فيهما عن الآية الأولى : الأولى : إن الكلام يجرى فيها مطابقاً لما يريده السائل، بينما يقول عن الآية الثانية : إن الكلام يجرى فيها مخالفاً لما يريده السائل[4] فاستثمر هذه الاشارة ، وبدأ يتحدث عن نظائر الآية الثانية فى القرآن مثل قوله سبحانه (يسألونك عن الأهلة ؟ قل هى مواقيت للناس والحج)[5] وقوله عز من قائل (يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) ويسمى هذا الأسلوب بالأسلوب الحكيم ، ويستأنس ـ فى هذا المقام ـ بما ذكره الإمام عبد القاهر وسماه مغالطة وهو يشرح حواره القبعثرى مع الحجاج عندما قال الأخير للأول : لأحملنك على الأدهم ، فقال القبعثرى : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب[6] . يقول

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٩ .   (٢) سورة النحل آية ٣٠ .

(٣) سورة النحل آية ٢٤ .

(٤) راجع المنطقة الثامنة فى دراستنا لسيبويه .

(٥) سورة البقرة آية ٢١٥ .

(٦) الأدهم فى قول الحجاج : القيد الحديدى الأسود المعروف ، وحمله القبعثرى على الفرس الأدهم وهو الذى غلب سواده حتى ذهب بياضه ، وأكد هذا الحمل بما يناسبه من ذكر الأشهب "وهو الفرس الذى غلب بياضه حتى ذهب سواده ، والقصة ـ كما

السكاكي(١): الأسلوب الحكيم هو : تلقي المخاطب بغير ما يترقب ، كما قال الشاعر :

أتت تشتكي عندي مزاولة القرى ... وقد رأت الضيفان ينحون منزلي

فقلت كأني ماسمعت كلامها ... هم الضيف جدي في قراهم وعجلي

أو السائل بغير مايتطلب ، كما قال تعالى : (يسألونك عن الأهلة ؟ قل هي مواقيت للناس والحج)(٢) ، قالوا في السؤال مابال الهلال(٣) يبدو دقيقاً

= أوردها الدسوقي (٤٧٩/١) أن القبعثرى كان جالساً في بستان مع جماعة من إخوانه في زمن الحصرم — أي العنب الأخضر — فذكر بعضهم الحجاج فقال القبعثرى : اللهم سود وجهه ، واقطع عنقه ، واسقني من دمه ، فبلغ ذلك الحجاج فقال له : أنت قلت ذلك ، فقال نعم ، ولكن أردت العنب الحصرم ، ولم أردك ، فقال له الحجاج : لأحملنك على الأدهم ، أي أنه سيضع القيد الحديدي الأسود في يده : فحمل القبعثرى لفظ الأدهم على غير ما يريده الحجاج ويقصده وقال له متغابيا : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب ، فقال له الحجاج : ويلك إنه لحديد ، فقال القبعثرى : إن يكن حديداً خير من أن يكون بليداً ، فحمل الحديد أيضاً على خلاف مراده فإن الحجاج أراد بالحديد المعدن المعروف ، فحمله القبعثرى على الفرس ذي الحدة والقوة ، فقال الحجاج لأعوانه : احملوه ، فلما حملوه قال : (سبحان الذي سخر لنا هذا ... الآية) فقال الحجاج : اطرحوه على الأرض ، فلما طرحوه قال : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، فصفح عنه الحجاج . هذا والمراد بتسويد وجه العنب : نضجه ، وبقطع عنقه : قطفه ، وبدمه : الخمر المتخذ منه ثم أقول : إن السبكي يرى أن يرد مثل هـذا الحوار إلى لون آخر من ألوان البديع المعنوي ، وهو القول بالموجب ، ونظيره قول الشاعر :

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه ... قلت اطبخوا لي جبـة وقميصا

ورأى أن الأمر الأولى بالاعتبار هو دراسة هذا الوجه الجمالي في الكلام باعتباره لونا بلاغيا فيضيف للأساليب الأدبية مذاقا طريفا (راجع عروس الأفراح ٤٠٩/١) .

(١) مفتاح العلوم ١٤٠ . (٢) سورة البقرة آية ١٨٩ .

(٣) سألوا عن السبب في اختـلاف القمر في زيادة النور ونقصانه فأجيبوا ببيان الغرض من هذا الاختلاف .

مثل الخيط ، ثم يتزايد قليلا قليلا حتى يمتلىء ويستوى ، ثم لايزال ينقص حتى يعود كما بدأ ؟ فأجيبوا بما ترى ، وكما قال : (يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل)(١) سألوا عن بيان ماينفقون ؟ فأجيبوا ببيان المصرف ، بنزل سؤال السائل منزلة سؤال غير سؤاله لتوخى التنبيه له بألطف وجه على تعديه عن موضع سؤال هو أليق بحاله أن يسأل عنه ، أو أهم له إذا تأمل » .

لكننا لانلبث بعد ذلك أن نرى العلماء يختلفون حول هذه الفكرة فيعارضها البعض أو يتجاهلها ، ويؤيدها البعض ويتوسع فيها ، وقد يلجأ فريق من العلماء إلى الحديث عن أداة الاستفهام نفسها فيشير إلى استعمال أداة مكان أخرى مثل ماهو معروف فى استعمالات حروف الجر - على نحوما سنبين الآن .

المعارضين والمتجاهلين لفكرة السكاكى :

نرى أن يمثل هذا الاتجاه الإمام أبو السعود - رحمه الله - حيث يجمع الأمرين معا ، فيتجاهل كلام السكاكى عند حديثه عن الآية الأولى التى ذكرها السكاكى فى حديثه فيقول : (يسألونك عن الأهلة)(٢) : سأله معاذ ابن جبل ، وثعلبة بن غنم : مابال الهلال يبدو رقيقاً كالخيط ثم يزيد حتى يستوى ثم لايزال ينقص حتى يعود كما بدأ (قل هى مواقيت للناس والحج)(٣)

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٥ . (٢) تفسير أبى السعود ١/٢٠٣ .

(٣) المواقيت : جمع ميقات ، من الوقت ، والفرق بينه وبين المدة والزمان أن المدة المطلقة هى امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها ، والزمان : مدة مقسومة إلى الماضى ، والحال ، والمستقبل ، والوقت ، والزمان المفروض لأمر - من تفسير أبى السعود (الموضع السابق) .

كانوا قد سألوه عليه الصلاة والسلام عن الحكمة في اختلاف حال القمر وتبدل أمره فأمره الله العزيز الحكيم أن يجيبهم بأن الحكمة الظاهرة في ذلك أن تكون معالم للناس في عباداتهم لاسيما الحج فإن الوقت مراعى فيه أداء وقضاء، وكذا في معاملاتهم على حسب ما يتفقون عليه ».

ويفعل مثل ذلك في حديثه عن الآية الثانية.

أما في حديثه عن حوار فرعون وموسى في الآيات الكريمة (قال فرعون وما رب العالمين؟ قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، قال لمن حوله ألا تستمعون؟)[1] والتي حكى الله فيها سؤال فرعون اللعين لموسى عن حقيقة رب العزة جل وعلا بأداة الاستفهام (ما)، وأجاب موسى بذكر صفات الله وأفعاله التي هي أحق بأن يسأل عنها[2]، فإن أبا السعود قد عارض السكاكي معارضة شديدة حيث قال:[3] « وأما ما قيل من أن سؤاله كان عن حقيقة المرسل وتعجبه من جوابه كان لعدم مطابقته له لكونه بذكر أحواله فلا يساعده النظم الكريم ولا حال فرعون ولا مقاله »[4]. بدأ بالاستفسار عن المرسل فقال (وما رب العالمين؟) حكاية لما وقع في عباراته عليه الصلاة والسلام، أي أي شيء رب العالمين الذي ادعيت أنك رسوله منكراً لأن يكون للعالمين رب سواه حسبما يعرب عنه قوله: (أنا ربكم الأعلى)[5]، وقوله (ما علمت لكم من إله غيري)[6]، وينطق به وعيده عند تمام أجوبته عليه الصلاة والسلام - (يشير إلى الآية الكريمة:

---

(١) سورة الشعراء ٢٣، ٢٤، ٢٥.

(٢) عرضنا لهذه الآية من قبل وقلنا إن السؤال عن هذه الحقيقة سفه وعبث (انظر حديثنا عن ما).

(٣) تفسير أبي السعود ٦/٢٤٠.

(٤) تفسير أبي السعود ٦/٢٣٩.

(٥) سورة النازعات آية ٢٤.

(٦) سورة القصص آية ٣٨.

لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من من المسجونين) . قال موسى عليه السلام مجيباً له (رب السماوات والأرض وما بينهما) بتعيين ما أراد بالعالمين وتفصيله لزيادة التحقيق والتقرير ، وحسم مادة تزوير اللعين وتشكيكه بحمل اللعين على ماتحت مملكته (إن كنتم موقنين) ، أي إن كنتم موقنين بالأشياء محققين لها علمتم ذلك ، أو إن كنتم موقنين بشيء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان لظهوره وإنارة دليله . (قال) - أي فرعون - عند سماع جوابه عليه الصلاة والسلام خوفاً من تأثيره في قلوب قومه وإذعانهم له . (لمن حوله) من أشراف قومه ..... (ألا تستمعون ؟) مرائياً لهم أن ماسمعوه من جوابه عليه الصلاة والسلام مع كونه مما لا يليق بأن يعتد به أمر حقيق بأن يتعجب منه ، كأنه قال : ألا تستمعون مايقوله ؟ ، فاستمعوه وتعجبوا منه حيث يدعي خلاف أمر محقق لااشتباه فيه يريد ربوبية نفسه » .

المؤيدين والمتوسعين في فكرة السكاكي :

خير من يعرض لنا هذا الاتجاه الإمام الآلوسي - رحمه الله - حيث قال وهو يشرح الآيات الكريمة (١) (أئذا متنا وكنا تراباً وعظاما أئنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ قل نعم ، وأنتم داخرون)(٢) : « (قل نعم) أي تبعثون أنتم وآباؤكم الأولون . والخطاب في قوله سبحانه (وأنتم داخرون) لهم ولآبائهم بطريق التغليب ، والجملة في موضع الحال من فاعل ما دل عليه (نعم) ، أي تبعثون كلكم والحال أنكم صاغرون أذلاء ، وهذه الحال زيادة في الجواب نظير ما وقع في جوابه عليه الصلاة والسلام لأبي بن خلف حين جاء بعظم قد رم ، وجعل يفته بيده ويقول : يا محمد ، أترى الله يحيي هذا

---

(١) سورة الصافات الآيات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي ٧٨/٢٣ (دار الفكر - بيروت ١٩٨٣) .

بعد ما رم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم له على ما في بعض الروايات - : (نعم ويبعثك ويدخلك جهنم) . وقال غير واحد : إن ذلك من الأسلوب الحكيم وتعقب بأن عد الزيادة منه - أي من هذا الأسلوب - لا توافق ما قرر في المعاني . وإن كان ذلك اصطلاحا جديداً فلا مشاحة في الاصطلاح » .

أما الفريق الثالث فنرى أن يمثله النيسابوري ، ونذكر في هذا المجال حديثه عن السؤال بـ (ما) في الآيتين الكريمتين[1] (وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا أتتخذنا هزوا ؟ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ؟ قال : إنه يقول إنها بقـــرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون) يقول النيسابوري[2] : « فإن قيل : السؤال بـ (ما) هو لطلب الحقيقة ، والحقيقة لا تعلم إلا بأجزائها ومقوماتها لا بصفاتها الخارجية ، فالجواب بالأوصاف الخارجية لا يكون مطابقا للسؤال ، قلنا : من البين أن مقصودهم من قولهم : ما البقرة ؟ ليس طلب ماهيتها النوعية ، فإن ذلك كالمفروغ منه عندهم ، وإنما وقع السؤال عن المشخصات ، فالظاهر يقتضي ان يقال : أي بقرة هي ؟ فإن مطلب (أي) السؤال عن الصفات الذاتية والخواص ، فسبب العدول : إما إقامة الحقيقة الشخصية مقام الحقيقة النوعية ، فإن الشخص من حيث هو شخص حقيقة أيضا . قد يطلب تصورها ، وإما لأنهم تصوروا أن البقرة لها هذه الخاصية العجيبة ، حقيقتها مغايرة لحقيقة سائر البقرات ، وإن كانت صورتها موافقة لصورتها ، وإما لأن السؤال عن الجزئيات

(١) سورة البقرة الآيات ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري ١/ ٣١٠ دار المعارف - بيروت ١٩٨٦) .

كزيد، وعمرو إنما يكرن بـ (من) إذا كان طالبا للعوارض، وههنا الجزئى غير ذى عقل فيناسب أن يقام (ما) مقام (من)».

كما نذكر أيضاً تأييده هذا الاتجاه – أى الحديث عن استعمال أداة استفهام مكان أخرى – بنقل رأى القفال. عند شرحه للآية الكريمة (١) (يسألونك ماذا ينفقون؟ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) حيث قال (٢) «كيف طابق قوله فى الجواب (قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ... الآية)؟ فالوجه فيه: أنه حصل فى الآية ما يكون جواباً عن السؤال، وضم إليه زيادة بها يكمل المقصود وذلك أن قوله (ما أنفقتم من خير) تضمن بيان ما ينفقونه، وهو كل خير وبنى الكلام على ما هو أهم. وهو بيان المصرف؛ لأن النفقة لا يعتد بها إلا إذا صرفت إلى جهة الاستحقاق. وقال القفال: السؤال وإن كان وارداً بلفظ (ما) إلا أن المقصود هو الكيفية. فن المعلوم لهم أن الذى أمروا بإنفاقه مال، يخرج قربة إلى الله تعالى. وحينئذ يكون الجواب مطابقا للسؤال، كما طابق قوله (إنها بقرة لا ذلول) سؤالهم عن البقرة (ما هى؟) حيث كان من المعلوم أن البقرة بهيمة شأنها كذا وكذا، فتوجه الطلب إلى تعيين الصفة لا الماهية».

(١) سورة البقرة آية ٢١٥.
(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢/٣١٠ – وهو على هامش تفسير الطبرى.

القسم الثانى من حديث المتأخرين عن الاستفهام : المعنى المتولد من المقام لأداة الاستفهام عندما لا يراد بها السؤال ، وعلاقة هـــذا المعنى بالمعنى بالحقيق للأداة :

قبل أن نبدأ فى ذكر هذا القسم نود أن نبحث نقطة هامة هى : طريق المعنى المتولد لأداة الاستفهام .

وبادىء ذى بدء نذكر ـ ماجاء فى دراستنا التاريخية الأساليب الإنشائية من تصريح سيبويه بأن معنى التسوية عندما جاء فى صورة الاستفهام كان هو المعنى المراد تماماً ، كما أن معنى الاختصاص قد أصبح هو المراد من الاسم المختص على الرغم من كونه على الصورة اللفظية للنداء ، يقول سيبويه(١) : « هذا باب ما جرى على حروف النداء وصفاً له وليس بمنادى ينبهه غيره ، ولكنه اختص كما أن المنادى مختص من بين أمته ، لأمرك ونهيك أو خبرك . فالاختصاص أجرى هذا على حرف النداء ، كما أن التسوية أجرت ماليس باستخبار ولا استفهام على حرف الاستفهام ، لأنك تسوى فيه كما تسوى فى الاستفهام ، فالتسوية أجرته على حرف الاستفهام ، والاختصاص أجرى هذا على حرف النداء .

« وذلك قولك : ما أدرى أفعل أم لم يفعل ، فجرى هذا كقولك أزيد عندك أم عمرو ، وأزيد أفضل أم خالد ، إذا استفهمت ، لأن علمك قد استوى فيهما كما استوى عليك الأمران فى الأول ، فهـــذا نظير الذى جرى على حرف النداء .

« وذلك قولك : أما أنا فأفعل كذا وكذا أيها الرجل ، ونفعل نحن كذا وكذا أيها القوم ، وعلى المضارب الوضيعة أيها البائع . واللهم اغفر لنا أيتها

---

(١) الكتاب جـ ٢/٢٣١ ، ٢٣٢ ، وانظر دراستنا لسيبويه .

العصابة ، وأردت أن تختص ولا تبهم حين قلت أيتها العصابة ، وأيها الرجل، أراد أن يؤكد لأنه قد اختص حين قال : أنا » .

ثم نذكر أيضاً أن الزمخشري قد وافق سيبويه على ذلك ، ورأى أن الاستفهام في الآية الكريمة (فبم تبشرون ؟) لم تمنع أن يكون المعنى على التعجب فقال : « وهي (ما) الاستفهامية دخلها معنى التعجب » أي أن الصورة هي صورة الاستفهام ، لكن المعنى المراد هو التعجب .

بقي أن نقول : إننا سبق أن فهمنا رأي الزمخشري في طريق المعنى المتولد بأنه على سبيل الكناية ، وذلك من خلال تحليله للآية الكريمة (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم) : فهل يتعارض هذا مع رأي سيبويه؟ وهل طريق الكناية يرفض هذا الفهم ؟

للإجابة على السؤال الأول نقول : إن رأي سيبويه يؤكد أن المعنى المراد هو معنى التسوية ، كما أن الصورة الاستفهامية اللفظية معتبرة أيضاً بدليل تصريحه عند الحديث عن الهمزة أنها الحرف الذي لا يزول عنه الاستفهام[١] ، ولذلك نرى النحاة ، وعلى رأسهم سيبويه ، بل إنها في الواقع هي الأمر المهم الذي يعتنون به كل الاعتناء ، ولذلك يقدرون المحذوف في الكلام ولا يهملونه بخلاف البلاغيين الذين يعتبرون الحذف باباً من أبواب الجمال الفني للأساليب الأدبية ، وهذا في اعتقادي ـ ما جعل الزمخشري ـ وهو عالم نحو أيضاً ـ يصرح في الآية الكريمة[٢] (فبم تبشرون؟) بالتأكيد على أن (ما) استفهامية ، ويختار الكناية[٣] في تحليل الآية الكريمة[٤] (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم) .

والإجابة على السؤال الثاني : هل طريق الكناية يرفض هذا الفهم ؟

---

(١) انظر كلامه للكتاب ١/٩٩ . (٢) سورة الحجر آية ٥٤ .

(٣) الكشاف ١/٦٠ . (٤) سورة البقرة ٢٨ .

نقول : إن تعريف الكناية عند المتأخرين : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه(١) ، وواضح من هـذا التعريف أن المعنى المراد لا يحجب المعنى الأصلى للفظ ، ولذلك كان قول الزمخشرى - وهو عالم بلاغة أيضا - عن أداة الاستفهام (ما) فى الآية المذكورة (فبم تبشرون ؟)(٢) : « هى (ما) الاستفهامية دخلها معنى التعجب » .

من هنا نقول مطمئنين : إننا نختار طريق الكناية طريقاً للمعنى المتولد لأداة الاستفهام من واقع دراستنا التاريخية للأساليب الإنشائية ، ومن واقع ما سنلاحظه الآن من قوة هذا الرأى فى المجال التطبيقى للأساليب الاستفهامية عندما لا يراد من الأداة : الاستفهام ، ثم أيضا من واقع تكلف من يرى حمل هذا المعنى على طريق المجاز . أو إهداره وإهماله ليكون من مستتبعات الكلام ، أو ليكون الاستفهام كله حقيقياً مشوباً بمعان أخرى ، كما سنذكره فى حينه .

ونبدأ - الآن - فى ذكر المعانى المتولدة من المقام لأداة الاستفهام عندما لا يراد بها السؤال - وفق ماذكره المتأخرون : -

١ — معنى الاستبطاء : ومثاله عندهم قولك لمخاطب دعوته كثيراً فأبطأ فى الجواب : كم دعوتك(٣) ؟ فليس المراد استفهام المتكلم عن عدد الدعوة لجهله بها ، ولكونها لا يتعلق بها غرض ، وإنما المراد إفادة معنى الاستبطاء ، وإفادة (كم) هذا المعنى من قبيل المجاز المرسل .

---

(١) المطول ٤٠٧ .

(٢) الكشاف ٣١٥/٢ ، وانظر دراستنا للزمخشرى .

(٣) قال السبكى (عروس الأفراح ٢٩٠/٢) ويحتمل أن يكون هذا المثال مراداً منه النهى عن التأخر ، ثم قال : « والأحسن أن يجعل الفعل مضارعاً فيقال : كم أدعوك ؟ لأنه أدل على بقاء الطلب والاستبطاء بخلاف دعوتك ، فإنه قد يصدر من موبخ قد انقطع غرضه من إجابة دعائه أو بعد تعذر الإجابة » .

والعلاقه بين هذا المعنى ومعنى الاستفهام الحقيق للأداة (كم) الذى هو طلب تعيين العدد ـ وفق ماذكره الدسوقى ـ المسببية ، حيث يقول[١]: «بيان ذلك أن السؤال عن عدد الدعوة الذى هو مدلول اللفظ مسبب عن الجهل بذلك ، والجهل به مسبب عن كثرته عادة ، إذ يبعد جهل القليل ، وكثرته مسببة عن الاستبطاء ، فأطلق اسم المسبب وأراد السبب ، ولو بوسائط[٢]».

أما ابن يعقوب فيرى أن العلاقة هى اللزوم ، ويشرح ذلك فيقول[٣] : « والعلاقة أن السؤال عن عدد الدعوة الذى هو مدلول اللفظ يستلزم الجهل بذلك العدد . والجهل يستلزم كثرته عادة أو إدعاء ، وأنه لا يحصره الإدراك من أول وهلة ، وكثرته تستلزم بعد زمن الإجابة عن زمن السؤال ، والبعد يستلزم الاستبطاء ، فهو كالمجاز المرسل لعلاقة اللزوم من استعمال الدال على الملزوم فى اللازم » .

وقرينة الإبطاء عند كليهما : عدم تعلق غرض المتكلم بالاستفهام، وجهل المخاطب بالعدد .

ومن أمثلة الاستبطاء عندهم على طريقة المجاز المرسل أيضا قول الله سبحانه[٤] (وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصرالله؟) ، فالاستفهام عن زمان النصر يستلزم الجهل بذلك الزمن ، والجهل به يستلزم استبعاده عادة أو إدعاء ، إذ لو كان قريباً كان معلوماً بنفسه أو بأماراته الدالة عليه ، وإستبعاده يستلزم استبطاءه[٥] .

---

(١) حاشية الدسوقى ٢/٢٩٠ .

(٢) الأولى إسقاط الوسائط التى لا حاجة لها وذلك بأن نقول : الاستفهام عن عدد الدعاء مسبب عن تكرير الدعوة ، وتكريرها مسبب عن الاستبطاء .

(٣) مواهب الفتاح ٢/٢٩١ . (٤) سورة البقرة آية ٢١٤ .

(٥) حاشية الدسوقى ٢/٢٩٠، ٢٩١

٢ — معنى الاستبعاد : يرتبط هذا المعنى بمعنى الإستبطاء ارتباطاً كبيراً حتى قالوا بصلاحية المحل الواحد لهما ، مع أنهما يختلفان متعلقا - وفق مافهمت من كلامهم - حيث متعلق الاستبعاد غير متوقع الحصول ، بينما متعلق الاستبطاء متوقع الحصول وإن كان بطيئا ، وعبارة ابن يعقوب [١] : « والفرق بينه - أي بين الاستبعاد - وبين الاستبطاء : أن الاستبطاء عد الشيء بطيئا في زمن انتظاره ، وقد يكون محبوبا منتظراً . والاستبعاد : عد الشيء بعيداً ، حسا أو معنى ، وقد يكون منكراً مكروها غير منتظر أصلا » .

ومثال عندهم قول الله سبحانه [٢] (أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ؟ ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون) لأن الاستفهام الحقيق لا يصح من علام الغيوب ، ولأن الجملة الحالية - وقد جاءهم رسول مبين - تنافى الحمل على الاستفهام الحقيق ، وإذا امتنع حمل الاستفهام هنا على حقيقته ، طلب له معنى يناسب المقام فيحمل عليه ، والمناسب هنا استبعاد تذكرهم بدليل قوله (وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه) .

٣ — معنى التعجب : ومثاله عندهم قوله عز وجل حكاية عن سليمان - على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام [٣] - (مالى لا أرى الهدهد ؟) فإن الغرض من هذا التركيب التعجيب ، لأن الهدهد كان لا يغيب عن سليمان إلا بإذنه ، فلما لم يبصره تعجب من حال نفسه وعدم رؤيته ، والمتعجب منه فى الحقيقة : غيبته من غير إذن : وإنما لم يحمل على ظاهره من السؤال عن حال نفسه عند عدم الرؤية ، لأن الإنسان أعرف بحال نفسه غالبا فلا يستفهم عنها [٤] .

---

(١) مواهب الفتاح ٢/٦-٣٠٠ . (٢) سورة الدخان آية ١٣ ، ١٤ .

(٣) سورة النمل آية ٢٠

(٤) كذا يقال (مواهب الفتاح ٢/٢٩٢) ، ولكن هذا فى الأحوال التى لاتخفى عن صاحبها كقيامه وقعوده وجوعه وعطشه فلا يقال : ماحالى ؟ أى أنا قائم أو قاعد

ووجه التجوز وعلاقته : أن السؤال عن الحال ـ أي عن السبب في عدم الرؤية يستلزم الجهل بذلك السبب ، والجهل بسبب عدم الرؤية يستلزم التعجب وقوعا أو إدعاء ، إذ التعجب معنى قائم بالنفس يحصل من إدراك الأمور القليلة الوقوع المجهولة السبب ، فاستعمل لفظ الاستفهام في التعجب مجازاً مرسلا من استعمال الدال على الملزوم في اللازم ، هـــذا ما ارتآه ابن يعقوب[1] .

على أنه يعرض فهما آخر للاستفهام في الآية ذكره الزمخشري عندما قال[2] : « نظر سليمان إلى مكان الهدهد فلم يبصره فقال (مالي لا أرى) على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك ، ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائب ؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له ، ونحوه قولهم : « إنها لإبل أم شاء » ، حيث يعلق موضحا[3] : « فهذا كلام الكلام من الزمخشري يدل على أنه حمل الكلام على الاستفهام حقيقة بالوجه السابق » .

والوجه السابق الذي يشير إليه ابن يعقوب خلال كلامه هو الأحوال الخفية المنفصلة للانسان التي يجوز أن يحمل السؤال عليها ليكون حقيقة مثل أن يقول : ما بالي أوذى دون سائر المسلمين ؟ أي ما السبب الذي صار متعلقا بي وحالا من أحوالي فأوجب إذايتي » .

أو أنا جائع أو لا ، وأما إن كان من الأحوال المنفصلة أو ما في حكمها فيجوز أن يستفهم الإنسان عنها كأن يقال : ما بالي أوذى دون سائر المسلمين ؟ أي ما السبب الذي صار متعلقاً بي وحالا من أحوالي فأوجب إذايتي ،

(١) مواهب الفتاح ٢/٢٩٢ .

(٢) الكشاف ٣/١٣٨ .

(٣) مواهب الفتاح ٢/٢٩٢ .

ومعنى ذلك أن ابن يعقوب يرى أن حمل الاستفهام على التجوز باعتبار أن الإنسان لا يسأل عن أحوال نفسه الواضحة والمتصلة به كالقيام والقعود، فلا يقول - مثلا - ماحالى ؟ أى أنا أو قاعد أو جائع . وإنما يمكن أن يتعجب منها ، كما يفهم من كلام الزمخشرى أن الاستفهام يمكن أن يكون حقيقة باعتبار أن الإنسان يمكن أن يسأل عن الأحوال الخفية المنفصلة عنه ، فيقول - مثلا - مابالى أوذى دون سائر المسلمين ؟

وأقول تعقيبا على فهم ابن يعقوب لعبارة الزمخشرى : إن حديث الزمخشرى عن استفهامين فى الآية ، وليس عن استفهام واحد :

أولها : هو الذى معنا - أقصد الجزء الأول من الآية الكريمة : (مالى لا أرى الهدهد ؟) ، والعبارة الخاصة به عند الزمخشرى هى قوله : (نظر سليمان إلى مكان الهدهد فلم يبصره فقال : (مالى لا أرى) على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك » .

وثانيهما : هو الاستفهام بأم المنقطعة فى بقية الآية ، وهو قوله عز وجل (أم كان من الغائبين ؟) وتختص به بقية عبارة الزمخشرى .

وعبارة الزمخشرى فى الجزء الخاص بنا تفيد معنى التعجب وإن كانت لا تهمل صورة الاستفهام ، ومن هنا فإن توجيه ابن يعقوب لفهم الزمخشرى فى الآية على أنه استفهام حقيقى أمر لا يتفق مع عبارة الزمخشرى ، والأولى - فى اعتقادى - أن تكون عبارة الزمخشرى محمولة على إفادة الاستفهام معنى التعجب عن طريق الكناية ، ولهذا أرى أن الدسوقى كان أشد ذكاء ودقة فى عرض هذه القضية عندما قال[1] : « وحاصل ما فى المقام أن عدم الرؤية قد يكون لحائل فى جانب الرائى ، فقوله : مالى لا أرى الهدهد ؟ إن كان استفهاما عن حائل فى جانب الرائى يوجب عدم الرؤية فلا يمكن

(١) حاشية الدسوقى ج ٢/٢٩٢ .

حمل الاستفهام على حقيقته ، إذلا معنى للاستفهام عن حال نفسه ، فهو مجاز عن التعجب .

« وإن استفهاماً عن حائل فى جانب المرئى يوجب عدم الرؤية كالساتر ، فيجوز أن يكون الاستفهام على حقيقته ، فإن قصد به التعجب ، وجعل إرادة المعنى الحقيق بمجرد الانتقال كان كناية ، وإن قصد به المعنى الحقيق مع التعجب كان من مستتبعات الكلام » .

٤ ـ معنى التنبيه على ضلال ، وقد مثل له القزوينى بالآية الكريمة (فأين تذهبون ؟)(١) فليس القصد الاستفهام عن مذهبهم وطريقهم ، بل التنبيه على ضلالهم وأنهم لا مذهب لهم ينجون به ، ومن الأمثلة أيضا قول أبى عمرو ابن العلاء للأصمعى : أين عزب عنك عقلك ؟

وكثيراً ما يؤكد استعمال الاستفهام فى التنبيه على الضلال بالتصريح بالضلال ، فيقال لمن ضل عن طريق الصواب : ياهذا إلى أين تذهب ؟ قد ضللت فارجع ، وقد يكون هذا سبباً وجيها حمل السكاكى على أن يجعل الآية من قبيل استفهام الإنكار والتوبيخ ، فلا يخلو التنبيه على الضلال عن الإنكار والنفى .

وفى استعمال الاستفهام فى التنبيه على الضلال دون التصريح بهذا الضلال مبالغتان ـ كما يقول المتأخرون(٢) :

إحداهما : أن كونه طريق ضلال أمر واضح يكفى فى العلم به مجرد الالتفات إليه .

والثانية : إيهام أن المخاطب أعلم بذلك الطريق من المتكلم حيث يحتاج إلى السؤال عنه .

---

(١) سورة التكوير آية ٢٦ ، هذا وقد جعلها السكاكى من استفهام التوبيخ والإنكار ـ المفتاح ص ١٣٦ .

(٢) حاشية السيد الشريف على المطول ص ٢٣٥ .

والعلاقة بين معنى التنبيه على الضلال ومعنى الاستفهام هي اللزوم ؛ بيان ذلك : أن الاستفهام عن الشيء - الطريق مثلا في الآية الكريمة - يستلزم تنبيه المخاطب عليه ، وتوجيه ذهنه إليه ، فإذا سلك المخاطب طريقا واضح الضلالة كان ذلك غفلة منه عن الالتفات لتلك الطريق ، فإذا نبه عليه ووجه ذهنه إليه كان تنبيها له على ضلال ، فالاستفهام عن الطريق يستلزم توجيه الذهن إليه ، وتوجيه الذهن إلى هذا الطريق الواضح الفساد والهلاك والضلال مستلزم للتنبيه على كونه ضلالا .

قال عبد الحكيم[1] : « وذلك أن تجعل اللفظ مستعملا في الاستفهام ليتوصل به إلى التنبيه على طريق الكناية ، أو تجعل اللفظ مستعملا في الاستفهام مع التنبيه على أنه من مستتبعات الكلام » :

٥ - معنى الوعيد ، ومثاله عندهم قولك لمن يسيء الأدب - في مقام تهديد المخاطب بمضمون الكلام - ألم أؤدب فلانا : بشرط أن يعلم المخاطب المسيء للأدب أنك أدبت فلانا ، وبشرط أن تعلم أنه يعلم ذلك لئلا يرد على ذهنه الاستفهام الحقيقي ، ذلك أن الاستفهام الحقيقي يستدعي جهل السائل وعلم المجيب ، ومن هنا كان الشرط الثاني وهو علمك بأنه يعلم وقوع التأديب منك على فلان ، وأنك الآن تقدم الزجر والوعيد على التأديب .

والعلاقة بين الاستفهام والوعيد اللزوم ، فإن الاستفهام ينبه المخاطب على جزاء إساءة الأدب ، وهذا يستلزم وعيده لاتصافه بإساءة الأدب ، فهو مجاز مرسل من استعمال الملزوم في اللازم.

ويقول الدسوقي[2] : « وذلك أن تجعل الكلام من قبيل الكناية بأن تجعل اللفظ مستعملا في الاستفهام لينتقل منه إلى الوعيد » .

---

(١) حاشية الدسوقي ٢/٢٩٣ .
(٢) الموضع السابق .

على أنه يرى أيضا أنه يمكن أن يكون اللفظ مستعملا بقصد المعنيين معاً : الاستفهام والوعيد ، ومن هنا يكون الوعيد من مستتبعات التراكيب[١] .

هذا ، وقد حملوا على هذا المعنى أيضا قوله سبحانه (ألم نهلك الأولين)[٢].

٦ - معنى الأمر ، وذكروا فى هذا المعنى قوله عز وجل : (فهل أنتم مسلمون ؟)[٣] وقوله سبحانه (فهل من مدكر)[٤] ، ذلك أن المقام يستدعى أن يريد الله عز وجل - والله أعلم بمراده - أمر المخاطبين بمضمون الجملة ، وإذا كان المقام يستوجب إرادة المتكلم أمر المخاطب بمضمون الجمله كان الاستفهام للأمر .

هذا ، وقد سكتوا عن بيان العلاقة بين معنى الاستفهام ومعنى الأمر ، وأرى أنها - وفق ماذكروه فى حديثهم عن المعانى الأخرى - هى اللزوم ، ذلك أن الاستفهام فى الآية (فهل أنتم منتهون ؟) بعد شيوع معرفة الآثار الضارة الناجمة عن شرب الخمر فى المجتمع الإسلامى يستلزم أمر الله بتجنب شربها ، لأن الله عز وجل لا يأمر بالفحشاء ، كما يقول القرآن الكريم .

ونذكر من أخبار شيوع معرفة الآثار الضارة الناجمة عن شرب الخمر فى المجتمع الإسلامى ماروى[٥] أن قبيلتين من الأنصار شربوا الخمر وانتشوا فعبث بعضهم ببعض ، فلما صحوا رأى بعضهم فى وجه بعض آثار مافعلوا ، وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن ، فجعل بعضهم يقول : لو كان أخى بى رحيما مافعل بى هذا ، فحدثت بينهم الضغائن .

---

(١) الموضع السابق . (٢) سورة المرسلات آية ١٦ .
(٣) سورة المائدة آية ٩١ .
(٤) تكررت فى سورة القمر عدة مرات منها ١٥ ، ٢٢ ، ٣٢ .
(٥) تفسير القرطبى ٣/٢٢٨٩ — طبعة الشعب .

وما روى(١) عن على بن أبي طالب رضى الله عنـــه قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمر منا ، وحضرت الصلاة فقدموني ، فقرأت : يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون ، ونحن نعبد ما تعبدون .

٧ ـ معنى التهكم . ومثاله عندهم قوله سبحانه حكاية عن الكافرين فى شأن شعيب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام (أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا)(٢) فليس المراد به السؤال عن كون الصلاة آمرة بما ذكر ، وهو ظاهر ، بل قصدهم لعنة الله عليهم الاستخفاف بشأن شعيب فى صلاته، فكأنهم يقولون لا قرابة لك توجب اختصاصك بأمرنا ونهينا إلا هذه الصلاة التى تلازمها ، و ليست هى ولا أنت بشىء وبهذا الاعتبار صارت الصلاة سبباً آمراً تأمره أن يجعلهم يتركون ما يعبد آباؤهم ، وهذا هو محـــل التهكم ـ أى الاستهزاء والسخرية عندهم

والعلاقة بين معنى الاستفهام بالهمزة وهذا المعنى : أن الاستفهام عن كون الصلاة آمرة يناسب اعتقاد المخاطب ـ النبى شعيب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ أنها آمرة . واعتقاد ذلك يقتضى التهكم والاستهزاء بالمعتقد (اسم فاعل) ، إذ ليست مما يأمر أو ينهى ، فهو مجاز لغوى مرسل بعلاقة اللزوم .

هذا ما يذكره ابن يعقوب(٣) ، أما الدسوقى فيقول(٤) : «الاستفهام عن الشىء يقتضى الجهل به ، والجهل به يقتضى الجهل بفائدته ، والجهل بفائدته يقتضى الاستخفاف به ، وهو ينشأ عنه الهزؤ ، فهو مجاز مرسل علاقته

---

(١) المرجع السابق ٢ / ١٧٧٠ .
(٢) سورة هود آية ٨٧ .
(٣) مواهب الفتاح جـ ٢/٣٠٣ .
(٤) حاشية الدسوقى جـ ٢/٣٠٤ .

اللزوم ، كذا قيل ، والأحسن أن يكون استعمال أداة الاستفهام فى التهكم من باب الكناية ، أو يجعل التهكم من مستتبعات الكلام » .

وفى إسناد الأمر إلى الصلاة مجاز عقلى بعلاقة السببية(١).

٨ — معنى التحقير ، يرتبط هذا المعنى بمعنى التهكم ارتباطاً كبيراً حتى صححوا نشأة أحدهما عن الآخر ، وجوزوا اتحاد محلهما مع أنهما يختلفان مفهوماً ، فالتحقير : عد الشىء حقيراً والتعامل معه وفق هذا الاعتبار ، والتهكم عدم المبالاة بالشىء(٢) وإن كان كبيراً عظيماً فى نفسه .

ومثلوا له بقول المستفهم : ماهذا ؟ ومن ـ فى مقام معرفته به ـ لأنه إذا كان عارفاً بالمسئول عنه وقال فى مقام الاحتقار هذا السؤال ، فكأنه يفرضه شيئاً آخر غير المشاهد الذى يعرفه فيسأل عنه فيتولد التحقير ، فكأنه قال : هذا شىء ـ أو شخص ـ مستخف به حقير .

ويحدد الدسوقى العلاقة بين هذا المعنى ومعنى الاستفهام بما ذكره عن التهكم ، ونص عبارته(٣) : « الاستفهام عن الشىء يقتضى الجهل به ، وهو يقتضى عدم الاعتناء به لأن الشىء المجهول غير ملتفت إليه ، وعدم الاعتناء بالشىء يقتضى استحقاره ، فاستعمال الاستفهام فى التحقير إما مجاز مرسل على ماقيل ، أو أنه كناية وهو أولى ، أو أنه من مستتبعات الكلام » ، ولست أفهم عندما ذكر طريق الكناية لم قال : وهو أولى ؟ ! .

٩ — معنى التهويل ، يأتى معنى التهويل المسئول عنه عند إرادة السائل تفخيمه وتعظيمه لغرض ازدياد شناعته وجبروته ، ومثلوا بقراءة ابن عباس

---

(١) راجع فى استيضاح هذا المجاز دراستنا للمجاز العقلى فى البلاغة العربية ، وهى دراسة مخطوطة بكلية اللغة العربية — جامعة الأزهر .

(٢) وربما تكون عدم المبالاة ناتجة عن الحقارة .

(٣) حاشية الدسوقى ج ٢/٣٠٤ .

رضى الله عنهما للآية الكريمة (١)(ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين من فرعون ؟) على الاستفهام فى آخر الآية، وإذا كانت هذه الجملة الاستفهامية الأخيرة من تمام حديث الله سبحانه عن نعمته على بنى إسرائيل حيث نجاهم من العذاب المهين الذى أذاقهم له هذا الفرعون ، فإنها لا تصح أن تكون سؤالا من الله عز وجل ، لأن الله لا يخفى عليه شىء حتى يستفهم عنه ، إذن فالمراد بهذا الاستفهام تفظيع أمر فرعون والتهويل بشأنه ، وهو مناسب هنا لأنه لما وصف عذابه بالشدة زيادة فى الامتنان على بنى إسرائيل بالانجاء منه، هول بشأن فرعون ، وبين فظاعة أمره لعلم بذلك أن العذاب المنجى منه غاية فى الشدة ، حيث صدر عن هو شديد الشكيمة[٢]، عظيم العتو، فكأنه قيل : نجيناهم من عذاب من هو غاية فى العتو والتجبر ، وناهيك بعذاب من هو مثله .

والعلاقة بين هذا المعنى ومعنى الاستفهام هى اللزوم ، ذلك أنه لما كان الأمر الهائل من شأنه عدم الإدراك حقيقة أو ادعاء لزم من ذلك أن من شأنه أن يكون مجهولا يسأل عنه ، فبين التهويل والاستفهام ملابسة وتلازم، ولهذا يستعمل أحدهما فى الآخر مجازاً مرسلا .

١٠ ـ معنى التقرير :

قبل أن نتحدث عن هذا المعنى نود أن نذكر شيئاً من حديث المادة اللغوية له حتى نستبين استثمار البلاغيين أداة الاستفهام فى أدائه فنقول : جاء فى لسان العرب ما نصه(١). « قر الكلام والحديث فى أذنه يقره قرا : فرغه وصبه فيها ، وقيل : هو إذا ساره . ابن الأعرابى : القر : ترديدك الكلام فى أذن الأبكم حتى يفهمه . ويقال : أقررت الكلام لفلان إقراراً أى بينته حتى عرفه . وفى حديث استراق السمع : يأتى الشيطان فيتسمع الكلمة فيأتى بها إلى الكاهن

(١) سورة الدخان آية ٣٠ .

(٢) شديد الشكيمة : من إضافة الصفة للموصوف ، والشكيمة فى الأصل جلد يجعل على أنف الفرس كنى به هنا عن التكبر والتجبر والظلم .

(٣) لسان العرب مادة قرر جـ ٥/ ٨٤، ٨٥، ٨٦ .

فيقرها فى أذنه ، كما تقر القارورة إذا أفرغ فيها ، وفى رواية : فيقذفها فى أذن وليه كقر الدجاجة . القر : ترديدك الكلام فى أذن المخاطب حتى يفهمه ...... وفى حديث ابن مسعود : قاروا الصلاة ، هو من القر لا من الوقار ، ومعناه : السكون ، أى اسكنوا فيها لا تتحركوا ولا تعبثوا . وتقرير الإنسان بالشيء : جعله فى قراره ، وقررت عنده الخبر حتى استقر ..... صار الأمر إلى قراره ومستقره : تناهى وثبت ...... » .

كما جاء أيضا ما نصه(١) : « الاقرار : الاذعان للحق والاعتراف به . أقر بالحق ، أى اعترف به ، وقد قرره عليه وقرره بالحق : غيره حتى أقر » .

وإذا عدنا إلى البلاغيين بعد ذلك وجدناهم يقولون(٢) : التقرير ، ويكون لمعنيين :

«أحدهما : التحقيق والتثبيت» كقولك عند إرادة الانتقام أو اللوم والعزم على الشروع فيه لا على طريق الوعيد والتخويف ، أقتلت فلانا ؟ بمعنى أنك قتلته قطعاً فلا نجاة لك من اللوم أو القتل» .

« والآخر : حمل المخاطب على الاقرار ، وإلجاؤه إلى ذلك الإقرار وإلزامه إياه لغرض من الأغراض ، كأن يكون السامع منكراً لوقوع ذلك الفعل من المخاطب ، فتريد أن يسمعه منه من غير قصد لحقيقة الاستفهام المستلزم للجهل ، أو يكون فى السماع منه تلذذ بسبب المراجعة فى الخطاب ، أو نحو ذلك» .

ومعنى هذا أنهم أحسنوا استثمار حديث المادة اللغوية فى لسان العرب الفصحاء .

ثم نأتى - الآن - إلى تفصيل هذين المعنيين على أساليب الاستفهام فنقول : إن التقرير قد يأتى فى أساليب الاستفهام التى يراد بها أصلا(٣) التصديق ، وهذا

(١) المرجع السابق جـ ٥/٨٨ (٢) مواهب الفتاح جـ ٢/٢٩٤ .
(٣) أى عندما كانت للاستفهام الحقيقى .

خاص بحديث (هل) ، و (أم) المنقطعة ، و (الهمزة) فى حالة التقرير بالحكم ، وقد تأتى أيضاً فى أساليب الاستفهام التى يراد بها أساساً[١] التصور ، وهذا يشمل حديث الأدوات الاستفهامية الأخرى غير ما ذكرنا ، والهمزة فى حالة التقرير بالمفرد .

وفى اعتقادى أن المعنى الأول للتقرير - التحقيق والتثبيت - خاص بأساليب الاستفهام التى كانت أولا للسؤال عن التصديق[٢] ، وهذا يعنى أنه يكون مع أدوات الاستفهام التى يراد بها إثبات[٣] مضمون الجملة ، وإفادة أنه محقق واقع ، وهى - كما ذكرنا - هل ، وأم المنقطعة ، والهمـــزة فى حالة التقرير بالحكم .

وفيما هو خاص بأداة الاستفهام (هل) نذكر قول الله سبحانه (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون)[٤] ، فهذا يعنى أنه قد جوزى الكفار ما كانوا يفعلون ، كما نذكر أيضا قوله سبحانه (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا) ، بمعنى أنه قد أتى على الإنسان ذلك الحين ، ومن ذلك أيضا قوله عز وجل بعد القسم بالفجر والليالى العشر (هل فى ذلك قسم لذى حجر ؟)[٥] بمعنى أن فى هذا القسم مقنع لذى العقل فيزدجر ويفكر فى آيات الله تعالى ، وقوله عز وجل : (هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟)[٦] بمعنى أن ما كان فيه بنو إسرائيل من الذلة والهوان والسبى يجعل المتوقع والمرجو منهم إن كتب عليهم القتال أن يقاتلوا .

---

(١) أى عندما كانت للاستفهام الحقيقى .

(٢) أى عند إرادة الاستفهام الحقيقى .

(٣) لايتأتى النفى هنا لأن له معنى خاصاً به ، وهو معنى الانكار .

(٣) سورة المطففين آية ٣٦ . (٤) سورة الإنسان آية ١ .

(٥) سورة الفجر آية ٥ . (٦) سورة البقرة آية ٢٤٦ .

وفيما هو خاص بأداة الاستفهام (أم) المنقطعة نذكر قوله سبحانه (١) (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟)، يعنى أن قلوبهم مقفلة لا يصل إليها ذكر، ومن ذلك أيضاً الآية الشريفة (أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟) يعنى نحن القادرون على الخلق والإعادة.

وفيما هو خاص بالاستفهام بالهمزة فى الأسلوب الذى يأتى أصلا(٢) للتصديق، نذكر المثال الذى نقلناه خلال كلام البلاغيين، أعنى قولك عند إرادة الانتقام أو اللوم والعزم على الشروع فيه : أقتلت فلاناً ؟، يعنى أنك قتلته فعلا، فلا نجاة لك من اللوم أو القتل.

وفى اعتقادى أيضاً أن المعنى الثانى (حمل المخاطب على الإقرار وإلجائه إلى ذلك الإقرار وإلزامه إياه) حيث يكون فى الحوار والتخاطب - كما هو منطوقه - يشمل الأساليب التى تأتى أساساً (٣) للسؤال عن كل من التصور والتصديق.

وإذا جاء فى الأساليب الأولى - أعنى الأساليب التى تكون أساساً(٤) للتصور - يكون المراد منه التقرير بما يسأل بأداة الاستفهام عنه، فمثلا يقال فى التقرير بالعدد مع التوبيخ والتقريع الآية الكريمة (٥) (سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة) لأن السؤال بها عن العدد، وفى التقرير بتمييز أحد المتشاركين فى أمر يعمهما مع التعظيم الآية الكريمة(٦) (فأى الفريقين أحق

---

(١) سورة محمد آية ٢٤. (٢) أى عند إرادة الاستفهام الحقيقى.

(٣) أى التى كانت عند إرادة الاستفهام الحقيقى.

(٤) أى عند إرادة الاستفهام الحقيقى. (٥) سورة البقرة آية ٢١١.

(٦) سورة الأنعام آية ٨١، هذا ويقول صاحب البحر المحيط (٤/١٧٠، ١٧١) لما خوفوه فى مكان الأمن ولم يخافوا فى مكان الخوف أبرز الاستفهام فى صورة الاحتمال وإن كان قد علم قطعاً أنه هو الآمن لا هم، كما قال الشاعر :

=

بالأمن إن كنتم تعلمون) ، لأن السؤال بها عن تمييز وتعيين أحد المتشاركين في أمر يعمهما ، وفي التقرير بالهيئة والحال مع التمثيل الآية الكريمة [١] (كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر) لأن السؤال بها عن الهيئة والحال .

هذا وقد أكد القزويني - متابعـــا الإمام عبد القاهر - أن الاستفهام التقريري بالهمزة - إذا كانت للتصور أصلا [٢] - يسير على هذا المنوال في أغلب صوره فقال [٣]: « ويشترط في الهمزة أن يليها المقرر به [٤] - أي إذا كان مفرداً - كقولك : أفعلت ؟ إذا أردت أن تقرره بأن الفعل كان منه ، وكقولك : أأنت فعلت ؟ إذا أردت أن تقرره بأنه الفاعل ، وذهب الشيخ عبد القاهر والسكاكي وغيرهما إلى أن قوله سبحانه [٥] (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟) من هذا الضرب . ثم نقل عبارة الشيخ عبد القاهر عن هذه الآية فقال [٦] « قال الشيخ : لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان ، ولكن أن يقر بأنه منه كان كيف وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم : أأنت فعلت هذا ؟ ، وقال عليه السلام : بل فعله كبيرهم هذا . ولو كان التقرير بالفعـــل في قولهم : أأنت فعلت ؟ لكان الجواب : فعلت أو لم أفعل » [٧] .

= المثن لقيتك خاليين لتعلمن أيي وأيك فارس الأحزاب

أي : أينا ، ومعلوم عنده أنه هو فارس الأحزاب لا المخاطب .

(١) سورة القمر آية ١٨ .

(٢) أي عند إرادة الاستفهام الحقيقي . (٣) الإيضاح ١٩٤/٢ .

(٤) كما كان يليها المسئول عنه المفرد في الاستفهام الحقيقي .

(٥) سورة الأنبياء آية ٦٢ . (٦) الإيضاح ٢٩٥/٢ ، ٢٩٦ .

(٧) حمل المصنف الآية على الاستفهام الحقيقي واعترض على فهم عبد القاهر لها إذ ليس في السياق ما يدل على أنهم كانوا عالمين بأن إبراهيم عليه السلام هو الذي كسر الأصنام وأجاب سعد الدين التفتازاني على هـذا الاعتراض فقال (المطول ٢٣٦) =

وإنما قلنا: يلي الهمزة المقرر به في أغلب الصور لأنه قد ولي الهمزة غير المقرر به في الآية الكريمة (١) (أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟) حيث قرر الملائكة المخاطبين في الآية، والذي ولي الهمزة اسم الإشارة العائد على المشركين. هذا، وقد ذكرنا من قبل أن سيبويه يجوز أن يلي الهمزة غير المسئول عنه (٢).

أما إذا جاء التقرير بالمعنى الثاني (حمل المخاطب على الإقرار وإلجائه إلى ذلك الإقرار وإلزامه إياه) في الأساليب التي تكون أساسا (٣) للتصديق فإنه ليس المعنى فيه أن يقر المخاطب بالحكم المخصوص الذي دخلت عليه الهمزة مثل التقرير في المعنى الأول، ولكنه تقرير المخاطب بما يعرفه من الحكم في المسألة المعروضة عليه، يقول سعد الدين التفتازاني في شرح التقرير في الآية الكريمة (٤) (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) (٥): «الهمزة فيه للتقرير أي بما يعرفه عيسى عليه الصلاة والسلام من هذا الحكم، لا بأنه قد قال ذلك».

ومن تقرير المخاطب بما يعرفه أيضا من الحكم - وفق ما زعمه بعض المتأخرين قوله عز وجل (٦) (أليس الله بكاف عبده؟) فإن الآية قد قيلت للرد على

= يدل عليه (على أنهم كانوا عالمين) ما قبل الآية، وهو أنه عليه الصلاة والسلام قد حلف بقوله (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين)، ثم لما رأوا كسر الأصنام (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) فالظاهر أنهم قد علموا ذلك من حلفه وذمه الأصنام، وقد روى أنهم هربوا وتركوه في بيت الأصنام، ليس معه أحد، فلما أبصروه يكسر الأصنام أقبلوا إليه يسرعون ليكفوه.

(١) سورة سبأ آية ٤٠. (٢) راجع دراستنا له.

(٣) أي عند إرادة الاستفهام الحقيقي.

(٤) سورة المائدة آية ١١٦. (٥) المطول ٢٣٨.

(٦) سورة الزمر آية ٣٦.

من عسى أن يتوهم أنه ليس بكاف ، أو على من نزل منزلته فيتقرر بإقرار المخاطبين بأن الله كاف لاستلزامه ـ أى هذا الإقرار ـ إنكار النفى ، أى نفيه بحيث يظهر بذلك الإقرار أنه لا سبيل إلى الاقرار بغير الإثبات لظهوره لكل أحد ، ولو لمعاند »(١) .

هذا ، وقد اعتبر القزوينى التقرير فى الأساليب المنفية من قبيل الإنكار(٢) ، وهو محق فى ذلك ، يقول الدسوقى(٣) : « مآل الإنكار إلى النفى ، فكما أن أداة النفى تدخل على ما أريد نفيه كذلك تدخل أيضا على ما أريد إنكاره » .

ويمكن أن نؤيده من طريق آخر هو : أن التقرير إثبات وإيجاب ، والنفى جحد وإنكار ، والأساليب المنفية ـ وإن كان يؤول إنكارها إلى الإثبات ـ فإنها على صورة النفى ، ومن هنا كان الأولى أن تبحث فى ثنايا حديث الإنكار .

وإذا كان لنا الآن أن نرجح بين كلا المعنيين ونقول : أى المعنيين أفضل فى حمل خروج أسلوب الاستفهام عن معناه إليه فإن لنا أن نرجح المعنى الثانى لأنه يشمل خروج كلا نوعى أساليب الاستفهام (التصور والتصديق) بخلاف المعنى الأول فإنه لا يشمل إلا خروج أساليب الاستفهام التصديقى فقط ـ كما أوضحنا .

---

(١) حمل السبكى هذا المثال الأخير ـ أليس الله بكاف عبده ـ ونظائره مثل قول الله سبحانه (ألم نشرح لك صدرك ؟) ، (ألم يجدك يتيما فآوى ؟) ، (ألم نربك فينا وليدا ؟) على المعنى الأول للتقرير بمعنى : الله كاف ، قد شرحنا لك صدرك ، قد وجدناك يتيما فآويناك ، قد ربيناك فينا وليدا ، وهنا نقول : إن التقرير بمعنى التحقيق والتثبيت يكون عما دخله النفى ، بمعنى أنه تقرير وإثبات ما بعد النفى ، لكن السبكى يخرج بهذا الأسلوب إلى دائرة الأساليب الخبرية . (كلامه ٢/٣٠٧ عروس الأفراح) .

(٢) تلخيص المفتاح ٢/٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٣) حاشية الدسوقى على شرح السعد للتلخيص ٢/٢٩٦ .

فمن أجل أن يكون معنى التقرير كبقية المعانى التى يخرج إليها الاستفهام لا يفرق بين أسلوبى التصور والتصديق نرجح المعنى الثانى .

على أن ترجيح المعنى الثانى يتفق مع القاعدة الدائمة التى استخرجها الإمام عبد القاهر من خلال استقرائه النصوص الفصيحة والمعجزة ، والتى صاغها القزوينى فى شرط هام خصصه بأسلوب التقرير بالهمزة ، وهو أن يلى الهمزة المقرر به سواء كان مفرداً أو حكماً .

ولا يقدح فى دوام هذه القاعدة ما ذكرناه من تجويز سيبويه إيلاء الهمزة غير المسئول عنه فى الاستفهام الحقيقى ، لأن هـــذا يعتبر استثناء لا يقاس عليه ، كما أنه جواز لا وجوب[1] .

ولعل هذا الترجيح قد أومأ إليه سعد الدين التفتازانى فى مختصره عندما قال وهو يعرض معنى التحقيق والتثبيت[2] : « وقد يقال : التقرير بمعنى التحقيق والتثبيت ، فيقال : أضربت زيداً ؟ بمعنى أنك ضربته البتة » . هذا ، فضلا عن تجاهل القزوينى للمعنى الأول .

بقى أن نبين معنى التقرير فى الأمثلة التى أوردناها عند شرح المعنى الأول ، والتى ليست فى مقام الحوار والتخاطب الحقيقى ، فنقول إنها موجهة لكل من يتأتى له الخطاب ، وأنها تحمله على الاعتراف بالحقيقة الثابتة التى تتضمنها هذه الأمثلة دائماً .

العلاقة بين معنى الاستفهام وكلا معنيى التقرير :

يستعرض الدسوقى بعض الأقاويل التى ترى أن العلاقة هى اللزوم[3] ،

---

(١) انظر دراستنا له . (٢) مختصر المعانى لسعد الدين التفتازانى ٢/٢٩٥ .

(٣) قالوا عن اللزوم : إن التلازم موجود بين الاستفهام والتحقيق والتثبيت ، فإن المستفهم عن الشىء يريد التحقق والتثبت منه ، وقال الدسوقى مفنداً : اللزوم لا يكفى فى بيان العلاقة لوجوده فى جميع العلاقات .

أو الإطلاق والتقييد(١)، ثم ينقدها مفنداً لها ، ثم يقول(٢) : « والأولى — أي بالنسبة إلى المعنى الأول — أن استعمال الاستفهام في التحقيق على طريق الكناية ، أو أنه من مستتبعات الكلام » .

أما بالنسبة إلى المعنى الثاني للتقرير فيرى الدسوقي أن هذا الاستعمال من قبيل المجاز المرسل ، وأن العلاقة بين هذا المعنى ومعنى الاستفهام هي الإطلاق والتقييد ، وذلك لأن الاستفهام طلب الإقرار بالجواب مع سبق جهل المستفهم ، فاستعمل لفظه في مطلق طلب الإقرار ، ثم في طلب الإقرار من غير سبق جهل(٣) .

١١ — معنى الإنكار :

إذا كان العلماء قد قالوا : إن الاستفهام الإنكاري بمعنى النفي فإننا نقول في سبيل تعليل ذلك وتأييده أيضا : إننا نشهد معنى النفي ونحسه في كل أمثلة هذا الاستفهام ، إن لم نشاهده ونحسه في نفي نفس الشيء المذكور مثل قوله سبحانه (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا)(٤) ، أي لم يخصكم بهذا الاصطفاء ، نشاهده ونلاحظه في نفي لياقته وانبغائه وتأتيه مثل قولك لمن عصى الله : أعصيت ربك ؟ أي لا ينبغي لك أن تعصيه . وسنوضح ذلك بعد قليل عند الحديث عن مقامات استعمال هذا المعنى .

هذا ويكون الإنكار في كل صور أساليب الاستفهام ، ومع كل الأدوات ،

---

(١) وقالوا عن الإطلاق والتقييد : إن الاستفهام عن الشيء يستلزم تحقيقه وتثبيته بالجواب ، فاستعمل اللفظ في مطلق التحقيق والتثبيت ، وقال الدسوقي مفنداً : هذا ليس هو الإطلاق والتقييد المعتبر علاقة — كما هو ظاهر — راجع في حديث هذه العلاقة دراستنا : المجاز اللغوي في البلاغة العربية — المخطوطة بكلية اللغة العربية/جامعة الأزهر .

(٢) حاشية الدسوقي ٢/٢٩٥ . (٣) حاشية الدسوقي — الموضع السابق .

(٤) سورة الإسراء آية ٤٠ .

والأمر فيه - تماماً - كما ذكرنا فى حديث التقرير بالمعنى الثانى ، فنحن إذا أنكرنا المكان استعملنا (أين) ، وفى هذا الصدد نقرأ الآية الكريمة (فأين تذهبون ؟)[١] التى تنكر على المشركين مذاهبهم التى سلكوها فضلوا الطريق السوى ، وإذا أنكرنا الحال استعملنا (كيف) ، وفى هذا الصدد نقرأ الآية الكريمة (كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ؟)[٢] يقول صاحب البحر المحيط خلال ماعرض من آراء فى هذه الآية[٣] : « الاستفهام هنا يراد الجحد ، والمعنى : ليس يهدى ، ونظيره قول الشاعر :

فهذه سيوف يا صدى بن مالك كثير ولكن أين بالسيف ضارب[٤]

وقول الآخر :

كيف نومى على الفراش ولما يشمل الشام غارة شعواء ؟

وفى إنكار الحال أيضا يمكن أن نستعمل (ما) مثل قوله سبحانه (ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟)[٥] يقول صاحب البحر المحيط : « أنكر عليهم كفرهم بآيات الله وهم يشهدون أنها آيات الله »[٦] .

وكثيراً مايجمع القرآن بين (كيف) و (ما) فى إفادة إنكار الحال ليزداد هذا الإنكار قوة ، كما فى قوله عز وجل (مالكم كيف تحكمون ؟)[٧] .

هذا فى أدوات الاستفهام التى يخرج فيها السؤال عن أن يكون للتصور الحقيقى لشىء ما ، أما فى أدوات الاستفهام التى يخرج فيها السؤال عن أن

---

(١) سورة التكوير آية ٢٦ . (٢) سورة آل عمران ٨٦ .
(٣) البحر المحيط ٥١٨/٢ .
(٤) لاحظ أن الاستفهام بأين هنا لإنكار المكان الذى أشرنا إليه فى الشرح قبل سطور .
(٥) سورة آل عمران آية ٧٠ . (٦) البحر المحيط ٤٨٩/٢ ، ٤٩٠
(٧) سورة القلم آية ٣٦ ، وانظر البحر المحيط ٣٧٧/٧ .

يكون للتصديق مثل (هل) و (أم) و (الهمزة) ، فإننا في (هل) نذكر قوله سبحانه (هل يستوي الأعمى والبصير؟)(١) وقوله عز وجل (فهل ترى لهم من باقية ؟)(٢) وقوله سبحانه (هل يسمعونكم إذ تدعون ؟)(٣) . وفي (أم) نذكر قوله سبحانه (أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟)(٤) وقوله عز من قائل (أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ؟)(٥) وقوله سبحانه (أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟)(٦) .

أما إذا استعملنا الهمزة وكان أسلوب الاستفهام في حقيقته للتصور فإن الشرط الذي ذكره القزويني في معنى التقرير يظل قائماً هنا ، بمعنى أن يلي الهمزة الشيء المنكر ، فإذا أنكرنا الفاعل المعنوي أو اللغوي لا الاصطلاحي ذكرنا الآيات الكريمة (٧) (أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم) ، (أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين ؟) ، (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟) - لاحظ أن تقديم الضمائر الواقعة فاعلا معنويا في الآيات الثلاث للقصر والاختصاص كما يقول الدسوقي .

وبالمناسبة فإن السكاكي قد نبه على اعتبار الضمير المتقدم في هذه الآيات الثلاث مبتدأ ، وليس — كما هو رأيه الذي سبق شرحه — محتملا لذلك ، ولأن يكون فاعلا مقدماً من تأخير حتى يتأتى له غرض تقوية حكم إنكار نسبة الحدث إلى المسند إليه المتقدم عن طريق تكرير الإسناد إليه .

وهنا نقول : إنه قد اتفق مع الجمهور في إنكار الفاعل المعنوي ، لكن

---

(١) سورة الرعد آية ١٦ . (٢) سورة الحاقة آية ٨ .
(٣) سورة الشعراء آية ٧٢ . (٤) سورة الأنعام ١٤٤ .
(٥) سورة الزخرف آية ١٦ .
(٦) سورة الطور آية ٤١ ، وسورة القلم آية ٤٧ .
(٧) الآيات الثلاث على الترتيب الزخرف آية ٣٢ ، الزخرف ٤٠ ، يونس ٩٩

ليس من طريق الاختصاص والقصر كما يقولون ، وإنما من طريق إسناد الحدث إليه .

ويظهر الفرق بين الرأيين من الوجهة البلاغية فى أن الجمهور يرى أن بناء الجملة على الاسم المسند إليه الحدث إنما هو لغرض اختصاص هذا المسند إليه بالحدث دون اشتراك غيره معه فى إحداثه ، فالإنكار موجـــه إلى وقوع الحدث من المسند إليه بالذات ، وليس ينكر الحدث إذا وقع من غير هذا المسند إليه ، بينما يرى السكاكى أن بناء الجملة على الاسم المسند إليه الحدث فى أول الجملة من أجل تقوية إسناد نسبة الحدث إليه وإذا كان احتمال اشتراك غير هذا المسند إليه فى إحداث الحدث قائما - كما هو منطوق لفظ تقوية نسبة الحدث إلى المسند إليه - فإن الإنكار يكون موجها إلى المسند إليه المتقدم فى أول الجملة مع توجه هذا الإنكار إلى غيره ممن يحتمل اشتراكه معه فى إحداث الحدث أيضا .

ولعل هذا الفرق هو الذى حث القزوينى على أن يؤاخذ السكاكى على قوله[1] : « فلا تحمل نحو قوله تعالى (آلله أذن لكم)[2] على التقديم، فليس المراد أن الأذن ينكر من الله دون غيره ، ولكن احمله على الابتداء مراداً منه تقوية حكم الإنكار » ، لأنه - على رأى السكاكى - يكون الاسم العلم مبتدأ قطعاً ، وهذا يجعل غير الله يمكن أن يأذن ويأمر وينهى .

وهذه الآية الكريمة على رأى الجمهور - الذى يجعل التقديم للتخصيص والقصر - تجعل الاذن من الله فقط ، ومن ثم إذا توجه الانكار والنفى إلى الفاعل المعنوى المتقدم الذى يملك الاذن انتفى الفعل من أصله .

وهذه الصورة هى إحدى صورتين لإنكار الفعل ، وتحليلها أننا إذا أردنا إنكار الفعل على هذه الصورة يمكن أن نوجه الإنكار إلى حدوثه من هذا

(١) مفتاح العلوم ١٣٦ . (٢) سورة يونس آية ٥٩ .

الفاعل بالذات على طريق التخصيص ، ولا فاعل سواه ، فيكون ذلك إنكاراً للفعل من أصله .

وعلى هذه الوتيرة أيضا يمكن إنكار الفعل عن طريق المفعول (١) الذي لا يوجد غيره مفعولا مع احتياج الفعل إلى مفعول نحو قولك: أزيداً ضربت أم عمراً ؟ لمن يدعى أنه ضرب إما زيداً وإما عمراً دون غيرهما ، لأنه إذا لم يتعلق الفعل بأحدهما ، والتقدير أنه لم يتعلق بغيرهما فقد انتفى من أصله لا محالة، وعليه قوله تعالى (قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟)[٢] يقول صاحب البحر المحيط[٣]: « تقديم المفعول وتأخير الفعل دل على وقوع تحريمهم الذكور تارة ، والإناث أخرى ، وما اشتملت عليه الرحم أخرى ، فأنكر تعالى ذلك عليهم حيث نسبوه إليه تعالى ، فقال: حرم، أي حرم الله ، أي لم يحرم تعالى شيئا من ذلك لا ذكورها ولا إناثها ولا ما تحمله أرحام إناثها » .

والصورة الأخرى لإنكار الفعل أن تأتي به مباشرة بعد همزة الانكار مثل قوله سبحانه (أصطفى البنات على البنين ؟)[٤] وقوله عز وجل (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟)[٥] ، وقول امرىء القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي
ومسنونة زرق كأنياب أغوال[٦]

---

(١) تقديم المفعول هنا بغرض التخصيص .

(٢) سورة الأنعام آية ١٤٣ . (٣) البحر المحيط ٤/٢٣٩ .

(٤) سورة الصافات آية ١٥٣ . (٥) سورة غافر آية ٢٨ .

(٦) حاول بعضهم إبطال شرط القزويني — أن يلي الهمزة الشيء المنكر — مستدلا بقول امرىء القيس في البيت — قبل المذكور :

يغط غطيط البكر شد خناقه ليقتلني والمرء ليس بقتال =

وإنكار المفعول أن تأتى به بعد الهمزة ـ على ما اشترطه القزوينى ـ مثل قوله سبحانه (قل أغير الله أتخذ ولياً ؟)(١) .

ولنتأمل ـ الآن ـ الفرق الذى ذكره الدسوقى بين هذه الآية الكريمة التى وردت على لسان إبراهيم خليل الله لأبيه (أتتخذ أصناماً آلهة؟)(٢) حيث قال : « قوله تعالى: (قل أغير الله أتخذ وليا ؟)(٣) المنكر كون المتخذ غير الله، وأما أصل الاتخاذ فلا يتعلق به إنكار ، وهذا بخلاف قوله تعالى (أتتخذ أصناماً آلهة ؟) فإن الاتخاذ منكر وغير مسلم » .

هذا كله فى الاستفهام بالهمزة الذى أصله التصور ، أما الاستفهام بالهمزة الذى كان أصله التصديق فإنه لا يجرى إلا فى الأساليب المنفية ، كما هو رأى القزوينى ، وهو محق فى ذلك ـ كما أشرنا من قبل ـ ، ومن أمثلتـــه ـ كما يقول القزوينى ـ قول الله سبحانه (أليس الله بكاف عبده ؟)(٤) فليس المراد به الاستفهام ، بل المراد به إنكار ما دخلت عليه الهمزة ، وهو النفى ، فيكون المراد الإثبات ، أى الله كاف عبده ، وذلك لأن إنكار النفى نفى لذلك النفى ، ونفى النفى إثبات ، إذ لا واسطة بينهما . ومثل ذلك أيضا الآيات الكريمة : (ألم نشرح لك صدرك ؟)(٥)، (ألم يجدك يتيماً فآوى ؟)(٦) ، (ألم نربك

أى أن المعنى على إنكار الفاعل وأن هذا الشخص ليس بالذى يجىء منه أن يقتل مثلى. ولكن القزوينى رد عليه بأنه لو كان هذا الاستفهام لإنكار الفاعل وأنه ليس مما يتصور منه الفعل على ماسبق إلى الوهم لما احتاج الشاعر إلى أن يذكر مايمنع الفاعل من الفعل ـ أعنى قوله (والمشرفى مضاجعى .... الخ) ، والمانع إنما يحتاج إليه مع من يتصور صــدور الفعل منه دون من يكون فى نفسه عاجزاً . (انظر إيضاح القزوينى ٢/٣٠٣) .

(١) سورة الأنعام آية ١٤ .
(٢) سورة الأنعام آية ٧٤ .
(٣) حاشية الدسوقى ٢/٢٩٦
(٤) سورة الزمر آية ٣٦ .
(٥) سورة الشرح آية ١ .
(٦) سورة الضحى آية ٦ .

فينا وليداً ؟)(١) ، وبيت جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟

مقامات استخدام معنى الإنكار :

ذكر المتأخرون أن معنى الإنكار يرد فى أحد مقامين : مقام التوبيخ ، ومقام التكذيب ، وكل منهما ـ وفقاً للمنطق العقلى ـ يكون على شىء قد وقع فعلا ، أو بصدد أن يقع حالا أو مستقبلا ـ على ما سنبين الآن .

مقام التوبيخ (ويسمى الإنكار التوبيخى) ، وذلك إذا كان على أمر قد وقع فعلا مثل قولك لمخاطبك الذى عصى الله : أعصيت ربك ؟

فمعناه أنك تقول لمخاطبك : ما كان ينبغى لك أن تفعل هذا الأمر، وأنت هنا تقصد أن تجعل مخاطبك يندم على فعل ما، ويتجنب هذا الفعل فى المستقبل.

وأيضا : إذا كان على أمر : المخاطب بصدد فعله حالا أو مستقبلا ، مثل قولك للرجل يضيع الحق : أتنسى قديم إحسان فلان ؟ وقولك للرجل يركب الخطر : أتخرج فى هذا الوقت ؟ أتذهب فى غير الطريق ؟ فمعناه أنك تقول لمخاطبك : لا ينبغى أن يكون ذلك منك، وأنت هنا تنبهه حتى يرجع إلى نفسه فيخجل أو يرتدع عن فعل ما هم به .

مقام التكذيب (ويسمى الإنكار التكذيبى) : ولا يكون إلا فى أمر لم يقع فعلا ، والمقصود هنا تكذيب المخاطب فى زعمه الصريح أو الخفى ، فالصريح مثل قوله سبحانه (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ؟)(٢) ، والخفى الذى يأتى لزوما مثل قول الله سبحانه (أشهدوا خلقهم ؟)(٣) فإن المشركين لما جزموا بأن الملائكة التى تعبد الرحمن إناثاً جزم التأكيد واليقين ، كما جاء

(١) سورة الشعراء الآية ١٨ .
(٢) سورة الطور آية ١٥ .
(٣) سورة الزخرف آية ١٩ .

في قوله سبحانه (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً)[1] كانوا كمن زعم أنه شهد خلقهم، وسواء كان الزعم صريحاً أو خفياً فإنه يأتي للماضي وللحال وللمستقبل .

فالماضي : يكون إذا ادعى المخاطب وقوع شيء فيما مضى – أو نزل منزلة المدعي – نحو قوله المعنى (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ؟)[2] ومعناه أنك تقول لمخاطبك : لم يكن ذلك . وبالنسبة للآية ، فإن المعنى لم يفعل هذا الذي تدعون ، أي لم يخصصكم بالبنين ويتخذ من الملائكة بنات كما هو مقتضى اعتقادكم لتعاليه عن الولد مطلقا .

والحال أو المستقبل : يكون إذا ادعى المخاطب أن أمرا من الأمور يقع حالا أو مستقبلا – أو نزل منزلة المدعي لذلك – نحو قوله تعالى (أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟)[3] فمعناه أنك تقول لمخاطبك : لا يكون ذلك. وبالنسبة للآية ، فإن المعنى إذا ادعى الكفرة أنهم يلزمون ما يكرهون أو نزلوا منزلة من ادعى ذلك – لا يكون هذا الإلزام

ويجب – الآن – أن نفرق بين كلا نوعي الإنكار فنقول : الإنكار التوبيخي يتوجه لغير مدخول الهمزة ، لأن مدخول الهمزة قد وقع فعلا أو كالواقع بشواهد القرائن ، ومن هنا كان معناه : ما كان ينبغي ، أو لا ينبغي أن يكون والإنكار التكذيبي يتوجه لنفس مدخول الهمزة لأنه لم يقع بعد، ولن يقع ، ولذلك كان معناه : لم يكن ذلك، أو لا يكون ذلك.

العلاقة بين معنى الاستفهام ومعنى الإنكار :

ذكر الدسوقي[4] صدد حديث عن خروج أداة الاستفهام إلى معنى

---

(١) سورة الزخرف آية ١٩ .
(٢) سورة الإسراء آية ٤٠ .
(٣) سورة هود آية ٢٨ .
(٤) حاشية الدسوقي ٢/٢٩٥ .

الإنكار أن بعض العلماء قد رأى أن طريق هذا الخروج هو المجاز المرسل ، لكنه لم يحك عنهم غير الطريق العام لتصحيح هذا المجاز ، أعنى بذلك علاقة الملابسة ، أو علاقة اللزوم ، والأول هو رأى ابن يعقوب حيث قال[١] : « إن المستفهم عنه مجهول ، والمجهول منكر ، أى منفى عنه العلم ، فاستعمل لفظ الاستفهام فى الإنكار لهذه الملابسة المصححة للمجاز الإرسالى بمعرفة القرائن الحالية ، أما الثانى فلم يحدد له قائلا ، بل اكتفى بقوله[٢] : « وذكر غيره أن إنكار الشيء بمعنى كراهته والنفرة عن وقوعه يستلزم عدم توجه الذهن إليه ، وهو يستلزم الجهل به ، والجهل يقتضى الاستفهام » .

ثم قال[٣] : « والأحسن أن يقال : إن استعمال الاستفهام فى الإنكار إما كناية أو أنه من مستتبعات الكلام » .

٢ — معنى التوبيخ والتعجب جميعا ، ومثاله قوله سبحانه (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون)[٤] .

يقول القزوينى - الذى انفرد فى الإيضاح بذكر ذلك المعنى الثانى[٥] : « أى كيف تكفرون والحال أنكم عالمون بهذه القصة . أما التوبيخ فلأن الكفر مع هذه الحال ينبيء عن الانهماك فى الغفلة أو الجهل ، وأما التعجب فلأن هذه الحال تأبى أن لا يكون للعاقل علم بالصانع وعلمه به يأبى أن يكفر ، وصدور الفعل مع الصارف القوى مظنة تعجب ، ونظيره[٦] (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب) .

هذا ، وقد سكت القزوينى عن تحديد العلاقة بين هذين المعنيين ومعنى

---

(١) مواهب الفتاح ٢/٢٩٦ . (٢) حاشية الدسوقى ٢/٢٩٥ .
(٣) حاشية الدسوقى ٢/٢٩٥ ، ٢٩٦ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٨ .
(٥) الايضاح ٢/٢٠٦
(٦) سورة البقرة آية ٤٤ .

الاستفهام ، وإن كانت هذه العلاقة - كما هو مضمون حـــديثه الذى نقلناه - اللزوم :

معانى أخرى ذكرها السبكى :

يضيف السبكى معقباً على حديث المعانى المتولدة لأداة الاستفهام بمعونة المقام عند إرادة غير السؤال بها قوله[1] : « هـــذا ما ذكره المصنف - أى القزوينى - ... وقد تقدم أن (هل) تستعمل فى التمنى ، فهذا أيضا مما نحن فيه ، وزاد غيره - أى غير القزوينى - التهديد ، ومثله بألم أؤدب فلانا ؟ ، وقد تقدم التمثيل به للوعيد ، ولا شك أن معناهما متقارب .

« وزيد أيضا العرض نحو : ألا تنزل فتصيب خيراً ، والتحضيض : كقولك لمن بعثته لمهم فلم يذهب : أما ذهبت ؟ ، والزجر ، كقولك لمن يؤذى أباه : أتفعل هذا ؟ ذكر الثلاثة فى المصباح .

« وقد تأتى الهمزة للأمر - كما قيل فى قوله سبحانه وتعالى (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم؟)[2] معناه : أسلموا . « وتأتى الهمزة للتسوية المصرح بها كقوله تعالى : (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) وغيرها كقوله سبحانه وتعالى حكاية (وإن أدرى أقريب أم بعيد ؟)[3] وقال أبو سعيد السيرافى فى : علمت أزيد فى الدار أم عمرو ، هذا ليس باستفهام ، والمتكلم به بمنزلة المسئول عنه ، والمخاطب بمنزلة السائل ، « وقد خرجت الهمزة أيضا عن معناها فى : أرأيتك ، موافقه : أخبرنى . قال فى المصباح ، وقد تأتى للمبالغة فى المدح كقوله :

بدا فراع فؤادى حسن صورته
فقلت : هل ملك ذا الشخص أم ملك

---

(١) انظر عروس الأفراح ٢/٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٢) سورة آل عمران آية ٢٠ . (٣) سورة الأنبياء آية ١٠٩ .

أو فى الذم كقول زهير :

فما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء ؟

أو التدله فى الحب كقوله :

بالله ظبيات القاع قلن لنا ليلاى منكن أم ليلى من البشر ؟

رأى السبكى فى علاقة المعنى المتولد بمعنى الاستفهام :ـ

أفردنا رأى السبكى بالذكر لأنه يحمل شيئاً من المغالطة للحقيقة التى يعرفها وهو من هو فى الدقة والتحقيق العلمى ، ولن نسبق الأحداث فنملى على القارىء رأينا فى كلامه ، ولكن سندعه يقرأ بنفسه قوله [١] : « والتحقيق فى أكثر هذه الأمور رجوعها إلى الاستفهام الحقيقى » .

ويشرح السبكى هذا الرأى قائلا [٢] : « وهل نقول : إن معنى الاستفهام موجود وانضم إليه معنى آخر ، أو تجرد من الاستفهام بالكلية ؟ محل نظر والذى يظهر الأول ، ويساعده ما قدمناه عن التنوخى من أن « لعل » تكون للاستفهام مع بقاء معنى الترجى ، وقال التنوخى أيضاً فى نحو [٣] (الحاقة ما الحاقة ؟) ليس استفهاما محضا .

« ومما يرجح الأول : أن الاستبطاء فى قولك : كم أدعوك ؟ معناه : أن الدعاء قد وصل إلى حد لا أعلم عدده ، فأنا أطلب أن أفهم عدده ، والعادة تقضى بأن الشخص إنما يستفهم عن عدد ما صدر منه إذا كثر فلم يعلمه ، وفى طلب فهم عدده ما يشعر الاستبطاء .

وأما التعجب فالاستفهام معه مستمر ، لأن من تعجب من شىء فهو بلسان الحال سائل عن سببه ، وكأنه يقول : أى شىء عرض لى فى حال عدم رؤية

---

(١) عروس الأفراح ٣٠٦/٢ .

(٢) الموضع السابق . (٣) سورة الحاقة آية ١ ، ٢

الهدهد(١) ، وأصله : أي شيء عرض له ؛ لكنه قلبه إلى نفسه مبالغة في الصفة .

« وأما التنبيه على ضلال في نحو قول الإنسان : أين تذهب ؟ مريداً التنبيه على الضلال ، فالاستفهام فيه حقيقي ، لأنه يقول : أخبرني إلى أي مكان تذهب فإني لا أعرف ذلك » .

ويظل السبكي يستعرض المعاني المولدة لأداة الاستفهام الواحد تلو الآخر ويتكلف في رد الاستفهام إلى حقيقته كل التكلف أحيانا إلى أن يقول معترفا بذلك (٢): «ومما يؤيد ما قلناه - أي ماذكره من التكلف في رجوع الاستفهام إلى حقيقة - أن ابن الحاجب قال في شرح المفصل : إن الطلب لا يمكن أن يستعمل مراداً به نوع آخر من الطلب ، بل قد يستعمل ويراد به الخبر ، وأما طلب آخر فلا . وأنت تجد كثيرا من هذه المعاني السابقة طلبا ، فإذا تكلفت لبقاء معنى الاستفهام فيه ، وأن القرينة دلت على إرادته شيء آخر معه خلصت من هذا » .

ومضمون ما ذكره السبكي في شرحه مضافا إليه قوله الصريح(٣) : « وأنت تجد كثيرا من هذه المعاني طلبا ، فإذا تكلفت لبقاء معنى الاستفهام فيه ، وأن القرينة دلت على إرادة شيء آخر معه خلصت من هذا » يشير إلى الرأي الذي سبق أن اخترناه في تولد هذه المعاني ، وهو الكناية ، لكنه آثر أن يقاوم هذا الرأي ويتابع شيخه أباحيان المولع بتخطيء الزمخشري ومخالفته رغم بناء تفسيره (البحر المحيط) على كثير من آراء الزمخشري .

وادعك - الآن - لتنظر هذه الحقيقة وتدركها أمام قول السبكي الذي

---

(١) يشير إلى الآية الكريمة « مالي لا أرى الهدهد ؟ » سورة النمل آية ٢٠

(٢) عروس الأفراح ٣٠٨/٢ .

(٣) الموضع السابق .

ينبه فيه على كلام شيخه دون أن ينظر فيه ، يقول السبكي [١] : « تنبيه : نقل شيخنا أبو حيان عن سيبويه أن استفهام التقرير لا يكون بهل ، إنما تستعمل فيه الهمزة ، ثم نقل الشيخ عن بعضهم أن هل تأتي تقريراً وإثباتاً في قوله تعالى [٢] (هل في ذلك قسم لذي حجر) ، فأما قول الزمخشري إن [٣] (هل أتى على الإنسان) للتقرير ، فتحمل على أنها بمعنى (قد) كما هو مذهبه ، فإن الهمزة مقدرة قبله ، فالتقرير حينئذ بالهمزة » .

فهذا القول من السبكي ينبئنا عن أنه يقبل أن تكون (هل) للتقرير - كما هو مذهب شيخه أبي حيان - لكن عن غير طريق الزمخشري ، كما ينبئنا أيضاً عن أنه ينسب للزمخشري أنه لا يرى التقرير إلا بالهمزة ، ونحن قد أثبتنا من قبل أن الزمخشري يرى أن التقرير في الاستفهام بهل ، في نحو الآية الكريمة [٤] (هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا) ، كما نقول - الآن - إنه يراه أيضاً في الاستفهام بالهمزة في نحو الآية الكريمة [٥] (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) ، وكان الواجب أن ينظر السبكي في كلام شيخه ويعرف أن من هذا البعض الذي نقل عنهم أبو حيان التقرير بهل الزمخشري [٦] .

(١) الموضع السابق .

(٢) سورة الفجر آية ٥ .

(٣) سورة الإنسان آية ١ .

(٤) سورة البقرة آية ٢٤٦ .

(٥) سورة البقرة آية ١٠٦ .

(٦) انظر أيضاً مقاومة السبكي ومخالفته لرأي الزمخشري في الحديث عن هذه الآية الأخيرة حيث يقول في عروس الأفراح معقباً على كلامه (٢/٢٩٧) : « ماقاله - أي الزمخشري - متين ، (يقول الزمخشري إن الهمزة في الآية للتقرير بما دخله النفي) إن كان الخطاب في (ألم تعلم) للنبي صلى الله عليه وسلم أو لأحد من المسلمين ، وإن كان الخطاب لجنس الكافر الجاحد لقدرة الله سبحانه وتعالى فيحتمل أن يقال الاستفهام للتوبيخ ، بمعنى أنهم وبخوا على عدم العلم : وإن كان مع الكافر المعاند بلسانه فقط فيصح أن يكون استفهام إنكار وتكذيب لهم فيما تضمنه كفرهم من قولهم إن الله تعالى ليس كذلك » .

الأمر

الأمر هو : طلب فعل غير كف على جهة الاستعلاء ، مثل :

— طلبه سبحانه من رسوله الأعظم ، محمد صلى الله عليه وسلم تبليغ الدعوة الإسلامية للناس بالقول الكريم : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك)(١) .

— وطلبه عز وجل من حجاج بيته الحرام - بعد أدائهم مناسك الحج وحلهم وخروجهم من الإحرام - مزاولة ما كان محرماً عليهم بالآية الشريفة (ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق)(٢) .

— وطلبه ، عز وجل من المؤمنين ضرب رقاب أعدائه الكافرين الذين يصدون عن سبيله بالآية الكريمة (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب)(٣) .

— وحكايته عز وجل عن المؤمنين إظهار فرحته يوم القيامة ، وطلبه من محبيه قراءة صحيفة أعماله البارة بالقول الكريم (فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه)(٤) .

فالطلب فى هذه الآيات الشريفة كلها على وجه الاستعلاء .

ولئن كان الاستعلاء ظاهراً وواضحاً فى الآيات الكريمة التى يخاطب فيها الله العلى خلقه وعبيده - أعنى الآيات الثلاث الأولى - فإن إيضاح الاستعلاء فى الآية الأخيرة يكمن فى قرينة الحال التى توضح أن موقف المؤمن

---

(١) سورة المائدة آية ٦٧ . (٢) سورة الحج آية ٢٩ .
(٣) سورة محمد آية ٤ . (٤) سورة الحاقة ١٩ .

الفائز يوم القيامة موقف مباهاة وفخر وقوة ، وقد شرحنا هذا الأمر من قبل[1] ، ونكتفي - الآن - بقول الدسوقي في تفسير اشتراطهم كون الأمر طلباً على جهة الاستعلاء[2] : « أي على طريق طلب العلو ، سواء كان عالياً حقيقة ، كقول السيد لعبده : افعل كذا أو لا كقول العبد لسيده أفعل كذا (حال كونه طالباً للعلو) ...... والمراد بطلبه العلو : أن يعد نفسه عالياً بإظهار حاله العالي ، وذلك بأن يكون كلامه على جهة الغلظة والقوة ، لا على جهة التواضع والانخفاض ، فسمى ميله في كلامه إلى العلو طلباً له ، سواء كان عالياً في نفسه أولا » .

صيغ الأمر :

الواضح من نصوص الآيات الكريمة أن الأمر له صيغ أربع :

١ — فعل الأمر : بلغ - في الآية الأولى .

٢ — الفعل المضارع المقترن بلام الأمر : ليقضوا ، ليوفوا ، ليطوفوا - في الآية الثانية .

٣ — المصدر النائب عن فعله : ضرب - في الآية الثالثة .

٤ — اسم فعل الأمر[3] : هاؤم ، بمعنى خذوا أو تعالوا - في الآية الرابعة .

---

(١) انظر حديثنا عن الأمر عند الأصوليين .

(٢) حاشية الدسوقي ٢/٣٠٩ .

(٣) اعترض بعضهم على أن اسم فعل الأمر لا يسمى أمراً في اصطلاح النحاة ، وأجيب بأنه يسمى أمراً في اصلاح أهل المعاني .

استعمالات هذه الصيغ بين الحقيقة والمجاز :

درس السكاكي الآراء التي سبق أن ذكرناها خلال عرضنا لحديث علماء الأصول عن مقتضى صيغة الأمر ، ثم رجح أن هذه الصيغ موضوعة لطلب الفعل على سبيل الاستعلاء طلباً جازماً ، بمعنى أنها تفيد الإلزام والإيجاب ، وهي حقيقة في ذلك ، واستدل على ذلك بأمرين :

أولهما : تبادر فهم الطلب على وجه الاستعلاء عند سماع هذه الصيغ ، والمتقرر المعلوم أن تبادر المعنى[١] إلى الفهم من أقوى أمارات كون اللفظ حقيقة فيه[٢] .

ثانيهما : إطباق أئمة اللغة على إضافة هذه الصيغ إلى الطلب والأمر ، فيقولون : صيغة الأمر ، ولام الأمر ، والمصدر النائب عن فعل الأمر ، واسم فعل الأمر ، دون أن يقولوا : صيغة الإباحة ، أو لام التهديد ، أو غير ذلك من المعاني التي قد ترد لها هذه الصيغ ، ولا تفيدها إلا بالقرائن .

هكذا وصل السكاكي إلى ما وصل إليه جمهور الأصوليين من كون صيغ الأمر تفيد إيجاب المطلوب على سبيل الحقيقة ، ومن هنا قوله كان[٣] : « لا شبهة في أن طلب المتصور[٤] على سبيل الاستعلاء يورث إيجاب الإتيان به على المطلوب منه ، ثم إذا كان الاستعلاء ممن هو أعلى رتبة من المأمور استتبع إيجابه وجوب الفعل بحسب جهات مختلفة »[٥] .

---

(١) معنى الصيغ هنا : الطلب الجازم .

(٢) عارض بعضهم كون التبادر علامة من علامات الإطلاق الحقيقي ، ورأى أنه مرهون بكثرة الاستعمال ، وفي اعتقادي أن الأمر كما ذكر السكاكي .

(٣) مفتاح العلوم ١٣٧ (٤) بصيغة اسم المفعول

(٥) ذكرنا من قبل خلال حديث الأصوليين أن هذه الجهات هي الشرع أو اللغة أو هما معاً .

أما عن الدلالات الأخرى لهذه الصيغ فإن السكاكى قد ذكر أنها لا تتأتى إلا عند مانهى، هذه الصيغ لإفادتها ، ويكون ذلك بأن نجردها عما يلزم منه وجوب حصول مطلوبها ، بمعنى أن يكون الشخص الآمر ليس أعلى رتبة من المأمور ، وآنذاك تكون هذه الصيغ مفيدة للطلب فحسب .

ويخاطبنا السكاكى عقب ذلك فيقول[١] : « ثم إنها حينئذ - أى حين تهيأت بهذه الطريقة - تولد بحسب قرائن الأحوال ماناسب المقام » .

ومعنى هذا أنه لابد من شرطين لتفيد هذه الصيغ غير إيجاب المطلوب .

أولهما : أن تكون دالة على الطلب فقط .

ثانيهما : أن يكون معها قرينة تشير إلى الدلالة المساق لها الحديث .

ويتوسع البلاغيون المتأخرون بعد السكاكى[٢] فى حديث هذه المعانى ، ويحاولون تحديد موضوع بابها بين الحقيقة والمجاز ، ويذكر الدسوقى[٣] قاعدة عامة فى هذا الصدد مفادها أن المعانى التى تخرج لها صيغة الأمر إن قامت قرينة على منع إرادة معنى الأمر فمجاز ، وإلا فكناية .

وغالب حديث البلاغيين فى معانى الدلالات التى تخرج إليها صيغة الأمر يدور حول ذكر علاقات عامة بين معنى صيغة الأمر والمعنى المساق له الحديث - كما سنرى بعد قليل - وهم أنفسهم - كما رأينا خلال حديث الاستفهام - غير مقتنعين بالعلاقات العامة فى المجاز ، ومن هنا فإن الظن عندى قوى فى أن حديث المجاز غير واضح فى كثير من دلالات هذا الباب .

---

(١) مفتاح العلوم ١٣٧ .

(٢) بقيت نقطة أخيرة فى دراسة السكاكى للأمر هى دلالته على الفور ، وقد ناقشناها من قبل خلال دراسة الأصوليين للأساليب الإنشائية .

(٣) حاشية الدسوقى ج ٢/٣١٢ ، ٣١٣ .

ولربما كان لباب الكناية وجه صحيح عندي حيث يجري العرف اللغوي عنـــد الناس أن يأمر بعضهم بعضا – خصوصاً في المواقف التي يكون فيها الارتباط قوياً بين المتخاطبين ، ولا يشعرون في هذا بعلو صيغة الأمر كالحديث بين الولد وأبيه ، والحبيب وحبيبه ، والصديقين الصدوقين، وأذكر في هذا المجال ما قاله كثير لعزة ، ويستشهد به البلاغيون على أنه من أحسن ماجاء في خروج صيغة الأمر إلى معنى الإباحة :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ... لدينا ولا مقليـــة إن تقلت

من هنا أرى أن حديث التأويل بالمجاز في هذا الباب ، وباب النهي القادم حديث متكلف في أغلب صوره ، وإن باب الكناية يتسع له ، يرجع ذلك عندي أن قرينة الكناية غير مانعة من إرادة معنى الأمر الذي قد يتأتى في بعض المعاني مثل معنى الإهانة ، ومعنى التسخير ، ومعنى التعجيز ، وغير ذلك من المعاني .

المعاني التي تخرج إليها صيغة الأمر :

لم يحد البلاغيون معاني محددة لخروج صيغة الأمر ، وإنما ذكروا أنها قد تستعمل في غير طلب الفعل بحسب المقام ، من ذلك :

معنى الإباحة :

منطوق هذا المعنى يشير إلى أن مقام استعماله يكون في خطاب من حرم عليه شيء ، فيخاطب بصيغة الأمر بقصد إباحته له – مع عـــدم الحرج في تركه – كما يكون مقام استعمال هذا المعنى أيضا عند توهم المخاطب عدم جواز الجمع بين أمرين فيخاطب بالإذن في جواز الجمع بينهما .

ومن أمثلة هذا المعنى في حديث المقام الاول قوله عز وجل[1] (وإذا

(١) سورة المائدة آية ٢ .

حللتم فاصطادوا) حيث إن الله عز وجل قد حكم وفرض تحريم الصيد أثناء الاحرام لأداء المناسك بقوله (ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود وأحلت لكم بهيمة الأنعام إلا مايتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم ، إن الله يحكم ما يريد)(١)

وحيث انتهى الاحرام خاطب الله عباده بصيغة الأمر لإباحة الاصطياد لهم مرة أخرى بهذه الآية الكريمة

ومثل ذلك قوله تعالى (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر)(٢) .

كان محرما على المسلمين أول الأمر الأكل والشرب ومباشرة النساء فى ليالى رمضان إذا صلوا العشاء الآخرة أو رقدوا، ثم نزلت هذه الآية لتبيح لهم مزاولة هذه الأمور المحرمة حتى الفجر تخفيفاً وتيسيراً عليهم بتقصير مدة الامساك عنها .

ومن الأمثلة أيضا فى حديث المقام الثانى قول كثير :

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة   لدينا ولا مقلية إن تقلت

وقد اعتبر القزوينى خطاب الأمر بقصد الاباحة فى هذا البيت من أحسن ماجاء فى هذا المعنى حيث قال فى شرحه(٣) : « أى لا أنت ملومة ولا مقلية ، ووجه حسنه : إظهار الرضا بوقوع الداخل تحت الأمر ، حتى كأنه مطلوب ، أى مهما اخترت فى حقى من الاساءة والاحسان ، فأنا راض به غاية الرضا ، فعاملينى بهما وانظرى هل تتفاوت حالى معك فى الحالين » .

---

(١) سورة المائدة آية ١ .   (٢) سورة البقرة آية ١٨٧ .

(٣) الإيضاح ٢/٣١٣ .

ومن أمثلة هذا المقام المشهورة ليس فقط عند البلاغيين ، ولكن عند الأصوليين والنحاة أيضا قولهم[1] (جالس الحسن أو ابن سيرين) بمعنى أنه يباح المخاطب أن يجالس أحدهما أو كليهما ، وأن لا يجالس أحدهما .

وصيغة الأمر عند الأصوليين[2] هي التي تفيد الإباحة ، ولفظ (أو) قرينة على ذلك[3] ، بينما يقول النحاة[4] : إن الذي يفيد الإباحة هو لفظ (أو) ، وصيغة الأمر قرينة . أما البلاغيون فيقولون : إن المستفاد من صيغة الأمر في هذا المقام هو مطلق الاذن ، والمستفاد من (أو) الاذن في أحد الشيئين أو الأشياء ، وما وراء ذلك من جواز الجمع بينهما وامتناعه إنما هو بالقرائن ، ولذلك قدم القزويني هـذا المثال بقوله : « الإباحة ، كقولك في مقام الاذن : جالس الحسن أو ابن سيرين » .

---

(١) ذكر الدسوقي (٢/٣١٣ شروح التلخيص) أن هذا المثال نفسه يصلح لإفادة معنى التخيير إذا أردنا عدم الجمع بين الأمرين .

(٢) قال السبكي (عروس الأفراح ٢/٣١٣ ، ٣١٤) إن الأصوليين قاطبة فسروا الإباحة بالتخيير ، (وأقول لعله يميل لرأيهم المذكور) ، وإن كان التحقيق خلافه ، فإن الإباحة هي (في الأصل هو) إذن في الفعل وإذن في الترك ، ينظم إذنين معاً ، والتخيير إذن في أحدهما لا بعينه . اهـ ولا أوافقه على الاجماع ، وحسبي النص الآتي في الهامش القادم .

(٣) هناك قرائن أخرى ذكر صاحب كتاب شرح طلعة الشمس بعضها بقوله : « من دلائل الإباحة أن يكون الكلام بعد سبق الحظر نحو : لا أكلم أحداً إلا فلاناً أو فلاناً ، أو أن تعرف الصفة المرغوبة في كل واحد منهما ، فكان له الخيار في الجمع بينهما ، كما في نحو جالس الفقهاء أو المحدثين ، أو يكون مقصوده إظهار السماحة ، كما في نحو : خذ من مالي هذا أو هذا ، لأن هـذه مواضع إباحة ، والإباحة من دلائل العموم ، أما الاولى فلأنه استثنى من الحظر ، والاستثناء من الحظر إباحة ؟ وأما الثانية فلأن الإباحة إطلاق والإطلاق برفع المانع ، وذلك يوجب التوسعة والتعميم » .

(٤) انظر النحو الوافي ٣/٦٠٣ .

العلاقة بين الطلب والإباحة :

ذكر ابن يعقوب(١) أن استعمال صيغة الطلب فى الإباحة مجاز مرسل من استعمال اسم الأخص (صيغة الأمر) فى الأعم (الإباحة) ، ذلك أن صيغة الأمر موضوعة للمأذون فيه المطلوب طلباً جازماً ، فاستعملت فى مطلق الاذن العام .

ورأى الدسوقى(٢) أن العلاقة بينهما يمكن أن تكون التضاد ، لأن إباحة كل من الفعل والترك تضاد إيجاب(٣) .

وهذا الرأى من الدسوقى قد يشير إلى أنه يريد أن هذا الاستعمال من قبيل الاستعارة .

وأقول : لماذا لم يخطر له على بال حديث الكناية مادام الفهم قد سمح أيضا بورود معنى الأمر وحصول الفعل ؟

معنى التهديد :

مقام الحديث بهذا المعنى هو عدم الرضا بالمأمور به ، وتتضمن صيغة الأمر المستعمل فى التهديد وعيد المخاطب إذا هو لم يعدل عن المأمور به . ومثال قوله سبحانه(٤) (اعملوا ما شئتم) فقد جاء الأمر فى سياق النص الكريم (إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ، اعملوا ماشئتم ، إنه بما تعملون بصير)(٥) ، فهذا النص يعرض صورة من يلقى فى النار دون اعتبار أو قيمة ، فضلا عن

(١) مواهب الفتاح ٢/٣١٣ .

(٢) حاشية الدسوقى ٢/٣١٣ .

(٣) السكاكى فى نهاية حديث عن الأساليب الإنشائية رأى يذكر فيه أن إفادة صيغة الأمر معنى الإباحة من قبيل الخبر ، وسنعرض لهذا الرأى فيما بعد .

(٤) سورة فصلت آية ٤٠ .

الشدة والعنف التي يوحي بها لفظ الالقاء نفسه ، من هنا كان المعنى هو التهديد ، أي اعملوا ماشئتم فسترون منا ماهو أمامكم ، وليس المراد أمرهم بكل عمل شاءوا ، فقرائن الأحوال تدل على أن المراد الوعيد .

ومثل ذلك أن يأمر الرجل ابنـــه بقوله : دم على عصيانك لى فالعصا أمامك ، وقوله عز وجل (فمـــن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً) ، هذا ، وقد أخطأ الزمخشرى فى حمل هذا الأمر على التمييز والإباحة[1] .

العلاقة بين الطلب والتهديد :

نقل الدسوقى[2] ثلاثة آراء فى تحديد هذه العلاقة :

أحد هذه الآراء يفيد المجاز المرسل بعلاقة السببية ، لأن إيجاب الشيء بصيغة الأمر يتسبب عنه التخويف على مخالفته وهذا المعنى هو المراد من الحديث ، أما الرأيان الآخران فيشيران إلى حديث الاستعارة العنادية بأن يكون مابين صيغة الأمر ومعنى التهديد شبه تضاد باعتبار المتعلق[3] ، أو الوفاقية بأن يكون الجامع مابين صيغة الأمر ومعنى التهديد ترتب العذاب على كل عند تركه .

هذا ، وقد رأى السبكى أن معنى التهديد يخرج بالأسلوب من دائرة الانشاء إلى الخبر ، ونص عبارته[4] «إن التهديد خبر دل على إرادته القرينة» .

---

(١) الآية فى سورة الكهف رقم ٢٩ ، وانظر تحليلها فى الفتوحات الإلهيـــة ٣١/٣ ، حاشية الصاوى ١٢/٣ .

(٢) حاشية الدسوقى ٣١٤/٢ .

(٣) ذكر بعضهم أنه فى المجال الدينى ــ مثـــلا ــ يكون المأمور به إما واجب أو مندوب ، والمهدد عليه إما حرام أو مكروه ، ولهـذا يقول الأصوليون : إن التهديد لا يصدق إلا مع المحرم والمكروه .

(٤) عروس الأفراح ٣١٤/٢ .

معنى الإنذار :

ذكر اللغويون أن الانذار تخويف مع دعوة لما ينجى من المخوف ، وإذا كنا قد ذكرنا من قبل أن التهديد تخويف مطلق ، فمعنى هذا أن معنى التهديد أوسع وأعم من معنى الانذار ، لأن الانذار معتبر فى مفهومه قيد الابلاغ بما ينجى ، فهو لا يخلو من اعتبار زيادة على التخويف .

ومن أمثلة هذا المعنى قوله سبحانه (قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار)[١] فصيغة تمتعوا مع بعدها مراد بها هنا التخويف ، وهذا النص الكريم جاء فى الدعوة إلى توحيد الله وطلب عبادته ، وهذه هى الدعوة لما ينجى من النار التى جاء الحديث عنها فى سياق الانذار ، واقرأ معى قول الله سبحانه (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمه الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار ، وجعلوا الله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار)[٢] .

العلاقة بين الطلب والإنذار :

يكاد يكون نفس حديث العلاقة بين الطلب والتهديد ، ومن ثم فلا داعى لاعادته .

معنى التعجيز :

مقام هذا المعنى إظهار المخاطب عاجزاً عن شىء يدعى القدرة عليه ، ويعتقد المتكلم أنه ليس فى وسعه ، ومثاله قوله عز وجل (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)[٣] فليس المراد أمرهم حقيقة على وجه التكليف بالاتيان

(١) سورة إبراهيم آية ٣٠ .

(٢) سورة إبراهيم الآيات ٢٨ — ٣٠ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٣ .

بسورة من مثله ، وإنما المراد إظهار عجزهم ، ومثل ذلك قوله سبحانه (يامعشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان)(١).

العلاقة بين الطلب والتعجيز :

ذكر ابن يعقوب(٢) أن العلاقة بين الطلب والتعجيز ما بينهما من شبه التضاد فى متعلقهما ، فإن التعجيز فى المستحيلات ، والطلب فى الممكنات . هذا ، وقد رأى السبكى(٣) أن معنى التعجيز يجعل الأسلوب خبراً عن عجزهم ، وقد دلت على إرادته القرينة .

معنى التسخير :

مثل الإمام القزوينى لهذا المعنى بقول الله سبحانه مخاطباً بنى إسرائيل (كونوا قردة خاسئين)(٤) ، ثم تناول الشراح كلامه ، فذكر الدسوقى(٥) أن العلامة عبد الحكيم فسر التسخير بأنه جعل الشىء مسخراً منقاداً لما أمر به ، وأنه يستعمل فى مقام يكون المأمور به منقاداً للأمر ، وذكر ابن يعقوب(٦) أن التسخير هو تبديل من حالة إلى أخرى أخس منها ، ثم رأى ابن يعقوب أن يشير إلى ما ذكره الأصوليين من معنى التكوين الذى يتقارب مع هذا المعنى فقال(٧) : « والتكوين إنشاء من عدم لوجود ، ويوجد استعمال الأمر فيه ، كقوله تعالى (كن فيكون)(٨) ، والتعبير عن الايجاد بكن إيماء إلى أنه يكون فى أسرع لحظة ، وأنه طائع لما يراد ، فكأنه إذا أمر ائتمر ، ويحتمل

(١) سورة الرحمن آية ٣٣ . (٢) مواهب الفتاح ٢/٣١٥ .
(٣) عروس الأفراح ٢/٣١٦ ، ٣١٧ . (٤) سورة الأعراف آية ١٦٦ .
(٥) حاشية الدسوقى ٢/٣١٧ . (٦) مواهب الفتاح ٢/٣١٧ .
(٧) الموضع السابق .
(٨) سورة البقرة آية ١١٧ ، سورة آل عمران آية ٥٩ ، سورة يس آية ٨٢ .

أن يكون التكوين أعم بأن يراد به مطلق التبديل إلى حالة لم تكن ، ويراد بالتسخير ما تقدم » .

العلاقة بين الطلب والتسخير :

وفقاً لكلام العلامة عبد الحكيم ذكر الدسوقي أن العلاقة بينهما هي السببية ، ذلك لأن إيجاب شيء لاقدرة للمخاطب عليه بحيث يحصل بسرعة من غير توقف يتسبب عنه تسخيره لذلك ، أي جعله مسخراً منقاداً لما أمر به[1] .

ووفقاً لكلام ابن يعقوب تكون العلاقة بين الطلب والتسخير المشابهة في مطلق الإلزام ، فإن الوجوب إلزام المأمور ، والتسخير إلزام الذل والهوان[2] .

ومع موافقة السبكي على كلام ابن يعقوب يرى أيضا ـ ويبدو من كلام الدسوقي أنه لا يمانع ـ أن صيغة الأمر إذا استعملت في معنى التسخير ، أو في معنى الإهانة الذي سيأتي ـ يحتمل أن تكون إنشاء ، أي إظهارا لمعناها ، وهو الذلة والحقارة ، ويحتمل أن تكون إخباراً بالحقارة والمذلة ، فكأنه قيل على هذا : هم بحيث يقال فيهم إنهم أذلاء محتقرون ممسوخون ، وكونها للإخبار في معنى الإهانة أظهر منه في معنى التسخير[3] .

معنى الإهانة :

الإهانة هي : إظهار مافيه تصغير المهان وقلة المبالاة به[4] ومقام استعمال هذا المعنى : عدم الاعتداد بشأن المأمور على أي وجه كان ، ومن أمثلة استعمال صيغة الأمر في هذا المعنى في قوله سبحانه (ذق ، إنك أنت

(١) حاشية الدسوقي ٢/٣١٧ .
(٢) الموضع السابق .
(٣) الموضع السابق .
(٤) الموضع السابق .
(٥) سورة الدخان آية ٤٩ .

العزيز الكريم ، لأنه ليس المراد الأمر بذوقه العذاب ، لأن الكافر حال الخطاب ، وبالصيغة فى غصص المذوق ومحنة . ومثل ومثل ذلك أيضا قوله عز وجل (قل كونوا حجارة أو حديدا)(١) .

فروق دقيقة بين معان تبدو متقاربة :

فرق البلاغيون بين معانى التسخير ، والإهانة ، والتحقير فذكروا(٢) أن التسخير والإهانة يشتركان فى عدم قدرة المخاطب على إيجاد الفعل، ويفترقان فى أن التسخير يحصل فيه الفعل أصلا(٣) ، لأن المقصود فيها تحقير المخاطبين وقلة المبالاة بهم لا حصول الفعل .

كما ذكروا(٤) أيضا أن التحقير قريب من الإهانة، لأن كل محتقر فى الاعتقاد أو فى الظاهر فهو مهان فى ذلك الاعتقاد أو الظاهر ، وإن كانت الإهانة إنما تكون بالقول أو بالفعل ، والاحتقار كثيرا مايقع فى الاعتقاد .

ومن أمثلة استعمال صيغة الأمر فى التحقير قوله تعالى : (ألقوا ما أنتم ملقون)(٥) أى إن ماجئتم به من السحر حقير بالنسبة للمعجزة .

العلاقة بين الطلب والإهانة :

ذكر الدسوقى(٦) أن العلاقة بين الطلب والإهانة هى اللزوم ، لأن طلب الشىء من غير قصد حصوله لعدم القدرة عليه مع كونه من الأحوال الخسيسة يستلزم الإهانة .

كما لمح الدسوقى أيضا أنه يمكن أن تكون العلاقة هى المشابهة فى مطلق الإلزام ، لأن الوجوب إلزام المأمور ، والإهانة إلزام الذل والهوان .

أما ابن يعقوب فقد أيد الدسوقى حيث ذكر أن العلاقة بين الأمر

(١) سورة الإسراء آية ٥٠ .
(٢) حاشية الدسوقى ٣١٨/٣ .
(٣) الموجوده من قبل .
(٤) حاشية الدسوقى ٣١٨/٢ .
(٥) سورة الشعراء آية ٤٣ .
(٦) حاشيه الدسوقى ٣١٧/٢ .

والتسخير والإهانة هي مطلق الإلزام، فإن الوجوب إلزام المأمور، والتسخير والإهانة إلزام الذل والهوان لكنه أضاف الصيغة فيهما تحتمل أن تكون إنشاء، أي إظهاراً لمعناهما أو إخباراً بالحقارة والمذلة، فكأنه على هذا قيل فيهم: هم بحيث يقال فيهم أنهم أذلاء محتقرون ممسوخون، وكونها للإخبار في الإهانة أظهر منه في المسخ(١).

معنى التسوية :

تستعمل صيغة الأمر في معنى التسوية في مقام يتوهم فيه المخاطب رجحان أحد الأمرين أو الأمور على الآخر، كقوله تعالى (أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم)(٢) فقد دفع بالتسوية ما كان يتوهمه الكفار من قبول النفقة منهم إذا كانت عن طواعية دون الإكراه، فسوى بينهما في عدم القبول.

ومثل ذلك أيضا قوله سبحانه (اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا)(٣) فإنه ربما يتوهم أن الصبر نافع، فدفع ذلك بالتسوية بين الصبر وعدمه. فليس المراد بالصيغة في المحلين الأمر بالإنفاق ولا الأمر بالصبر، بل المراد - كما دلت عليه القرائن - التسوية بين الأمرين.

فرق دقيق بين معنى التسوية ومعنى الإباحة :

ذكر الدسوقي(٣) في الفرق بين الإباحة والتسوية أن الإباحة يخاطب بها من هو بصدد أن يتوهم المنع من الفعل فيخاطب بالإذن في الفعل مع عدم الحرج في الترك، كما في قوله تعالى (وإذا حللتم فاصطادوا)(٤)، والتسوية يخاطب بها من هو بصدد أن يتوهم أن أحد الطرفين المذكورين في محلها من الفعل ومقابله أرجح من الآخر وأنفع منه فيدفع ذلك ويسوى بينها. ثم قال(٥) «والأقرب - كما قال اليعقوبي - أن الصيغة في التسوية إخبار دون الإباحة. ويحتمل أنها لإنشاء التسوية، والإخبار بالإباحة على بعد».

(١) مواهب الفتاح ٣١٨/٢.
(٢) سورة التوبة آية ٥٣.
(٣) سورة الطور آية ١٦.
(٤) حاشية الدسوقي ٣١٩/٢.
(٥) سورة المائدة آية ٢.
(٦) حاشية الدسوقي ٣١٩/٢

العلاقة بين الطلب ومعنى التسوية :

ذكر الدسوقى أن العلاقة بين معنى الطلب ومعنى التسوية هى التضاد، لأن التسوية بين الفعل والترك تضاد إيجاب[1] أما ابن يعقوب فإنه وإن عقد علاقة بين هذين المعنيين ومعنى الإباحة ، فإنه لم يخرج عن التضاد أيضا حيث قال[2]: « لأن التسوية بين الفعل والترك ، والإباحة كل منهما تضاد إيجاب ، وتزيد الإباحة بعلاقة الاذن » .

معنى التمنى :

التمنى هو : طلب محبوب لاطماعية فيه ، والأمر : طلب على وجه الاستعلاء .

وتستعمل صيغة الأمر فى معنى التمنى فى مقام يطلب فيه المتكلم شيئاً محبوباً ، من جهة لاتقدر عليه ، كقول ابن زيدون .

ويانسيم الصبــــا بلغ تحيتنا   من لو على البعد حيا كان يحيينا

العلاقة بين الطلب ومعنى التمنى :

ذكر الدسوقى [3] أن استعمال صيغه الأمر فى التمنى من قبيل المجاز المرسل بإحدى علاقتين : الاطلاق والتقييد ، لأن الأمر طلب على وجه الاستعلاء ، فأطلق عن قيده ، ثم قيد بالمحبوب الذى لاطماعية فيه ، أو السببية، لأن طلب وجود الشىء الذى لا إمكان له سبب فى تمنيه بينما رأى السبكى أن قول امرىء القيس .

---

(١) اعترض بعضهم على استعمال صيغة الأمر فى معنى التسوية ، لأن ذلك يؤدى إلى أن النهى أيضاً يفيد التسوية فى مثل قوله تعالى (فاصبروا أو لا تصبروا) ومن ثم قال : إن معنى التسوية مستفاد من (أو)، وأجيب بأنه لامانع أيضا أن يفيد النهى معنى التسوية .

(٢) مواهب الفتاح ٢/٣١٩ .   (٣) حاشية الدسوقى ٢/٣١٩ .

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى(١)

بصبح ، وما الاصباح منك بأمثل(٢)

كناية عن تمنى(٣) انجلاء الليل، لأن الليل لا يقبل أن يطلب منه الانجلاء(٤).

معنيا الدعاء والالتماس :

الدعاء هو : الطلب على سبيل التضرع والخضوع ، والالتماس هو : الطلب لا على سبيل الاستعلاء ، ولا على سبيل التضرع ، وفى كليهما لا يشترط أن يكون الطالب أدنى أو أعلى أو مساوياً فى الرتبة ، ومن هنا يكون الأمر كما قال الدسوقى(٥)ـ مناط الأمرية فى الطلب هو الاستعلاء(٦) ولو من الأدنى، ومناط الدعاء فى الطلب التضرع والخضوع ولو من الأعلى كالسيد مع عبده، ومناط الالتماس فى الطلب هو التساوى مع نفى التضرع والاستعلاء ».

لكن ما الموقف إذا صدر الطلب من الأعلى للأدنى فى الرتبة كالسيد مع عبده ، أو صدر من الأدنى للأعلى رتبة من غير استعلاء ولا تخضع ؟ أجاب عن ذلك الدسوقى أيضاً فقال(٧): « الظاهر أنه التماس » .

---

(١) ياء (انجلى) لإشباع الكسرة لقصد التصريع ، وليست أصلا فى الفعل كما هو الحال فى (تنمى) فى قول الشاعر (ألم يأتيك والأنباء تنمى) والإنجلاء : الإنكشاف ، والإصباح : ظهور ضوء الصباح .

(٢) أمثل : أفضل ، والكلام هنا تقديرى ، فكأنه يقول : هذا الليل لا طماعية فى زواله لكثرة أحزانه ولزومها وشدتها بظلمته فلا تنكشف بانكشافه ، وعلى تقدير الانكشاف فالإصباح لا يكون أمثل منه للزوم الأحزان على كل حال .

(٣) التمنى يكون لما بعد ، ومن شأن المحب أن يستبعد انجلاء الليل ، ولهذا قال الشاعر : (وليل المحب بلا آخر) .

(٤) لما ظهر أن ليس المراد أمر الليل بالإنكشاف إذ ليس مما يؤمر ويخاطب بذلك حمل على التمنى ليناسب حال التشكى من الأحزان والهموم وشدتها إذ لا يناسبها إلا عدم الطماعية فى انجلائه .

(٥) حاشية الدسوقى ٢/٣٢٠ .

(٦) ولذلك يعد الأمر من العبد سوء أدب .

(٧) حاشية الدسوقى ٢/٣٢١ .

ويستعمل الدعاء - عادة - فى مقام يكون فيه المأمور أعلى رتبة من الآمر، وإن كان ذلك ليس شرطاً - كما قدمنا، كما يستعمل الالتماس - عادة - فى مقام تساوى المأمور مع الآمر حقيقة، أو ادعاء - يعنى فى زعم المتكلم - ويكون عند التلطف.

ومن أمثلة الدعاء قوله سبحانه على لسان ابراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام (ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب)(١).

وقول المتنبى لسيف الدولة :

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم فأنت الذى صيرتهم لى حسداً

ومن أمثلة الالتماس قول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقول الآخر :

صاح شمر ولاتزل ذاكر المو ت فنسيانه ضـلال مبين

العلاقة بين الأمر وكل من الدعاء والالتماس :

ذكر الدسوقى(٢) أن استعمال صيغة الأمر فى أى من المعنيين مجاز مرسل بعلاقة الاطلاق والتقييد، لكن السبكى(٣) رأى أن استعمال صيغة الأمر فى كليهما حقيقة.

معنى التعجب :

التعجب هو : استعظام أمر خفى سببه، ويكون التعبير عن هذا المعنى فى مقام الاندهاش والتحير من شىء غريب ومثير، وهو خاص بصيغة التعجب التى على صورة الأمر - أعنى صيغة (أفعل به) عند من يقول : إن هذه

---

(١) سورة إبراهيم آية ٤١.

(٢) حاشية الدسوقى ٢/٣٢٠ (٣) عروس الأفراح ٢/٣٢٠.

الصيغة فعل ماض . وإن الباء بعدها زائدة فى الفاعل كزيادتها مع فاعل كفى — على حد تعبير السكاكى[١] .

ومن أمثلة هـذا الغرض الآية الكريمة[٢] (اسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) ، يقول صاحب الفتوحات الالهية فى التعليق على هـذه الآية[٣] : « صيغتا تعجب ، يعنى أن لفظهما لفظ الأمر ، فصح رفعهما الظاهر ، وزيد فى فاعلهما الباء — كما زيدت فى فاعل كفى بالله شهيدا ، إلا أن الباء فى فاعل التعجب لازمة ، وفى فاعل كفى جائزة » .

وفى الكشاف[٤] : « لا يوصف الله تعالى بالتعجب ، وإنما المراد أن أسماعهم وأبصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منهما بعد ما كانوا صما وعميا فى الدنيا » .

العلاقة بين معنى الطلب ومعنى التعجب :

يكاد البلاغيون والأصوليون يتفقون على أن استعمال صيغة الأمر فى إفادة معنى التعجب فى مثل الآية الكريمة يخرج بالأسلوب من دائرة الانشاء إلى دائرة الخبر ، وعبارة الكشاف السابقة واضحة فى إفادة أن المقصود الأخبار بأن أسماعهم وأبصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منها .

وبعد :

فقد ذكر السبكى معانى أخرى من كتب الأصول ، وقد أوردناها من قبل عند حديثنا عن الأصوليين ، ومن ثم فلاداعى لتكرارها ، لكن الشىء الذى نريد أن نؤكد عليه هو أن البلاغيين — من خلال كلامهم — لم يحجروا على الأدباء ورود معانى أخرى .

---

(١) مفتاح العلوم ١٤٠ (٢) سورة مريم آية ٣٨

(٣) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية تأليف سليمان بن عمر العجيلى الشهير بالجمل ٣/٦٣ .

(٤) الكشاف ٢/٤١١ .

النهى

النهى هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء ، مثل طلبه سبحانه من المؤمنين أن لا يلهيهم شىء من عرض الدنيا عن ذكر الله بالقول الكريم (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله)[١]، وطلبه عز وجل من المؤمنين أيضا تقديس أوامره ونواهيه وعدم التغيير فيها بالآية الشريفة (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد)[٢] . وطلبه تعالى من المؤمنين أن لا يكثروا الأسئلة لنبيهم - كما كان يفعـــل بنو إسرائيل مع موسى بالآية الكريمة (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم)[٣] .

صيغ النهى :

للنهى صيغة واحدة هى الفعل المضارع المسبوق بلا الناهية - كما تقدم تقدم فى النصوص الكريمة .

استعمال صيغة النهى بين الحقيقة والمجاز :

من خلال ما قدمناه فى حديث الدراسات الدينية للأساليب الإنشائية ، ومن خلال ما ذكرناه فى حديث الأمر السابق . نقول إن مقتضى صيغة النهى ومدلولها الحقيقى هو طلب الكف عن الفعل فوراً على وجه الاستعلاء طلباً جازما ، بمعنى أنها تفيد وجوب الامتناع والكف عن الفعل وتركه استعلاء[٤]

(١) سورة المنافقون آية ٩ . (٢) سورة المائدة آية ٢ .

(٣) سورة المائدة آية ١٠١ .

(٤) ذكر السبكى ٢/٣٢٤ أن صيغة لا تفعل حقيقة فى التحريم وأن كلام القزوينى يقتضى أنها حقيقة فى الطلب الأعم من التحريم والكراهة - كما فعل فى الأمر - ، وليس كذلك ، وأقول : إن هذا التفسير منه يخص الدراسة الدينية فقط .

وكما ذكرنا - فى حديثنا عن الأمر - تستعمل صيغة النهى فى غير هذا المعنى الحقيقى - أعنى غير طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء بشرطين :

أحدهما : أن تكون دالة على طلب الكف عن الفعل فحسب - أى من غير اعتبار الاستعلاء .

ثانيهما : أن يكون معها قرينة تشير إلى المعنى المتولد من قرائن الأحوال بحسب ما يناسب مساق الحديث ومقامه .

ويصرح السبكى بأن هذه الدلالة المتولدة من قبيل المجاز فيقول[١] : « وقد تخرج صيغة (لا تفعل) عن حقيقتها فتستعمل مجازا فى أحد أمور » . ثم يبدأ فى سرد العديد من هذه الدلالات المجازية ، ولا يستثنى من ذلك إلا استعمال صيغة النهى فى الدعاء والالتماس فيرى أنها فيهما حقيقة[٢] .

ويترك القزوينى الإطناب فى حديث المعانى المجازية لصيغة النهى اعتماداً على ما ذكره فى صيغة الأمر . ويكتفى بقوله[٣] « وقد يستعمل - أى النهى - فى غير طلب الكف أو الترك كالتهديد ، كقولك لعبد ، لا يمتثل أمرك : لا تمتثل أمرى » .

ويؤكد كل من ابن يعقوب والدسوقى على حديث العلاقة بين النهى والتهديد فيريان أنها اللزوم[٤] . وهذا كله يثبت أن هذه الدلالات من قبيل المجاز عند أغلب المتأخرين .

---

(١) عروس الأفراح ٢/٣٢٥ .

(٢) المرجع السابق ٢/٣٢٧ .

(٣) الايضاح ٢/٣٢٥/٣٢٦ .

(٤) معنى هذا أنها من قبيل المجاز المرسل ، هذا ولابن يعقوب رأى آخر ذكره بقوله (والتهديد خبر فى المعنى ، إذ كأنه قال ، سترى ما يلزمك على ترك الأمر) .

المعانى التى خرجت إليها صيغة النهى :

أكثر من طال نفسه فى الحديث عن هذه المعانى هو السبكى ، وإن كان الأمر بالنسبة له أمر إحصاء ، ومن المعانى التى ذكرها(١) :

الإباحة : وذلك فى النهى بعد الإيجاب ، فإنه إباحة الترك .

بيان العاقبة : كقوله تعالى (ولا تحسبن الله غافلا)(٢) أى عاقبة الظلم العذاب ، لا الغفلة ـ كذا قيل .

الدعاء : نحو (ربنا لا تزغ قلوبنا)(٣) .

الالتماس : كقولك لنظيرك : لا تفعل .

اليأس : كقوله تعالى (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم)(٤) .

الإرشاد : كقوله تعالى (ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله)(٥) .

التسوية : كقوله تعالى (فاصبروا أو لا تصبروا)(٦) .

---

(١) عروس الأفراح ٢/٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٢) سورة إبراهيم آية ٤٢ .

(٣) سورة آل عمران آية ٨ .

(٤) سورة التوبة آية ٦٦ .

(٥) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

(٦) سورة الطور آية ١٦ .

النداء

حقيقة النداء : طلب الإقبال حساً أو معنى بحرف نائب مناب أدعو ، سواء كان ذلك الحرف ملفوظاً مثل قول الله سبحانه ـ فيما يحكيه على لسان زكريا وهو يخاطب مريم البتول [١] (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله) ، أو مقدراً مثل قول الله عز وجل على لسان عزيز مصر كما يرى صاحب البحر المحيط [٢] (يوسف أعرض عن هذا) . ومن الإقبال المعنوى قول الله عز وجل (ياجبال أوبى معه والطير)[٣] أى مع داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

حروف النداء :

تبلغ حروف النداء خمسة حروف ، وهى على ثلاثة أقسام[٤] :

القسم الأول : يستعمل فى النداء البعيد : أيا ، وهيا ، وهما موضوعان لنداء البعيد .

وقد ينزل القريب منزلة البعيد — كما تنادى من يكون معك وهو ساه أو نائم ، بأى من هذين الحرفين، فتجعل كل واحد من النوم والسهو بمنزلة البعد فى إعلاء الصوت ، أو تنزل المنادى — بصيغة اسم المفعول — منزل ذى غفلة لعظم الأمر المدعو له حتى كأن المنادى غافل عنه مقصر لم يف بما هو حقه من السعى والاجتهاد الكلى ، فتقول — مثلا — : هيا فلان تهيأ للحرب ، عند حضوره .

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٧ .
(٢) سورة يوسف آية ٢٩
(٣) سورة «ص» آية ١٠
(٤) راجع حاشية الدسوقى ج ٢/٣٣٤

القسم الثانى : ويستعمل فى نداء القريب، أى : والهمزة، وهما موضوعان لنداء القريب .

وقد ينزل البعيد منزلة القريب ، ويستعملان فيه تنبيها على أنه حاضر فى القلب لا يغيب عنه أصلا ، حتى صار كالمشهود الحاضر ، كقول الشاعر :

أسكان نعمان الأراك تيقنوا ... بأنكم فى ربع قلبى سكان

القسم الثالث : يا ، وهى مختلف فيها على رأيين : —

الرأى الأول : قال به ابن الحاجب ، وهو : أنها حقيقة فى القريب والبعيد لاستعمالها فيهما على السواء ، ودعوى المجاز فى أحدهما خلاف الأصل .

الرأى الثانى : قال به الزمخشرى، وهو: أنها حقيقة فى البعيد، ولا تستعمل فى القريب إلا مجازاً ، لتنزيله منزلة البعيد :

(ا) إما لاستبعاد الداعى نفسه عن مرتبة المنادى ، أى تصور نفسه فى مكان بعيد عن تلك الحضرة ، كقولنا : يا الله ، مع أنه أقرب إلينا من حبل الوريد .

(ب) أو للتنبيه على عظم الأمر المدعو إليه وعلو شأنه ، حتى كان المنادى مقصر فى أمره ، غافل عنه مع شدة حرصه على الامتثال ، نحو قوله سبحانه (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) (١) .

(ج) أو للحرص على إقبال المنادى ، أى الرغبة والرضا بذلك ، فصار إقباله كالبعيد ، لأن النفس إذا اشتد حرصها على الشىء صارت كل ساعة قبل وقوعه فى غاية البعد ، فتقول : يا غلام ، بادر بالماء فأنا عطشان ، ومثله قوله سبحانه (يا موسى أقبل ولا تخف) (٢) .

---

(١) سورة المائدة آية ٦٧ (٢) سورة القصص آية ٣١

(د) أو للتنبيه على بلادة المنادى ، فكأنه بعيد عن التنبيه لا يسمع ، نحو : تنبه يا أيها الغافل واسمع .

(هـ) أو لانحطاط شأنه ، فكأنه بعيد عن مجلس الحضور ، نحو : من أنت ياهذا ؟

هذا ، وقد نبه البلاغيون أنه كثيراً ما تصحب النداء صيغ الأمر والنهى ، مثل قوله سبحانه (يا أيها الناس اعبدوا ربكم)[1]، وقوله عز من قائل (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله)[2] .

ويقل أن تصحبه الجملة الخبرية نحو قوله عز من قائل (يا عباد لا خوف عليكم اليوم)[3] أو الاستفهامية نحو قوله سبحانه (ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ؟)[4] .

استعمال أدوات النداء فى غير النــــداء :

ذكر القزوينى أن أدوات النداء قد تستعمل فى غير النداء ، كالإغراء ، والاختصاص ، والاستغاثة ، والتعجب ، والتحسر والتحزن ، والندبة .

الإغراء :

الإغراء هو : الحث على لزوم الشىء المرغوب فيه .

وتستعمل فيه صيغة النداء بقصد ترغيب المخاطب فى لزوم المغرى به صورة ، كأن تذكر المغرى به : —

(ا) مفرداً بعد النداء ، مثل قولك لمن أقبل يشكو ويتظلم : يامظلوم .

(ب) أو مكرراً مثل قولك لهذا المخاطب : يا مظلوم يا مظلوم .

(جـ) أو أن تذكره ثم تذكر بعده معطوفا عليه مثيله فى الرغبة ، مثل قولك لمخاطبك السابق : يا مظلوم ومغلوب .

(١) سورة البقرة آية ٢١ .
(٢) سورة الحجرات آية ١ .
(٣) سورة الزخرف آية ٦٨ .
(٤) سورة مريم آية ٤٢ .

(د) أو أن تذكر ثم تذكر بعده جملة تتضمن معناه مثل قولك للمخ السابق : يامظلوم ، اشتك .

فإنك لا تريد بالنداء طلب إقباله حساً أو معنى لحصول هذا الاقبال ، وإنما تريد إغراءه وحثه على زيادة التظلم الذى هو بث الشكوى ، هذا فى حالة الاغراء بشىء مفرد .

وتكون صورتا التكرير والعطف لزيادة تحريك المخاطب على الشكوى، بإظهار التعاطف معه .

أما صورة ذكر الجملة المتضمنة لمعنى المغرى به فتأتى لتبليغ أقصى صور تحريك المخاطب على الشكوى عن طريق أمره بها .

العلاقة بين النداء والإغراء :

ذكر كل من الدسوقى وابن يعقوب أن استعمال صيغة النداء فى الاغراء من قبيل المجاز المرسل ، غير أن الدسوقى[1] قد اختار أن تكون العلاقة هى الاطلاق والتقييد ، بينما ابن يعقوب[2] اختار أن تكون العلاقة هى اللزوم، ذلك أن الاغراء ملزوم للاقبال ، إذ لا معنى لإغراء غير المقبل .

الاختصاص[3]:

الاختصاص هو : إصدار حكم على ضمير – غير الغائب[4] – بعده اسم ظاهر معرفة ، معناه معنى ذلك الضمير ، مع تخصيص هذا الحكم بالمعرفة وقصره عليها .

---

(١) حاشية الدسوقى ٢/٣٣٥ .   (٢) مواهب الفتاح ٢/٣٣٥ .

(٣) استعنت فى دراسة هذا البحث بكتابى شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهرى ٢/١٩٠ – ١٩٢ ، والنحو الوافى ٤/١٢٠ – ١٢٣ .

(٤) يعنى المتكلم والمخاطب فقط .

صور الاسم المختص (الاسم الظاهر المعرفة الواقع بعد الضمير)[1] :

١ — أن يكون معرفاً بأل ، مثل : نحن ـ العرب ـ أسخى من بذل .

٢ — أن يكون مضافاً للمعرف بأل ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم : نحن ـ معاشر الأنبياء ـ لا نورث ، ما تركناه صدقة .

٣ — أن يكون علماً ، مثل : سبحانك الله العظيم .

٤ — أن تكون صورته صورة المنادى ، وحدده النحاة بأن يكون لفظ (أى) للمذكر . مفرداً أو مثنى أو جمعاً ، أو (أية) للمؤنث . مفرداً أو مثنى أو جمعاً كذلك ، ملحقاً به (ها) التنبيهية الزائدة ، وموصوفاً باسم معرف مقرون بأل لازم الرفع[2] بغير بناء ولا إعراب[3] ، مثل قولهم : أنا أفعل كذا أيها الرجل ، أى مختصاً من بين الرجال ، ونحن نفعل كذا أيها القوم ، أى مختصين من بين الأقوام ، واغفر اللهم لنا أيتها العصابة ، أى مختصين من بين العصائب .

ويجوز فى الصورة الأخيرة تأخير المختص به إلى نهاية الجملة ، فيجوز أن

---

(١) الإسم المختص فى الصور الثلاث الأولى يعرب مفعولا به لفعل واجب الحذف مع فاعله ، أما الصورة الرابعة ـ أعنى لفظ (أى) أو (أية) فيبنى على الضم فى محل نصب لذات الفعل الواجب حذفه مع فاعله .

(٢) هذا التحديد خاص بدرسنا ، أما إذا وقع لفظ (أى) أو (أية) منادى فيعتبر نكرة مقصودة ، ومن ثم فيمكن أن يوصف بما ذكرنا ، ويعرب نفس إعراب هذا الباب مثل قوله سبحانه (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له) وقوله عز وجل (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية) ، ويمكن أن يوصف باسم الموصول المبدوء بأل ، وباسم الإشارة كما فى قول طرفة بن العبد :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى ؟

(٣) لأن حركة الرفع هذه هى مجرد حركة ظاهرية صورية لمجاراة (أى) أو (أية) فى الشكل .

تقول ـ مثلا ـ نحن أيها العلماء ـ أحق الناس بخشية الله ، وأن تقول أيضاً : نحن أحق الناس بخشية الله أيها العلماء :

وتعنينا هنا الصورة الأخيرة ، ذلك أن قولنا ـ مثلا ـ أنا ـ أيها الرجل ـ أكرم الضيف خبر يفيد الاختصاص ، وهو مستعمل بصورة النداء تجوزاً حيث إن المراد من (أى) ووصفها مادل عليه ضمير المتكلم السابق عليه ، ولم يرد به المخاطب .

ولا يجوز إظهار حرف النداء هنا لأنه لم يبق فيـــه معنى النداء أصلا لا حقيقة ، كما فى يازيد ، ولا مجازاً ، كما فى المتعجب منه والمندوب ، فإنهما ـ أى هذين الأخيرين ـ منادى دخلهما معنى التعجب والتفجع ، فمعنى : يا الماء ! ، احضر أيها الماء حتى يتعجب منك ، ومعنى : يامحمداه ! ، احضر يامحمد فأنا مشتاق إليك ، فلما لم يبق فى الكلام معنى النداء أصلا كره التصريح بأداته[١].

هذا ، وقد علق الدسوقى على إثارة الخطيب القزوينى لهذا الموضوع ـ يعنى موضوع الاختصاص ـ فقال[٢]: « وأنت خبير بأن هذا خروج عن الموضوع ، إذ كلامنا فى استعمال صيغة النداء كـ (يا) فى غير معناه مجازاً ، وهنا الذى استعمل فى غير معناه الأصلى (أيها الرجل) ، وهو ليس صيغة النداء ـ كما لا يخفى » .

ثم اعتذر عنه فذكر أن شيخه العدوى قرر أن لفظ (أيا) لما كثر استعمالها مع أدوات النداء نزلة منزلة أدواته[٣].

(١) يفيد هذا التعليل أن الاختصاص مغاير النداء ، فهو ليس نداء إلا فى الصورة فقط . وذهب الأخفش إلى أنه منادى ، قال : ولا يمتنع أن ينـادى الإنسان نفسه ، كقول عمر ـ رضى الله عنه ـ كل إنسان أفقـه منك يا عمر ، يقول السبكى : « إذا تأملت ماذكرناه أى حديثه عن آراء العلماء فيه ـ علمت أن الاختصاص على قول الجمهور ليس طلباً ، وعلى رأى الأخفش طلب لأنه نداء » ـ عروس الأفراح ٢/٣٣٧ .

(٢) حاشية الدسوقى ٢/٣٣٥ . (٣) الموضع السابق .

العلاقة بين النداء والاختصاص :

أحسن من شرح ذلك هو الدسوقي حيث قال[1]: « اعلم أنك إذا قلت : يا أيها الرجل ، كانت (يا) لطلب الاقبال ، وأيها منادى مبني على الضم في محل نصب ، والرجل : نعت لأي ، وفي الحقيقة هو المنادى ، و (أي) وصلة لندائه ، ومفيدة لتخصيص المنادى بطلب الاقبال الذي استفيد من (يا) .

« فإذا قلت : أنا أكرم الضيف أيها الرجل كان معناه : أنا أكرم الضيف في حال كوني مختصاً من بين أفراد الرجال بإكرام الضيف ، فقولك : أيها الرجل ، أفاد تخصيص مدلول الرجل بالاكرام الذي نسب لمدلول (أنا) ، وهو المتكلم ، فقولك : أيها الرجل ، بيان لمدلول (أنا) . فأصل الرجل — كما علمت في حال النداء — تخصيص المنادى بطلب الاقبال ، فأطلق عن قيده ، وهو طلب الاقبال ، ثم قيد ذلك التخصيص بما نسب لمدلول الضمير — كالاكرام، فيكون مجازاً مرسلا علاقته الاطلاق والتقييد » .

أوجه التشابه بين الاختصاص والنداء :

إتماماً للفائدة ، أود أن أذكر شيئاً عن أوجه التشابه بين الاختصاص والنداء ، وبادىء ذي بدء أقول : إن هذا الحديث له جانبان : أحدهما نحوي، والآخر بلاغي وقد أحسن عرضهما معاً الشيخ خالد الأزهري ، ونقلهما عنه الدكتور عباس حسن في كتابه (النحو الوافي) ، ونقتطف — هنا — ما يهمنا من ذلك ، فنقول[2] « بين الاختصاص والنداء تشابه في أمور ، وتخالف في أخرى ، فيتشابهان في ثلاثة أمور :

---

(١) الموضع السابق .

(٢) النحو الواضح ٤/١٢٢ — ١٢٤ ، حاشية الدسوقي ٢/٣٣٥ ، شرح التصريح على التوضيح ٢/١٩٠ — ١٩٢ .

أولها : إفادة كل منهما الاختصاص ، وهو فى هذا الباب خاص بالمتكلم أو المخاطب ، وفى باب النداء خاص بالمخاطب .

ثانيها : أن كلا منهما للحاضر (أى المتكلم أو المخاطب) ولا يكون ضمير غائب .

ثالثها : أن الاختصاص يؤدى - بسبب ما فيه من تحديد وإيضاح - إلى تقوية المعنى وتوكيده ، وقد يتحقق هذا فى النداء كذلك أحياناً ، كقولك لمن هو مصغ إليك ، مقبل على حديثك : إن الأمر - يافلان - هو ما فصلته لك .

ويختلفان فى أمور ، بعضها لفظى ، والآخر معنوى ، فاللفظية أشهرها :

١ - أن الاسم المختص لا يذكر معه حرف نداء مطلقاً ، لا لفظاً ، ولا تقديراً .

٢ - أنه لا يكون فى صدر الجملة ، وإنما يكون بين طياتها ، أو فى آخرها نحو : اللهم ساعدنا على النصر - أيها الجنود .

٣ - أنه لا بد أن يسبقه ضمير بمعناه فى المتكلم أو الخطاب - والغالب أن يكون ضمير تكلم - ولا يصح أن يكون ضمير غيبة ولا اسماً ظاهراً .

والمعنوية ، أشهرها :

١ - أن الكلام مع الاختصاص خبر ، ومع النداء إنشاء .

٢ - أن الغرض الأصلى من الاختصاص هو قصر المعنى على الاسم المعرفة ، وتخصيصه من بين أمثاله بما نسب إليه ، وقد يكون الغرض هو الفخر - كما إذا تضمن التخصيص بذلك الحكم الترفع ، مثل قولك : نحن - العرب - أقرى الناس للضيف ، أو التواضع نحو : إنى - أيها النبيث - فقير إلى الله ، أو مجرد التأكيد على مدلول الضمير لزيادة الإيضاح والبيان نحو : أنا - أيها الرجل - أتكلم فيما يتعلق بمصالحى . أما الغرض الأصلى من النداء فهو طلب الإقبال .

الاستغاثة :

تستعمل صيغة النداء مجازا فى الاستغاثة نحو قول الشاعر :

يالرجال ذوى الألباب من نفر ... لا يبرح السفه المردى لهم دينا

فمعناه : أقبلوا علينا ياذوى الألباب لإغاثتنا من نفر اتخذوا السفه ديناً لهم لا يفارقونه ولا يبرحونه .

العلاقة بين الاستغاثه والنداء :

ذكر ابن يعقوب أن استعمال صيغة النداء من قبيل المجاز المرسل ، من استعمال ما للأعم فى الأخص ، ذلك أن صيغة النداء موضوعة لمطلق طلب الاقبال ، فاستعملت فى طلب الاقبال لخصوص الاستغاثة[1] .

التعجب :

تستعمل صيغة النداء على سبيل التعجب فى مقام غرابة الشىء مثل قولك عند مشاعدة ماء كثير فى مكان يخلو منه عادة : يا للماء ! . وقد يقال ذلك أيضا فى مقام كثرة حلاوته أو برودته أو غير ذلك ، فكأنه لغرابة الكثرة المذكورة يدعوه ويستحضره ليتعجب منه .

العلاقة بين النداء والتعجب :

ذكر ابن يعقوب أنها مشابهة المتعجب منه المنادى فى أنه ينبغى الإقبال على كل منهما ، ومعنى هذا أن هذا الاستعمال من قبيل المجاز بالاستعارة[2] .

التحسر والتحزن :

ذكر ابن يعقوب[3] أن استعمال صيغة النداء فى هذا المعنى أكثر

(١) مواهب الفتاح ٣٢٧/٢ . (٢) الموضع السابق .

(٣) الموضع السابق .

ما تكون فى نداء الأطلال والمنازل والمطايا ، مثل قول الشاعر :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى ... وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

وقول الآخر :

أيا منازل سلمى أين سلماك ... من أجل هذا بكينا ها بكيناك(١)

وقول الثالث :

يا ناق جدى فقد أفنت أناتك بى ... صبرى وعمرى وأنساعى وأحلامى(٢)

العلاقة بين النداء والتحسر :

ذكر ابن يعقوب(٣) أن العلاقة بينهما هى المشابهة ، فكل من المنادى والمتحسر عليه ينبغى الاقبال عليه بالخطاب من أجل الاهتمام به ، وامتلاء القلب بشأنه ، وعلى هذا فالمجاز هنا مجاز بالاستعارة .

الندبة :

الندبة هى : نداء المتوجع منه أو المتفجع عليه(٤) ، فالمتوجع منه مثل قولك : يا رأساه ، والمتفجع عليه ، مثل قول الشاعر :

فياقبر معين كيف واريت جوده ... وقد كان منه البر والبحر مترعا

---

(١) أى من أجل عدم وجدان سلمى بكينا على سلمى وبكينا على المنازل .

(٢) الأناة — كقناة — التأنى . والأحلاس : جمع حلس ، وهو كساء يطرح على ظهر البعير ، والأنساع جمع نسع (بكسر النون) وهو ما ينسج عريضا للتصدير ، أى للحزام فى صدر البعير .

(٣) مواهب الفتاح ٣٣٧/٢ .

(٤) مثل الدكتور أحمد حفنى للندبة — فى مقامنا هذا — بقول أبى العلاء :

فوا عجبا كم يدعى الفضل ناقص ... ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل

وهذا خروج من الموضوع — كما قال الدسوقى — فإن الحديث هنا عن استعمال أداة النداء (يا) مثلا فى الندبة ، أما البيت المذكور فأداة الندبة فيه (وا) وهى موضوعة للندبة .

— الدكتور أحمد حفنى أحد الدارسين الجادين لبلاغتنا العربية ، وسنقتطف شيئا من حديثه فى الفصل القادم .

العلاقة بين النداء والندبة :

يخيل إلى أن التحسر والتحزن والتوجع والتفجع معانى متقاربة لاداعى لتشققها والحديث عن كل منها على حدة ، وما ذكره الدسوقى وابن يعقوب يخالفان به القزوينى من قبيل الافراط فى التقسيم والتفريغ ، يؤكد ذلك ضم ابن يعقوب لهذه المعانى فى الحديث عن علاقاتها بمعنى النداء ، بقوله(١) : « التحسر والتحزن - كما فى نداء الأطلال والمطايا ونحو ذلك كنداء المتوجع منه والمتفجع عليه ، والعلاقة فى هذه الأشياء كون كل ينبغى الاقبال عليه بالخطاب كالمنادى ، للاهتمام بها وامتلاء القلب بشأنها » .

صور المعانى بين الأساليب الخبرية والإنشائية

تحدث البلاغيون المتأخرون - وعلى رأسهم أمامهم السكاكى - عن خروج الأساليب الخبرية والإنشائية عن مقتضى الظاهر منها ، فذكروا أن ذلك يكون فى اتجاهين :

الاتجاه الأول : خروج الأسلوب الخبرى لأداء معنى إنشائى ، بمعنى أن يضع الأديب الخبر موضع الإنشاء .

الاتجاه الثانى : خروج الأسلوب الإنشائى لأداء معنى خبرى ، بمعنى أن يضع الأديب الإنشاء موضع الخبر .

كما ذكروا أن أياً من الاتجاهين لا يقام له وزن إلا إذا أتى لاعتبارات بلاغية قصدها الأديب قصداً ورغبة ، وإلا إذا لفت نظر الناقد المتمرس بجيد الكلام فكشف عن حسنه إمتاعاً ولذة ، وآنذاك تكون قد صادفت

---

(١) مواهب الفتاح ٢/٣٣٧ .

البلاغة محلها ، ومن ثم فهى تعطى الأديب المكانة الراقية ، وتهب بيـــانه السحر الحلال .

على أنهم قد نبهوا أيضا أنه ليس بممتنع أن يقع لغير الأديب أمثال هذا الخروج بالأسلوب عن مقتضاه الظاهرى ، لكن دون قصد أو رغبة ، ومن ثم قالوا إنه يجب ألا يقام لذلك وزن على الإطلاق ، لأن غير الأديب البليغ يعرف بما لا يعرف لجمال كلامه سهم غرب ، ورمية من غير رام ، والبلاغة لا تعتنى إلا بالجمال المقصود .

يقول السكاكى فى هذا المقام [١]: «واعلم أن الطالب كثيرا ما يخرج لا على مقتضى الظاهر ، وكذلك الخبر ، فيذكر أحدهما فى موضع الآخر ، ولا يصار إلى ذلك إلا لتوخى نكت ، قلما يتفطن لها من لا يرجع إلى دربة فى نوعنا هذا ، ولا يعض فيه بضرس قاطع ، والكلام بذلك متى صادف متممات البلاغة افتر لك عن السحر الحلال بما شئت .

« ومن المتممات ، ما قد سبق لى (أى السكاكى) ، أن نظم الكلام إذا استحسن من بليغ لا يمتنع أن لا يستحسن مثله من غير البليغ ، وإن اتحد المقام ، إذ لا شبهة فى صحة اختلاف النظم مقبولا وغير مقبول عند اختلاف المقام ، فلابد لحسن الكلام من انطباق له على ما لأجله يساق ، ومن صاحب له عراف بجهات الحسن لا يتخطاها » .

وضع الخبر موضع الإنشاء :

ذكر المتأخرون أنه قد يقصد الإنشاء بصيغة الخبر لمعانى بلاغية يقصدها الأديب ، من ذلك :

---

(١) مفتاح العلوم ٢٣٨ .

١ — معنى التفاؤل :

التفاؤل هو : إدخال السرور على المخاطب ، كأن يقصد المتكلم طلب الشيء ، وصيغة الأمر هي الدالة عليه ، فيعدل عنها إلى صيغة الماضي الدالة على تحقق الوقوع تفاؤلا بتحققه ، مثل قولك لصديقك المسافر ـ داعياً له ـ جنبك الله السوء وأهله ، وعصمك من الزلل والحيرة ، وردك سالما غانماً إن شاء الله . فالمعنى على الدعاء : اللهم جنبك .. اللهم اعصمك .. اللهم ردك... فعبر بالفعل الماضي الدال على تحقق حصول ذلك بقصد التفاؤل .

٢ — إظهار الحرص فى وقوعه :

تستعمل صيغة الخبر ويراد بها الإنشاء عند قصد هذا الغرض فى مقام الدعاء أيضا ـ مثل قولك لمن تودعه فى سفر : رزقنى الله لقاؤك ، أى اللهم ارزقنى لقاءك ، تعدل عن فعل الأمر إلى فعل الماضى ، لأن الطالب لشيء إذا عظمت رغبته فيه كثر تصوره له ، وانتقشت صورته فى خياله فيخيل إليه أن مطلوبه الذى لم يحصل حاصل من زمن مضى ، فيعبر بالماضى المفيد للحصول للدلالة على شدة الحرص فى وقوعه .

ثم يقول القزوينى(١) :

« والدعاء بصيغة الماضى من البليغ (٢) يحتملهما » ، أى يحتمل الغرضين معا ، أو أحدهما ، فمثلا يقول البليغ : رحمك الله ، فيحتمل المعنى أن يريد التفاؤل بوقوع الرحمة للمخاطب قصداً لإدخال السرور عليه ، أو يريد إظهار الحرص فى الوقوع حيث عبر بالمضى لكثرة التصور الناشيء عن كثرة الرغبة قضاء لحق المخاطب حيث كان ينفعه فى هذه المنزلة بالنسبة للمتكلم ، أو يريد كلا الأمرين معا .

(١) تلخيص المفتاح ٢/٣٣٩ .

(٢) لاحظ شرط القزوينى الذى يتفق مع ما ذكرناه من قبل من أن غير البليغ لا يقصد شيئا من النكت البلاغية التى تناسب مقامات الأساليب .

٣ — الاحتراز عن صورة الأمر التي تشعر بالاستعلاء المنافى للأدب :

تستعمل صيغة الخبر ويراد بها الإنشاء لقصد هذا الاحتراز ، مثل قول المريد لشيخه إذا حول عنه وجهه : ينظر المولى إلى ساعة .

٤ — حمل المخاطب على تحصيل المطلوب بسبب أنه لايحب تكذيب المتكلم مثل قول الأديب لصديقه الصدوق الذى لايحب أن يكذبه[1] : يافلان، أنت تأتينا غدا ، مكان : ائتنى غداً ، فكأنك بهذا الأسلوب الخبرى تحمله على إتيانك غداً بألطف وجه ، ليكون كلامك فى صورة الخبر .

والملاحظ أن الغرضين الأخيرين كانا بالفعل المضارع بينما الغرضان الأولان كانا بالفعل الماضى .

هذا ما قاله السكاكى وتلاميذه من بعده ، وأزيد من واقع ماقدمته خلال دراستى عن سيبويه وابن قتيبة من قبل :

استعمال المصدر بمعنى الدعاء خيراً أو شراً :

فمن الدعاء بالخير قوله سبحانه (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب)[2] ، يقول صاحب البحر المحيط[3] : « (طوبى) مبتدأ ، وخبره (لهم) ، فإن كانت علماً لشجرة فى الجنة فلا كلام فى جواز الابتداء، وإن كانت نكرة فسوغ الابتداء بها ما ذهب إليه سيبويه من أنه ذهب بها مذهب الدعاء ، كقولهم : سلام عليك . قال ثعلب : وطوبى على هذا مصدر كما قالوا : سقيا »[4] .

---

(١) أى لايحب المخاطب تكذيب المتكلم لما بينهما من عميق الودة .

(٢) سورة الرعد آية ٢٩ . (٣) البحر المحيط جـ ٣٨٩/٥ ، ٣٩٠

(٤) ذكر صاحب البحر المحيط (جـ ٣٩٠/٥) أن بعضهم خرجه — لفظ طوبى — على النداء بتقدير (ياطوبى لهم وياحسن مآب) فحسن معطوف على المنادى المضاف فى هذه القراءة ، فهذا نداء للتحنين والتشويق ، كما قال (يا أسفى) على الفوت والندبة ، وعلى كلا التقديرين فالكلام من قبيل وضع الخبر موضع الإنشاء .

ومن الدعاء بالشر قول الله عز وجل فى مطلع سورة الخليل إبراهيم ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام (الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، أولئك فى ضلال بعيد)[1] ، يقول صاحب البحر المحيط[2] : «لما تقدم ذكر الظلمات دعا بالهلكة على من لم يخرج منها» ـ أى بقوله الكريم (وويل للكافرين من عذاب شديد) .

ومن أغراض استعمال الخبر بمعنى الإنشاء أيضا : التأكيد على المسارعة لتنفيذ المأمور به مثل قوله سبحانه (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء)[3] يقول الزمخشرى[4] : «فإن قلت : فما معنى الأخبار عنهن بالتربص؟ قلت : هو خبر فى معنى الأمر ، وأصل الكلام : وليتربص المطلقات ، وإخراج الأمر فى صورة الخبر تأكيد للأمر ، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص ، فهو يخبر عنه موجوداً ، ونحوه قولهم فى الدعاء : رحمك الله ، أخرج فى صورة الخبر ثقة بالاستجابة ، كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها ، وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضا فضل تأكيد ، ولو قيل : ويتربص المطلقات ، لم يكن بتلك الوكادة» .

ومن ذلك أيضا قول الله عز وجل (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة)[5] ، يقول الزمخشرى[6] : «وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا بمعنى : ليقيموا ولينفقوا» .

---

(١) سورة إبراهيم الآيات ١ ، ٢ ، ٣

(٢) البحر المحيط جـ ٥/٤٠٤ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٢٨

(٤) الكشاف جـ ١/١٣٧ .

(٥) سورة إبراهيم آية ٣١ .

(٦) الكشاف جـ ٢/٣٠٣ .

وهو فى هذا متأثر بأبى على الذى رأى أن الفعل يقيموا : مضارع بلفظ الخبر ، صرف عن لفظ الأمر ، والمعنى : أقيموا[١] . ولئن كان صاحب البحر قد أورد أن هناك من اعترض على كلام أبى على فقال[٢] : « لو كان مضارعاً بلفظ الخبر ، ومعناه الأمر لبقى على إعرابه بالنون ، كقوله سبحانه (هل أدلكم على تجارة ..... ؟)[٣] ثم قال : (تؤمنون .....) والمعنى : آمنوا » . فإنه قد نقل أيضا أن أبا على رد اعتراضهم بقوله : « لما كان بمعنى الأمر بنى ، يعنى على حذف النون ، لأن المراد : أقيموا ، وهذا كما بنى الاسم المتمكن فى النداء فى قولك : يا زيد ، يعنى على الضمة ، لما شبه بقبل وبعد »[٤] .

ومن أغراض استعمال الخبر بمعنى الإنشاء : المدح والثناء ، ومن ذلك قوله سبحانه (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله)[٥] حيث قال صاحب البحر المحيط فى تحليل معناه[٦] : « هو نفى معناه النهى ، أى ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله ، ومجازه[٧] : أنه لما نهى عن أن يقع الإنفاق إلا لوجه الله حصل الامتثال فلا يقع الإنفاق إلا لابتغاء وجه الله ، فعبر عن النهى بالنفى لهذا المعنى ..... وهو خبر من الله أن نفقتهم - أى نفقة الصحابة رضى الله عنهم ما وقعت إلا على الوجه المطلوب من ابتغاء الله ، فتكون هذه شهادة لهم من الله بذلك ، وتبشيراً بقبولها إذ قصدوا بها وجه الله تعالى ، فخرج هذا الكلام مخرج المدح والثناء » .

---

(١) البحر المحيط جـ ٥/٤٢٦
(٢) الموضع السابق .
(٣) سورة الصف الآيات ١٠ ، ١١ .
(٤) البحر المحيط جـ ٥/٤٢٦ ، ٤٢٧
(٥) سورة البقرة آية ٢٧٢ .
(٦) البحر المحيط جـ ٢/٣٢٧ .
(٧) مجازه : تأويل معناه .

وضع الإنشاء موضع الخبر :

أكثر ماذكره البلاغيون فى استعمال أسلوب الإنشاء بقصد الخبر كان — كما أسلفنا — فى حديثهم عن خروج الأمر عن معناه ، ولكن السكاكى فى حديثه هنا أراد أن يذكرنا بشيء مما مضى ، فتحدث عن بعض الأغراض، لكن بتذوق آخر يناسب هذا المقام ، من ذلك :

١ — إظهار الرضا بالواقع حتى كأنه مطلوب :

يمثل السكاكى لهذا الغرض بقول كثير عزة :

أسيء بنا أو أحسنى لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت

ثم يشرحه قائلا(١) : « فذكر — أى كثير — لفظ الأمر بالإساءة ، ثم عطف عليه بلفظ (أو) الأمر بضد الإساءة تنبيها بذلك على أن ليس المراد بالأمر الإيجاب المانع عن الترك ، لكن المراد هو الإباحة التى تنافى تخيير المخاطب بين أن يفعل وأن لا يفعل ، فاعلا كل ذلك لتوخى إظهار مزيد الرضا بأى ما اختارت فى حقه من الإساءة أو الإحسان »(٢) .

٢ — المبالغة فى بيان عدم الفائدة من الطلب :

وقد ذكر السكاكى هذا الغرض بقوله(٣) : إظهار نفى أن يتفاوت جواب الطلب بتفاوته وقوعاً أو عدم وقوع ، ومثل له بقول القائل : صم أو لا تصم فإنى لا أترك الصيام .

---

(١) مفتاح العلوم ١٣٩

(٢) عند الامعان فى هذا الحديث نجد أنه حديث الإباحة .

(٣) مفتاح العلوم ١٣٩ .

ثم قال : « وعليه قوله تعالى (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم)[١] ، وكذا قوله (أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم)[٢] .

وبالاطلاع على ما كتبه الزمخشري في هذا المقام وجدته يربط بين الآية الكريمة وبيت كثير ، ويتذوقهما بفهم جديد يتفق مع الغرض الذي نحن فيه ، فيقول[٣] : « هو أمر في معنى الخبر ، كقوله تبارك وتعالى (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا)[٤] ، ومعناه لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرها ، ونحوه قوله تعالى (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم)[٥] وقوله ـ(أسيء بنا أو أحسني لا ملومة) ـ أي لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، ولا نلومك أسأت إلينا أم أحسنت .

« فإن قلت : متى يجوز نحو هذا ؟ قلت : إذا دل الكلام عليه كما جاز عكسه في قولك : رحم الله زيداً وغفر له .

« فإن قلت : لم فعل ذلك ؟ قلت : لنكتة فيه ، وهي أن كثيراً كأنه يقول لعزة امتحني لطف محلك عندي ، وقوة محبتي لك ، وعامليني بالإساءة والإحسان ، وانظري هل يتفاوت حالي معك مسيئة كنت أو محسنة ، وفي معناه قول القائل :

---

(١) سورة التوبة آية ٨٠ .

(٢) سورة التوبة آية ٥٣ .

(٣) الكشاف جـ ٢ / ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٤) سورة مريم آية ٧٥ .

(٥) سورة التوبة آية ٨٠ .

أخوك الذى إن قمت بالسيف عامداً
لتضربه لم يستغشك فى الود

وكذلك المعنى أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم ، واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، وانظر هل ترى اختلافاً بين حال الاستغفار وتركه » .

وعبارة الألوسى فى الحديث عن الغرض فى استعمال الأمر بقصد الخبر فى النص الكريم هى(١) « المقصود الأخبار بعدم الفائدة فى ذلك ، وفيه من المبالغة ما فيه » ، وهى جيدة فلذلك آثرناها على عبارة السكاكى(٢) .

٣ ـ الاستهانة بالمخاطب :

أنقل فى هذا المجال حديث الزمخشرى عن الآية الكريمة الواردة على لسان نبى الله الكريم هود ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام (قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون)(٣) الذى يقول فيه(٤) : « فإن قلت : هلا قيل إنى أشهد الله وأشهدكم ؟ قلت : لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت فى معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده . وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب ، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ، وجىء به على لفظ الأمر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه أشهد على أنى لا أحبك تهكماً به واستهانة بحاله »(٥) .

---

(١) روح المعانى ١٠/١٤٧ .
(٢) عند الأمعان فى هذا الحديث نجد أنه حديث التسوية .
(٣) الكشاف ج ٢ ٢٢١ .
(٤) سورة هود آية ٥٤ .
(٥) عند الأمعان فى هذا الحديث نجد أنه حدث الإهانة أو التحقير .

٤ ـ إفادة التعجب :

سبق عرض هــذا الغرض البلاغي في حديث الأمر ، وما قاله السكاكي فيه .

هذا ، وفي مراجعة حديث الأمر الذي أسلفناه يقف القارىء على مزيد من الأغراض البلاغية لوضع الإنشاء موضع الخبر .

الفصل الثالث

الأساليب الإنشائية بين اتجاهين فى العصر الحديث

أسلم المتأخرون المحدثين راية البحث والدرس فى الأساليب الانشائية بعد أن وضعوا قواعد استعمالها ونقدها ، ولما كان أبرز سمـــات العصر الحديث — فيما يخص بحثنا الاطلاع على دراسات آداب الأمم غير العربية وثقافاتها رأى بعض المحدثين اتباع هذه المقاييس ، ومن ثم برزت أفكار جديدة لبحث الأساليب الانشائية ، وحيث إن هذه الأفكار تتجدد وتتنوع بسرعة هائلة تبعاً لتجدد وتنوع مدارسها واتجاهاتها ، فإننا سنقتصر هنا على دراسة أحدث ماهو معروف الآن فى هـــذا المجال ، وهو الدراسات الأسلوبية .

ويقابل هذا الاتجاه اتجاهاً آخر يحافظ على أصالة الفكر العربى ، ويحاول البناء عليه ، فيقتل القواعد السالف ذكرها فيما ، ثم يحاول التوسع فى البحث التطبيقى الذى ظهرت بداياته على أيدى المتأخرين .

ونحن سندرس - الآن - بإيجاز كلا الاتجاهين ، سائلين الله عز وجل التوفيق ، فنقول :

فى دراسة الاتجاه الأول (الجانب النظرى) :

درس الغربيون(١) - حديثا - صور البلاغة عنـــدهم على أنها طرائق

---

(١) انظر كتاب الأستاذ عدنان بن ذريل (اللغة والاسلوب) ص١٠٩ ومابعدها

أو أشكال التعبير ، تنحدر من القواعد العامة المشتركة ، وتهدف إلى إكساب الفكرة رونقا أكثر ، وقوة أكثر ... وهي تارة تتعلق باللفظ الذي يحرفه الاستعمال من معناه الحقيقي إلى معنى مجازي آخر ، وتارة أخرى تتعلق بالجملة التي تؤلف حسب القوانين الطبيعية للكلام ، وأطلقوا على ذلك اسم الدراسات الأسلوبية .

وأصل هذه الدراسات يرجع إلى الفكر اليوناني الذي كان ينظر إلى صور البلاغة على أنها تزيين وتحسين ، كما كان يقسمها إلى صور وألفاظ ، وتضم صور البناء والمجازات ، وإلى صور فكر ، وتضم صور الخيال ، وصور العاطفة ، وصور المحاكة(١) .

ودرس المحدثون(٢) الذين اطلعوا على هذه الأفكار ما أسموه بصور البيان أو صور البلاغة على أنها طرائق متميزة من التعبير ، أو كيفيات لغوية ذات ملامح بارزة تكسب الكتابة الأدبية قوة أكثر ، ورونقا أكثر .

ثم قسموا هذه الصور إلى قسمين : صور تعبير ، وصور تحسين ... وصور التعبير : نحوية ، ووجدانية ، وفكرية ، وصور التحسين : معنوية ، ولفظية .

القسم النحوي ، يضم (صور البناء) النحوية التالية : الحذف ، والتقديم والتأخير ، والقصر ، والفصل والوصل .

والقسم الوجداني ، يضم (الصور الوجدانية) التالية : التعجب ، والتمني ، والدعاء ، والالتفات ، والسخرية .

حيث أشار إلى أن هذه الأفكار للأب كليمان فانسان الفرنسي ، وقد نقلها عنه من كتاب (نظرية التأليف الأدبي) .

(١) من الموضوعات التي ناقشها الفكر اليوناني تحت هذه الصور — فيما نعرفه في بلاغتنا العربية — التكرار ، والحشو ، والمقابلة .

(٢) انظر كتاب (اللغة والبلاغة) للأستاذ عدنان بن ذريل ١٠١ ، ١٠٢ .

والقسم الفكرى ، يضم :

الفكرى العام ، ويدرس التشبيه والتمثيل .

الفكرى والخيالى ، ويدرس الاستعارة ، والصور الرمزية ، والكناية .

وصور التحسين هى إما :

صور تحسين معنوية : وتضم المطابقة، والاعتراض، والتقسيم ، والإيجاز، والإطناب ، والمساواة ، والاستطراد . أو صور تحسين لفظية : وتضم الجناس ، والسجع ، والتكرار ، والترصيع ، والتضمين، ولزوم مالا يلزم .

ويهمنا هنا القسم الوجدانى الذى يضم الصور الوجدانية أو صور العاطفة التى تضم التعجب والتمنى وغيرهما مما ذكر ، والجديد الذى نقلوه عن الثقافة غير العربية فى هذا القسم هو أن :

١ ـ التعجب(١) : يعنى صرخة الفرح ، أو مفاجأة ، وله أنواع من الاستعمال والصيغ عند الغربيين ، نحو : ياعجبى ، ياهول الموقف ، وشايات ، خيانات ، ياللتدهور، ياليوم الشؤم ، ليلة تعيسة . نتيجة بائسة ، عرشق(٢) .

والتعجب طبيعى فى الإنسان ، ويفيد البرح ، أو التنديد ، أو الاستفهام ، لأنه صدى عاطفى للانفعال بشىء والدهشة له ، وبذلك ينتمى إلى نظام العاطفة والانفعال أكبر من انتمائه إلى نظام العقل والتفكير .

ويأتى عادة مع التقرير أو الاستفهام ، يقول عدنان مردم بك متعجبا مع التقرير .

عجبى للشمس عمـا سطرته   حينما جدته ببين واقتراب !

---

(١) اللغة الأسلوب ص ١٠٦ ، واللغة والبلاغة ص ١١٤ .

(٢) أى أنها تكون فى أول الكلام ، أو فى آخره ، كما أنها تتخذ شكل حكمة أو عبرة أو استنتاج ، أو تكون جوابا على خطاب ـ انظر تعليق مؤلف اللغة والأسلوب رقم ٣٤ ص ١١٨ .

ويقول أمين نخلة مع الاستفهام :

ياعجبا ... عمرى أذى كله　　وكيف لم أهدم . ولم أهرم ؟!

٢ ـ التمني[1] : صورة وجدانية مضمونها طلب لأمر محبوب ، وكانوا يقولون ـ أي العرب ـ : إذا كان هذا الأمر المحبوب لا يرجى حصوله سمى الطلب تمنيا ، وإذا كان يرجى حصوله سمى ترجيا .

وفى اللاتينية إذا كان المطلوب شراً سمى لعنا . والترجى فى اللاتينية : الطلب الملهوف ويكون دعاء ، وصلاة ، ويخاطب به الآلهة أو الملوك أو ذوى الحل والعقد نحو : يا إلهى الغفران ، ويامليكى العفو .

٣ ـ الدعاء[2] : صورة وجدانية ، صيغتها الأمر أو النهى ، أى افعل فعل كذا ، أو ليكن كذا ، ولا تفعل كذا ، أو لا يكن كذا . إنه طلب فعل ، أو طلب كف ، عن فعل ، يوجهه عادة من هو أدنى لمن هو أعلى .

(ا) فإذا وجه إلى الله تعالى يكون صلاة ، وابتهالا ، نحو قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم) .

(ب) وإذا وجه إلى الملك ، أو الأمير يكون تودداً ، ورجاء نحو قول المتنبي لسيف الدولة :

أجا الجود أعط الناس ما أنت مالك　　ولا تعطين الناس ما أنا قائل

أو قول مسلم بن الوليد للرشيد :

لا يعدمنك حمى الإسلام من ملك　　أقمت قلتـــه من بعد تأويد

(حـ) وإذا صدر من الند إلى الند سمى التماساً نحو قول امرىء القيس :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل

٤ ـ الالتفات[3] : صورة وجدانية ، هى توظيف خاص للمفوظات

(١) اللغة والأسلوب ص ١٠٧ ، واللغة والبلاغة ص ١١٦ .

(٢) اللغة والبلاغة ص ١١٨ .

(٣) اللغة والبلاغة ص ١٢٠ ، واللغة والأسلوب ص ١٠٦ .

الحديث ، يفسح المجال لتجلي ذات المتكلم ، وحضوريته ، وأيضا ذوات المتلقين وحضوريتهم ... كما يسمح بتوظيف الخبر ومقاصده ، ومنها الكلام في الغيبة ، أو أيضا الإنشاء ومقاصده ، ومنها المخاطبة المباشرة المتلقين بكل لونيات بواعثها وغاياتها .

والالتفات يعني لغويا تغيير وجهته ، وفي الاصطلاح البلاغي : الالتفات إلى آخرين لمحادثتهم ، سواء هم حاضرون ، أو غائبون نحو عمت الرشـــوة البلاد ، وياقوم هذا شقاء[1] .

٥ - السخرية[2] : تعني لغويا الهزء ، وفي الاصطلاح البلاغي هي قول كلام يقصد عكس مدلوله ، على سبيل التعريض أو الانتقاد نحو إنه شجاع ، لقد هرب وعندما تكون لاذعة تسمى تهكما ، ومن هذا كانت صورة وجدانية في قول النقيض عبر قول الواقع . وهي بالعادة ترتكز إلى الحقد ، والتردد ، وأيضا الغمز ، والتعريض . فتبدو أحيانا في لبوس قاتمة ، مريرة نحو قول أعرابية تحث قومها على الثأر :

إن أنتم لم تطلبوا بأخيـــكم	فذروا السلاح ووحشوا بالأبرق
وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا	نقب النساء ، فبئس رهط المرهق

حيث طلب ترك السلاح . وارتداء نقب النساء والتزين بزينتها ، .... هو جد ، ولكن يراد منه التعريض بنقيضه ، أي عدم ترك السلاح وبالتالي الأخذ بالثأر ، أو فهم كالنساء ، أو أخزى حالا .

وتعليقنا على هذا الذي يعتبرونه جديداً أنه من المؤسف أن يعتبر هذا

(١) في نظر جورج غراتي ، الاستفهام والتمني ، والامر ، وخطاب الموتى والجماد من أنواع الالتفات . ويقول أيضا : إن الاستحياء هو شكل إخراجي لخطاب الموتى والجماد ، أي بوضعها في منظر مع إعطائها الكلام وجعلها تتحاور وتتحدث - انظر تعليق المؤلف رقم ٣٣ ص ١١٨ .

(٢) اللغة والأسلوب ص ١٠٧ ، واللغة والبلاغة ص ١٢٢ .

من قبول الثقافة الناضجة حتى يؤخذ فيهم إلى ثقافة عريقة متقدمة مثل ثقافتنا العربية . والشيء الأكثر أسفاً أن أسلوبه ركيك ؛ وحرصت على أن أنقله كما كتبه صاحبه حتى تتضح للقارىء ملامح هذا التجديد لفظاً ومعنى .

ومهما يكن من أمر فإن أصحاب هذا الاتجاه الأسلوبي ليس بوسعهم أن يهدموا حصن الثقافة العربية المنيع ، وإن عملوا جاهدين على إهماله وعدم التفاعل معه ـ كما سترى ذلك عملياً في الجانب التطبيقي .

أما القديم الذي ذكروه عن الثقافة العربية التي من المفروض أن يعرفوها فمعلومات سطحية ساذجة أخجل من أن أنقلها بعد أن ذكرت في الفصلين الماضيين عن حديث هذه الثقافة .

الجانب التطبيقي :

لم أعثر على دراسة تطبيقية تسير على الفكر النظري الذي ذكرناه من قبل ، ولذلك اخترت أن أعرج في هـــذا الجانب على دراسة تطبيقية ذكرها المحدثون المتجهون هذا الاتجاه الأسلوبي مجالها شعر شوقي ، وهي بعنوان (خصائص الأسلوب في الشوقيات) للأستاذ المحاضر محمد الهادي الطرابلسي ، ويبدو أنها أطروحته للحصول على درجة الدكتوره كما هو واضح من حديثه في مقدمتها .

الفصل المعقود لبحث الأساليب الإنشائية في هذه الدراسة يبدأ أولا بإجراء مفاضلة بين هذه الأساليب والأساليب الخبرية فيقول(١) : « إذا كان الخبر يمثل اللغة في جانبها القار ، فإن الإنشاء يمثلها في جانب المتحرك ، فالأساليب الإنشائية طلبية كالأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء ، أم غير طلبية كالتعجب والمدح والذم والقسم ، أبرز مظاهر اللغة التي تعرب عن حيويتها .

(١) خصائص الأسلوب في الشوقيات ٣٤٩ / ٣٥٠ ـ محمد الهادي الطرابلسي ـ منشورات الجامعة التونسية .

ونرى(١) هذه الأساليب معربة عن هذه الحيوية بأربعة عوامل رئيسية ، لاتستغنى عنها أو عن بعضها الأساليب الخبرية ، ولكنها لا تقوم عليها أساساً كما تقوم الأساليب الإنشائية .

أولها : العامل الصوتى : فمن مقومات التراكيب الإنشائية ، وخاصة منها الطلبية : النغمة الصوتية ، فهذه لا تنخفض فى آخرها ، لبقاء الكلام فى حاجة إلى جواب بالقول أو استجابة بالفعل أو تعليق أو ما من شأنه أن يجعل الكلام منفتحاً غير منغلق .

وثانيها : العامل النحوى أو الصرفى : فالتراكيب الإنشائية ترتكز على أدوات خاصة (كالأداة فى الاستفهام أو القسم) أو صيغ معينة تبنى عليها بعض عناصرها (كصيغة الأمر فى الأمر ، أو صيغة ما أفعله أو أفعل به فى التعجب) وتساهم فيها هذه العناصر بأكبر قسط فى تحديد مدلولها .

ثالثها : العامل المعنوى البلاغى : فمن مقومات هـــذه الأساليب ـ فى ظاهرها ـ الترجمة عن الانطباعات العاطفية دون المقررات العقلية ، فهى تعكس أزمة الشعور وحيرة العقل أكثر من حقيقة العلم وصادق الرأى .

رابعها : العامل النفسى المنطقى : فهذه الأساليب تنبىء بقيام حوار ، وقد تفضى إليه وقد لا تفضى ، وبحسب ذلك تتلون معانيها ودلالاتها .

بهذه العوامل تنشط الأساليب الإنشائية مراحل النص إذا داخلته وتعرب أكثر من غيرها من الأساليب عن حاجة الباث إلى مساهمة المتقبل الذى يتحول فيها من متقبل مجرد إلى طرف مشارك(٢) .

---

(١) هذا رأى صاحب الدراسة التى نعرضها ، وأنا أوافق أيضا على رأيه .

(٢) تذكر أن الرضى يرى تقدم الأساليب الإنشائية على الخبرية وجوبا ـ راجع نهاية حديث مقدمة هذا البحث ، وانظر كلام الرضى فى شرحه على الكافية ٢/ ٩١ .

ثم يقول(١) : « والملاحظ أن الحاجة إلى مساهمة المتقبل هي أكثر إلحاحا فيما سماه العرب - موفقين - بالإنشاء الطلبي .

ثم يبدأ الباحث حديثه عن الأساليب الإنشائية الطلبية بالاستفهام ثم بالأمر ويدخل فيه النهي ثم ينتهي بالنداء ، أما التمني فلم يدرسه لأن شعر شوقي لا يعتمده كثيرا - على حد تعبيره .

وسأعرض - الآن - بعض النماذج من دراساته متبعاً ترتيبه .

الاستفهام :

بدأ الباحث حديثه عنه بقوله (٢) : « إن الاستفهام كثير في شعر شوقي وإنه - مع كثرته فيه - لا يكاد يأتي لمعنى الاستخبار ، وهو معناه الأصلي ، إلا في ظاهر التركيب ، فنحن لا نبعد عن الحقيقة الظاهرة إذا اعتبرنا الاستفهام في الأبيات التالية يفيد الاستخبار :

ماذا لقيت من الدو السحيق ، ومن ... قفر يضيق على الساري ويتسع
وهل مررت بأقوام كفطرتهم ... من عهد آدم لا خبث ولا طمع ؟
ومن عجب لغير الله ما سجدوا ... على الفلا ، ولغير الله ما ركعوا
كيف اهتدى لهم الإسلام وانتقلت ... إليهم الصلوات الخمس والجمع ؟

فهذه الأبيات من قصيدة ألقيت في حفل تكريم الرحالة المصري / أحمد حسنين ، بعد رحلته العلمية الشاقة في صحراء ليبيا . لكن الشاعر فيها أقرب إلى الإعجاب والتمجيد منه إلى طلب الخبر .

إن الاستفهام في « الشوقيات » مطلق ، لا يرجى من ورائه جواب ، حتى في مثل هذه الحالة التي كان فيها المستفهم معيناً وحاضراً » .

---

(١) خصائص الأسلوب في الشوقيات ٣٥٠ (٢) الموضع السابق

وأعقب على ذلك فأقول :

١ ـ ألا يعرف صاحب هذا البحث أن هناك تقسيما بلاغياً للاستفهام يفيد أن الاستفهام قسمان : قسم حقيقي يتطلب جواباً ، وقسم مجازى لا يحتاج جوابا حتى يبتعد عن ذكر ذلك ، وحتى يقول فى مطلع كلامه عن الاستفهام : « إنه ـ مع كثرته فيه ـ لا يكاد يأتى لمعنى الاستخبار ، وهو معناه الأصلى ، إلا فى ظاهر التركيب ؟ » .

إن عبارته هذه تشير إلى أنه لا يعرف هذا التقسيم ، يؤكد ذلك قوله فى آخر ما اقتبسناه منه فى النص السابق : « إن الاستفهام فى الشوقيات مطلق لا يرجى من ورائه جواب .... »

وأقول : إنه مع وجود هذه العبارة ، ومحاولة تأكيدها يعرف هذا التقسيم لكنه يتجاهله بدليل ما ذكره بعد ذلك من تحليل بعض أساليب الاستفهام المجازى ـ كما سنذكر بعد قليل .

٢ ـ إن عبارته قبل الأبيات مباشرة ، أعنى قوله (نحن لا نبعد عن الحقيقة الظاهرة إذا اعتبرنا الاستفهام فى الأبيات التالية يفيد الاستخبار) تتناقض مع تعقيبه على الأبيات بقوله (فهذه الأبيات .... الخ) . ذلك أن العبارة الأولى تعنى أن الاستفهام فى الأبيات حقيق ، بينما عبارته الأخيرة تفيد غير ذلك ، بل إنى لألحظ أن العبارة الأخيرة التى علق فيها على الأبيات تتناقض مع نفسها ، ذلك أن لفظ (أقرب) الذى ذكره فيها يشير إلى أن الاستفهام فى الأبيات حقيق وغير حقيق .

٣ ـ إن الباحث محمد الطرابلسى تجاهل الغرض الجزئى للاستفهام فى الأبيات ، وتحدث عن الغرض الأدبى العام لها فذكر أنه الإعجاب والتمجيد ومعلوم أن موضوع حديثه هو الاستفهام فى الأبيات لا الأبيات نفسها ،

فإذا كان لا بد أن يتطرق حديثه إلى الغرض الادبي العام للأبيات فليشرح أولا الغرض الجزئي للاستفهام قائلا : إنه في البيت الاول التعجب من صبر هذا الرحالة العظيم على متابعة رحلته العلمية في هذه اليهماء الوحشة المليئة بالمخاطر ، وفي البيت الثاني التقرير ، أي تقرير وإثبات شيء مما لاقاه هذا الرحالة من كذا و كذا ، وفي البيت الاخير التعجب أيضا من وصول الإسلام إلى أولئك الذين يسكنون عمق هذه الصحراء المقفرة » ثم يصل من خلال هذا كله إلى معنى الإعجاب والتمجيد الذي تهدف إليه الابيات .

وبعـــد :

فإنني لا بد أن أذكر ـ الآن ـ أن للباحث حديثا عن دلالات الاستفهام المجازية ، وإن كان يصيب فيها ويخطىء ، فمن إصابته تحليله حديث الاستفهام الذي خرج إلى اللوم والتقريع في قول شوقي يخاطب اليونان أعداء الترك :

فياقوم ، أين الجيش فيما زعمتم ؟ ... وأين الجواري والدفاع المركب ؟
وأين أمير البأس والعزم والحجى ؟ ... وأين رجاء في الأمير مخيب ؟
وأين نجوم تستبيحون دوسها ؟ ... وأين عصابات لكم تتوثب ؟
وأين الذي قالت لنا الصحف عنكم؟ ... وأسند أهلوها إليكم فأطنبوا ؟
أهذا هو الذود الذي تدعونه ؟ ... ونصر « كريد » والولا والتحبب ؟
أهذا الذي للملك والعرض عندكم ... وللجار إن أعيا على الجار مطلب ؟
أهذا سلاح الفتح والنصر والعلا ؟ ... أهذا مطايا من إلى المجد يركب ؟
أهـــذا الذي للذكر خلب معشر ... على ذكرهم يأتي الزمان ويذهب ؟

حيث قال : « هذا المشهد قسمان : قسم بدأ فيه الاستفهام « بأين » وانحصر التقريع فيه في معنى الاستصغار ، وقسم بدأ فيه الاستفهام بالهمزة ، وقد انحصر التقريع فيه في معنى الاستخفاف ، فآل هكذا كامل المشهد إلى ضرب من الهجاء »[١] .

---

(١) خصائص الأسلوب في الشوقيات ص ٣٥٤ .

ومن خطئه قوله فى تحليل قول شوقى :

فأين النبوغ ؟ وأين العلوم ؟ وأين الفنون وإتقانها ؟
وأين من الخلق حظ البلاد إذا قتل الشيب شبانها ؟
وأين من الربح قسط الرجال إذا كان فى الخلق خسرانها ؟
وأين المعلم ؟ ما خطابه ؟ وأين المدارس ؟ ما شأنها ؟

« هذا الطرب قد يتولد عن نكبة فيتمحض الاستفهام للندب كما فى هذه الأبيات من قصيدة يندد فيها الشاعر بعلامات الفتنة الداخلية فى مصر »[1]، فإن الاستفهام هنا للإنكار .

الأمر :

درس الباحث محمد الطرابلسى الأمر دراسة يغلب عليها الجانب الاحصائى، وأقتطف من حديثه عنه قوله[2] : « الأمر فى الشوقيات يؤدى فى الطوالع[3] دوراً غير الذى يؤديه فى أحشاء القصائد » .

وقوله : « قد لا يصحب أمر الطالع فى الشوقيات أفعال أمر أخرى فيما يليه من أبيات المقدمة ، كما قد يستدعى أمر الطالع أفعال أمر أخرى ، يكون معها مجموعة إنشائية تمثل قسما مستقلا من القصيدة »[4] .

وقوله : « وجدنا فعل الأمر فى الطالع فى ٥٠ قصيدة من قصائد الشوقيات كان فى ٣١ منها فى صدارة الطالع ، وفى ١٩ منها فى حشوه »[5] .

والجدير بالذكر أن القصائد التى قامت طوالعها على الأمر بدأت به أو لم تبدأ تتميز بالطول ، فثلثاها (٣٣ من ٥٠) قصائد تتجاوز كثيراً فى عدد أبياتها معدل عدد الأبيات فى القصيدة عند الشاعر (وهو ٣١) .

(١) المرجع السابق ص ٣٥٢ . (٢) المرجع السابق ص ٣٥٨ .
(٣) يقصد : بدايات القصائد .
(٤) خصائص الأسلوب فى الشوقيات ص ٣٥٨ .
(٥) المرجع السابق ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

فن القصائد الطويلة التى بدأ طوالعها بالأمر .

ــ على قبر نابليون ، ذات ٨٤ بيتا :

قف على كنز بباريس دفين من فريد فى المعانى وثمين

ــ الانقلاب العثمانى ، ذات ٨٠ بيتا .

سل يلدزاً ذات القصور هل جاءها نبأ البدور

ــ تشكيل أنقرة ، ذات ٦٦ بيتاً :

قم ناد « أنقرة » وقل يهنيك ملك بنيت على سيوف بنيك

ــ العلم ، ذات ٦٦ بيتاً :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

ومن القصائد التى تضمنت طوالعها فعل الأمر فى غير الصدارة .

ــ الرحلة إلى الأندلس ، ذات ١٢٠ بيت[1] .

اختلاف النهار والليل ينسى اذكرا لى الصبا وأيام أنسى

ــ انتصار الأتراك ، ذات ٨٨ بيتا :

الله أكبر كم فى الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

ــ وقال يصف . . . ، ذات ٦٠ بيتا :

تلك الطبيعة ، قف بنا ياسارى حتى أريك بديع صنع البارى

فالأمر فى هذا الموطن وسيلة تنشط نفس المتقبل وتنبهه إلى طول نفس الشاعر فى القصيدة ، وأكثر قصائد الشاعر التى غذى الأمر طوالعها اجتماعية (٢٠ من ٥٠)[2] .

---

(١) لاحظ كتابه الأعداد بالأرقام ، ولاحظ فى هذا الموضع بالذات إعراب تمييز العدد ، فجميع ذلك مجاف الصواب فى بحث ينتمى إلى الحقل الأدبى .

(٢) لاحظ عند قراءة هذه الأرقام قوله فى التقديم لها (أكثر) .

وقوله :(١)« أكثر ما أجرى الشاعر الأمر من (وقف) أو (قام) على غرار إجـــراء الأمر فى طوالع القصائد القديمة ، أى فى صدارة الطالع (فى ١٧ حالة من ٢٢ / وقف ١٠ من ١١ ، وقام ٦ من ١١) .

ـ الأمر من (وقف) فى مستهل الطالع :

قف ناج أهرام الجلال ، وناد هل من بناتك مجلس أوناد ؟
قف بالواحظ عند حدك يكفيك فتنة نار خدك
قفوا بالقبور نسائل عمر متى كانت الأرض مثوى القمر ؟
قف حى شبان الحمى قبل الرحيل بقافيه

ـ الأمر من (قام) فى مستهل الطالع :

قم ناد (أنقرة) وقل يهنيك ملك بنيب على سيوف بنيك
قم (سليمان) بساط الريح قاما ملك القوم من الجو الزماما
قم ناج (جلق) وانشد رسم من بانوا
مشت على الرسم أحداث وأزمان
قم ، سابق (الساعة) واسبق وعدها
الأرض ضاقت عنك فاصدع غمدها

« هذا الاستهلال يستدعى للقصيدة جلال القدم ، ويجمع فيما بين جدة الأحداث وعارض المناسبات وأصالة المنهج فى إنشاء الكلام ، جمعاً غير عجيب عند ذوى الأذواق المتغيرة ، محبباً عند من لا ينشط ذوقه إلا بملازمة الأصيل المتعود ، وذاك شأن العربى الخالص » .

وقوله : (٢) « ومن زوايا النظر إلى استخدام فعل الأمر فى الطوالع : هيئة المسند إليه ، من حيث عدده وجنسه ودرجة تعيينه .

(١) خصائص الأسلوب فى الشوقيات ص ٣٦٠ ، ٣٦١ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٦١ - ٣٦٣ (بتصرف) .

أما عدده فهو فى الغالب واحد مفرد فى شعر شوقى (٤٢ من ٥٠) ولم يرد جمعاً إلا فى سبعة طوالع ، كان فى أربعة منها منادى معيناً يحتل صدارة البيت بعد حرف النداء أو بعد حذفه . يليه فعل الأمر فى حشو البيت :

- أيها العمال ، أفنوا العمر كدا واكتسابا
- ياقوم عثمان-والدنيا مداولة تعاونوا بينكم ياقوم عثمانا
- بنى القبط إخوان الدهور رويدكم
هبوه (يسوعاً) فى البرية ثانيا
- بنى مصر ، ارفعوا الغار وحيوا بطل الهند

وكان المسند إليه فى الثلاثة الباقية غير معين بحيث كان فعل الأمر يحتل الصدارة :

- سلوا قلبى غداة سلا وتابا لعل على الجمال له عتابا
- ابتغوا ناصية الشمس مكانا وخذوا القمة علماً وبيانا
- قفوا بالقبور فسائل عمر متى كانت الأرض مثوى القمر

ولم يرد المسند إليه فعل الأمر عند شوقى مثنى إلا فى الطالع التالى :

اختلاف النهار والليل ينسى اذكرا لى الصبا وأيام أنسى

وقلة أثر التثنية كانت تخفف من وطأة القدم فى هـــذا الأسلوب لو أن العرب احتذوا جميعاً حذو امرىء القيس فى أمر المثنى ، ولو لم نجد فى شعر شاعرنا آثاراً لها أخرى فى غير الطوالع من شعره .

إلا أننا ألفينا نزعة خاصة عند الشاعر تتمثل فى خطاب المؤنث ، لكنها محتشمة ، لا تكاد تتجاوز ٤ مظاهر من ٥٠ .

فى خطاب الشمس (أخت يوشع) :

- قفى يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا

فى خطاب النفس (سعاد) :

ـ ضمى قناعك ياسعاد أوارفعى

هذى المحاسن ما خلقن لبرقع

فى خطات مكان (ميت غمر) :

الله يحكم فى المدائن والقرى ياميت غمر خذى القضاء كما جرى

فى خطاب طائر (قرية الوادى) :

بى مثـــل مابك يا قرية الوادى

ناديت ليلى ، فقومى فى الدجى نادى

أما درجة تعيين المسند إليه فعل الأمر والتحقيق فى هويته وإمكانيات رد فعله فهى التى تضبط العلاقة بين الآمر والمأمور ، وتدقق معنى الأمر فى كل حالة ...

وتجدر الإشارة فى هذا الصدد إلى أن أكثر مايرد المسند إليه الأمر فى طوالع الشوقيات غير معين (٣٠ من ٥٠) ، وفى هذه الحالة يرد الأمر غالبا فى صدارة البيت (٢٧ من ٣٠) ، ولنا من الأدلة على ذلك ما يغنى فيما سبق .

« وفى الحالات التى ورد فيها المسند إليه معينا لم تكن درجة تعيينه محددة المأمور عينه بقدر ما كانت مضيئة بعض متعلقاته ، كأن يكون المأمور دالا على موضوع القصيدة كاملة ، ومن ذلك إسناد الأمر إلى الصليب فى قصيدة موضعها الصليب الأحمر » .

وقوله : « وتغلب على الأمر فى غير الطالع ثلاثة معان رئيسية ، يعنينا البحث فيها وربطها بسياقاتها وتعيين خصائصها »[1] .

---

(١) خصائص الأسلوب فى الشوقيات ٣٦٤ – ٣٦٧ (بتصرف) .

(ا) الوعظ فى السياقات الاجتماعية .

فأبرز معنى يأتى له الأمر فى غير الطالع عند شوقى هو معنى الوعظ، ويكاد يختص هذا المعنى بالسياقات الاجتماعية ، وأن أكثر قيامه على الأمر وحده دون النهى ، من ذلك هذا القسم الوعظى من القصيدة التى ندد فيها بانتحار بعض صغار الطلبة إثر سقوطهم فى الامتحانات :

روحوا القلب بلذات الصبا   فكفى الشيب مجالا للكدر
عالجوا الحكمة واستشفوا بها   وانشدوا ماظل منها فى السير
واقرءوا آداب من قبلكم   ربما علم حيا من غبر
واغنموا ما سخر الله لكم   من جمال فى المعانى والصور
واطلبوا للعلم لذات العلم لا   لشهادات وآداب أخر

(ب) الدعاء توسلا .

ويأتى الأمر فى الشوقيات للدعاء ،وذلك خاصة فى خاتمة القصيدة ، فيكون مقروناً بمعنى التوسل المباشر إذا توجه به إلى الخالق ، كتوسله إلى الله بتأييد فى هذه الخاتمة .

يارب قو يدها وشدها   وافتح لها السبل ولاتسدها
وقس لكل خطوة مابعدها   وعن صغيرات الأمور حدها
واصرف إلى جد الشئون جدها   ولاتضع على الضحايا جهدها
واكبح هوى الأنفس واكسر حقدها
واجمع على الأم الرءوم ولدها
واملأ بألبان النبوغ نهدها   ولاتدعها تحى مستبدها

أو يكون مقروناً بالتوسل غير المباشر إذا توجه به إلى الملك ، كما فى قوله:

رب مصر عش وابغ الأرب
لم تزل ليبا ليك ترتقب

مثل صفوها الدهر ما وهب
أحبها لنا عدة الشوب

(ج) تمنى مستحيل فى المستقبل تأكيداً لوقوعه فى الماضى ، فى المراثى :

ويرد الأمر لتمنى مستحيل فى المستقبل تأكيداً لوقوعه أو وقوع مثيله فى فى الماضى ، وهذا يختص بالمراثى فى خطاب المفقودين :

فى رثاء سيد درويش :

أيها الدرويش قم بث الجوى ... واشرح الحب وناج الشهداء
اضرب العود تفه أو تاره ... بالذى تهوى وتنطق ما تشاء
حرك الناى ونح فى غابه ... وتنفس فى الثقوب الصعداء
واسكب العبرة فى آماقه ... من تباريح وشجو وعزاء
واسم بالأرواح وادفعها إلى ... عالم اللطف وأقطار الصفاء

ثم يختتم الباحث محمد الطرابلسى حديثه عن الأمر بقوله[1] :

« فالأمر فى الشوقيات أسلوب لا يعقـــد صلة ولا حواراً بين طرفين نصانيين ، وإنما هو إذا ورد فى الطالع عقد الحوار بين الشاعر والقارىء من حيث الأول يستوقف الثانى وإذا ورد فى غير الطالع عقد « الحوار » بين المعانى الجزئية وغرض القصيدة الرئيسى من حيث إن كلا من المعانى التى يؤديها ينزع إلى الاختصاص بغرض معين » .

(١) خصائص الأسلوب فى الشوقيات ٣٦٧ .

وأعقب على ماذكرت من نصوص فأقول :

إنه يمكن تقسيم هذا الحديث إلى قسمين :

قسم أدبي فى معظمه ، ويشمل حديثه عن الأمر فى مطلع القصيدة من حيث مادته ، ثم من حيث المسند إليه وهيئته وعدده وجنسه ، واستنتاجاته فيه استنتاجات أدبية ، وهى هزيلة فى مجملها ، ومن ثم أعقب عليها قائلا: إن هذا خروج عن البحث البلاغى الجاد لصيغة الأمر وسياقاتها التى تخدم الغرض الأدبى العام الذى بحثه من قبل أثناء حديثه عن الاستفهام .

وقسم بلاغى مناسب لما نحن فيه ، ويشمل حديثه عن الأمر فى غير مطالع القصيدة ، وأقول معقبا على هذا القسم إنه جيد حسن إذا قيس بمقاييس الدراسات الوصفية الحديثة .

النداء :

حديث الباحث محمد الهادى الطرابلسى عن النداء حديث جيد لا غبار عليه . واقتطف منه مايلى(٢) :

« يستخدم شوقى ـ إلى جانب الاستفهام والأمر ـ أسلوب النداء كثيراً ، ويرد النداء فى شعره مثلهما مطلقا لا يقتضى تلبية ، لأن المنادى عنده موضوع فى القصيدة عادة لا طرف ثان مشارك فى بنـــاء الموضوع ، ولذلك لم يكن النداء فى شعره إلا خارجا عن معناه الأصلى .

« ويكاد النداء فى الشوقيات يختص ـ كالأمر ـ بالقصائد الطويلة منها فهو من هذه الناحية أداة تنشيط لنفس المتقبل وتهيئة لطول نفس الشاعر . وكثيراً ما يصحب النداء الأمر فى الطوالع عندما يكون المسند إليه فعل الأمر معيناً نسبيا ـ على ما بينا ـ ويحتل الصدارة عادة ويتأخر عنه فعل الأمر ، فالنداء من أساليب الاستهلال الهامة فى شعر شوقى ، يساهم هو كذلك فى

(١) المرجع السابق ٣٦٧ — ٣٧٠ (بتصرف) .

تصوير أزمة الشاعر فى مقدمة القصيدة تمهيدا لتفصيلها فيما يلى المقدمة من أبيات .

« وقد تكثر النداءات كالاستفهامات أو أفعال الأمر – وتتجمع فتكون أقساما مستقلة فى القصيدة ، إلا أن النداء يختلف عن الاستفهام والأمر من حيث الدور فى بناء القصيدة ، فهو يساهم فى بنية القصيدة الداخلية ، يعين مراحلها أو يفصل فيها موضوعا عن موضوع ، إذ كثيرا ما يتردد فى أشباه الطوالع بينما يساهم الاستفهام والأمر فى بنية القصيدة الخارجية ، ولا يترددان بصفة خاصة فى أشباه الطوالع .

« يشغل النداء أشباه الطوالع كثيرا فى مطولات الشوقيات ، فيرد فى هذه الحالة محصورا فى بيت واحد غير متبوع بنداء آخر مباشرة ، فيكون بمثابة المفتاح الجديد لموضوع جديد ، وتكون المسافات بين أمثاله هى المسافات التى يستغرقها تحليل المواضيع المختلفة فى القصيدة ، مما يخضع البنية الداخلية فى القصيدة الطويلة لشبه إيقاع تخف به وطأة الطول ، وكثيرا ما تتجوهر به أمهات المعانى . وهذا شأن النداء فى كثير من أشباه الطالع التى قامت عليها الهمزية النبوية .

- يا خير من جاء الوجـــود تحية ... من مرسلين إلى الهدى بك جاءوا
- يا أيهـا الأمى حسبك رتبة ... فى العلم أن دانت بك العلمـاء
- بك يا ابن عبد الله قامت سمحة ... بالحق من ملل الهوى غراء
- يا أيهـا المسرى به شرفاً إلى ... ما لا تنـال الشمس والجوزاء
- يا من له عز الشفاعة وحده ... وهو المنزه ماله شفعاء

« فقد خفت وطأة الطول الذى كانت عليه القصيدة إذ بلغت ١٣١ بيت[١] بهذا الترديد ، كما اتضحت مغازى مواضيعها بفضل تنويع المنادى الواحد

(١) تمييز العدد هنا يجب أن يكون منصوبا .

وهو الرسول محمد ، فقد سماه « خير من جاء الوجود » ، و « الأمي » و « ابن عبد الله » و « المسري به » و « من له عز الشفاعة » . وهذه المعاني من أهم ما تركزت عليه القصيدة ، وقد كان النداء في عموم أشباه الطوالع هذه من باب التمجيد الديني .

« لكن شوقي قد يردد النداء ولا ينوع اسم المنادى فيتمحض إذ ذاك[1] شبه الطالع إلى مناجاة[2] تبين تعلق الشاعر بالمسمى قدر تعلقه بالاسم ، أو هو تعلق بالمنادى ذاته قبل التعلق بصفاته .

« من ذلك ترديد ندائه « أبا الهول » في باب التمجيد التاريخي أيضا

- أبا الهول ، طال عليك العصر ... وبلغت في الأرض أقصى العمر
- أبا الهول ، ما ذا وراء البقا ... ء - إذا ما تطاول - غير الضجر ؟
- أبا الهول ، ما أنت بالمعضلا ... ت ؟ لقد ضلت السبل فيك الفكر
أبا الهول ، ويحك لا يستقل ... مع الدهر شيء ولا يحتقر
- أبا الهول ، أنت نديم الزما ... ن ، نجي الأوان ، سمير العصر
- أبا الهول ، لو لم تكن آية ... لكان وقاؤك إحدى العبر

« كما قد يردد النداء وقد تنوع فيه المنادى نفسه ، فيكون في القصيدة شبه التفات من قسم إلى آخر ، وتنبه على إمكانية استقلال كل قسم بنفسه عن القصيدة .

« ومن هذا القبيل أشباه الطوالع التالية :

- يا ابن الذين إذ الحروب تتابعت ... صلوا على حد السيوف وصاموا
- يا بربروس ، على ثراك تحية ... وعلى سميك في البحار سلام
- يا معشر الإسلام ، في أسطولكم ... عز لكم . ووقاية ، وسلام

---

(١) في الأصل (إذ ذاك) ، وهو خطأ متكرر من المؤلف .
(٢) في الأصل (المناجاة) ، وهو خطأ .

« فى الأول خاطب الخليفة العثمانى الحاكم إذ ذاك[1] محمد رشاد الخامس؛ وفى الثانى خاطب البطل العثمانى الفقيد بروس الذى جعلت الحكومة اسمه علماً على أول بارجة فى الأسطول العثمانى، وفى الأخير « التفت » إلى المسلمين قاطبة، وكان النداء فى كل حالة انطلاقة جديدة فى القصيدة نحو موضوع جديد.

« أما إذا كثرت النداءات وتجمعت فكونت أقساماً مستقلة فى القصيدة، فإنه لاتكون لها طرافة خاصة تستدعى التوقف فإنها تأتى إذ ذاك مختلفة المعانى بحسب حقيقة المنادى ونوعه وعدده، وبحسب السياق الذى ترد فيه، تأتى للالتماس والابتهال، وتأتى للتفجع ولغير ذلك من المعانى.

« إن النداء من أساليب الاستهلال الأساسية فى شعر شوقى، يستهل به القسم الجديد فى القصيدة المتعددة الأقسام، وهو بهذا الدور يبرز أزمة الشاعر فى كل مرحلة، ومساهمته فى بنية القصيدة الداخلية أكثر من مساهمته فى بنيتها الخارجية، فهو يحدد مختلف المراحل تحديداً مادياً ومعنوياً فى نفس الوقت، إنه فاصل واصل يخفف وطأة الطول ويجوهر أمهات المعانى » .

في دراسة الاتجاه الثانى :

يهتم هذا الاتجاه بجانبين مهمين متكاملين :

أولها : ربط المفاهيم البلاغيه بعضها ببعض حتى يظهرها متكاملة كما وضعها أصحابها فتبدو مسايرتها لأحدث ما يزعمه المحدثون، وبذلك يقطع على المغرضين فكرة التفرد بكل مفهوم على حدة من أجل اسقاطه وبيان عدم صلاحيته لمسايرة مفاهيم العصر الجديد، وسوف نختار نموذجاً له من كتاب الدكتور/محمد أبو موسى (دلالات التراكيب) .

وثانيهما : بحث المغرضين على الاستفادة مما اطلعوا عليه وعرفوه من الثقافات غير العربية كى يعرفوا واجبهم الأهم وهو تجديد هذا التراث بدل

---

(١) فى الأصل (إذاك)، وهو خطأ قد نبهنا على تكرره عند المؤلف من قبل .

تجديده ، وسوف نختار نموذجاً له من كتاب الدكتور/أحمد حفني (دراسات في البلاغة)

أما عن أهميتهما فإن ذلك راجع إلى كونهما يحافظان على تراثنا الثمين الذي تركه لنا أهل العلم ، وأما عن تكاملهما فإن ذلك راجع إلى كون هذين الجانبين هما جناحا التجديد الأصيل للثقافة العربية .

نموذج الجانب الأول :

يقول الدكتور محمد أبو موسى في الحديث عن المعاني التي ذكرها المتأخرون وقالوا إنها متولدة بمعونة المقام للأساليب الإنشائية عندما لا يراد بها معناها الحقيقي ، متخذاً الأدوات الاستفهامية كمثال يشرح عليه فكرته[1].

« المعاني التي تفيدها هذه الأدوات كثيرة لا يمكن الإحاطة بها ، وإنما يذكر العلماء منها ما يرشد إلى طريقة تفهمها والوعي بها .

« ثم إن هذه المعاني تراها أحياناً تظهر واضحة في حدود الجملة التي وقعت فيها الأداة كقولك : أتهين فلاناً وهو صديقك ؟ فإن ذكر الصداقة مما يرشد إلى وضوح المراد من الاستفهام وأنه توبيخ وإنكار ، وهكذا قول الشاعر .

أأترك إن قلت دراهم خالد زيارته ؟ إني إذاً للئيم

« فإن معنى البيت يرشد إلى أن المراد إنكار ترك الزيارة وأنه لن يكون .

« ومنها ما ترى المعنى فيه لا يشخص لك بأحواله وتمامه إلا إذا راجعت سياقاً طويلاً ترى فيه خيوط المعنى تتولد قبل الاستفهام ، ثم تأتي الأداة وكأنها تلخيص وتركيز .

« وقبل أن نأخذ في بيان ذلك نشير إلى شيء آخر في طبيعة هذه المعاني هو أنها في كثير من صورها سوانح خفية أشبه بالأسرار الغامضة ، تجري في النفس جرياناً خفياً نحسها ولا نستطيع وصفها ، فقولنا ـ مثلا ـ إن هذا الاستفهام يفيد التقرير قول ناقص في كثير من الصور ، لأن ما في هذا الاستفهام

(١) دلالات التركيب ٢٢٨-٢٣٣ .

شيء يختلف عن محض التقرير ، وإن أفاده ، وإلا لكانت وسيلة التقرير هي أداته .

« خذ قوله تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟)(١) ترانا نقول فيه إن الاستفهام للتحقيق أو التقرير ، ولكننا نجد فى (هل) أشياء أخرى بعد ذلك ، ففيها إثارة هذا السؤال الذى يلفت الوجدان إلى التفكير والغوص فى الموقف والبحث فيه عن وجه الصواب ، ثم نجد سلسلة من التداعيات والرؤى تثار فى القلب والخاطر حول هذه الحقيقة . ثم إن هذا السؤال يبقى بقاء كلمة الله يلح على ضمير الإنسان ، وهذا كما ترى شيء غير محض التقرير والتحقيق ومدلول عليه بهل .

« ولأننا لا نستطيع فى كثير من الصور ضبط معنى الاستفهام فى شيء نلجأ إلى ذكر جملة معان حول الاستفهام الواحد ، فنقول – مثلا – فى قوله تعالى (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟)(٢) . إنه إنكار وتوبيخ وعتاب وتعجب ، وهذا التعدد دليل على ما نريد أن نؤكده من أن المعنى الذى يفيده الاستفهام خفى وسانح ومتفلت ، وأننا نحاول السيطرة عليه بمثل هذه الاوصاف الكثيرة الناقصة التى نتوهم أنها تحيط به ولكنها لا نستخرج منه إلا بعض إشارته أولا تصف منه إلا ما يظهر ، وترى ذلك كثيرا فى الاساليب الثرية والسياقات الحية .

« زعمنا أن ما تشيعه أداة الاستفهام أرحب وأدق من أن نحدده تحديدا تاما وأن المعانى التى يشير إليها هى بطبيعتها خفية وهاربة لا نستطيع وصفها بإحاطة وسيطرة ، وهذا ليس بعيدا عن طبيعة اللغة إذ أنهـــا مهما تروى المتكلم فى كلماتها وتراكيبها ، وراجع الاختيار وصقل العبارة فلن تكون هذه العبارة مبينة إبانة كاملة عما أراد أن يبين عنه بها ، وخاصة فى المواقف الحية التى هى بين أعيننا ونحن نتكلم هذا الكلام .

---

(١) سورة الإنسان آية ١ . (٢) سورة العنكبوت آية ٢ .

« ولذلك نجد المتكلم يعمد أحيانا إلى الصوت فيرفعه أو يخفضه أو يوزع علوه وانخفاضه فى تقطعات وتنغيمات معينة يريد بذلك وغيره أن يحمل الأنغام ما أحس أنه تفلت من الكلمات والتراكيب ، بل إنك تراه أحيانا يشير بيده إشارات قصيرة هادئة أو طويلة قوية يحاول أن يبين باليدين ، وهكذا يسخر أحياناً تقاطيع وجهه فيقبض أو يبسط أو يحرك رأسه وماشابه ذلك مما يصاحب النطق ، وهو فى حقيقته كلام غير منطوق .

« فالقول بأن المعانى أكبر من الكلمات وأن الكثير من المشاعر والأفكار يحتبس فى صدور الناس ، ولا تحملها كلماتهم وأشعارهم ممن لا يرتاب فيه من يعرف طبيعة اللغة ، ولو كانت اللغة قادرة على أن تستوعب كل اختلاجة وكل ساعة لما لجأ الإنسان إلى غيرها فى التعبير عن حسه وشعوره ، ولجهل الموسيقى والتصوير والنحت والرقص وغير ذلك من فنون التعبير .

« أشرنا إلى أن بعض مواقع الاستفهام لا تفصح إفصاحاً واضحاً عن المراد إلا بمراجعة سياق أطول . وقد أغرت روح الاختصار بعض الباحثين ومنهم الخطيب القزوينى بأن يقتطع صور الاستفهام من سياقها ويشير إلى معناها إشارات مجملة فيقول(١) : « ثم إن هذه الألفاظ كثيراً ما تستعمل فى معان غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام » .

« منها الاستبطاء نحو كم دعوتك ؟ وعليه قوله تعالى (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟)(٢)، ومنها التعجب نحو قوله تعالى (مالى لا أرى الهدهد ؟ !)(٣) ، ومنها التنبيه على ضلال نحو(٤) (فأين تذهبون؟) .

وهكذا يمضى الخطيب وغيره ، ولا نستطيع أن ندرك معنى الاستبطاء فى قوله تعالى (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟) إلا إذا راجعت السياق الذى راجعه الخطيب وغيره ، والآية تمضى هكذا (أم حسبتم أن تدخلوا الجنه ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء

---

(١) الايضاح جـ ٢/٢٩٠-٢٩٢ .
(٢) سورة البقرة آية ٢١٤ .
(٣) سورة النمل آية ٢٠ .
(٤) سورة التكوير آية ٢٦ .

وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين معه متى نصر الله ؟) تفيد الآية أن المؤمنين لن يدخلوا الجنة إلا بعد الابتلاء والتمحيص ، وتذكر بمثل الذين خلوا من قبلهم وأنهم أزعجوا إزعاجاً شديداً ، ومستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى إن الرسول ، وهو من هو فى الصبر على الشدائد ، والذين آمنوا معه ، أى خلاصة قومه ومحض صحبه استطالوا مدة العذاب واستبطأوا النصر ، وهذا هو أقل قدر من الاحاطة بالسياق معه أن نتبين معنى الاستبطاء فى الشاهد المذكور .

« ويمكنك أن تقترب من النص خطوة ثانية فتسمع منه نغمات أخرى : من ذلك : هذا الاستفهام فى قوله (أم حسبتم) ، وفيه إنكار لهذا الحسبان واستبعاد له وتوبيخ لهم عليه - كما يقول الزمخشرى . ومنه : هذا التخويف والايذان بقرب الابتلاء الذى تفصح عنه كلمة (لما) وإيثارها على (لم) ، ومنه لفظ (المثل) وهو يرد بمعنى القصة الغريبة ، والحال العجيبة التى تسرى بين الناس ، وتغرى بتناقلها كما تسير الأمثال ، ووراء ضرورة أن يصيب هؤلاء من الابتلاء ما أصاب الذين خلوا إشارة إلى أن هذه الكوكبة فى أرض الله تتوارث مواقعها فى الدعوة إلى الله والدفع عن الحق وأن ما تواجهه من أحداث وتحديات تتشابه تشابه الأيام ، وأنه يضيق عليهم ، ويبلغ بهم الحرج والضيق ما يبلغ ، وأنهم فى حاجة دائمة إلى طاقة من الصبر لا تحد حتى تستمر جماعتهم استمرار الزمن ، وفى قوله (مستهم البأساء) فيه أن هذه البأساء تبلغ مبلغ التشكيل والتشخيص حتى كأنها تحس وتمس وأن ما أصابهم من كربها ليس إلا مساً وأن ما يدخر لهم من الابتلاء أعظم من ذلك . وقوله (حتى يقول الرسول) يطوى وراءه ما يطوى من أحداث وصعاب حركت أشدهم ذكاة وأصبرهم على الأمر ، وفى ضوء هذا ندرك معنى الاستبطاء حين ينادى به هذا الرسول ومن هم فى معيته من خلاصة صحبه ، وواضح أن الاستنباط ليس هو كل ما فى هذا الاستفهام وأن الذين مستهم البأساء والضراء وزلزلوا كان فى نفوسهم مع الإحساس باستطالة زمن الشدة شعور الرجاء والأمل وأنه يمكن

أن نقول إنه استبطاء ورجاء وتطلع ملهوف إلى وعد الرحمن بنصرة حزبه ».

نموذج الجانب الثاني .

يقول الدكتور أحمد حوفي في نفس معنى النموذج الأول [١]: «في الإنشاء قد ينكر الأديب ، وقد يتعجب ، وقد ينفي ، ولكننا نرى له وظيفة أهم من أداء هذه المعاني ، فهو يعرض لشعورنا ، ويغرينا بالتفكير ، ويشركنا معه في الرأي والإحساس .

« ولو جرى الكلام على طريقة الخبر دائماً لكان مملا ، يفرض فيه المعبر نفسه على المخاطب دائماً حتى يكاد يلغي شخصيته ووجوده . والمحادثة الشائقة تقوم على المشاركة الخصبة التي يحققها الإنشاء [٢] . فهو تلطف وتقدير لشخصية من تتحدث إليه ، حيث ترغبه في أن يتناول معك الموضوع الذي تعالجه ، وبذلك تبعث الرضا في نفسه وتقوى حاجته إلى التفكير وتخيل المعنى ، وتجعله يقاسمك المعضلة ، لا مجرد سامع يتلقى .

« والبليغ هو الذي لا يجري كلامه على نسق واحد ، وإنما يمزج بين الخبر والإنشاء مزجاً يحدده المقام .

فالخنساء حين قالت :

أعيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندا

أحست بالحزن الثقيل الذي ينقطع معه الدمع ، وضاقت بهذا الجمود . وتصورت عينيها عاجزتين عن الوفاء بحق الحزن على هذا الشهم الكريم .

وهذا الصراع الذي تتوهمه بينها وبين عينيها النجيلتين يشعل الحزن ، وهو منشأ قوة التعبير بالنهي في البيت .

(٢) دراسات في البلاغة ٦١ — ٦٤ .

(٢) يريد الانشاء .

والمتنبي حين قال :

فلا تبلغاه ما أقول فإنه شجاع متى يذكر له الطعن يشتق

يلتمس من رفيقين يتخيلهما ـ على عادة الشعراء ـ أن يكتما عن سيف الدولة ما سمعاه من وصف شجاعته .

وإذا وقفنا فى فهم النهى الأدبى عند حد الالتماس كان هينا ضئيلا ، وإنما هو أداة قوة ، ومبعث تأثير ، واستيفاء لحق المقام فى تصوير المدى الذى وصلت إليه شجاعة سيف الدولة .

وقول الشاعر :

لا تطلبن كريماً بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا

أسلوب أغنى عن الإطالة ، وأكسب معنى الكرم قوة وتفوقاً وفضلا فى إيجاز شامل ، ولفظ قليل يشع إيحاء .

فهل يجدينا إذاً فى اكتناه الأسرار البلاغية الكامنة وراء استعمال النداء والاستفهام والأمر ، وغيرها من صيغ الإنشاء ـ أن نعبر عنها كما عبر علماء المعانى ، فنقول مثلا : إن الشاعر قد استعمل هذه الصيغ خروجاً بها عن الأصل فى استعمالها إلى معان أخرى تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال ؟

« إننا إن فعلنا ذلك قنعنا بالمعانى الجزئية ، وصرفنا النظر عن الصورة الكلية التى تنتظم جوانب متعددة ، وجزئيات تتكامل فى تآلف واتساق ،

لترسم الصورة الشعورية الكاملة التى يتطلبها المقام ويسيطر عليها ، ويوجه تعبيرها وتأثيرها » .

فالأديب حين يريد التعبير عما ينقل إحساسه المرهف إلى القارئ والسامع ، ويتخير من العبارات ما يؤثر به فى نفوسنا ، ويحملنا على أن نعيش تجربته

بوجداننا وشعورنا ، وهو يحس أن الصيغ الخبرية وإن عبرت عن شعوره يعوزها فيض من الصيغ الإنشائية يشد أزرها ، ويقوى أثرها .

فبالإنشاء يقوى الخبر ، وبهما معاً تكتمل الصورة المعبرة المؤثرة . والإنشاء في أساليبه التي تختلف : أمراً ، ونهياً ، ونداء ، واستفهاماً ، وتمنياً - يعتبر أدوات متنوعة ؟ لكل منها لونه الخاص ، وأثره المتميز في في شعور القارىء والسامع .

وإن أردت مزيداً من الإيضاح فارجع إلى المعاني الثانوية التي تخرج إليها أساليب الخبر وأساليب الإنشاء لترى أن من هذه المعاني ما يؤدى بأكثر من صيغة ، وهذا وحده كاف في الاستدلال على أن الصيغ لا تتعدد بتعدد المعاني ، وإنما تتعدد لتحقيق التنوع الذي ينهض بإبراز الألوان المتمايزة التي تتجاوب وأصداء النفوس لدى القارئين والسامعين ، حتى يتمكون من كل أولئك ما يريد الأديب أن يبتكره من صور معبرة مؤثرة .

فالتمني : معنى ثانوي يؤدى بصيغة الأمر ، كقول امرىء القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

ويؤدى بصيغة النهي كقول أبي نواس :

ياناق لا تسأمي أو تبلغي ملكا ... تقبيل راحته والركن سياق

والتوبيخ : يؤدى بصيغة النهي كقول أبي الأسود الدؤلي :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

ويؤدى بصيغة الاستفهام كقول الشاعر :

إلام الخلف بينكم إلاما ؟ ... وهذه الضجة الكبرى علاما ؟

والتسوية : تؤدى بصيغة الأمر كقول المتنبيء :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنود

وتؤدي بصيغة الاستفهام ، كقوله تعالى (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) (١) .

والتحسر : يؤدي بصيغة النداء كقول الشاعر :

أيا قبر معن كيف واريت جوده　　　وقد كان منه البر والبحر مترعا

ويؤدي بصيغة الخبر ، كقول أعرابي يرثي ولده :

ولما دعوت الصبر بعدك والأسى　　　أجاب الأسى طوعا ولم يجب الصبر

فإن ينقطع منك الرجاء فإنه　　　سيبقى عليك الحزن ما بقي الدهر

والتحقير : يؤدي بصيغة النهي . كقول المتنبيء يهجو كافورا

لا تشتر العبد إلا والعصا معه　　　إن العبيد لأنجاس مناكيد

ويؤدي بصيغة الاستفهام ، كقوله أيضا في هجاء كافور :

من أية الطرق يأتي مثلك الكرم　　　أين المحاجم يا كافور والجلم ؟

ومن هنا تدرك بسهولة أن التعبير الأدبي لا يمكن أن يهدف صاحبه إلى إفادة السامعين معنى إفادة ساذجة ، وإنما يبتكر - كما قلنا - من الجمل الخبرية والإنشائية مايعبر به عن إحساسه المرهف ، ملتمساً ماينقل هذا الإحساس إلى نفوسنا ليؤثر فيها تأثيراً يشيع المشاركة الوجدانية بيننا وبينه ، ومن واجب القاريء أن يتابع في يقظة وصحو نشأة المعاني التي يلم بها الأديب ، وأن يرقب تطورها واكتمالها حتى يراها في الصورة التي أرادها لها صاحبها ، وعلى نفس النسق الذي ارتضاه » .

وأقول معقبا :

كلا النموذجين يعالج نقطة واحدة هي ماذكره المتأخرون من المعاني المتولدة بمعونة المقام للأساليب الإنشائية ، وهذه نقطة مهمة جداً طالما استخدمها أصحاب الاتجاه الأول في الطعن على بلاغتنا العربية .

---

(١) سورة الشعراء آية ١٣٦ .

لكن كلا منهما يأخذ جانبه الهام فى هذه المعالجة ، فالباحث الأول يشير إلى ما تجاهله المتجاهلون من ربط حديث البلاغيين عن المعانى المتولدة للأساليب الإنشائية بمفهوم المقام ، ذلك المفهوم البلاغى الرائع الدقيق الذى يقول عنه المحدثون المنصفون الآن[1] : « فكرة المقام هذه هى المركز الذى يدور حول علم الدلالة موصفية فى الوقت الحاضر ، وهو الأساس الذى ينبنى عليه الشق أو الوجه الاجتماعى من وجوه المعنى الثلاثة ، وهو الوجه الذى تتمثل فيه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التى تسود ساعة أداء المقال .

« ومن المعروف أن إجلاء المعنى على المستوى الوظيفى (الصوتى والصرفى والنحوى) وعلى المستوى المعجمى فوق ذلك لا يعطينا إلا معنى المقال أو المعنى الحرفى - كما يسميه النقاد - ، أو معنى ظاهر النص - كما يسميه الأصوليون - ، وهو مع الاعتذار الشديد للظاهرية ، معنى فارغ تماما من محتواه الاجتماعى والتاريخى منعزل تماما عن كل ما يحيط بالنص من القرائن الحاليه .

« والفرق بين ما يسميه الناس « نص القانون » وبين ما يسمونه « روح القانون » هو فرق ما بين الاكتفاء بمعنى « المقال » وبين عـــدم الاكتفاء به والغوص وراء المراد الحقيق للمشرع ، وهو معنى المقام » .

أما الباحث الثانى فيرى أن ينبه القارىء أو الناقد إلى مهمته . فبدل أن يبحث عن قصور ما ذكره المتأخرون عن المعانى الجزئية المرادة من الأساليب الإنشائية أثناء فهمه للعمل الأدبى ، عليه أن يستفيد بهذه المعانى فى محاولة فهم التجربة الشعورية التى يريدها الأديب ، ويقصد أن يعيشها الناس معه بوجدانهم وشعورهم ، وهذا أمر تؤكد عليه ، وتدعو إليه الثقافة الحديثة ، يقول الدكتور مصرى عبد الحميد حنورة مبينا جهد الأديب وجهد القارىء فى أداء العمل

(١) اللغة العربية . معناها ومبناها ٣٣٧ ، ٣٣٨ (بتصرف) .

الأدبي ، بل ومستشهداً على مانحن بصدده من دعوة القارىء إلى أداء واجبه[1] :
« إن المبدع حين يعمل لا يضع أفكاره كيفما اتفق ، بل يبذل فى الواقع جهداً متعدد الأبعاد ، حتى لا يأتى عمله مجرد رسالة إخبارية مباشرة .

والعمل الإبداعى الناتج عن مثل هذا الجهد المتعدد الأبعاد يجىء بحيث يجعل القارىء يعايش فى أثناء قراءته لهـــذا العمل نفس الخبرة التى عاناها الكاتب ... وهذا ما جعل لويز روزنبلات ترى أن على القارىء أو الناقد أن يجتهد لكى يعايش العمل الإبداعى بنفس الطريقة التى عايشه بها المبدع وهو يعمل (حيث) تقول : « فى كل وقت يعايش القارىء عملا من أعمال الفن فهو يعنى من المعانى يخلق شيئاً جديداً . وعملية فهم عمل أدبى تقتضى أساساً إعادة خلق هذا العمل فى محاولة للإمساك تماماً بالإحساسات والمفاهيم المؤلفة ، والتى يتوسل بها المبدع لكى ينقل طريقته فى الإحساس بالحياة . إن على كل فرد أن يخلق تأليفاً جديداً من تلك العناصر بطريقته الخاصة ، ولكن الأمر الجوهرى هو أن على المتلقى أن يبث أحاسيسه النابعة لتمتزج بما يوحى به العمل الأدبى » .

والحمد لله أولا وآخراً ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً .

---

(١) من مقال الدراسة النفسية للإبداع الفنى : منهج وتطبيق د. مصرى عبد الحميد حنورة مجلة فصول - المجلد الأول - العدد الثانى يناير ١٩٨١ (بتصرف) .

أهم مصادر البحث ومراجعه

١ - الابهاج فى شرح المنهاج - على بن عبد الكافى السبكى وولده تاج الدين عبد الوهاب - دار الكتب العلمية (بيروت) .

٢ - الاتقان فى علوم القرآن - جلال الدين السيوطى - عالم الكتب (بيروت) .

٣ - أثر الاختلاف فى القواعد الأصولية فى اختلاف الفقهاء - د/ مصطفى سعيد الخن - مؤسسة الرسالة (بيروت) - ط ٣ (١٩٨٢) .

٤ - الأحكام فى أصول الأحكام - على بن محمد الآمدى الأصولى - تحقيق د/ سيد الجميلى - دار الكتاب العربى .

٥ - أساليب الاستفهام فى القرآن - عبد العليم السيد فودة - نشر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

٦ - الأساليب الانشائية فى النحو العربى - عبد السلام هارون - مكتبة الخانجى بمصر ط ٣ (١٩٧٩) .

٧ - إعراب القرآن (المنسوب إلى الزجاج) - مكى بن أبى طالب القيسى - تحقيق إبراهيم الابيارى - نشر دار الكتاب اللبنانى ط٣(١٩٨٦) .

٨ - الأغانى - أبو الفرج الأصفهانى - الدار التونسية للنشر ط٥(١٩٨٣) .

٩ - البحر المحيط - أبو حيان الأندلسى - دار الفكر ط ٢ (١٩٨٣) .

١٠ - بلاغة القصر - د/ عبد العزيز أبو سريع - ط ١ (مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٨٧) .

١١ - تأويل مشكل القرآن - محمد بن مسلم بن قتيبة - تحقيق السيد أحمد صقر - دار التراث ط ٢ (١٩٧٣) .

١٢ - التبصرة فى أصول الفقه - إبراهيم بن على بن يوسف الفيروزبادى الشيرازى - تحقيق د/ محمد حسين هيتو - دار الفكر (دمشق ١٩٨٠) .

١٣ - تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور - عيسى البابي الحلبي - ط ١ (١٩٦٤) .
١٤ - تفسير النصوص في الفقه الإسلامي - د/ محمد أديب صالح - المكتب الإسلامي بيروت ودمشق - ط ٣ (١٩٨٤) .
١٥ - تفسير أبي السعود : دار إحياء التراث العربي (بيروت) .
١٦ - جامع البيان في تفسير القرآن : محمد بن جرير الطبري، دار المعارف بيروت ١٩٨٦ .
١٧ - الجامع لأحكام القرآن ، محمد بن أحمد القرطبي ، دار الشعب .
١٨ - حاشية السيد الشريف على المطول ، طبع أحمد كامل ١٣٣٠ هـ .
١٩ - الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق محمد على النجار ، دار الهدى (بيروت) .
٢٠ - خصائص الأسلوب في الشوقيات : محمد الهادي الطرابلسي : منشورات الجامعة التونسية (مجلد عدد ٢٠) .
٢١ - دراسات لأسلوب القرآن : محمد عبد الخالق عضيمة ، مطبعة السعادة بمصر ط ١ (١٩٧٢) .
٢٢ - دراسات في البلاغة : د/ أحمد حفني ، ط ١ (دار الطباعة المحمدية ١٩٦٨) .
٢٣ - دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني ، تصحيح الشيخ محمد عبده والشيخ محمد الشنقيطي ، ط ٤ دار المنار ١٩٦٧ .
٢٤ - دلالات التراكيب : د/ محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ط ١ (١٩٧٩)
٢٥ - ديوان أحمد شوقي - توثيق وشرح د/ أحمد محمد الحوفي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر .
٢٦ - ديوان المتنبي : شرح أبي البقاء العكبري ، الطبعة الأخيرة ١٩٧١، تصحيح مصطفى السقا وآخرين .
٢٧ - الرسالة البيانية : الشيخ محمد الصبان ، المطبعة الأميرية ١٣١٥هـ .

٢٨ - روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى : السيد محمود الألوسى ، دار (بيروت) .
٢٩ - زاد المسير فى علم التفسير : عبد الرحمن بن على الجوزى ، المكتب الإسلامى (بيروت ودمشق) ط ٣ (١٩٨٤) .
٣٠ - الاستغناء فى أحـــكام الاستثناء : شهاب الدين القرافى ، تحقيق د/ طه محسن ، مطبعة الإرشاد (بغداد ١٩٨٢) .
٣١ - شرح البدخشى (مناهج العقول) : لشرح منها الوصـول فى علم الأصول ، دار الـكتب العلمية (بيروت ١٩٨٤) .
٣٢ - شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ١٧ ، محمد على صبيح ١٩٨٥ .
٣٣ - شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهرى ، دار إحياء الـكتب العربية (عيسى البابى الحلبى) .
٣٤ - شرح شذور الذهب فى معرفة كلام العرب : ابن هشام الأنصارى (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٣ .
٣٥ شرح طلعة الشمس : عبد الله بن حميد السالمى ، المطبعة الشرقية (سلطنة عمان ط ١) ١٩٨٥ .
٣٦ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : يحيى ابن حمزة العلوى ، دار الـكتب العلمية (بيروت) .
٣٧ - الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية : سليمان ابن عمر العجيلى الشهير بالجمل ، دار إحياء التراث العربى بيروت .
٣٨ - الـكتاب : سيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون ، طبعات مختلفة .
٣٩ - الـكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ، الزمخشرى ، دار المعرفة (بيروت) .
٤٠ - لسان العرب : ابن منظور ، طبعات مختلفة .

٤١ ـ اللغة والأسلوب : عدنان بن ذريل ، اتحاد الكتاب العرب (دمشق ١٩٨٠) .
٤٢ ـ اللغة والبلاغة : عدنان بن ذريل ، اتحاد الكتاب العرب .
٤٣ ـ اللغة العربية : معناها ومبناها، د/ تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ .
٤٤ ـ ما الأدب ؟ : جان بول سارتر (ترجمة د/ محمد غنيمى هلال) ، دار نهضة مصر للطبع والنشر .
٤٥ ـ المجاز العقلى فى البلاغة العربية : د/ عبد العزيز أبو سريع ، مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة ـ جامعة الأزهر .
٤٦ ـ المجاز اللغوى فى البلاغة العربية: د/ عبدالعزيز أبو سريع ، مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة ـ جامعة الأزهر .
٤٧ ـ مدخل إلى المنطق الصورى : د/ محمد مهران ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٧ .
٤٨ ـ مسائل البلاغة فى كتاب الخصائص لابن جنى : د/ عبد المنعم سيد عبد السلام ، مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة ـ جامعة الأزهر .
٤٩ ـ المستصفى من علم الأصول : أبو حامد الغزالى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة مصورة عن المطبعة الأميرية بمصر ١٣٢٢ هـ .
٥٠ ـ معانى الحروف : على بن عيسى الرمانى ، تحقيق د/ عبد الفتاح إسماعيل شلبى ، دار الشروق ط ٢ (١٩٨١) .
٥١ ـ مفتاح العلوم : يوسف بن أبى بكر السكاكى، المطبعة الميمنية .
٥٢ ـ المفردات فى غريب القرآن : الراغب الأصفهانى .
٥٣ المفصل فى علم العربية : جار الله الزمخشرى ، دار الجيل (بيروت ط٢)
٥٤ ـ المقتضب : محمد بن يزيد المبرد ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بتحقيق محمد عبد الخالق عضيمة .

دليل البحث

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٣
تصدير	٥
المقدمة (مدخل إلى الأساليب الانشائية)	٧ - ٣٩
أول من احتضن دراسة الأساليب الانشائية هم علماء الدين	٧
الأساليب الانشائية نوعان رئيسيان : طلبية وغير طلبية	١٠
ما المقصود بدراسة الأساليب الانشائية عند البلاغيين .	١٤
موقف البلاغيين من دراسة الأساليب الإنشائية غير الطلبية	١٩
تمييز الأساليب الانشائية عن الأساليب الخبرية . .	٢٢
اتجاهات ثلاثة فى الفرق بينهما . التحديد العلمى . .	٢٣
التحديد الفنى	٢٩
الواقع الأدبى	٣٨
الفصل الأول : (الأساليب الانشائية فى ظل التاريخ العلمى حتى عهد الإمام عبد القاهر الجرجانى .	٤٠–١٤٢
الدراسات الدينية للأساليب الانشائية	٤٢ - ٧٣
الدراسات العربية للأساليب الانشائية . . .	٧٤
أولا : مقاتل بن سليمان	٧٤
ثانيا : أبو عبيدة	٧٥
ثالثا : سيبويه	٧٨
رابعا : الفراء	١٠٤
خامسا : ابن قتيبة	١٠٩

الموضوع	الصفحة
سادسا : المبرد	١١١
سابعا : ابن جنى	١١٦
ثامنا : الرمانى	١٢٧
تاسعا : القاضى عبد الجبار	١٤٠
الفصل الثانى (الأساليب الإنشائية والتقعيد البلاغى)	١٤٣ - ٣٣٥
أولا : الإمام عبد القاهر الجرجانى	١٤٣
ثانيا : الامام جاد الله الزمخشرى : التعقيد العـــام للأساليب الانشائية	١٥٣
ثالثا : الأساليب الانشائية ومدرسة السكاكى : التقعيد الدقيق للأساليب الانشائية	١٨٢
١ — التمنى	١٨٨
تعريفه ـ مواطنه ـ الفرق بينه وبين الترجى ـ ألفاظه (ليت ـ لعل ـ هو ـ لو)	
استدراكات على المتأخرين	١٩٧
٢ — الاستفهام	٢٠١
معنى الاستفهام الحقيق	٢٠١
الاستفهام بين التصور والتصديق	٢٠٢
الألفاظ التى تستعمل فى الاستفهام عنهما .	
الهمزة	٢٠٣
أم	٢٠٩
الاستفهام بأداة التصديق (هل)	٢١٢
استثمار البلاغيين لخصائص (هل) اللغوية	٢١٣
تحليلات علمية لأقوال البلاغيين فى هذا المجال	٢١٦
بين الهمزة وهل	٢٣٠

الموضوع	الصفحة
الألفاظ التي تستعمل فى الاستفهام عن التصور . .	٢٣١
الحديث عن «ما»	٢٣٢
المطلوب فى السؤال بين «ما» و «هل»	٢٣٦
الحديث عن «من»	٢٣٨
الحديث عن «أي»	٢٤٣
السؤال بين «من» و «أي» عند السكاكى	٢٤٤
الحديث عن «كم»	٢٤٥
الحديث عن «كيف»	٢٤٧
السؤال عن المكان والزمان	٢٤٨
الحديث عن «أنى»	٢٤٩
خلاصة الحديث عن الاستفهام الحقيقى	٢٥١
إجابة الاستفهام الحقيقى	٢٥٤
اختراع السكاكى لفكرة الأسلوب الحكيم . .	٢٥٥
دراسة هـذا الاختراع وتحقيقه علمياً بين المعارضين والمؤيدين	٢٥٧
حديث المعانى المتولدة تفصيلا وبيان طريق تولدها ومقاماتها البلاغية	٢٦٣
معنى الاستبطاء	٢٦٤
معنى الاستبعاد	٢٦٦
معنى التعجب	٢٦٦
معنى التنبيه على ضلال	٢٦٩
معنى الوعيد	٢٧٠
معنى الأمر	٢٧١
معنى التهكم	٢٧٢

الموضوع	الصفحة
معنى التحقير	٢٧٣
معنى التهويل	٢٧٣
معنى التقرير (تحقيق المقصود بهذا المعنى علميا)	٢٧٤
معنى الانكار	٢٨٢
معنى التوبيخ والتعجيب	٢٩٠
معانى أخرى ذكرها السبكى	٢٩١
بيان رأى السبكى فى أن هذه المعانى من قبيل الاستفهام الحقيقى	٢٩٢
٣ — الأمر	٢٩٥
صيغة	٢٩٦
إعداد صيغة الأمر لإفادة معنى غير حقيقى	٢٩٨
المعانى التى تخرج إليها صيغة الأمر	٢٩٩ — ٣١٢
٤ — النهى	٣١٣
تعريفه ـ صيغه	٣١٣
إعداد صيغة النهى لتفيد معنى غير حقيقى	٣١٤
المعانى التى تخرج إليها صيغة النهى	٣١٥
٥ — النداء	٣١٦
نداء البعيد	٣١٦
تنزيل القريب منزلة البعيد فى النداء	٣١٦
نداء القريب	٣١٧
تنزيل البعيد منزلة القريب فى النداء	٣١٧
اختلاف العلماء حول الحرف (يا)	٣١٧
استعمال أدوات النداء فى غير النداء مثل الاغراء	٣١٨
الاختصاص	٣١٩

الموضوع	الصفحة
الاستغاثة	٣٢٤
التعجب	٣٢٤
التحسر والتحزن	٣٢٤
الندبة	٣٢٥
صور المعانى بين الأساليب الخبرية والانشائية . .	٣٢٦
خروج الأسلوب الخبرى لأداء معنى إنشائى . .	٣٢٦
الأغراض البلاغية لهذا الخروج	(بدون رقم)
خروج الأسلوب الانشاء لأداء معنى خبرى . .	٣٢٧
الأغراض البلاغية لهذا الخروج	(بدون رقم)
الفصل الثالث : (الأساليب الانشائية بين اتجاهين فى العصر الحديث)	٣٣٦
اتجاهان لبحث الأساليب الانشائية فى العصر الحديث :	
اتجاه يطبق المقاييس الغربية ، واتجاه يحافظ على الثقافة العربية	٣٣٦
دراسة الاتجاه الأول فى جانبين	٣٣٦
الجانب النظري : تصور المدرسة الأسلوبية لدراسة الأساليب الانشائية	٣٣٦
الجانب التطبيقى : دراسة الأساليب الانشائية فى شعر شوقى	٣٤١
دراسة الاتجاه الثانى فى جانبين	٣٥٦
جانب ربط المفاهيم البلاغية وإبراز تكاملها . .	٣٦٥
جانب تنبيه المحدثين إلى ماغفلوا عنه من الثقافة الحديثة	٣٦٥
أهم مصادر البحث ومراجعه	٣٦٧
دليل البحث	٣٧١

استدراك لبعض أخطاء الطبع

الخطأ	الصواب	ص	س
يقتضى	يقتفى	٨	٤
صدر	صدد	٨	٤
فقد	وقد	١٢	٩
المطلب	الطلب	١٥	١٣
أن	تحذف	١٦	٢١
ببعث	بعث	١٨	١٦
الدنيا	الجملة	١٩	٣
ــــــ	تضاف ذلك أول الصفحة	٢٢	١
أدق	أدل	٢٢	١٠
الجر	الخبر	٢٧	١٦
مقطات الحديث	فقطمات الحديث	٣٠	٧
بعضه بعضها	بعضه بعضا	٣٣	١٢
حين	جهة	٤٧	١
ندى	ترى	٤٩	٥
سقاتلهم الله أنس	قاتلهم الله أنى	٦٢	١١
أنفسك	أنفسكم	٧٢	٩
أتالا	أتاك	٧٤	١٤
لندى	لنرى	٧٨	٣
غير	خير	٨٨	٧
جبت	حسبت	٨٩	١٩
مطلوبا	مطلوب	٩١	١٨

الخطأ	الصواب	ص	س
فاحسن	فاحش	٩٤	٢١
تكون	تلون	٩٦	١٣
الأمور ليخدروه	الأمور ليحذروه	٩٦	٢١

﴿ تم بحمد الله تعالى ﴾